جورج أورويل





1984

رواية

ترجمة: الحارث النبهان

جورج أورويل

1984

رواية

ترجمة: الحارث النبهان



جورج أورويل

1984

الكتاب: 1984
تأليف: جورج أورويل
ترجمة: الحارث محمد النبهان

عدد الصفحات: 312 صفحة

الترقيم الدولي: 978-9938-886-55-9

الطبعة الأولى: 2014

الناشر:

دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان: بيروت - الجناح - مقابل السلطان ابراهيم
سنتر حيدر التجاري - الطابق الثاني - هاتف وفاكس: 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
مصر: القاهرة-وسط البلد -19 عبد السلام عارف (البستان سابقًا)-الدور 8-شقة 82
هاتف: 0020223921332 فاكس: 0020227738932
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com
تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

رقم الناشر: 14/437-63

الفصل الأول

1

كان يوماً بارداً من أيام نيسان. وكانت الساعات تُعلن الواحدة بعد الظهر. انسلّ ونستون سميث سريعاً عبر الأبواب الزجاجية لمبنى النصر دافناً ذقنه في صدره اتقاء الريح اللئيمة. لكن سرعته لم تكن كافيةً لمنع دخول زوبعة من الغبار المندفع معه.

كان مدخل البناء عابقاً برائحة الملفوف المسلوق والبُسط العتيقة. وقد عُلِّق في ناحية من المدخل ملصقٌ أكبر حجماً مما يعلق عادةً على الجدران. لم يكن في هذا الملصق إلا وجه ضخم يبلغ عرضه أكثر من متر: وجه رجلٍ يناهز الخامسة والأربعين له شارب أسود كثيف وملامح وسيمة لا تخلو من الخشونة. اتجه ونستون صوب السلم. لم يحاول استخدام المصعد! ففي أحسن الأوقات، نادراً ما يعمل المصعد. أما الآن، فإن الكهرباء تُقطع معظم ساعات النهار. كان هذا بسبب توفير الطاقة استعداداً لأسبوع الكراهية. كانت الشقة في الدور السابع، فراح ونستون يصعد السلم بطيئاً ويرتاح مرات كثيرة خلال صعوده. إنه في التاسعة والثلاثين من عمره. وهو مصابٌ بقرحة الدوالي فوق كاحله الأيمن. كان ذلك الملصق ذو الوجه الضخم يحدق من الجدار المقابل لباب المصعد عند نهاية كل مرحلة من مراحل

السلم. وكانت الصورة من ذلك النوع المرسوم بحيث يشعر المرء أن العينين تلاحقانه كيفما تحرّك. وأسفل الصورة كُتبت تلك الكلمات: «الأخ الأكبر يراقبك».

في داخل الشقة كان ثمة صوت نَشِط يقرأ قائمة من الأرقام لها علاقة بإنتاج الحديد الخام. وكان الصوت ينبعث من لوحة معدنية متطاولة تشبه مرآة معتمة معلّقة على مساحة من الجدار الأيمن. أدار ونستون مفتاحاً فانخفض الصوت بعض الشيء. لكن الكلمات ظلت مفهومة رغم ذلك. كان خفض صوت هذه الأداة (الشاشة، كما يسمونها) أمراً ممكناً. لكن إغلاقها بالكامل مستحيل! اتجه ونستون إلى النافذة: كان جسمه صغيراً هشاً. وكان الأوفرول الأزرق الذي يرتديه، وهو الزيّ الحزبي الموحد، يزيد ضآلة جسمه بروزاً. كان شعره شديد الشقرة. وكان وجهه محمراً على نحو طبيعي بجلده المخشوشن نتيجة استخدام الصابون الرديء وشفرات الحلاقة المثلّمة، فضلاً عن برد فصل الشتاء الذي شارف على نهايته.

كان العالم يبدو بارداً في الخارج، حتى عبر النافذة المغلقة. وكانت دوامات الريح الصغيرة في الأسفل، في الشارع، تثير زوابع محمّلة بالغبار والأوراق الممزقة. وعلى الرغم من سطوع الشمس وزرقة السماء الكالحة، كان كل شيء يبدو عديم اللون... باستثناء تلك الملصقات المثبتة في كل مكان. كان ذلك الوجه ذو الشارب الأسود يحدق من كل زاوية. كان مُلصَقٌ منها أُلصِقَ على واجهة المبنى المقابل مباشرةً. وكانت الكلمات أسفله تقول: «الأخ الأكبر يراقبك». في حين راحت العينان القاتمتان تحدقان في أعماق عينيّ ونستون. وفي الأسفل، على مستوى الشارع، كان ملصقٌ آخر، ممزقٌ عند زاويته، يخفق في الريح من حين لآخر فيكشف ثم يخفي كلمةً واحدةً عليه: «إشتنج». وفي البعيد البعيد، كانت حوّامة تطير على ارتفاع منخفض بين أسطح المباني. حوّمت الطائرة لحظة قصيرة كأنها ذبابة ضخمة، ثم اندفعت بعيداً من جديد محلّقةً في مسارٍ منحنٍ. كانت تلك دوريةً من دوريات الشرطة. تتلصص عبر النوافذ على الناس. لكنها ما كانت شيئاً يشغل البال! فلا رهبة إلا من شرطة الفكر!

من خلف ظهر ونستون، كان الصوت المنبعث من الشاشة مستمراً في الثرثرة مكرّرًا أرقامًا عن الحديد الخام وعن تجاوز أرقام الخطة الثلاثية التاسعة. كانت الشاشة قادرة على الإرسال والاستقبال في وقت واحد. وكانت قادرةً على التقاط أي صوت صادر عن ونستون إن هو تجاوز حدّ الهمس المنخفض كثيراً. كما كان مراقباً على نحو دائم طالما ظل ضمن مجال رؤية تلك الشاشة. وبطبيعة الحال، ما كان المرء قادراً على معرفة ما إذا كانوا يراقبونه في أي لحظة بعينها. وما كان يمكن إلا التكهّن بدخول شرطة الفكر على هذا الخط أو ذاك، أو بنظام سير هذه العملية، إلا على سبيل التخمين. بل كان يمكن أيضاً تصوّر أنهم يراقبون كل شخص طوال الوقت. على أنهم كانوا قادرين، على أي حال، على الدخول إلى أيّ خط في أيّ وقت أرادوا. وكان على المرء أن يعيش، بل كان يعيش فعلاً، وفق العادة التي أضحت غريزةً، مفترضاً أنهم يسمعون كل صوت يُصدِرُه ويراقبون كل حركة يأتي بها، إلا في الظلام.

ظل ونستون مولياً ظهره إلى الشاشة. كانت تلك الوضعية أكثر أماناً رغم معرفته جيداً بأن الظهر أيضاً يمكن أن يكشف عمّا في نفس المرء. كان مبنى وزارة الحقيقة، مكان عمله، يرتفع أبيض اللون ضخماً على مسافة كيلومترٍ واحد فيعلو فوق المنظر الكئيب. كان يفكر في نفسه بنوعٍ من النفور الغامض، أهذه هي لندن، المدينة الكبرى في القطاع الجوي رقم واحد الذي كان ثالث منطقة من حيث عدد السكان في أوقيانيا؟ حاول ونستون عصر ذهنه ليسترجع بعضاً من ذكريات الطفولة عسى أن تنبئه إن كانت لندن هادئة على الدوام مثلما هي الآن. هل كانت فيها دائماً هذه الامتدادات من بيوت القرن التاسع عشر المتآكلة التي تحيط العوارض الخشبية بجوانبها، وتعلو قطع الورق المقوى نوافذها، وتغطي سقوفها صفائح الحديد المطعّجة، وأسوار حدائقها متداعية سائبة في كل اتجاه؟ هل كانت فيها دائماً تلك الحفر التي أحدثها القصف حيث يزوبع الغبار في الهواء وتنمو شجيرات الصفصاف فوق أكوام الأنقاض؟ وهل كانت فيها دائماً تلك الأماكن حيث أزالت القنابل كل ما كان موجوداً على مساحات واسعة فنشأت

فيها تجمّعات بائسة من مآوٍ خشبية تشبه أقفاص الدجاج؟ لكن محاولة التذكّر عبث! لم يستطع أن يتذكّر شيئاً: لم يتبقّ لديه شيء من طفولته إلا سلسلة صورٍ زاهية من غير أي خلفية... صورٌ غير مفهومة في أكثر الأحيان.

كانت وزارة الحقيقة ـ «وزاحق» بحسب اللغة الجديدة ـ مختلفة اختلافاً صادماً عمّا حولها ضمن مرمى النظر. إنها هيكل هرمي ضخم من الإسمنت الأبيض المتلألئ يعلو مرتفعاً، طبقة بعد أخرى، حتى يبلغ ثلاثمئة مترٍ في الجو. ومن حيث يقف ونستون، كان يمكن أن يقرأ المرء شعارات الحزب الثلاثة مكتوبة على صفحة المبنى البيضاء بأحرف بارزة:

الحرب هي السِّلم

الحرية هي العبودية

الجهل هو القوة

كان في وزارة الحقيقة، على ما يُقال، ثلاثة آلاف غرفة فوق الأرض، ومثلُها تحت الأرض. إن في أنحاء لندن كلها ثلاث عمارات أخرى تماثلها، مظهراً وحجماً. وكان وجود هذه العمارات يُقزِّم المباني التي من حولها كلها تقزيماً تاماً. وكان المرء قادراً على رؤية العمارات الأربع من فوق سطح مبنى النصر. تقع في تلك المباني الأربعة مقرات الوزارات الأربع التي يتشكّل منها جهاز الدولة كله. وزارة الحقيقة التي تعنى بالأنباء والترفيه والتعليم والفنون الجميلة. ووزارة السِّلم المختصّة بالحرب، ووزارة الحُبّ التي ترعى القانون والنظام. ووزارة الوفرة المسؤولة عن الشؤون الاقتصادية. وأما أسماء هذه الوزارات في اللغة الجديدة فهي: (وزاحق، وزاسلم، وزاحب، وزافرة).

كانت وزارة الحُبّ هي الوزارة المرعبة حقاً بين هذه الوزارات كلها. وما كان فيها أي نافذة على الإطلاق. لم يدخل ونستون هذه الوزارة أبداً؛ بل حتى لم يقترب منها أكثر من نصف كيلومتر. كان الدخول إلى ذلك المكان مستحيلاً من غير مهمة رسمية، وذلك عبر متاهة من دروبٍ متشابكةٍ محاطة بالأسلاك الشائكة، والأبواب الفولاذية، ومكامن الرشاشات. بل إن الشوارع المؤدية إلى حدودها الخارجية

كانت مليئة بحرّاس كالحي الوجوه ويرتدون ملابس موحدة سوداء، ويحملون هراوات مطعّمة بالحديد.

استدار ونستون على نحو مفاجئ. وكان وجهه قد اتخذ تعبير التفاؤل الهادئ الذي يُستحسن اتخاذه عند مواجهة الشاشة. عبَر الغرفة إلى المطبخ الصغير. كانت مغادرة الوزارة في هذا الوقت من النهار تعني التضحية بالغداء في مطعم الوزارة. وكان ونستون مدركاً أن ما من طعام في مطبخ منزله إلا قطعة من خبز قاتم اللون لا بد من الاحتفاظ بها من أجل فطور الغد. تناول ونستون عن الرف زجاجة فيها سائل لا يُعرف لونه تحمل لصاقة بيضاء كُتِب عليها «جِن النصر». انبعثت من الزجاجة رائحة أشبه برائحة الزيت تبعث على الغثيان مثل رائحة كحول الأرزّ الصيني. سكب ونستون لنفسه ما يعادل كأساً صغيرة، ثم استعد للصدمة وأفرغها في جوفه دفعة واحدة كما لو أنّها جرعة دواء.

صار وجهه قرمزي اللون على الفور، ونفرت الدموع من عينيه. كانت المادة شبيهة بحمض النتريك. وكان من يبتلعها يشعر بأنه تلقى ضربة على مؤخرة رأسه بهراوة مطاطية. لكن شعور الاحتراق في بطنه تلاشى بعد لحظة وصار العالم يبدو أكثر بهجة من قبل. أخرج ونستون سيجارة من علبة مجعّدة كُتِبَ عليها «سجائر النصر» وحملها في وضعية رأسية من غير أن ينتبه، فتناثر تبغها على الأرض. فسحب سيجارة ثانية لكنه غدا أكثر انتباهاً. مضى إلى غرفة المعيشة فجلس إلى طاولة صغيرة إلى يسار الشاشة. أخرج من درج الطاولة زجاجة حبر وريشة كتابة على حاملها ودفتراً سميكاً كبير الحجم له غلاف رخامي اللون وعقِب أحمر.

لسبب ما، كانت الشاشة الموجودة في غرفة المعيشة تحتل مكاناً غير مألوف. كانت مثبتة على الجدار الطويل قبالة النافذة بدلاً من وضعها في صدر الغرفة حيث يمكن أن تغطي المكان كله مثلما جرت العادة. وإلى أحد جانبيها، كان ثمة مكان خفي غير عميق كان ونستون جالساً فيه الآن. لعلهم أرادوا من هذا الحيّز، عند إنشاء المبنى، أن يكون مكاناً لرفوف الكتب! كان في مقدور ونستون أن يظل خارج مجال رؤية الشاشة إن هو جلس في هذا الملجأ وحرص على أن يكون ضمنه

تماماً. مع أنه كان باستطاعة الجهاز التقاط أيّ صوت يصدر عنه. لكن رؤيته كانت مستحيلة إذا ظل جالساً في هذه الوضعية. لقد كان هذا الشكل غير المألوف للغرفة هو ما أوحى إليه، جزئياً، بما كان موشكاً على فعله في ذلك الوقت.

لكن ذلك الإيحاء كان يأتي أيضاً من الدفتر الذي أخرجه من الدرج قبل قليل. كان دفتراً ذا جمالٍ خاص! كان ورق صفحاته صقيلاً شاحباً فيه شيء من الصّفرة بفعل قِدَمِه... إنه من ذلك النوع الذي توقف إنتاجه منذ أربعين سنة على الأقل. لكنه كان يستطيع تخمين أن الدفتر أقدم من ذلك بكثير. لقد رآه في واجهة متجر صغير زري الحال يبيع سقط المتاع في حيٍّ من الأحياء البائسة في المدينة (ما عاد يذكر اسم ذلك الحي الآن) فاعترته رغبةٌ طاغية ملحّة في امتلاكه. لم يكن يُفترض أن يذهب أعضاء الحزب إلى المتاجر العادية (كانوا يطلقون على تلك المتاجر اسم «السوق الحرة»). لكن التقيد بتلك القاعدة لم يكن دقيقاً بسبب استحالة الحصول على بعض الأشياء بطريقة أخرى، كأربطة الأحذية وشفرات الحلاقة مثلاً. تلفّت ونستون سريعاً ناحية الشارع، في الاتجاهين، ثم دخل سريعاً فاشترى الدفتر بدولارين ونصف. لم يكن لديه في ذلك الوقت غاية محدّدة من شراء هذا الدفتر. وأخفى الدفتر في حقيبته بعناية واتّجه إلى البيت شاعراً بالذنب. كانت حيازة ذلك الدفتر أمراً خطيراً، حتى لو لم يكن قد كُتِب فيه أي شيء بعد.

كان الشيء الذي يهمّ ونستون بفعله هو كتابة مذكراته اليومية. لم يكن هذا أمراً غير مشروع (لا شيء غير قانوني... لأن القوانين ما عادت موجودة أصلاً). لكن كان من المعقول الظن أن عقوبة ذلك، إن اكتُشف، هي الموت أو خمسة وعشرون عاماً في معسكر للأشغال الشاقة على أقل تقدير. وضع ونستون ريشة الكتابة على حاملها ثم مصّها قليلاً ليزيل الشحم عنها. كانت ريشة الكتابة أداة قديمة نادرة الاستخدام، حتى للتوقيع على الأوراق. وكان ونستون قد اشتراها، بشيء من التحايل ومن الصعوبة، لمجرّد إحساسه بأن ذلك الورق الصقيل الشاحب كان يستحق الكتابة عليه بريشة حقيقية وليس الخربشة عليه بقلم حبر عادي. والواقع

هو أن ونستون لم يكن معتاداً على الكتابة اليدوية. فباستثناء كتابة ملاحظات صغيرة، كان يقوم عادة بإملاء كل شيء على «آلة الإملاء». وهو ما كان مستحيلاً بالنسبة لما يريد فعله الآن. غمس الريشة في الحبر ثم تردّد ثانية واحدة. سرت رجفة في أمعائه. لقد كانت الكتابة على الورق فعلاً حاسماً. بدأ الكتابة بأحرف صغيرة متعثرة: الرابع من نيسان، 1984. استند ونستون بظهره إلى الخلف. وتملّكه إحساسٌ بالعجز الكامل. فقبل كل شيء، لم يكن يعرف على وجه اليقين أن هذا العام هو عام 1984 فعلاً. لا بد أنه قريب من ذلك لأن ونستون كان واثقاً تماماً من أنه قد بلغ التاسعة والثلاثين. وهو يعتقد أنه مولود في عام 1944 أو في عام 1945. فالتحديد الدقيق لأي تاريخ مضى عليه سنة أو سنتان أمرٌ مستحيل في هذه الأيام.

لمن عساه يكتب هذه المذكرات؟ خطر هذا السؤال في باله على نحو مفاجئ! من أجل المستقبل، من أجل الذين لم يولدوا بعد! شَرَد ذهنه لحظة في التاريخ غير المؤكد الذي وضعه على الصفحة، ثم خطرت في باله على نحو مفاجئ، مثل صدمة، تلك الكلمة المستخدمة في اللغة الجديدة ... «التفكير المزدوج». وللمرة الأولى، أدرك حجم ما هو مقبل عليه. كيف لك أن تتواصل مع المستقبل؟ إنه أمر مستحيل في حدّ ذاته! فإما أن يكون المستقبل شبيه الحاضر، وهو لن يصغي إليه في تلك الحالة؛ أو أن يكون مختلفاً عنه فتصبح هذه المَشقّة عديمة المعنى.

جلس بعض الوقت محدقاً في الصفحة أمامه ببلادة. تغير ما تبثه الشاشة إلى موسيقى عسكرية صادحة. وكان من الغريب أن ونستون لم يفقد في ما يبدو قدرته على التعبير عن نفسه فحسب، بل نسي أيضاً حتى ما كان يعتزم قوله في الأصل. لقد أنفق الأسابيع الماضية في الاستعداد لهذه اللحظة. ولم يخطر في باله أبداً أنه سوف يحتاج إلى شيء، عدا الشجاعة! أما الكتابة نفسها فسوف تكون سهلة. لم يكن عليه إلا أن ينقل إلى الورق ذلك الحوار المضطرب مع النفس المستمر من غير نهاية، الذي يجري في رأسه منذ سنوات... لكن ذهنه نضب في هذه اللحظة حتى

من ذلك الحوار. بل إن قرحة الدوالي في ساقه راحت تحكه على نحو غير محتمل. لكنه لم يجرؤ على حَكّها خوف أن تلتهب إن هو فعل ذلك. كانت الثواني تمضي تباعاً. وما كان ونستون واعياً لأي شيء، إلا لذلك الفراغ على الصفحة التي أمامه، وللحاجة إلى حكّ جلده فوق الكاحل، ولزعيق الموسيقى، وللدوخة الخفيفة التي سببها الجِن.

وعلى نحو مفاجئ، وجد نفسه يكتب وقد تملّكه ذعر عميق. لم يكن مدركاً ما يكتبه... إلا على نحو ناقص. كان خطه الطفولي الصغير يعلو ثم يهبط في الصفحة. راح يهمل بعض قواعد الكتابة في البداية، ثم انتهى إلى إهمال النقاط أيضاً.

الرابع من نيسان 1984. ذهبت إلى قاعة عرض الأفلام في الليلة الماضية. كلها أفلام عن الحرب. أحدها كان جيداً جداً. كان يتحدث عن قصف سفينة لاجئين في مكانٍ ما في البحر الأبيض المتوسط. سُرّ الجمهور كثيراً بمشهد إطلاق النار على رجل بدين ضخم كان يحاول السباحة مبتعداً عن الطوّافة التي تلاحقه. رأيناه في البداية سابحاً في الماء مثل خنزير البحر. ثم يراه المرء عبر جهاز التسديد في الطائرة. ثم نراه مليئاً بالثقوب وقد صار ماء البحر من حوله وردياً... غرِق على نحو مفاجئ كما لو أن تلك الثقوب قد سمحت بدخول الماء إليه. انفجر الجمهور ضاحكاً عندما غرق. وبعد ذلك يرى المرء قارب نجاة مليئاً بالأطفال، مع طوّافة تحوم فوقه. كان على القارب امرأة في منتصف العمر، لعلها يهودية، جالسة محنية الظهر وبين ذراعيها طفل صغير في الثالثة تقريباً. كان الطفل يصرخ خائفاً ويخبئ رأسه بين ثدييها كأنه يحاول أن يحفر لنفسه مكاناً فيها. راحت المرأة تلفه بذراعيها محاولة تهدئته رغم أنها كانت مزرقّة الوجه من الخوف، هي نفسها. وكانت تحاول تغطيته طيلة الوقت قدر ما تستطيع... وكأن ذراعيها تستطيعان حمايته من الطلقات. في هذه اللحظة ألقت الطوّافة بينهم قنبلة زنة عشرين كيلوغراماً فانبعث وميض مخيف وتحطّم القارب إلى أجزاء صغيرة. ثم جاءت لقطة رائعة لذراع طفلٍ ترتفع، وترتفع، وترتفع، في الهواء لا بد أن الطوّافة تحمل الكاميرا في مقدمتها وتتابع هذه الذراع. وعلا تصفيقٌ حادٌ من

مقاعد الحزب لكن امرأةً جالسةً في الجزء المخصص للعامّة من الناس، راحت تصدر ضجيجاً على نحو مفاجئ وتصرخ قائلة إنه لا يجوز لهم أن يعرضوا هذا أمام الأطفال... لا يجوز أن يُعرضَ هذا أمام الأطفال. واستمرّت تقول ذلك حتى أسكتتها الشرطة... حتى أسكتتها الشرطة... لا أظن أن شيئاً حدث لها فلا أحد يهتم بما تقوله عامة الناس إن ردود أفعال غامة الناس ليست أبداً

وتوقف ونستون عن الكتابة، جزئياً، لأن تقلّصاً أصابه. لم يكن يعرف الشيء الذي جعله يصبّ هذا السيل من الكلام الفارغ. لكن الأمر الغريب هو أن ذكرى مختلفة تماماً انجلت في ذهنه بينما كان يفعل ذلك... انجلت إلى حدٍّ جعلها تبدو كأنها مكتوبة أمامه. كانت هذه الحادثة، هكذا أدرك الآن، هي ما جعله يقرّر العودة إلى البيت على نحو مفاجئ ليبدأ كتابة المذكرات في هذا اليوم.

وقعت الحادثة ذلك الصباح في الوزارة، هذا إذا جاز القول إن شيئاً غير واضح إلى هذا الحد قد وقع.

كانت الساعة الحادية عشرة تقريباً. وكانوا يجرجرون الكراسي في قسم السجلّات حيث يعمل ونستون، فيخرجونها من حجرات العمل ويجمعونها في وسط القاعة قبالة الشاشة الكبيرة استعداداً لدقيقتي الكراهية. كان ونستون يهم باتخاذ مكانه في أحد الصفوف الوسطى عندما دخل الغرفة، على نحو غير منتظر، شخصان يعرفهما بالنظر لكنه لم يتحدث معهما من قبل. كان أحد الشخصين فتاة كثيراً ما يلتقي بها في الممرات. لم يكن يعرف اسمها. لكنه عرف أنها تعمل في قسم القصص. هذا افتراض... لأنه كان يرى يديها متسختين بالزيت أحياناً. وكانت تحمل مفتاحاً للبراغي مما جعله يعتقد أنها تعمل في الميكانيك على إحدى آلات تأليف القصص. كانت فتاة جريئة المظهر تبلغ السابعة والعشرين تقريباً ولها شعر كثيف ووجه منمش وحركات رياضية سريعة. كان وشاح قرمزي ضيق ملفوفاً عدة مرات على خصرها فوق ملابس العمل. كان ذلك الوشاح رمزاً لرابطة الشباب المناهض للجنس. وكان مشدوداً قليلاً على خصرها بحيث يُبرز شكلاً لوركيها. وقد نفر منها ونستون منذ رآها أول مرة. وكان يعرف سبب هذا! كان السبب هو

جو ملاعب الهوكي والحمامات الباردة ونزهات الرفاق والنظافة العقلية العامة التي كانت تحملها كلها معها. كان يكره النساء جميعاً على وجه التقريب، وعلى الأخصّ الشابات الجميلات. لقد كانت النساء دائماً، بل الشابات قبل غيرهن، أكثر الملتزمين بالحزب تزمتاً، أكثر مبتلعي الشعارات، الجواسيس الشباب الذين يتشممون كل ما لا يطابق الأفكار السليمة. لكن هذه الفتاة تحديداً كانت توحي له بأنها أكثر خطراً من معظمهن. لقد ألقت عليه ذات مرة عندما تلاقيا في الممر، نظرةً جانبية شعر بأنها اخترقته فملأه لوهلة رعبٌ أسود. وقد خطرت له فكرة أنها يمكن أن تكون من عملاء شرطة الفكر. كان ذلك مستبعَداً جداً في الحقيقة. لكنه ظل يشعر نحوها بعدم ارتياح خاص كلما صادف وجودها في مكان قريب منه. عدم ارتياح فيه ذعرٌ تخالطه كراهية.

كان الشخص الآخر رجلاً اسمه أوبراين. وهو عضو في الحلقة الداخلية في الحزب يشغل منصباً كبير الأهمية لكنه بعيدٌ إلى درجة أن ونستون ما كانت لديه إلا فكرة ضبابية عنه. سادت مجموعة الأشخاص الموجودين حول تلك الكراسي لحظة من الصمت عندما شاهدوا عضو الحلقة الداخلية في الحزب مقترباً بملابسه السود. كان أوبراين رجلاً ضخماً متين الجسم له رقبة ثخينة ووجه بهيمي فكاهي خشن. لكنه كان يملك نوعاً من السحر على الرغم من مظهره المخيف. كانت لديه عادة تحريك ثم وضع نظارته على أنفه. إنها حركة تجرد المرء من سلاحه... على نحو يصعب تحديده، وعلى نحو متبدلٍ بطريقةٍ غريبة. لعل تلك الحركة كانت تذكر المرء برجل من نبلاء القرن الثامن عشر يقدم علبة السعوط، إن كان لا يزال هناك أحد يفكر مستخدماً هذه التعابير. لعل ونستون كان قد شاهد أوبراين عشرات المرات خلال عشرات السنين تقريباً. كان يشعر بانجذاب عميقٍ نحوه. وما كان ذلك لمجرد التناقض بين هيئة أوبراين المتمدّنة وجسمه الذي يشبه أجسام المصارعين. بل كان في الحقيقة ناتجاً عن اعتقاد سرّي. أو لعله ليس اعتقاداً، بل مجرد أمل بأن تمسّك أوبراين بالأفكار السياسية القويمة لم يكن تمسكاً كاملاً. كان شيء ما في وجهه يوحي له بذلك على نحو لا سبيل إلى مقاومته. لكن، لعل ما

كان ظاهراً على وجهه ليس عدم التمسك بالأفكار القويمة، بل الذكاء فحسب! على أن ذلك الرجل كان له، على أي حال، مظهر من يستطيع المرء أن يكلمه إذا ما أتيح له أن يغافل الشاشة والانفراد به. لم يحدث أبداً أن بذل ونستون أي جهد من أجل التحقّق من هذا الظن: الواقع أنه لم يكن لديه سبيل لأن يفعل هذا. وفي هذه اللحظة، ألقى أوبراين نظرة سريعة إلى ساعة يده فرأى أنها كانت تقارب الحادية عشرة. ومن الواضح أنه قرّر البقاء في قسم السجلات ريثما تنتهي دقيقة الكراهية. جلس أوبراين في الصف نفسه الذي كان فيه ونستون، على مسافة كرسيين منه. وجلست بينهما امرأة صغيرة الحجم ذات شعرٍ بلون الرمل كانت تعمل في الحجرة المجاورة لحجرة ونستون. وأما الفتاة ذات الشعر الداكن فقد كانت خلفه مباشرة.

وفي اللحظة التالية، انبعث صوت مخيف يشبه صوت الطحن، وكأنه صادر عن آلة وحشية فظيعة تعمل من غير تزييت. انفجر ذلك الصوت صادراً عن الشاشة الموجودة في صدر الغرفة. كان صوتاً يجعل المرء يصرّ بأسنانه ويجعل شعر رأسه ينتصب. لقد بدأت الكراهية!

وكما جرت العادة، ظهر على الشاشة وجه إيمانويل غولدشتاين، عدو الشعب. سرت همسات بين الجمهور هنا وهناك. وصدرت عن المرأة الضئيلة ذات الشعر بلون الرمل صرخة خافتة امتزج فيها الخوف بالتقزز. كان غولدشتاين هو المرتدّ المنحرف الذي كان ذات يوم، منذ زمن بعيد (لا يستطيع أحد تذكر متى كان ذلك على وجه التحديد)، واحداً من الشخصيات القيادية في الحزب. وكان في مستوى الأخ الأكبر نفسه تقريباً. ثم شارك في نشاطات ضد الثورة وحُكِم عليه بالموت. ثم فرّ واختفى على نحو غامض. كان برنامج دقيقتَي الكراهية يتغير من يومٍ لآخر، لكنه لم يخلُ يوماً من شخصية غولدشتاين التي كانت دائماً شخصية رئيسية فيه. لقد كان المتآمر الرئيسي، والمدنِّس الأول لنقاء الحزب. وكل ما تبع ذلك من جرائم ضد الحزب، كل الخيانات، وكل أعمال التخريب والهرطقات والانحرافات، كانت نابعة من تعاليمه على نحوٍ مباشر. وقد كان، لا يدري أحدٌ كيف، لا يزال حياً يُفرِّخ المؤامرات: لعله في مكانٍ ما خلف البحار، تحت حماية الأجانب الذين يدفعون له

المال. بل لعله، هكذا كان يُشاع أحياناً، موجودٌ في مخبأ ما في أوقيانيا نفسها!

شعر ونستون بتقلصاتٍ في حجابه الحاجز. لم يكن قادراً على رؤية وجه غولدشتاين من غير مزيجٍ مؤلمٍ من الأحاسيس. كان وجهه وجه يهودي هزيلٍ تكلله هالة كبيرة مشوشة من الشعر الأشيب، وله لحية صغيرة كلحية معزاة ـ وجه ذكي، لكنه مقيت على نحو عميق، مع نوع من السخف الخَرِف في فمه الطويل الذي انتصب عند حافتيه. كان وجهه يشبه وجه خروف. وكان صوته يشبه صوت الخرفان أيضاً. كان غولدشتاين ماضياً في شن هجومه السام المعتاد على عقائد الحزب ـ هجومٌ شديد المبالغة وشديد الانحراف إلى حد يجعل الطفل الصغير قادراً على كشفه، لكنه قابلٌ للتصديق إلى حدٍّ يجعل المرء يمتلئ خوفاً من أن يكون هذا الكلام مقنعاً للأشخاص الآخرين الأقل تنبّهاً منه. لقد كان يكيل الإساءات للأخ الأكبر، ويشجب دكتاتورية الحزب. كان يطالب بالسِّلم الفوري مع أوراسيا. وكان يدعو إلى حرية التعبير، وحرية الصحافة، وحرية الاجتماع، وحرية التفكير. وكان يصيح صياحاً هستيرياً مفاده أن الثورة قد تعرضت للخيانة ـ وهذا كله عبر كلامٍ متصل سريع لا يعدو أن يكون نوعاً من تقليد ساخر للأسلوب الذي اعتاده خطباء الحزب. بل إن كلامه كان يحتوي على كلمات من «اللغة الجديدة»: كان فيه من تلك الكلمات أكثر مما يستخدمه عادةً أي عضوٍ من أعضاء الحزب في حياته الحقيقية. وطيلة ذلك الوقت، حتى لا يكون لدى أي امرئ شكٌّ في حقيقة المؤامرة الواسعة التي كان غولدشتاين منخرطاً فيها، كانت خلفية الشاشة من وراء رأسه تعرض صفوفاً لا نهاية لها من عساكر الجيش الأوراسي ـ صفٌّ بعد صف من رجالٍ ذوي مظهر صلب ووجوه آسيوية لا تعبير فيها. يسيرون حتى تبرز وجوههم على الشاشة ثم يختفون فتحل محلهم صفوفٌ أخرى تماثلهم تمام المماثلة. وكان الوقع الرتيب لخطوات الجنود خلفية لثُغاء غولدشتاين.

قبل أن تمر ثلاثون ثانية على بدء الكراهية، راحت تصدر عن نصف الأشخاص الحاضرين في الغرفة تعابير غضب لا سبيل إلى ضبطه. كان من الصعب جداً احتمال مظهر ذلك الوجه الخروفي الواثق من نفسه على الشاشة ومن خلفه تلك القوة

المرعبة للجيش الأوراسي. بل إن رؤية غولدشتاين، أو حتى التفكير فيه، كانت أمراً يثير الذعر والحَنَق على نحوٍ تلقائي. لقد كان غولدشتاين موضوعاً للكراهية أكثر ثباتاً من أوراسيا أو إيستاسيا. وذلك لأنه عندما تكون أوقيانيا في حربٍ مع واحدةٍ من هاتين القوتين، فإنها تكون في حالة سلمٍ مع الأخرى. لكن الأمر الغريب هو أن تأثير غولدشتاين لم يكن في حالة تراجع على ما يبدو رغم أنه مُحْتَقَرٌ مكروهٌ لدى الجميع، ورغم أن نظرياته كانت تتعرض كل يوم، بل آلاف المرات في اليوم، للدحض والتحطيم والتسخيف على منصات الخطابة والشاشات، وفي الصحف والكتب، وتُعرَض أمام أعين الجميع على أنها قمامةٌ لا قيمة فيها. كان ثمة على الدوام أشخاص مغفّلون جدد ينتظرون أن يقعوا في إغوائه. ولم يكن يومٌ واحد ليمر من غير أن تميط شرطة الفكر اللثام عن جواسيس ومخرِّبين يعملون وفق توجيهاته. لقد كان يدير جيشاً خفياً هائلاً وشبكةً سريةً من المتآمرين الذين كرسوا أنفسهم للإطاحة بالدولة. كان اسمها «الأخوية»، كما يُعتقد أنها تسمي نفسها. وكانت هنالك قصصٌ مهموسةٌ عن كتابٍ مخيف يجمع الهرطقات كلها. كان ذلك كتاب غولدشتاين الذي يُوزَّع سراً هنا وهناك. كان كتاباً من غير عنوان! وكان الناس يشيرون إليه بكلمة «الكتاب» فقط، هذا إن أشار أحدٌ إليه أصلاً! لكن المرء لم يكن ليعرف شيئاً عن هذه الأمور إلا عبر شائعات غامضة. وما كان لأي من أعضاء الحزب العاديين أن يذكر الأخوية أو الكتاب إذا ما استطاع إلى تجنّب ذكرهما سبيلاً.

صارت الكراهية سُعاراً في دقيقتها الثانية. راح الناس يقفزون في أماكنهم صعوداً ونزولاً ويصرخون بأعلى أصواتهم محاولين إغراق صوت الثغاء القادم من الشاشة، الصوت الذي يثير جنونهم. صارت المرأة الضئيلة ذات الشعر بلون الرمل وردية اللون. وكان فمها ينفتح ويغلق مثل سمكة أخرجت من الماء. بل إن وجه أوبراين الثقيل نفسه قد صار أحمر اللون أيضاً. كان جالساً منتصب القامة في مقعده. وكان صدره القوي يرتعد وينتفخ كما لو أنه يغالب موجةً تهاجمه. وأما

الفتاة ذات الشعر القاتم الجالسة خلف ونستون فكانت تصيح «خنزير! خنزير! خنزير!». وأمسكت فجأة بقاموس ثقيل من قواميس اللغة الجديدة فقذفت به الشاشة. اصطدم القاموس بأنف غولدشتاين وارتد عن الشاشة. لكن الصوت ظل متواصلاً من غير انقطاع. وفي لحظة تجلٍّ وجد ونستون نفسه يصيح مع الآخرين ويضرب عنيفاً بكعبيه على ساقي الكرسي. لم يكن الأمر المخيف في دقيقتَي الكراهية هو أن المرء مضطرٌ إلى تمثيل هذا الدور... على العكس تماماً! الشيء المخيف هو أن تفادي لعب ذلك الدور كان مستحيلاً كل الاستحالة. ولم يكن التظاهر بأي شيء ضرورياً بعد انقضاء ثلاثين ثانية فقط! فقد كانت حالةً مُدوِّخةً من الذعر والرغبة في الانتقام، الرغبة في القتل، في التعذيب، في تحطيم ذلك الوجه بمطرقة ثقيلة. كانت هذه الرغبة تتملّك تلك الجماعة من الناس كلها مثلما يفعل تيار كهربائي فتحيل كل واحدٍ منهم إلى معتوهٍ زاعق مكشر، حتى إن كان غير راغبٍ في ذلك. بل إن ذلك الحنق الشديد الذي يحسّه المرء كان شيئاً مجرّداً، عاطفةً غير محدّدة الوجهة يمكن تحويلها من موضوعٍ إلى آخر مثلما يحول المرء لهب المشعل الغازي. وهكذا، كانت كراهية ونستون في لحظة من اللحظات غير موجّهة صوب غولدشتاين على الإطلاق بل، على العكس، ضد الأخ الأكبر والحزب وشرطة الفكر. وفي تلك اللحظات، كان قلبه يميل صوب ذلك الهرطوقي المكروه المتوحّد الظاهر على الشاشة، الحارس الوحيد للحقيقة والعقل في عالمٍ من الأكاذيب. ثم، في اللحظة التالية تماماً، كان ينقلب فيتوحّد مع الناس الذين من حوله بحيث يبدو له كل ما كان يُقال عن غولدشتاين حقيقياً. وفي تلك اللحظات، كان مقته السرّي إزاء الأخ الأكبر ينقلب هياماً يجعله يراه عالياً سامياً لا يطاله شيء... كان يبدو له حامياً لا يهاب، واقفاً كصخرةٍ في وجه جحافل آسيا وفي وجه غولدشتاين، رغم عزلته ورغم أنه لا حول له، ورغم ذلك الشك الذي يحوم حول وجوده نفسه. وكان غولدشتاين يبدو مثل منشدٍ مشؤومٍ قادرٍ، بقوة صوته وحدها، على تدمير

كيان الحضارة. بل كان من الممكن أيضاً، في بعض اللحظات، تحويل كراهية المرء إلى هذه الناحية أو تلك بمحض إرادته أيضاً.

وعلى نحوٍ مفاجئ، بذلك النوع من المجهود العنيف الذي يبذله المرء حتى يرفع رأسه عن الوسادة خلال كابوسٍ من الكوابيس، نجح ونستون في تحويل كراهيته من الوجه الذي على الشاشة إلى الفتاة ذات الشعر القاتم الجالسة خلفه. وانبعثت في ذهنه هلوسات حيّة جميلة. سوف يضربها حتى الموت بهراوةٍ مطاطية قاسية. سيوثقها عاريةً إلى عمودٍ ويمطرها بالسهام مثلما فعلوا بالقديس سيباستيان. سيغتصبها، وسيحزّ حنجرتها في لحظة الذروة. بل إنه أدرك الآن، أكثر من أي وقتٍ مضى، سبب كرهه لها. كان يكرهها لأنها شابة، ولأنها جميلة، ولأنها عازفة عن الجنس، ولأنه كان راغباً في الذهاب إلى الفراش معها، لكنه لن يحظى بذلك قط لأنها تلف خصرها الرشيق الحلو، خصرها الذي يغري بأن تحيطه بذراعك، بذلك الوشاح القرمزي الفظيع... ذلك الرمز العدواني للعفة.

بلغت الكراهية ذروتها. وصار صوت غولدشتاين ثُغاءً فعلياً محضاً. وللحظة، تحوّل وجهه إلى وجه خروف. ثم غاب ذلك الوجه متحوّلاً إلى وجه جنديٍّ أوراسي بدا كأنه يسير مندفعاً، ضخماً، ومخيفاً. كانت بندقيته الآلية تهدر فتبدو كأنها موشكة على أن تثب من الشاشة. حتى إن عدداً من الجالسين في الصف الأول ارتدوا حقاً إلى الخلف في مقاعدهم. لكن، في اللحظة نفسها، تلاشى ذلك الشخص المعتدي وحلّ محلّه وجه الأخ الأكبر بشعره الأسود وشاربه الأسود، مفعماً قوةً وهدوءاً غامضاً... كان ضخماً بحيث يملأ الشاشة كلها... فانبعثت تنهيدة راحةٍ عميقة من كل واحدٍ من الجالسين. لم يسمع أحد ما كان الأخ الأكبر يقوله. كانت تلك مجرّد كلمات تشجيع بسيطة... ذلك النوع من الكلام الذي يُقال في غمرة المعركة من غير كلمات مميّزة، لكنه يعيد الثقة إلى المرء لمجرد أنه قد قيل. وبعد ذلك، راح وجه الأخ الأكبر يخبو ويتلاشى من جديد فتظهر محلّه شعارات الحزب الثلاثة مكتوبة بخط عريض:

الحرب هي السِّلم

الحرية هي العبودية

الجهل هو القوة

لكن وجه الأخ الأكبر بدا غير زائلٍ على الشاشة، لعدة ثوانٍ، وكأن الأثر الذي تركه في عين كل مشاهد كان حيًّا إلى درجةٍ تجعله عصيًا على الزوال الفوري. كانت المرأة ذات الشعر بلون الرمل قد ألقت بنفسها متكئة على مسند المقعد الذي أمامها. وبتمتمةٍ مرتعدةٍ بدت كأنها «يا مخلّصي»، راحت تمد ذراعيها إلى الأمام، صوب الشاشة. ثم دفنت وجهها في كفيها. كان من الواضح أنها تتلو صلاة.

في هذه اللحظة، انفجر الجمع كله في إنشادٍ إيقاعيٍّ بطيءٍ عميق... «الأخ الأكبر!»... «الأخ الأكبر!»... وعلا الهتاف مرةً بعد مرة، بطيئاً جداً، مع وقفةٍ طويلة بين المرّة والأخرى، ومع صوت همهمةٍ ثقيل بربريٍّ على نحوٍ غريب، وفي خلفيته شيءٌ يشبه وقع أقدامٍ عارية وقرع طبولٍ نابضة. لعل ذلك استمر نحو ثلاثين ثانية. كانت تلك لازمةً تُسمَع غالباً في لحظات طغيان المشاعر. كانت، في جزءٍ منها، نوعاً من النشيد الموجّه إلى حكمة الأخ الأكبر وجلال شأنه، لكنها كانت فوق ذلك نوعاً من التنويم المغناطيسي الذاتي، إغراقاً متعمداً للوعي عن طريق ذلك الصوت الإيقاعي. شعر ونستون ببرودةٍ في أحشائه. لم يكن قادراً على الامتناع عن المشاركة في هذا الهذيان الجماعي خلال دقيقتَي الكراهية. لكن هذا الإنشاد دون البشري لكلمات «الأخ الأكبر!»... «الأخ الأكبر!»... كان يملأه رعباً على الدوام. كان ينشد مع الآخرين بطبيعة الحال: من المستحيل أن يفعل غير هذا! أن يضبط المرء مشاعره، وأن يسيطر على تعابير وجهه، وأن يفعل كل ما يفعله الآخرون... كان هذا كلّه نوعاً من أنواع رد الفعل الغريزي! لكنْ، ثمة لحظة، ثانيتان فقط، كان يمكن لتعابير عينيه خلالها أن تفضحه. وفي تلك اللحظة ذاتها، حدث أمرٌ ذو معنى... إن كان قد حدث فعلاً!

التقت عيناه بعيني أوبراين في تلك اللحظة. كان أوبراين قد انتصب واقفاً. وكان يهم بإعادة نظارتيه إلى أنفه بعد أن نزعها، بحركته المميزة تلك. التقت عيناهما جزءاً من ثانية فحسب. وخلال الزمن الذي استغرقه حدوث ذلك أدرك

ونستون الأمر ـ نعم، لقد عرف! عرف أن أوبراين كان يفكّر مثلما كان يفكّر هو نفسه. سرت بينهما رسالةٌ لا سبيل إلى عدم ملاحظتها. وكأن ذهن كل منهما قد انفتح على ذهن الآخر لحظةً فتدفقت الأفكار بينهما عبر عيونهما. وبدا أن أوبراين يقول له: «أنا معك. أعرف تماماً ما تشعر به. أعرف كل شيء عن قرفك وكرهك وازدرائك. لكن، لا تقلق! إنني إلى جانبك!». ثم اختفت لمعة الفطنة تلك، وعاد وجه أوبراين عصيًّا على القراءة مثل وجوه الآخرين.

كان هذا كل شيء! وما كان ونستون موقناً إن كان الأمر قد حدث فعلاً. ليس لحادثةٍ من هذا النوع أي ذيول! وما كان لها أن تفعل شيئاً إلا أن تُبقي حية في نفسه تلك القناعة، أو الأمل، بأن ثمة آخرين غيره يعادون الحزب أيضاً. لعل تلك الإشاعات عن المؤامرات السرّية واسعة النطاق كانت صحيحةً. ولعل «الأخوية» كانت موجودةً حقاً! كان من المستحيل، رغم الاعتقالات والاعترافات والإعدامات التي لا تنتهي، أن يتأكد المرء من أن «الأخوية» أسطورة فحسب. كان يصدّق هذا أحياناً، ولا يصدّقه أحياناً أخرى. لم يكن لديه دليل، اللهم إلّا لمحاتٍ عابرة يمكن أن تعني شيئاً ويمكن ألا تعني شيئاً: نتفٌ من كلامٍ يسمعه المرء عَرَضاً، وخربشاتٌ خافتة على جدران المراحيض... بل حتى إنه يمكن أن يحدث في بعض الأحيان، عندما يتلاقى غريبان، أن تبدر حركةُ يدٍ صغيرةٍ تبدو كأنها إشارة تدل على تعارفٍ ما. كان الأمر تخميناً كلّه... من الممكن تماماً أنه قد تخيّل كلّ شيء! عاد إلى حجرة عمله من غير أن ينظر إلى أوبراين مرةً أخرى. ولم تكد فكرة متابعة الأمر تعبر في ذهنه إلا لحظة صغيرة. قد يكون الأمر خطيراً إلى حدٍّ لا يمكن تصوره، حتى إن كان يعرف كيف يقوم به. لثانيةٍ، أو ثانيتين، تبادل الإثنان لفتةً مبهمة، وكانت تلك هي نهاية القصة. لكن، حتى ذلك كان حَدَثاً لا يُنسى في تلك الوحدة المقفلة التي كان من المحتوم على المرء أن يعيشها.

رفع ونستون جسمه وجلس في وضعية أكثر انتصاباً. سمح لنفسه بالتجشؤ. كان الجِنْ يصعد مرتفعاً من معدته.

عادت عيناه تحدّقان في الورقة التي أمامه. واكتشف أنه، بينما كان يجلس

مستغرقاً في التأمل، قد كان يكتب أيضاً... وكأن ذلك كان فعلاً عَفَوياً غير إرادي. ولم يكن ما كتبه هذه المرّة بذلك الخط المتكسّر الغريب نفسه! لقد انساب قلمه رشيقاً فوق الورق الصقيل فكتب بحروفٍ أنيقة كبيرة:

يسقط الأخ الأكبر

يسقط الأخ الأكبر

يسقط الأخ الأكبر

يسقط الأخ الأكبر

يسقط الأخ الأكبر

كتبها مرةً بعد مرة، حتى ملأ نصف الصفحة.

كان عاجزاً عن منع الإحساس بنوبةٍ من الذعر. كان إحساساً سخيفاً لأن كتابة هذه الكلمات تحديداً ما كانت أكثر خطراً من الفعل الأول نفسه، فعل بدء كتابة هذه اليوميات. وفي هذه اللحظة، شعر بإغراء يدفعه إلى تمزيق الصفحات التي كتبها والإقلاع عن المشروع برمته.

لكنه لم يفعل ذلك لمعرفته بأنه لا جدوى من تمزيقها. فلا فرق... سواء كتب «يسقط الأخ الأكبر» أو امتنع عن كتابتها. وسواء تابع كتابة هذه المذكرات أو لم يتابعها، فلا فرق أيضاً. سوف تمسك به شرطة الفكر في الحالتين. لقد ارتكب الجريمة الكبرى التي تحتوي في ذاتها على الجرائم الأخرى كلّها... وهو يظل مرتكباً لهذه الجريمة حتى لو لم يخطّ بقلمه شيئاً على الورق! إنهم يسمّونها «جريمة الفكر». وجرائم الفكر ليست شيئاً يمكن إخفاؤه إلى الأبد. قد ينجح المرء في التلطّي والاختفاء حيناً من الزمن، بل حتى عدة سنوات، لكنهم سوف يمسكون به عاجلاً أو آجلاً.

كان ذلك يحدث في الليل دائماً... تحدث الاعتقالات ليلاً... هذا ثابتٌ لا يتغير. الاستيقاظ المفاجئ من النوم، واليد الخشنة الثقيلة تهز كتفك، والأضواء تسطع في عينيك، وتلك الحلقة من الوجوه القاسية تتحلّق حول فراشك. لا توجد

محاكمة في أغلب الحالات... ولا وجود لمحاضر الاعتقال. يختفي الناس بكل بساطة، خلال الليل دائماً. يُحذف اسمك من السجلات... كل سجلٍ فيه شيء قمتُ به يُحذَف ويُزال. تُلغى حقيقة أنك وجدت في يومٍ من الأيام، ثم تُنسى. يُزال الشخص تماماً، يصبح عدماً: وكانت الكلمة المألوفة لوصف ذلك «يتبخّر»!

استولى عليه نوعٌ من الهستيريا لحظةً من الزمن. وراح يكتب بخطٍ متعجّلٍ مضطرب: سوف يطلقون النار عليّ، لا أبالي. سيطلقون النار على رقبتي من الخلف، لا أبالي، ليسقط الأخ الأكبر إنهم يطلقون النار على الرقبة من الخلف دائمًا، لا أبالي، ليسقط الأخ الأكبر.

استند بظهره إلى كرسيه وهو يشعر ببعض الخجل من نفسه، ثم وضع قلمه. وفي اللحظة التالية أجفل إجفالاً عنيفاً. كان ثمة من يقرع الباب.

منذ الآن!

جلس ساكناً مثل فأر مذعور... راوده أمل واهٍ بأن من يقرع الباب، كائناً من يكون، سوف ينصرف بعد المحاولة الأولى. لكن هيهات! تكرّر القرع على الباب. أسوأ الأشياء على الإطلاق هو أن يتأخر. كان قلبه يدق مثل طبل. لكن وجهه ظل خالياً من أي تعبير، بفعل العادة التي ترسخت زمناً طويلاً. ثم نهض وتحرّك متثاقلاً صوب الباب.

2

عندما وضع يده على مقبض الباب، لاحظ ونستون أنه قد ترك دفتر المذكرات مفتوحاً على الطاولة. كانت عبارة «يسقط الأخ الأكبر» مكتوبةً على امتداد الصفحة بحروفٍ كبيرةٍ إلى حدٍّ يكاد يجعلها مقروءةٍ من طرف الغرفة الآخر. كان ذلك عملاً بالغ الحماقة. لكنه أدرك، حتى في غمرة ذعره، أنه لم يكن يريد إفساد ذلك الورق الجميل بإغلاق الدفتر قبل أن يجف الحبر!

استنشق نفساً عميقاً ثم فتح الباب. وسرعان ما سَرَت فيه موجةٌ دافئةٌ من الارتياح. كانت تقف بالباب امرأةٌ عديمة اللون مهلهلة المظهر لها شعر ناعم ووجهٌ مرسوم.

راحت تقول بصوتٍ منتحبٍ حزين: «آه، يا رفيق! ظننت أني سمعت صوتك عندما أتيت. هل تستطيع أن تأتي لتنظر إلى مغسلة المطبخ عندي؟ لقد انسدت و....».

كانت تلك المرأة هي السيدة بارسونز، زوجة أحد الجيران في الدور نفسه. (كانت كلمة «سيدة» غير مقبولة كثيراً لدى الحزب... كان يجب مخاطبة أي شخص بكلمة «رفيق»... لكن المرء كان يستخدم كلمة «سيدة» مع بعض النساء على نحو غريزي). إنها امرأة في الثلاثين تقريباً. لكنها تبدو أكبر من ذلك بكثير! وكانت تعطي انطباعاً بأن ثمة غباراً في تغضّنات وجهها. سار ونستون خلفها عبر الممر. كانت أعمال الإصلاح البسيطة هذه إزعاجاً شبه يومي. لقد كان مبنى النصر قديماً إذ أنشئ في الثلاثينات، أو نحو ذلك. وكان متهالكاً. كان الجص يتساقط دائماً من السقوف والجدران. وكانت الأنابيب تنفجر كلما حل صقيع شديد. كما كانت المياه تتسرّب من السقف كلما تساقط الثلج. أما نظام التدفئة فكان يعمل عادة بنصف طاقته عندما يتم إيقافه تماماً لدواعي الاقتصاد والتوفير. وأما أعمال الإصلاح، إلا عندما يقوم بها المرء بنفسه، فقد كانت تقررها لجانٌ بعيدةٌ يمكن أن تؤجّل لسنتين

من الزمن أعمالاً بسيطة، حتى من قبيل إصلاح إطار إحدى النوافذ.

قالت السيدة بارسونز على نحوٍ غامض: «إنني لا أطلب منك هذا إلا لأن توم ليس في البيت».

كانت شقة آل بارسونز أكبر من شقة ونستون. وكانت بائسةً على نحوٍ مختلف. كان لكل شيءٍ فيها مظهرٌ مهشمٌ مبعثر، كما لو أن حيواناً عنيفًا ضخماً قد عبر المكان. كانت الألعاب تعيق الحركة... عصي الهوكي، وقفازات الملاكمة، وكرة قدم مثقوبة، وزوج من السراويل القصيرة المقلوبة المشبعة بالعرق... كان ذلك كلّه على الأرض، وتناثرت على الطاولة أطباقٌ قذرة وكتب تمارين مدرسية مثنية الزوايا. وعلى الجدران، كانت قد عُلِّقت شعارات رابطة الشباب والجواسيس، وملصق بالحجم الكامل للأخ الأكبر. كانت رائحة الملفوف المسلوق المعتادة تملأ الشقة، تلك الرائحة المنتشرة في البناء كلّه، لكنها كانت مختلطةً هنا بنفحةٍ حادة من رائحة التعرّق التي يشمها المرء من اللحظة الأولى رغم صعوبة تفسير كيف يمكن أن توجد هنا رائحة عرق شخصٍ ما غير موجود في تلك اللحظة. وفي غرفةٍ أخرى، كان شخص يحاول مرافقة إيقاع الموسيقى العسكرية التي لا تزال منبعثةً من الشاشة مستخدماً مشطاً ولفّة من ورق الحمّام.

قالت السيدة بارسونز ملتفةً التفاتةً خاطفة صوب الغرفة: «إنهم الأولاد! لم يخرجوا اليوم. وبطبيعة الحال...».

كانت لديها عادة قطع الجملة في منتصفها. كانت مغسلة المطبخ مليئة حتى حافتها تقريباً بماء قذر أخضر اللون أسوأ رائحةً من الملفوف نفسه. ركع ونستون على الأرض وراح يفحص وصلة الأنبوب تحت المغسلة. كان يكره استخدام يديه. وكان يكره الانحناء لأن هذا يجعله يسعل دائماً. وراحت السيدة بارسونز تراقبه بلا حَوْل.

قالت: «لو كان توم في المنزل لأصلحها في لحظةٍ واحدة طبعاً. إنه يحبّ أي شيء من هذا القبيل. إن لديه يدين ماهرتين جداً!»

كان بارسونز زميل ونستون في وزارة الحقيقة. كان رجلاً ممتلئ الجسم. لكنه

كان نشيطاً وغبياً غباءً يبعث على الشلل. كان كتلةً من الحماسة الحمقاء... واحداً من أولئك الكادحين المخلصين، الذين لا يسألون عن شيءٍ أبداً، والذين يعتمد استقرار الحزب عليهم، حتى أكثر من شرطة الفكر نفسها. كان في الخامسة والثلاثين، لكنه كان قد أُرغم على ترك رابطة الشباب. وكان أيضاً قد أفلح في البقاء في رابطة الجواسيس سنة إضافية زيادة على حدِّ السنِّ المسموحة، وذلك قبل أن يترك رابطة الشباب. وأما في الوزارة، فقد كان يعمل في وظيفة ثانوية لا تتطلب أي قدرٍ من الذكاء. لكنه، من ناحية أخرى، كان شخصيةً رئيسية في اللجنة الرياضية وفي اللجان الأخرى كلّها ذات الصلة بتنظيم الرحلات الجماعية والمسيرات العفوية وحملات التوفير والنشاطات الطوعية بشكل عام. وكان يخبر الآخرين بزهوٍ هادئ، بين نفثتين من غليونه، أنه مواظبٌ على الحضور إلى المركز الاجتماعي كل ليلة طيلة السنوات الأربع الأخيرة. وكانت تتبعه أينما ذهب رائحة تعرّقٍ طاغية كأنها شهادةٌ عفوية على الجهد الكبير الذي يبذله في حياته. بل كان يخلّف تلك الرائحة وراءه حتى بعد أن ينصرف.

قال ونستون محاولاً إدارة الصامولة على أنبوب المغسلة: «هل لديك مفتاح للصواميل؟».

قالت السيدة بارسونز وقد صارت أشبه بالرخويات على الفور: «مفتاح صواميل! لا أدري. إنني متأكدة. لعلّ الأولاد...».

انبعث صوت وقع أحذية، ثم ضربة أخرى من المشط مع اندفاع الأولاد إلى غرفة المعيشة. أحضرت السيدة بارسونز مفتاح الصواميل. نجح ونستون في تصريف المياه من المغسلة وأزال بقرفٍ كتلةً من الشعر كانت تسد الأنبوب. غسل أصابعه بقدر ما استطاع في ماء الحنفية البارد ثم عاد إلى الغرفة الأخرى.

زعق صوت متوحش: «ارفع يديك».

ظهر صبي وسيم قاسي المظهر من خلف المنضدة. كان في التاسعة من عمره، وكان يهدده بمسدس أوتوماتيكي من مسدسات الألعاب، بينما كانت شقيقته الصغيرة، أصغر منه بسنتين تقريباً، تقوم بالحركة نفسها مستخدمةً قطعة من

الخشب. وكان كلاً منهما يرتدي سروالاً قصيراً أزرق وقميصاً رمادياً ومنديلاً أحمر على العنق، وهذا لم يكن زي رابطة الجواسيس. رفع ونستون يديه فوق رأسه، لكنه شعر بالانزعاج لأن تعابير وجه الصبي كانت ضاريةً إلى حد جعل الأمر لا يبدو لعبةً على الإطلاق.

زعق الصبي: «أنت خائن! أنت من مجرمي الفكر! أنت جاسوس أوراسي! سوف أطلق النار عليك، وسوف أبخّرك، وسوف أرسلك إلى مناجم الملح!»

وعلى نحوٍ مفاجئ، بدأ الاثنان يتقافزان من حوله صائحين: «خائن» و«مجرم فكر». كانت الصغيرة تقلّد أخاها في كل حركةٍ من حركاته. كان هذا مخيفاً على نحو ما كتقافز شبلين من أشبال النمور لن يلبثا أن يكبرا فيصبحا من أكلة البشر. ظهرت في عيني الصبي ضراوة محسوبة، رغبةٌ واضحةٌ تماماً في ضرب ونستون أو ركله، وإدراك لحقيقة أنه يكاد يصبح كبيراً إلى الحد الكافي لفعل ذلك. وفكر ونستون في أنه من حسن حظّه أن يكون المسدس الذي يحمله الصبي مجرد لعبة.

راحت عينا السيدة بارسونز تتنقّلان انتقالاً عصبياً من ونستون إلى الطفلين، ثم تعودان إلى ونستون. كانت الإنارة في غرفة المعيشة أفضل، فلاحظ ونستون باهتمام أن الغبار كان موجوداً فعلاً في تغضّنات وجهها.

قالت: «إنهما صاخبان اليوم فقد خاب أملهما لأنهما لم يستطيعا الذهاب لرؤية الشنق. هذا هو السبب. إنني مشغولة جداً ولا أستطيع اصطحابهما. ولن يعود توم من العمل في وقت مناسب لذلك».

زمجر الصبي بصوته المرتفع: «لماذا لا نستطيع أن نذهب لنشاهد عملية الشنق؟»

وراحت الصغيرة تدندن وهي لا تزال تقفز فرحةً من مكانٍ لآخر: «نريد أن نشاهد الشنق! نريد أن نشاهد الشنق!»

كان من المقرر أن يجري شنق عدد من السجناء الأوراسيين المدانين بجرائم حرب في الحديقة العامة تلك الليلة. تذكر ونستون ذلك! يحدث هذا كل شهر تقريباً. وقد كان حدثاً له شعبية. ويطلب الأولاد دائماً الذهاب لرؤيته. استأذن

ونستون من السيدة بارسونز وتوجّه صوب الباب. لكنه لم يمشِ إلا نحو ست خطوات في الممر قبل أن تصيبه على رقبته من الخلف ضربة مؤلمة فظيعة. شعر كأن قضيباً حديدياً متوهّجاً إلى درجة الاحمرار قد لسعه. التفت سريعاً فرأى السيدة بارسونز تشد ابنها لتعيده إلى الشقة. وكان الصبي يدسّ مقلاعاً في جيبه.

صاح الصبي بينما كان باب الشقة يُغلَق: «غولدشتاين!». لكن ما صدم ونستون أكثر من أي شيءٍ آخر هي تلك النظرة العاجزة الخائفة على وجه المرأة الرمادي.

عندما عاد إلى الشقة، عبر ونستون سريعاً من أمام الشاشة وجلس إلى طاولته من جديد. ما زال يحكّ رقبته. كانت الموسيقى المنبعثة من الشاشة قد توقفت. وبدلاً منها، راح صوت عسكري حازم يقرأ شيئاً بلهجة فيها نوع من التلذذ البهيمي. كان ذلك وصفاً لتسليح القلعة العائمة الجديدة التي جرى إرساؤها مؤخراً بين أيسلندا وجزر فارو.

خطر في بال ونستون أن تلك المرأة البائسة تعيش بالتأكيد حياة مرعبة مع هذين الطفلين. فبعد سنةٍ أو سنتين، سوف يراقبانها ليل نهار لرصد أي أعراض تشير إلى انحرافها. يكاد الأطفال جميعاً يصبحون مرعبين في هذه الأيام! والأسوأ من هذا كله هو أن تلك المنظّمات، كمنظّمة الجواسيس مثلاً، كانت تحوّلهم تحويلاً منهجياً إلى متوحشين صغار لا سبيل إلى ضبطتهم، وهذا لم يكن يخلق لديهم أي ميل إلى التمرد على انضباط الحزب على الإطلاق! بل على العكس من ذلك، كان الأطفال يعبدون الحزب وكل ما له علاقة به. الأغاني والمواكب والرايات والرحلات والتدريب على النماذج الزائفة من البنادق، والهتاف بالشعارات، وعبادة الأخ الأكبر... كان هذا كله نوعاً من لعبةٍ عظيمةٍ ممتعة بالنسبة إليهم. كانت ضراوتهم كلّها موجّهةً صوب الخارج، صوب أعداء الدولة، صوب الأجانب والخَوَنة والمخرّبين، وصوب من يُعتقد بأنهم مجرمون. وكان أمراً شبه عادي أن يخاف الأشخاص الذين تجاوزوا الثلاثين من أطفالهم. ولهذا سببٌ وجيهٌ حقاً لأنه لا يكاد يمر أسبوع واحد من غير أن تنشر صحيفة التايمز مقطعاً يصف كيف سَمِعَ طفلٌ متلصّصٌ متنصّت... كانوا يسمّونه عادةً «الطفل البطل»... عبارةً خطيرة فوشى بوالديه إلى شرطة الفكر.

زال الآن ألم ضربة المقلاع. والتقط ونستون قلمه غير متحمسٍ. كان يتساءل ما إذا كان قادراً على العثور على شيءٍ إضافي حتى يكتبه في مذكراته. وفجأةً، وجد نفسه يفكر في أوبراين من جديد.

منذ كم من الزمن؟ ربما سبع سنوات... حَلِمَ ونستون مرةً أنه يمشي عبر غرفة حالكة الظلمة. وقد قال له شخصٌ جالسٌ عندما مرّ بجانبه: «سوف نلتقي في مكانٍ حيث لا ظلمة». قيلت هذه الكلمات بسرعةٍ شديدة، بل على نحوٍ شبه عرضي: كانت مجرد عبارة تقريرية، وليست خطاباً حقيقياً. تابع ونستون سيره من غير أن يتوقف لحظةً واحدة. والغريب هو أن تلك الكلمات، في ذلك الوقت، في منامه، لم يكن لها وقعٌ كبيرٌ لديه. ولم تبدُ تلك الكلمات ذات معنى بالنسبة له إلا بعد زمنٍ من ذلك، وعلى نحو متدرِّج. ولم يعد يتذكر الآن إن كانت تلك الكلمات قد قيلت له في منامه قبل أن يلتقي أوبراين أول مرة. ولم يعد يذكر أيضاً متى سمع صوت أوبراين للمرة الأولى. لكنه كان واثقاً على أي حال. لقد كان أوبراين هو من كلّمه في تلك الغرفة المظلمة.

ما كان ونستون قادراً على الشعور بالثقة إطلاقاً... فحتى بعد تلاقي أعينهما السريع في ذلك الصباح، لا يزال متعذراً عليه أن يكون واثقاً مما إذا كان أوبراين صديقاً أم عدواً. بل إن الأمر لم يبدُ ذو أهميةٍ كبيرةٍ أيضاً! لقد جمعهما رباطٌ من الفهم المتبادل بينهما. رباطٌ أكثر أهميةً من التعاطف أو التضامن. لقد قال له مرةً: «سوف نلتقي في مكانٍ حيث لا ظلمة. لم يعرف ونستون معنى ذلك... لكنه عرف، على نحو ما، أنه سيصبح حقيقة ذات يوم.

كان الصوت على الشاشة قد توقّف لحظة. وصدح في الهواء الساكن صوت بوقٍ صافٍ جميلٍ. ثم عاد الصوت يقول بخشونة:

«انتباه! انتباه من فضلكم! وردنا هذا الخبر من جبهة مالابار. لقد حقّقت قواتنا في جنوب الهند نصراً عظيماً. وأنا مفوضٌ بالقول إن الحدث الذي أنقل أخباره الآن يمكن أن يجعل نهاية الحرب قريبة. وإليكم التفصيل...».

ثمة أخبارٌ سيئة، قال ونستون في نفسه. وبالتأكيد، في أعقاب الوصف المخيف

لإبادة أحد الجيوش الأوراسية، مع أرقامٍ خرافية لعدد القتلى والأسرى، جاء إعلان مفاده أنه اعتباراً من الأسبوع القادم، سيتم تخفيض حصّة الشوكولا من ثلاثين غراماً إلى عشرين.

تجشأ ونستون من جديد. كان مفعول الجن يزول تاركاً إحساساً بالخواء محلّه. وراحت الشاشة تبث نشيد «أوقيانيا، هذا من أجلك»... لعل ذلك كان احتفالاً بالنصر، أو لعله كان من أجل جعل الناس ينسون الشوكولا المفقودة. كان يجب أن يقف المرء في وضعية استعداد عند سماع النشيد. لكن ونستون كان غير مرئي في موقعه الحالي.

انتهى نشيد «أوقيانيا، هذا من أجلك» وحلّت موسيقى خفيفة. سار ونستون حتى النافذة جاعلاً الشاشة خلف ظهره. كان الجو في الخارج لا يزال بارداً وصحواً. انفجر صاروخٌ، في مكانٍ ما، في البعيد، محدثاً دويًّا تردّدت أصداؤه. كان يسقط ما بين عشرين إلى ثلاثين صاروخاً من هذه الصواريخ على لندن كل أسبوع في هذه الأيام.

كانت الريح في الشارع لا تزال تتلاعب بالملصق الممزّق فتحرّكه لهذه الجهة أو تلك. وكانت كلمة «إشتنج» تظهر ثم تختفي وفقاً لتلك الحركة. «إشتنج» العقيدة المقدسة لـ«إشتنج». اللغة الجديدة، والتفكير المزدوج، وقابلية الماضي للتغيير. شعر أنه تائه يتجوّل في غابات في قاع البحر ضائعاً وسط عالمٍ وحشي كان هو نفسه الوحش فيه. كان وحيداً. كان الماضي ميتاً، وكان المستقبل غير قابلٍ للتصور. كيف يتأكّد أنه حتى شخص بشري واحد ممن يعيشون الآن يقف في جانبه؟ وكيف له أن يعرف أن هيمنة الحزب لن تستمر إلى الأبد؟ ظهرت الشعارات الثلاثة المكتوبة على واجهة وزارة الحقيقة البيضاء كأنها إجابةٌ على أسئلته:

الحرب هي السِّلم

الحرية هي العبودية

الجهل هو القوة

أخرج من جيبه قطعة نقد من فئة خمسة وعشرين سنتاً. كانت الشعارات نفسها منقوشةً بكتابةٍ صغيرةٍ جدًّا على أحد وجهيها. وعلى الوجه الآخر من قطعة النقد، كان رأس الأخ الأكبر. كانت العينان تلاحقان المرء، حتى من تلك القطعة النقدية. على قطع النقود، وعلى الطوابع، وعلى أغلفة الكتب، وعلى الرايات، وعلى الملصقات، وعلى أغلفة علب السجائر... في كل مكان! كانت تلك العينان تراقبانك دائماً، وذلك الصوت يحيط بك دائماً! سواءٌ كنت نائماً أو مستيقظاً، وسواءٌ كنت تعمل أو تأكل، وسواءٌ كنت في الداخل أو في الخارج، في الحمام أو في السرير... لا مفرّ! لا شيء يخصّك أنت وحدك إلا بضعة سنتيمترات مكعبةٍ في داخل جمجمتك.

كانت الشمس قد مالت. وأما النوافذ الكثيرة في وزارة الحقيقة، فبدت كالحةً كأنها شقوقٌ في واجهة قلعة بعد أن لم تعد أشعة الشمس تنعكس عليها. ارتجف قلبه أمام ذلك الشكل الهرمي الضخم. كان شديد البأس... لا سبيل إلى تحطيمه. لن يستطيع ألف صاروخ تدميره. تساءل في نفسه من جديد... لمن عساه يكتب هذه المذكرات؟ أمن أجل المستقبل؟ أمن أجل الماضي؟... أمن أجل زمنٍ لن يوجد إلّا في خياله؟أمامه لم يكن الموت، بل الفناء! سوف تتحوّل مذكّراته إلى رماد. وسوف يتحوّل هو نفسه إلى بخار. لن يقرأ ما كتبه إلا شرطة الفكر قبل أن تقوم بإزالة تلك الكتابة من الوجود، ومن الذاكرة أيضاً. كيف تستطيع مخاطبة المستقبل عندما لا يبقى لك أثر، ولا حتى كلماتٌ مجهولة الكاتب، مخربشة على قطعةٍ من الورق؟

أعلنت الشاشة الساعة الثانية. عليه أن يذهب بعد عشر دقائق. يجب أن يكون في مكان عمله عند الثانية والنصف.

الغريب هو أن دقّات الساعة قد جعلت الحماسة تدب فيه من جديد على ما يبدو. لقد كان وحيداً مثل شبح ينطق بحقيقةٍ لن يسمعها أحد. لكن، على نحوٍ غريب، ما كانت الاستمرارية لتنقطع طالما ظلّ قادراً على النطق بها. يمكن للمرء أن يواصل التراث البشري لا عن طريق جعل صوته مسموعاً، بل عن طريق البقاء بعيداً عن الجنون.

عاد إلى الطاولة. وغمس ريشته في الحبر. وكتب:

إلى المستقبل أو إلى الماضي... إلى زمنٍ يكون فيه الفكر حراً، عندما يكون البشر مختلفين أحدهم عن الآخر ولا يعيشون وحيدين... إلى زمنٍ توجد فيه الحقيقة ولا يمكن محو ما جرى.

من زمن التماثل، من زمن لا يختلف فيه الواحد عن الآخر، من زمن الأخ الأكبر، من زمن التفكير المزدوج... تحياتي!

إنه ميتٌ منذ الآن، هكذا قال في نفسه! وبدا له أنه قد قام بالخطوة الحاسمة الآن فقط... عندما بدأ يصبح قادراً على صوغ أفكاره. إن عواقب كل فعل تكمن في الفعل نفسه. كتب:

إن جريمة الفكر لا تفضي إلى الموت: جريمة الفكر هي الموت نفسه.

الآن، وبعد أن أدرك أنه رجلٌ ميت، صار مهماً أن يظل حياً أطول فترةٍ ممكنة. كان الحبر قد لطخ إصبعين من أصابع يده اليمنى. وكان هذا، على وجه التحديد، من تلك التفاصيل التي يمكن أن تفضح أمره. فلعل متحمّساً فضولياً في الوزارة (امرأة على الأرجح: امرأة مثل المرأة صغيرة الجسم ذات الشعر الذي بلون الرمل، أو مثل الفتاة ذات الشعر الداكن من قسم القصص). يمكن أن يتساءل ما الذي جعله يكتب خلال استراحة الغداء، وما الذي جعله يستخدم ريشة الكتابة القديمة التقليدية، وما الذي كان يكتبه... وبعد ذلك يدلي بملاحظته إلى القسم المعني. مضى ونستون إلى الحمام وراح يزيل الحبر بعناية مستخدماً الصابونة البائسة بنية اللون التي تقشط الجلد قشطاً... والتي كانت، لذلك السبب، مناسبةً للغاية للاستخدام الآن.

وضع دفتر المذكرات في الدرج. كان من العبث تماماً أن يفكر في إخفائه. لكنه كان قادراً، على الأقل، أن يتأكد إن كان الدفتر قد اكتُشف في غيابه. لو وضع شعرةً بين الصفحات لكانت أمراً ظاهراً جداً! التقط برأس إصبعه ذرة غبار بيضاء لا تكاد تُرى ووضعها في وسط الغلاف حيث لا بدّ أن تتحرّك فتسقط إذا تحرّك الدفتر.

3

كان ونستون يحلم بوالدته.

لا بد أنه كان في العاشرة أو الحادية عشرة عندما اختفت أمه... هكذا يظن! كانت امرأةً ممشوقة القامة، طويلة، تميل إلى الصمت. وكانت بطيئة الحركات ولها شعر أشقر رائع. أما والده فكانت ذكراه أكثر غموضاً. كان يتذكّره أسمرَ نحيلاً يرتدي ملابس قاتمة أنيقة على الدوام (كان ونستون يتذكر خاصةً النعلين الرقيقين جداً لحذاء والده). وكان يضع نظارة. من الواضح أن موجةً من موجات التطهير الكبرى في الخمسينات قد ابتلعت الاثنين.

في هذه اللحظة، كانت أمه جالسةً في مكانٍ عميقٍ تحته، واضعةً شقيقته الصغيرة بين ذراعيها. لم يكن يتذكر شقيقته على الإطلاق، إلا على هيئة طفلة صغيرة نحيلة ضعيفة صامتة دائماً... طفلة لها عينان كبيرتان يقظتان. كانتا تنظران إليه، كلتاهما. كانتا هناك... في الأسفل، في مكانٍ تحت الأرض... في قعر بئر مثلاً، أو في قبرٍ عميقٍ جداً... لكن ذلك المكان، رغم كونه عميقًا وبعيدًا كثيراً، فإنه ما زال يتحرّك إلى الأسفل أيضاً. كانتا في حجرة سفينةٍ غارقة تنظران إلى فوق، إليه، عبر مياه تزداد قتامةً. كانتا قادرتين على النظر إليه طالما كان لا يزال ثمة هواء في تلك الغرفة. وكان قادراً على النظر إليهما. لكنهما كانتا مستمرين في الغرق، إلى تحت، إلى أسفل في المياه الخضراء التي سوف تخفيهما عن ناظريه إلى الأبد بعد قليل. كان جالساً هناك، في الهواء وفي الضوء، بينما تغرقان إلى تحت، إلى الموت. لقد كانتا هناك لأنه ظل فوق. كان يعرف هذا، وكانتا تعرفانه أيضاً. كان قادراً على رؤية تلك المعرفة في أعينهما. لكن وجهيهما ما كان يحملان لوماً، ولا قلبيهما... فقط تعرفان أن عليهما أن تموتا حتى يظل هو حيًّا، وأن ذلك كان جزءاً من نظام الأشياء الذي لا سبيل إلى اجتنابه.

لم يستطع تذكّر ما حدث. لكنه عَرِف، في منامه، أنه قد جرت التضحية بحياة أمّه وأخته من أجل حياته هو. كان حلماً من تلك الأحلام التي تكون استمراراً

لحياة المرء المُدركة رغم وجود سمات الأحلام فيها، حيث يكون المرء مدركاً لحقائق وأفكارٍ تظلّ تبدو له جديدةً ومهمة بعد أن يستيقظ. وأما الشيء الذي صدم ونستون على نحوٍ مفاجئ الآن فهو أن موت والدته، قبل ثلاثين عاماً تقريباً، كان موتاً مأساوياً محزناً على نحوٍ ما عاد ممكناً حدوثه الآن. لقد أدرك أن المأساة كانت شيئاً ينتمي إلى زمنٍ عتيق، إلى زمنٍ كان فيه حبٌ وخصوصية وصداقة... زمنٍ كان أفراد الأسرة فيه يقف أحدهم مع الآخر دونما حاجة إلى معرفة السبب. كانت ذكرى والدته تمزّق قلبه لأنها ماتت وهي تحبه... ماتت عندما كان صغيراً جداً وأنانياً إلى حد يجعله غير قادرٍ على أن يحبها حبًّا مماثلاً... ولأنها، على نحوٍ ما، ما عاد يتذكر كيف، ضحّت بنفسها من أجل فكرة الإخلاص التي كانت فكرةً خصوصية غير قابلةٍ للتبدّل. كان يدرك أن هذه الأشياء لا يمكن أن تحدث اليوم! اليوم... ثمة خوفٌ وكرهٌ وألمٌ، لكن ما من وجودٍ لمشاعر سامية، ولا لآلام عميقة معقدة. لقد رأى هذا في عيون أخته وأمه، في عيونهما الكبيرة، وهي تنظر إلى الأعلى... إليه... عبر المياه الخضراء... على عمق مئة قامة إلى الأسفل... وتواصلان غرقهما.

فجأة وجد نفسه واقفاً وسط مرجٍ عشبه قصير ناعم في عصر يوم صيفي صبغت فيه أشعة الشمس المائلة إلى الغياب الأرض بلونها الذهبي. كان هذا المشهد الذي يراه الآن مشهداً كثير التكرار في أحلامه إلى درجةٍ جعلته غير واثقٍ على الإطلاق إن كان قد شاهده في العالم الحقيقي أو لم يشاهده حقاً. كان يدعوه في أحلام يقظته باسم الريف الذهبي. كان ذلك مرجاً قديماً رعته الأرانب وفيه ممرٌ متعرجٌ رسمته الأقدام وأكوام ترابٍ صنعها الخلد هنا وهناك. وعند السياج المتداعي على الجهة المقابلة من الحقل، كانت أغصان أشجار الدردار تتمايل تمايلاً خفيفاً في النسيم فتتحرّك أوراقها في كتلٍ كثيفةٍ تشبه شعر امرأة. وفي مكانٍ قريبٍ جداً، رغم أنه غير مرئي، كان ثمة جدولٌ يترقرق بطيئاً صافياً وتسبح في بركه الأسماك تحت أشجار الصفصاف.

عبر ذلك الحقل، كانت الفتاة ذات الشعر الداكن قادمةً صوبه. وبحركةٍ بدت كأنها مجرّد حركةٍ واحدة، خلعت ثيابها فألقت بها جانباً من غير اكتراث. كان

جسدها ناعماً أبيض اللون. لكنه لم يثر فيه أي رغبة، بل إنه لم يكد ينظر إليه. لقد غمره في تلك اللحظة إعجابٌ بحركتها... حركة طرح الملابس جانباً. لقد بدت، بجلالها ولا مبالاتها، كأنها تلغي ثقافةً بأسرها، نظاماً كاملاً من التفكير، كما لو أن الأخ الأكبر والحزب وشرطة الفكر يمكن أن تُلقى في العدم بحركة ذراعٍ بديعةٍ واحدة. كانت تلك أيضاً حركةً تنتمي إلى زمنٍ عتيق. استيقظ ونستون وعلى شفتيه كلمة «شكسبير».

كانت الشاشة تطلق صفيراً يمزق الآذان استمر على النغمة نفسها ثلاثين ثانية. كانت الساعة السابعة والربع تقريباً، زمن استيقاظ الأشخاص العاملين في المكاتب. انتزع ونستون جسده من السرير انتزاعاً... كان عارياً لأن عضو «الحزب الخارجي» كان يتلقى ثلاثة آلاف قسيمة من قسائم الملابس في السنة في حين كان ثمن البيجاما يبلغ ستمائة قسيمة. التقط ونستون قميصاً داخلياً بالياً وسروالاً قصيراً كانا موضوعَيْن على الكرسي. سوف تبدأ «التمارين الرياضية» بعد ثلاث دقائق. وفي اللحظة التالية أصابته نوبة سعال شديد كانت تهاجمه، على الدوام تقريباً، بعد استيقاظه بفترةٍ وجيزة. لقد أفرغ السعال رئتيه من الهواء تماماً إلى درجةٍ جعلته غير قادرٍ على معاودة التنفس من جديد إلا بأن يستلقي على ظهره ليلتقط سلسلة من الأنفاس اللاهثة السريعة. انتفخت أوداجه بسبب الجهد الذي بذله في السعال، وبدأت قرحة الدوالي تحكه.

نبح صوتٌ أنثوي ثاقب: «المجموعة ثلاثين إلى أربعين! المجموعة ثلاثين إلى أربعين! خذوا أماكنكم من فضلكم. من ثلاثين إلى أربعين!»

وثب ونستون. وقف مستعداً أمام الشاشة التي ظهرت عليها صورة امرأة تكاد تكون شابّة، هزيلة الجسم لكنها ذات تكوين عضلي. كانت ترتدي سترة قصيرة وحذاء رياضي.

صاحت المرأة: «ثني الذراعين ومدهما. نفذوا التمرين معي. واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة! واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة! هيا يا رفاق. فلتكن حركاتكم أكثر حيوية! واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة! واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة! ...».

لم يكن ألم نوبة السعال قد أزال تماماً من ذهن ونستون الانطباع الذي أحدثه الحلم، كما أن الحركات الإيقاعية للتمارين الرياضية استعادت ذلك الانطباع على نحوٍ ما. وبينما كان يلقي بيديه إلى الأمام والخلف على نحو آلي واضعاً على وجهه ابتسامة استمتاعٍ تُعتبر مظهراً ملائماً خلال التمارين الرياضية، كان ونستون يحاول العودة بتفكيره إلى زمن طفولته الأولى الذي صار باهتاً. إنه لأمر صعب إلى حد استثنائي: كل ما يتجاوز فترة الخمسينات رجوعاً يخبو ويتلاشى... فحيث لا وجود لسجلاتٍ خارجيةٍ يستطيع المرء الرجوع إليها، تفقد خطوط حياته نفسها حدودها ووضوحها. يتذكر المرء الأحداث الكبيرة التي من الممكن تماماً أنها لم تحدث؛ ويستطيع أن يتذكر تفاصيل أحداث أخرى من غير أن يتمكن فعلاً من التقاط الأجواء التي أحاطت بها. وتكون هنالك فتراتٌ فارغة طويلة لا يستطيع المرء أن ينسب إليها أي حَدَث. كان كل شيء مختلفاً في ذلك الوقت. حتى أسماء البلدان، وأشكالها على الخريطة، تغيرت بدورها. فالقطاع الجوي الأول، على سبيل المثال، لم يكن يُدعى بهذا الاسم في تلك الأيام: لقد كان يسمّى باسم إنجلترة أو بريطانيا، أما لندن فكانت تحمل هذا الاسم على الدوام... هو واثق من ذلك إلى حدٍّ ما!

لم يكن ونستون قادراً على أن يتذكر، على وجه التحديد، زمناً لم تكن فيه بلاده في حالة حرب. لكن من الواضح أنه كان ثمة فاصل طويل من السِّلم خلال طفولته. وذلك لأن إحدى ذكريات طفولته الباكرة كان فيها غارة جوية يظهر أنها جاءت مفاجئةً للجميع. ولعل ذلك كان وقت سقطت القنبلة الذرية على كلوتشستر. إنه لا يذكر الغارة نفسها! لكنه يذكر يد والده الممسكة بيده بينما كانا يهرعان إلى الأسفل، إلى الأسفل، داخل مكانٍ عميق تحت الأرض، عبر سلمٍ لولبي طويل كان يقعقع تحت قدميه حتى تعبت ساقاه وراحتا ترتجفان وصار عليه أن يتوقف ليستريح. وكانت أمه تتبعهما على ذلك المسار الطويل... بطريقتها البطيئة الحالمة. كانت تحمل أخته الرضيعة... أو لعلها كانت تحمل مجرد حزمة بطانيات: لم يكن واثقاً إن كانت أخته قد ولدت في ذلك الوقت! وأخيراً، وصلوا إلى مكانٍ مزدحمٍ يملأه الضجيج، فأدرك أنهم في محطة قطارٍ تحت الأرض.

كان ثمة أشخاصٌ جالسون في أرجاء المكان على الأرض المبلطة بالحجارة. وكان أشخاصٌ آخرون يجلسون متلاصقينْ على المقاعد المعدنية، واحدهم فوق الآخر. وجد ونستون ووالدته ووالده مكاناً لهما على الأرض. وكان رجل وامرأةٌ عجوزان جالسين متلاصقين على مقعد قريبٍ منهما. كان العجوز مرتدياً بدلةً قاتمةً لائقة وقبعةً من قماش مرفوعةً إلى الخلف يظهر من تحتها شعرٌ شديد البياض: كان وجهه قرمزي اللون وعيناه زرقاوان لكنهما مليئتان بالدموع. كانت رائحة الجن تفوح منه وكأن جلده يتعرق الجن بدلاً من العرق. بل إن المرء كان يمكن أن يظن الدموع النابعة من عينيه قطراتٍ من الجن الصرف أيضاً. لكن، وعلى الرغم من سُكرِه الخفيف، كان الرجل يعاني ألماً حقيقياً لا يُحتمَل. أدرك ونستون، بطريقته الطفولية، أن شيئاً مخيفاً قد حدث للتو... شيء لا سبيل إلى غفرانه ولا إلى إصلاحه. وبدا له أيضاً أنه يعرف ما حدث! شخصٌ كان العجوز يحبّه... حفيدٌ صغيرٌ، لعله قُتِل! كان العجوز يكرر كل بضع دقائق:

«ما كان يجب أن نثق بهم. لقد قلت هذا! ألم أقله؟ هذه نتيجة الثقة بهم. لقد قلت هذا بصوتٍ مرتفع. ما كان لنا أن نثق بهؤلاء التافهين».

لكن ذاكرة ونستون ما كانت قادرةً الآن على معرفة هؤلاء التافهين الذين ما كانت تجوز الثقة بهم.

ظلت الحرب مستمرةً، بالمعنى الحرفي للكلمة، منذ ذلك الوقت تقريباً. لكنها ما كانت الحرب نفسها إن شئنا الدقة. كان يجري قتالٌ محيرٌ في شوارع لندن نفسها على امتداد أشهر خلال طفولته. وكانت لديه ذكرياتٌ حيّةٌ عن بعض ذلك القتال. لكن تتبع تاريخ تلك الحقبة كلّها، أو معرفة مَنْ كان يقاتل مَنْ في أي لحظةٍ منها، كان أمراً مستحيلاً تماماً بسبب عدم وجود أي سجلٍّ مكتوبٍ ولا أي كلام منطوق، أو حتى ذكر أي مجابهة غير المجابهة الحالية. في هذه اللحظة، على سبيل المثال، في عام 1984 (إن كان هو العام 1984 فعلاً)، كانت أوقيانيا في حربٍ مع أوراسيا وفي حلفٍ مع إيستاسيا. ولم يكن يجري الاعتراف في أي حديث عامٍ أو خاص بأن هذه القوى الثلاث كانت متحالفةً على نحو مختلف في أي وقتٍ من

الأوقات. والواقع، كما يعرف ونستون جيداً، هو أنه لم تمض إلا أربع سنوات منذ أن كانت أوقيانيا في حرب مع إيستاسيا وفي تحالفٍ مع أوراسيا. لكن هذه كانت مجرد معلومةٍ سرية يملكها مصادفةً لأن ذاكرته غير متحكَّم بها على نحوٍ مُرضٍ. أما من ناحيةٍ رسمية، فإن تغيير الحلفاء لم يحدث أبداً! لقد كانت أوقيانيا في حربٍ مع أوراسيا على الدوام: ومن هنا، فإن أوقيانيا في حالةٍ حرب دائمة مع أوراسيا. إن العدو الراهن يقدَّم دائماً في صورةٍ شيطانيةٍ مطلقة. وينتج عن ذلك استحالة أي اتفاق معه في الماضي أو في المستقبل!

الأمر المخيف، هكذا راح يفكّر للمرة الألف بينما كان يَدفع كتفيه دفعاً في تلك الحركة المؤلمة إلى الخلف (كانوا يدوِّرون أجسادهم من الوسط مع وضع اليدين على الردفين. يفترض أن هذا التمرين جيِّد لعضلات الظهر)... الأمر المخيف هو أن ذلك كله يمكن أن يكون صحيحاً. إذا كان الحزب قادراً على التدخّل في الماضي والقول عن هذا الحدث أو ذاك إنه لم يحدث قط... إن هذا، بالتأكيد، أمر مخيفٌ أكثر من مجرد التعذيب أو الموت!

قال الحزب إن أوقيانيا لم تتحالف أبداً مع أوراسيا. وهو، ونستون سميث، يعرف أن أوقيانيا كانت متحالفة مع أوراسيا منذ زمنٍ قصيرٍ لا يتعدى السنوات الأربع. لكن، أين عساها توجد تلك المعرفة؟ في وعيه هو فحسب! وعيه الذي يجب أن يُلغى قريباً على أي حال. وإذا كان الآخرون جميعاً يقبلون الكذبة التي يفرضها الحزب... وإذا كانت السجلات كلّها تسجِّل الكذبة نفسها... فإن تلك الكذبة تصبح تاريخاً، وتصبح حقيقة! يقول شعار الحزب: «من يتحكّم بالماضي يتحكّم بالمستقبل: ومن يتحكّم بالحاضر يتحكّم بالماضي». ورغم هذا، فإن الماضي... على الرغم من طبيعته القابلة للتغيير... لم يتغير قط. كل ما هو صحيحٌ الآن كان صحيحاً منذ الأزل ويظل صحيحاً إلى الأبد! كان الأمر بسيطاً تماماً. ولا يلزم لتحقيق ذلك إلا سلسلة غير منتهية من الانتصارات على ذاكرتك نفسها. يدعون هذا الأمر باسم «التحكم بالواقع»: وهو نفسه «التفكير المزدوج» في اللغة الجديدة. عوى الصوت الآمر من جديد لكن على نحو أكثر لطفاً بعض الشيء: «راحة».

أرخى ونستون ذراعيه إلى جانبيه وراح يملأ رئتيه بالهواء على نحو بطيء. انزلق ذهنه بعيداً في غياهب عالم التفكير المزدوج. إن تعرف ولا تعرف. وأن تدرك الحقيقة الكاملة عندما تروي أكاذيب تم إنشاؤها بكل عناية، وأن تحمل في الوقت عينه رأيين اثنين يلغي أحدهما الآخر، وأن تعرف أن كل رأيٍ مناقضٌ للآخر لكنك تؤمن بهما معاً، وأن تستخدم المنطق ضد المنطق، وأن تدّعي الأخلاق وترفضها في الوقت نفسه، وأن تؤمن بأن الديمقراطية مستحيلة مع إيمانك بأن الحزب يحمي الديمقراطية، وأن تنسى كل ما يتعين نسيانه، ثم تستعيده ذاكرتك من جديد عندما تنشأ حاجةٌ إليه، ثم تنساه سريعاً من جديد: وفوق هذا كله، أن تطبق العملية نفسها على العملية نفسها. إنها الدقة المتناهية: الوعي الذي يستحث اللاوعي ثم... من جديد... أن يصبح المرء غير واعٍ بما قام به من تنويمٍ مغناطيسيٍّ. بل إن فهم عبارة «التفكير المزدوج» نفسه يتطلب استخدام التفكير المزدوج.

طلبت مدرّبة الرياضة منهم الانتباه مجدّداً. وقالت بصوتٍ حماسي: «لنرَ الآن من منا يستطيع أن يلمس أصابع قدميه بيديه. من فضلكم يا رفاق... انحناء من الوسط. واحد ـ اثنان! واحد ـ اثنان!...»

كان ونستون يمقت هذا التمرين لأنه يجعله يشعر بألمٍ ينطلق من عقبيه حتى ردفيه، وغالباً ما يطلق لديه نوبةً جديدةً من السعال. زال ذلك الطابع شبه السار لتأملاته. وفكر في نفسه قائلاً إن الماضي لم يخضع للتغيير فحسب، بل إنه دُمِّر فعلاً. فكيف تستطيع إقامة البرهان على أكثر الحقائق وضوحاً عندما لا يوجد سجلٌ خارج ذاكرتك أنت وحدها؟ حاول أن يتذكر في أي سنةٍ سمع بالأخ الأكبر أول مرة. ووجد أن ذلك لا بد أن يكون قد حدث في وقتٍ ما في الستينات؛ لكن من المستحيل أن يكون متأكداً! يقول تاريخ الحزب، بطبيعة الحال، إن الأخ الأكبر موجودٌ باعتباره قائد وحامي الثورة منذ أيامها الأولى. بل جرى أيضاً دفع مآثره في الزمن على نحو متدرجٍ حتى وصلت إلى عالم الأربعينات والثلاثينات الخرافي عندما كان الرأسماليون بقبعاتهم الأسطوانية الغريبة لا يزالون يقودون سياراتهم اللامعة الرائعة في شوارع لندن، أو يركبون عرباتٍ تجرّها الجياد ولها جوانب

زجاجية. لا يعرف أحد مقدار الحقيقة في هذه الأسطورة ومقدار ما هو مخترَعٌ منها. وما كان ونستون قادراً حتى على أن يتذكر في أي تاريخٍ بدأ وجود الحزب نفسه. وهو لا يظن أنه سمع تعبير «إشتنج» قبل عام 1960 لكن من الممكن أنه كان يعني «الاشتراكية الإنجليزية» في اللغة القديمة... وهذا يعني أن التعبير كان موجوداً في وقتٍ أبكر من ذلك.

غاب كل شيءٍ فصار ضباباً. لكن قد تستطيع أن تضع إصبعك على شيءٍ محددٍ أحياناً. فعلى سبيل المثال، لم يكن صحيحاً ما تزعمه كتب تاريخ الحزب من أن الحزب هو الذي اخترع الطائرات! إن ونستون يتذكّر الطائرات منذ أيام طفولته المبكّرة. لكنك لا تستطيع أن تبرهن على أي شيء. لا وجود لأي دليلٍ أبداً. لقد حدث مرةً واحدة في حياته كلها أن أمسك بيديه دليلاً وثائقياً لا يُدحض على تزوير حقيقة من حقائق التاريخ. وفي تلك المناسبة...

صاح صوتٌ منزعج من الشاشة: «سميث! سميث رقم 6079! نعم، أنت! انحن أكثر من فضلك! تستطيع أن تفعل ما هو أفضل من هذا. إنك لا تحاول حقاً. انحن أكثر من فضلك! هذا أفضل يا رفيق! قفوا في وضعية مريحةٍ الآن، المجموعة كلها، انظروا إلي!

تدفق عرقٌ حارٌ مفاجئ من جسم ونستون كلّه. لكن وجهه ظل من غير أي تعبير على الإطلاق. لا يجوز إظهار الانزعاج أبداً! لا يجوز إظهار الغضب أبداً! إن من الممكن لرفّة عينٍ واحدة أن تفضحك! وقف ونستون ينظر إلى الشاشة بينما رفعت المدرِّبة يديها فوق رأسها ثم انحنت... لا يمكن أن نقول «برشاقة»، لكن بكفاءةٍ ودقةٍ واضحتين... فدسَّت جزءاً من إصبعها تحت إبهام قدمها.

«هكذا يا رفاق! هذا ما أريد أن أراكم تفعلونه. انظروا إلي من جديد. إنني في التاسعة والثلاثين، ولدي أربعة أطفال. انظروا الآن! انحنت من جديد... «هل ترون أن ركبتيَّ لم تنثنيا! تستطيعون جميعاً أن تفعلوا هذا إذا أردتم». ثم أضافت وهي تستقيم من جديد: «إن أي شخص لم يبلغ الخامسة والأربعين قادرٌ تماماً على لمس أصابع قدميه. لا نتمتع كلنا بشرف القتال على الخطوط الأمامية،

لكننا نستطيع المحافظة على لياقتنا، على الأقل! تذكروا شبابنا على جبهة مالابار. وتذكروا البحّارة في القلاع العائمة! تذكروا فقط ما هم مُضطرّون إلى مواجهته هناك. الآن، حاولوا من جديد. هذا أفضل يا رفاق. هذا أفضل بكثير». قالت هذا بصوت مشجّع حين أفلح ونستون، بحركةٍ عنيفة، في لمس أصابع قدميه من غير أن يثني ركبتيه. إنها المرة الأولى منذ سنواتٍ كثيرة!

4

مع تنهيدةٍ عميقةٍ لا إرادية، لم يمنعه حتى قُربه من الشاشة من إطلاقها وهو يبدأ يوم عمله، جذب ونستون آلة الإملاء صوبه ونفخ الغبار عن المايكروفون، ثم وضع نظارته. وبعد ذلك فتح أربع لفافات صغيرة من الورق محزومة معاً كانت قد وصلت قبل لحظات عبر الأنبوب الهوائي الموجود إلى اليمين من مكتبه.

كان في جدران حجرة العمل ثلاث فتحات. فإلى الجهة اليمنى من آلة الإملاء، كان ثمة أنبوب هوائي صغير من أجل الرسائل الخطية. وأما إلى اليسار، فثمة أنبوب أكبر من أجل الجرائد. وفي الجدار الجانبي، ضمن متناول ذراع ونستون، كانت فتحةٌ كبيرةٌ مستطيلة تغطيها شبكة من الأسلاك. إن تلك الفتحة مخصصةً للتخلص من الأوراق الزائدة. ثمة فتحات مثلها، بالآلاف أو بعشرات الآلاف، في أنحاء هذا المبنى، لا في كل غرفةٍ فحسب، بل أيضاً على مسافاتٍ متقاربة ضمن الممرات! ولسببٍ من الأسباب، كانت هذه الفتحات تدعى باسم «ثُقوب الذاكرة». وعندما يعرف أي شخص أن ثمة وثيقة يجب إتلافها، أو حتى عندما يرى أحدٌ ما قصاصة ورقٍ في أي مكان، كان بردّة فعل تلقائية يلتقط تلك الورقة ويسقطها في أقرب حفرة من ثُقوب الذاكرة حيث يحملها تيارٌ دافئٌ من الهواء إلى الأفران العملاقة الخبيئة في مكانٍ ما في جوف هذا البناء.

نظر ونستون إلى قصاصات الورق الأربع التي تلقّاها. كانت كل واحدة منها تحتوي على رسالة مؤلفة من سطر واحدٍ أو سطرين مكتوبة بلغة الاختزال... لم تكن تلك هي «اللغة الجديدة»، لكنها مؤلفةٌ من مفردات اللغة الجديدة إلى حدٍّ كبير... وهي اللغة المستخدمة في المراسلات الداخلية ضمن الوزارة. كانت تلك الرسائل على النحو التالي:

التايمز، 17-3-84 خطأ إيراد حديث الأخ الأكبر أفريقيا، تصحيح.

التايمز، 19-12-83 توقّعات خطة خمس ثالث، فصل رابع، خطأ طباعي سطر 83، تدقيق إصدار حالي.

التايمز، 14-2-82 خطأ اقتطاف ما قالت وزافرة عن شوكولا، تصحيح.

التايمز 3- 12-83 إيراد أمر يوم أخ أكبر ازدواج سيئ إشارة لا أشخاص إعادة كتابة كامل جهات أعلى عدم حفظ.

وضع ونستون الرسالة الرابعة جانباً وهو يشعر بشيء من الارتياح. كان ذلك عملاً دقيقاً مسؤولاً من الأفضل تأجيله حتى النهاية. وأما الأشغال الثلاثة الباقية فكانت مسائل روتينية، رغم أن الثاني يتطلّب، على الأرجح، بحثاً مرهقاً في قوائم رقمية.

ضغط ونستون «رقماً خلفياً» على الشاشة طالباً الأعداد التي حدّدها من التايمز، ولم تمضِ إلا دقائق معدودة حتى وصلته الأعداد عبر الأنبوب الهوائي. كانت الرسائل التي وصلته تشير إلى مقالات أو مواد إخبارية كان من الواجب تعديلها لسببٍ أو لآخر، أو كان من الواجب «تصحيحها» وفق العبارة الرسمية. على سبيل المثال، قالت التايمز في عدد يوم السابع عشر من آذار(مارس) إن الأخ الأكبر تنبأ، في خطابه في اليوم الذي سبق ذلك، بأن جبهة الهند الشرقية سوف تظل هادئة؛ إلا أن أوراسيا سوف تشن هجوماً في شمال أفريقيا في وقتٍ قريب. لكن ما حدث هو أن القيادة الأوراسية العليا شنت هجومها في جنوب الهند ولم تفعل شيئاً في شمال أفريقيا. وبالتالي، كان من الضروري، أن تجري إعادة كتابة تلك الفقرة من كلمة الأخ الأكبر على نحوٍ يجعله يتنبأ بما قد حدث فعلاً بعد ذلك. وأما عدد التايمز في الثامن عشر من كانون الأول (ديسمبر) فقد نشر توقّعات رسمية عن الإنتاج المرتقب لمجموعات مختلفة من السلع الاستهلاكية في الربع الرابع من عام 1983، وهو أيضاً الفصل السادس من الخطة الثلاثية التاسعة. ويقدم عدد اليوم بيانات عن الإنتاج الفعلي يتضح منها أن تلك التوقّعات السابقة كانت خاطئةً كلها إلى حدٍّ كبير. وكان عمل ونستون هو تصحيح الأرقام الأصلية من خلال جعلها متوافقة مع الأرقام التي جاءت في ما بعد. وأما الرسالة الثالثة، فقد أشارت إلى

غلطةٍ بسيطةٍ جداً يمكن تصحيحها في خلال دقيقتين. فمنذ وقت قصيرٍ مضى، في شباط (فبراير)، كانت وزارة الوفرة قد أصدرت وعداً («تعهداً قاطعاً»، وفق الكلمات الرسمية) مفاده أن مخصصات الشوكولا لن يجري إنقاصها خلال عام 1984. وأما في الواقع، فقد أنقصَت مخصصات الشوكولا من ثلاثين غراماً إلى عشرين غراماً في نهاية الأسبوع الحالي. هذا ما كان ونستون يعرفه بالفعل! ولم يكن يلزم الآن إلا أن يستبدل بالوعد السابق تحذيراً مفاده أنه قد يكون من الضروري إنقاص حصة الشوكولا في وقتٍ ما من شهر نيسان (أبريل).

وكلما كان ونستون ينجز ما يتعلق بواحدة من هذه الرسائل، كان يشبك تصحيحاته التي سجّلتها الآلة بالنسخة الموافقة من التايمز ثم يدفع بها إلى الأنبوب الهوائي. وبعد ذلك، بحركةٍ غير واعية إلى أقصى حد ممكن، كان يكَرمِش الرسالة الأصلية وأي ملاحظات كان قد كتبها بنفسه ثم يلقي بها كلّها في ثقب الذاكرة حتى تلتهمها النيران.

ما كان ونستون يعرف تفاصيل ما يحدث في تلك المتاهة غير المرئية التي تفضي إليها الأنابيب الهوائية. إنما كان يعرفه على نحوٍ عام. فما أن يتم إجراء التصحيحات التي يصدف أن تكون لازمة على أي عددٍ من أعداد التايمز، حتى تُعاد طباعة العدد مرةً أخرى مع إتلاف النسخة الأصلية بحيث تحلّ النسخة المصحّحة بدلاً منها في الملفات المحفوظة. وما كانت عملية التعديل المستمرّة تلك مطبّقة على الصحف وحدها، بل على الكتب، ومختلف أنواع الدوريات والنشرات والملصقات والمنشورات والأفلام والتسجيلات الصوتية وأفلام الصور المتحرّكة والصور الفوتوغرافية... أي على أي نوع من أنواع الأدبيات أو الوثائق التي يُحتمل أن تكون لها أي أهمية سياسية أو إيديولوجية. يوماً بعد يوم، بل دقيقةً بعد دقيقةٍ تقريباً، كان تحديث الماضي يجري على نحوٍ مستمر. وعلى هذا النحو، كان يتم إثبات صحّة كل تنبؤ من جانب الحزب بالدليل الوثائقي. وما كان يُسمح بأن يظل في السجلات أي خبر أو رأي من شأنه أن يتعارض مع مجريات اللحظة الراهنة. كان التاريخ كله يُمسح ويُكتب من جديد، يُمحى تماماً ثم يُكتب كلما دعت الحاجة

إلى ذلك. وما كان إثبات أي تزوير ممكناً في أي حالٍ من الأحوال بعد أن يتم ذلك. وكان القسم الأكبر في دائرة السجّلات... أكبر بكثير من القسم الذي يعمل فيه ونستون... مؤلفاً من أشخاصٍ مهمّتهم تتبع وجمع مختلف نسخ الكتب والصحف وغيرها من الوثائق التي أُبطِلت وصار من الضروري إتلافها. وكان العدد الواحد من التايمز يمكن أن يخضع لإعادة الكتابة عشرات المرات، بسبب تغيرات في التوجّه السياسي أو نبوءات خاطئة أطلقها الأخ الأكبر، وهكذا يظل موجوداً في السجلّات حاملاً تاريخه الأصلي من غير وجود أي نسخة أخرى مناقضة له. وكانت الكتب أيضاً تُستَرجع وتعاد كتابتها مرةً بعد مرة ويعاد إصدارها دائماً من غير أي اعتراف أو إقرار بإجراء أي تعديل عليها. بل إن التعليمات الخطية نفسها التي كان يتلقاها ونستون، والتي كان يتخلّص منها دائماً فور الانتهاء منها، ما كانتُ تشير، لا صراحةً ولا مواربةً، إلى وجوب إجراء أي فعل من أفعال التزوير: كانت تحتوي دائماً على إشارة إلى أخطاء أو هفوات أو أغلاط طباعة أو اقتباس، كان من الضروري تصحيحها توخّياً للدقة.

بل إن ونستون لم يكن يرى في الأمر تزويراً عندما كان يصحح أرقام وزارة الوفرة. لقد كان هذا مجرد استبدال هراءٍ بهراءٍ! فما كان لمختلف المواد التي يتعامل معها المرء أي علاقة بأي شيءٍ في العالم الحقيقي، ولا حتى ذلك النوع من العلاقة بالواقع التي يمكن أن توجد في الكذب المباشر. كانت الإحصاءات خيالاً في نسختها الأصلية بقدر ما هي خيالٌ في نُسَخها المصحّحة. وكان يتعيّن على المرء أن يخترعها اختراعاً في أوقاتٍ كثيرة. وعلى سبيل المثال، توقّعت تنبوءات وزارة الوفرة أن يبلغ إنتاج الأحذية في ذلك الربع من العام مئة وخمسة وأربعين مليون زوج. وأما الإنتاج الفعلي فقد قيل إنه بلغ اثنين وستين مليوناً. وقام ونستون، عندما أعاد كتابة ذلك التنبؤ، بخفض الرقم إلى سبعةً وخمسين مليوناً، وذلك على نحوٍ يسمح بالزعم المعتاد بأن الخطة قد تم تجاوزها! وعلى أي حال، فإن الرقم اثنان وستون مليوناً ما كانَ أقرب إلى الحقيقة من سبعةٍ وخمسين مليوناً، أو من مئة وخمسة وأربعين مليوناً. ومن الممكن تماماً ألا يكون قد جرى إنتاج أي أحذية على

الإطلاق. بل الأرجح هو أن أحداً لم يكن يعرف كمية الأحذية التي أُنتجت، ولم يكن أحد مهتماً بذلك أصلاً. كل لم يكن يعرفه المرء هو أن تلك الأرقام الفلكية من الأحذية في كل ربع من أرباع السنة كان يتم إنتاجها على الورق بينما من الممكن أن يكون نصف سكان أوقيانيا حفاة الأقدام. هكذا هو الأمر في ما يتعلق بكل صنفٍ من أصناف الحقائق الموجودة في السجلّات، صغيرةً أو كبيرة. كان كل شيء يضمحل بعيداً في عالمٍ من الظلال... عالمٌ صار حتى تاريخ السنة فيه غير مؤكّد في آخر المطاف.

ألقى ونستون نظرةً عبر القاعة. كان رجلٌ ضئيل الجسم بارز التقاطيع أسود الذقن يدعى تيلوتسون يعمل منهمكاً في الحُجرة المقابلة. وكان يضع على ركبتيه صحيفةً مطويةً. وقد جعل فمه قريباً جداً من المايكروفون. أوحت هيئته بأنه يحاول إبقاء ما يقوله سراً بينه وبين الشاشة. رفع رأسه في اتجاه ونستون فالتمعت نظارته على نحوٍ عدائي.

كان ونستون لا يكاد يعرف تيلوتسون. وما كانت لديه فكرة عن طبيعة عمله. ولم يكنالناس في قسم السجلّات يتحدّثون عن أعمالهم عادةً في تلك القاعة الطويلة الخالية من النوافذ التي تحتوي على صفين من الحُجرات والتي تُسمع فيها خشخشات الأوراق التي لا تنتهي وهمسات الأصوات المتمتة في المايكروفونات: أكثر من عشرة أشخاص لا يعرف ونستون أسماءهم رغم أنه يراهم كل يوم يروحون ويجيئون مسرعين في الممرات أو معبّرين عن غضبهم في خلال دقيقتَي الكراهية. كان يعرف أن المرأة ذات الشعر الذي بلون الرمل في الحجرة المجاورة. كانت تعمل يوماً بعد يوم في تتبّع وحذف أسماء الأشخاص الذين جرى تبخيرهم فصار من الواجب اعتبار أنهم ما كانوا موجودين أبداً. كان ثمة توافُق مع حالتها لأن زوجها نفسه كان قد تم تبخيره قبل عامين! وعلى مسافة بضع حجرات، كان ثمة كائنٌ حالمٌ خاملٌ لطيف يدعى أمبليفورث له أذنان عليهما شعر كثير ويتمتّع بموهبةٍ مدهشةٍ في التلاعب بالأوزان والقوافي. كان ذلك الرجل منهمكاً في إنتاج نسخ مشوَّهة... يسمّونها «نصوصاً نهائية»... من القصائد التي صارت مرفوضةً

من الناحية الإيديولوجية؛ لكنهم ـ لسببٍ أو لآخر ـ ظلوا محتفظين بها في سجلّات الأدب. وما كانت تلك القاعة، بما فيها من العاملين الذين يبلغ عددهم خمسين شخصاً أو ما يقارب ذلك، إلا قسماً فرعياً، خليةً واحدة في الواقع، من دائرة السجلّات المعقّدة الضخمة. وكان من فوقها وتحتها وأعلى منها، مجموعات غفيرة من العاملين المنهمكين في كثرةٍ لا تحصى من المهمات. وكانت هنالك أيضاً أماكن الطباعة بما فيها محررون فرعيون وخبراء الطباعة واستوديواتهم ذات التجهيزات الكثيرة من أجل تزوير الصور. وهنالك أيضاً قسم البرامج المُذاعة بما فيه من مهندسين ومنتجين وفرق الممثلين المختارين خصيصاً لمهارتهم في تقليد الأصوات. وهنالك جيوشٌ من الموظفين الذين ينحصر عملهم في وضع قوائم بالكتب والمطبوعات الدورية التي من الواجب تصحيحها. وثمة مخازن ضخمة يجري فيها تخزين الوثائق المصححة، بالإضافة إلى الأفران الخبيئة التي يجري فيها إتلاف الوثائق الأصلية. وفي مكانٍ ما، مكانٍ غير معروفٍ على الإطلاق، تجلس العقول التي تدير هذا العمل كله وتنسِّقه وتضع السياسات التي يكون من الضروري، وفقاً لها، الحفاظ على جزء بعينه من التاريخ، وتزوير جزء آخر، وحذف جزء ثالث من الوجود.

على أن دائرة السجلّات نفسها كانت، بعد كل حساب، مجرّد فرع واحد من فروع وزارة الحقيقة. وهو فرع تتمثّل مهمته الأولى لا في إعادة إنشاء الماضي من جديد، بل في تزويد مواطني أوقيانيا بالصحف، والأفلام، والكتب التعليمية، والبرامج التي تبثّها الشاشات، والمسرحيات، والروايات... بما فيها من مختلف الأنواع التي يمكن تصورها من المعلومات أو التعليمات أو التسلية، من التماثيل إلى الشعارات، ومن القصائد الشعبية إلى أبحاث البيولوجيا، ومن كتب التهجئة المخصّصة للأطفال إلى قواميس اللغة الجديدة. وما كان عمل الوزارة مقتصراً فقط على تلبية الاحتياجات المتنوّعة للحزب، بل أيضاً عليها القيام بالعملية نفسها على مستوى أدنى من ذلك... من أجل البروليتاريا! كانت هنالك سلسلة كاملة من الأقسام المستقلّة التي تتعامل مع أدب البروليتاريا وموسيقى البروليتاريا ودراما

البروليتاريا، وكل ما يتعلّق بالترفيه عامةً. ويجري في هذه الأقسام إنتاج صحف وضيعة لا تكاد تحتوي على أي شيء اللّهم إلا أخبار الرياضة والجرائم والتنجيم، بالإضافة إلى قصصٍ تباع الواحدة منها بخمسة سنتات، وأفلام الإثارة الجنسية، وأغنيات عاطفية يجري تأليفها كلّها باستخدام وسائل ميكانيكيّة عبر نوعٍ خاصٍ من الآلات يعرف باسم «ناظمة الشعر». بل إن ثمة أيضاً قسماً فرعياً كاملاً... يدعونه «قسجنس» في اللغة الجديدة... مهمته هي إنتاج أحط أنواع المواد الإباحية التي يجري إرسالها في مغلفات مختومة؛ وباستثناء من يعملون فيها، لا يجوز لأي عضو من أعضاء الحزب الاطلاع عليها.

كان الأنبوب الهوائي قد قذف ثلاث رسائل جديدة بينما كان ونستون يعمل. لكنها كانت تتعلّق بأمور بسيطة كلّها استطاع الفراغ منها قبل أن تداهمه دقيقتا الكراهية. وعندما انتهت الكراهية عاد ونستون إلى حجرة عمله فتناول قاموس اللغة الجديدة عن الرف وأزاح آلة الإملاء جانباً، ثم نظف نظارته وانكبّ على عمله الرئيسي لهذا الصباح.

كان عمل ونستون أكبر المُتَع في حياته! لقد كان أكثر هذا العمل مرهقاً وروتيناً، لكنه يشتمل أيضاً على مهمات شديدة الصعوبة والتعقيد بحيث يستطيع المرء نسيان نفسه فيها كمن يغوص في أعماق مسألة رياضية... كانت أعمال تزوير دقيقة لا يجد المرء فيها ما يهتدي به إلا معرفته بمبادئ «إشتنج» وقدرته على تخمين ما يريد أن يقوله الحزب. كان ونستون ماهراً في هذا النوع من الأعمال. بل حدث أيضاً أن عُهِدَ إليه بتصحيح المقالات الافتتاحية في التايمز التي كانوا يكتبونها كلّها باللغة الجديدة. فتح ونستون الرسالة التي كان قد وضعها جانباً. كان في الرسالة:

التايمز 3- 12- 83 إيراد أمر يوم أخ أكبر ازدواج سيئ إشارة لا أشخاص إعادة كتابة كامل جهات أعلى عدم حفظ.

كان من الممكن وضع هذه الرسالة في اللغة القديمة (أو الإنجليزية القياسية) على النحو التالي:

إن إيراد الأمر اليومي للأخ الأكبر في صحيفة التايمز، يوم الثالث من كانون

الثاني 1983، غير مرضٍ على الإطلاق، كما أنه يشير إلى أشخاص غير موجودين. أعدُّ كتابة المقالة بالكامل وارفع المسوّدة إلى الجهات الأعلى قبل حفظها.

قرأ ونستون المقالة الخاطِئة المُسيئة. من الواضح أن أمر الأخ الأكبر لذلك اليوم كان مخصصاً على نحوٍ رئيسي للإشادة بعمل مؤسسة تدعى (ف ف س س) كانت مسؤولةً عن إمداد بحّارة القلاع العائمة بالسجائر وغيرها من أسباب الراحة. وقد تلقّى شخص بعينه، هو الرفيق ويذرز الذي كان عضواً بارزاً في الحزب الداخلي، ثناءً خاصًّا متميزاً، كما نال وساماً هو وسام الاستحقاق المتميّز من الدرجة الثانية.

وبعد ثلاثة أشهرٍ من ذلك، جرى حلّ (ف ف س س) على نحوٍ مفاجئ من غير إبداء أي أسباب. وكان من الممكن افتراض أن ويذرز ومن معه قد حلّ بهم الخزي، لكن من غير وجود أي ذِكْرٍ لهذا الأمر في الصحف أو على الشاشة. كان هذا أمراً يمكن توقّعه لأن من غير المألوف تقديم من يرتكبون الجرائم السياسية إلى المحاكمة، أو حتى شجب أعمالهم على الملأ. كانت التطهيرات الكبيرة التي طالت آلاف الأشخاص، مع ما رافقها من محاكماتٍ علنية للخَوَنة ومجرمي الفكر الذين أدلوا باعترافاتٍ ذليلة عن جرائمهم ثم أعدموا بعد ذلك حالات استعراضية خاصّة لا تحدث أكثر من مرة كل سنتين. وأما الحالة الأكثر شيوعاً، فهي أن الأشخاص الذين يرتكبون ما يزعج الحزب يختفون بكل بساطة ثم لا يُسمَع شيءٌ عنهم بعد ذلك! ولا يكون لدى المرء أي شيء يشير إلى ما قد حل بهم. بل هم لا يكونون حتى أمواتاً في بعض الأحيان! ولعل ثلاثين شخصاً ممن يعرفهم ونستون معرفةً شخصية، فضلاً عن والديه، قد اختفوا في وقتٍ أو آخر.

راح ونستون يحكّ أنفه بمشبك ورق حكّاً لطيفاً. وفي حجرة العمل على الناحية المقابلة، كان الرفيق تيلوتسون لا يزال يتحدّث في مايكروفونه بطريقةٍ توحي بالسرّية. رفع رأسه لحظةً واحدة: ومن جديد جاءت تلك الومضة العدائية من نظارته. تساءل ونستون في نفسه إن كان الرفيق تيلوتسون منهمكاً في العمل نفسه الذي عكف عليه هو أيضاً. إن هذا ممكنٌ تماماً! لا يمكن أبداً أن يُعهَدَ بعملٍ دقيقٍ على هذا النحو إلى شخصٍ واحد. أما من ناحيةٍ أخرى، فإن من شأن تكليف لجنة

بهذا العمل أن يعني اعترافاً صريحاً بحدوث عمل من أعمال التزوير! من الممكن جداً أن يكون أكثر من عشرة أشخاص يعملون الآن على إعداد نسخ متنافسة لما قاله الأخ الأكبر فعلاً. وعلى الفور، سوف يقوم أحد الأدمغة الكبيرة في الحزب الداخلي باختيار هذه النسخة أو تلك، ثم يقوم بتنقيحها من جديد لتبدأ عملية ضبط المراجعة المعقّدة الضرورية. وبعد ذلك تذهب الكذبة التي وقع الاختيار عليها إلى السجلات الدائمة حيث تصبح حقيقة.

ما كان ونستون على علمٍ بالسبب الذي جعل الحزب يغضب على ويذرز. لعل ذلك كان بسبب الفساد أو عدم الكفاءة! أو لعلّ الأخ الأكبر كان يتخلّص فحسب من أحد تابعيه الذي صار يحظى بشعبيةٍ أكثر مما يجب. ولعلّ شبهة الميول الهرطوقية قد أحاطت بويذرز أو بأحد الأشخاص المقربين منه. وربما... بل هو الاحتمال الأكثر ترجيحاً من بين هذه الاحتمالات كلّها... يكون الأمر كلّه قد حدث لمجرد أن عمليات التطهير والتبخير جزء ضروري من آليات عمل الحكومة. إن العلامة الحقيقية الوحيدة كامنةٌ في الكلمات «إشارة لا أشخاص» التي تشير إلى أن ويذرز قد مات. لا يستطيع المرء افتراض حدوث ذلك لكل من يُعتقل من غير استثناء! فهم يطلقون سراحهم في بعض الأحيان ويسمحون لهم بالعودة إلى الحرية سنةً أو سنتين قبل إعدامهم. وفي بعض المناسبات القليلة، يحدث أن يظهر، مثلما يظهر الشبح، شخصٌ ظننته ميتاً منذ زمنٍ طويل، وذلك عبر محاكمةً علنية يورِّط فيها مئات الأشخاص الآخرين من خلال شهادته قبل أن يختفي إلى الأبد هذه المرة. لكن ويذرز كان «لا شخص» منذ الآن! لم يوجد قط: لم يكن له وجودٌ أبداً. قرر ونستون أنه لن يكون كافياً أن يقصر عمله على تغيير وجهة حديث الأخ الأكبر. لقد كان من الأفضل جعل الحديث يتناول شيئاً مختلفاً تماماً لا صلة له بالموضوع الأصلي. يستطيع ونستون قلب الحديث ليصبح ذلك الشجب المعتاد للمتآمرين ومجرمي الفكر. لكن من شأن هذا أن يكون أكثر وضوحاً مما يجب. يمكن اختراع نصر عسكري ما على إحدى الجبهات، أو اختراع نصر آخر من انتصارات زيادة الإنتاج في الخطة الثلاثية التاسعة! لكن هذا قد يؤدي إلى تعقيدٍ زائدٍ في السجلّات.

هناك حاجةٌ إلى شيء من الخيال المحض! وعلى نحوٍ مفاجئ، انبثقت في ذهنه... جاهزةً بالفعل... صورة الرفيق أوغيلفي الذي قُتِل في المعركة منذ فترةٍ وجيزة وفي ظروفٍ بطولية. كانت ثمة حالات يعمد الأخ الأكبر فيها إلى تكريس الأمر اليومي من أجل تخليد ذكرى أحد أعضاء الحزب من الصفوف الخلفية بحيث يجري تقديم حياته وموته باعتبارهما مثالٌ يستحق اتباعه. ومن المناسب اليوم أن يحيي ذكرى الرفيق أوغيلفي. صحيح أنه لا وجود لشخص اسمه الرفيق أوغيلفي، لكنَّ سطرين مطبوعين وصورتين فوتوغرافيتين مزوَّرتين ستكونان كافيتين لجعله موجوداً بالفعل.

فكّر ونستون لحظة، ثم جذب آلة الإملاء صوبه وراح يملي وفق أسلوب الأخ الأكبر المألوف: أسلوب عسكري ومتكلّف في الوقت نفسه، لكنه سهل التقليد بسبب استخدامه طريقة طرح الأسئلة ثم الإجابة عنها سريعاً (ما الدروس التي نتعلمها من هذا الأمر يا رفاق؟ الدرس هو أن... وهو أيضاً أحد المبادئ التأسيسية للإشتنج، ...، إلخ).

كان الرفيق أوغيلفي قد رفض، منذ أن بلغ الثالثة من عمره، مختلف أنواع الألعاب باستثناء الطبل والبندقية الرشاشة ونموذجاً لطوّافة. وفي السادسة، انضمّ إلى عصبة الجواسيس قبل سنة واحدة من العمر الذي يسمح بالانضمام إليها وذلك بسبب استثناء خاص. وفي التاسعة صار قائد مجموعة! وعندما بلغ الحادية عشرة، وشى بعمّه إلى شرطة الفكر بعد أن استرق السمع إلى محادثة بدا له أن فيها ميولاً إجرامية. وعندما بلغ السابعة عشرة، صار مسؤول التنظيم لإحدى المناطق ضمن رابطة الشباب المعادي للجنس. وفي التاسعة عشرة أنجز تصميم قنبلة يدوية اعتمدتها وزارة السِّلم فقتلت واحداً وثلاثين سجيناً أوراسياً في تفجير واحد عند تجربتها أول مرة. وفي الثالثة والعشرين، قُتل الرفيق أوغيلفي في إحدى العمليات. فبعد أن طاردته طائرات نفاثة معادية عند طيرانه فوق المحيط الهندي ذاهباً في مهمّة، قام بتثقيل جسمه مستخدماً بندقيته الرشاشة ثم قفز من الطوّافة إلى عرض البحر ومعه ما بحوزته من وثائق، وكل شيء... إنها نهاية لا يمكن التأمّل

فيها من غير الشعور بالحسد، هذا ما قاله الأخ الأكبر. ثم أضاف الأخ الأكبر بضع ملاحظات متعلّقة بنقاء حياة الرفيق أوغيلفي وثباته على مبادئه. لقد كان ممتنعاً عن الجنس امتناعاً كاملاً. وكان غير مدخِّنٍ. وما كانت لديه أي تسلية إلا تلك الساعة اليومية التي يمضيها في صالة التدريب الرياضي. كما قطع على نفسه عهداً بالعزوبية الدائمة لاعتقاده بأن الزواج ورعاية أسرة أمران غير منسجمين مع الإخلاص للواجب الذي يقتضي العمل أربعاً وعشرين ساعةً في اليوم. وما كان لديه أي مواضيع يتحدث فيها إلا مبادئ إشتنج، ولا هدف في الحياة إلا هزيمة الجيش الأوراسي والإيقاع بالجواسيس والمخرّبين ومجرمي الفكر، والخَوَنة عمومًا.

فكر ونستون في نفسه ما إذا كان من الواجب منح الرفيق أوغيلفي وسام الاستحقاق المتميز: قرر في النهاية عدم منحه الوسام بسبب ما يستتبعه ذلك من عودة إلى تصحيح سجلات كثيرة أخرى.

التفت مرة أخرى صوب منافسه في حجرة العمل المقابلة. بدا له أن ثمة شيئاً يؤكّد له أن تيلوتسون منهمكٌ في الموضوع نفسه أيضاً. لا سبيل إلى معرفة الشخص الذي سوف يتم اعتماد عمله في النهاية. لكن ونستون شعر باقتناع عميق مفاده أن الاختيار سيقع على عمله هو. لقد صار الرفيق أوغيلفي حقيقة الآن بعد أن كان تخيّله غير ممكن قبل ساعة واحدة! فاجأته تلك الحقيقة العجيبة القائلة إن في وسعك خلق رجل ميت، لكنك لا تستطيع ذلك مع رجلٍ حَيّ. لم يكن الرفيق أوغيلفي موجوداً في الزمن الحاضر؛ لكنه موجود في الماضي الآن. وبعد نسيان فعل التزوير هذا، سوف يوجد الرفيق أوغيلفي باعتباره حقيقة لا شكّ فيها استناداً إلى أدلّة لا تقل شأناً عن أدلّة وجود شارلمان أو يوليوس قيصر.

5

كان صف المنتظرين يتحرّك بطيئاً في قاعة الطعام المنخفضة السقف تحت سطح الأرض. وكانت القاعة شديدة الازدحام وفيها ضجيج يصمّ الآذان. وعلى الشبك المعدني فوق طاولة توزيع الطعام كانت رائحة حمضية لاذعة ترافق أبخرة الطعام المسلوق المتصاعدة، لكنها ما كانت لتطغى على رائحة جن النصر. كان في الناحية القصية من القاعة ثقب صغير في الجدار بحيث يستطيع المرء شراء قدح من ذلك الجن بعشرة سنتات.

صاح صوت من خلف ونستون: «هذا هو الرجل الذي أبحث عنه!».

التفت ونستون فوجد صديقه القديم سايم، الموظف في قسم الدراسات. (لعل كلمة صديق ليست بالكلمة الملائمة هنا! لم يكن للمرء أصدقاء في تلك الأيام، بل هم رفاق فحسب! على أن من بين هؤلاء الرفاق أشخاص تكون رفقتهم أرحم من رفقة غيرهم). كان سايم لغوياً متخصّصاً في اللغة الجديدة. وقد كان حقاً واحداً من فريق كبير من الخبراء العاكفين على إعداد الطبعة الحادية عشرة من قاموس اللغة الجديدة. وكان مخلوقاً ضئيل الجسم... أصغر حجماً من ونستون... كان أسود الشعر وله عينان واسعتان جاحظتان فيهما شيء من الحزن والسخرية معاً. كان المرء يشعر بأن هاتين العينين تتفحصان وجهه عندما يتحدّث صاحبهما معه.

قال سايم: «كنت أريد أن أسألك إن كان لديك شفرات حلاقة».

قال ونستون بعجالةٍ يخالطها إحساسٌ بالذنب: «ليس عندي أي واحدةٍ منها. لقد بحثت عنها في كل مكان، لكني لم أعد أستطيع العثور عليها».

كان الجميع يسأل عن شفرات الحلاقة دائماً. وفي الحقيقة، كانت لدى ونستون شفرتان لم يستعملهما حتى الآن. إلا أنه يدّخرهما لوقت الحاجة. ثمة نقص شديد في الشفرات منذ عدة أشهر. فعلى الدوام، تتوقف متاجر الحزب عن تزويد الناس

بسلعة ما من تلك السلع الضرورية. فمرة الأزرار، ومرة خيطان الصوف المستعملة لرتق الملابس، أو شرائط ربط الأحذية! وأما الآن، فالسلعة المفقودة هي شفرات الحلاقة التي لا يستطيع المرء أن يظفر بشيء منها إلا بالبحث عنها على نحو شبه سري في السوق السوداء.

تابع ونستون كاذباً: «أنني أستعمل الشفرة نفسها منذ ستة أسابيع!».

تحرّك الصف مرة أخرى إلى الأمام. وعندما توقف، استدار ونستون إلى سايم من جديد. تناول كل منهما صينية من كومة الصينيات المعدنية على الطاولة. كانت سطوح الصينيات متسخة بشيء لزج يشبه الشحم.

بادره سايم: «هل ذهبت لرؤية شنق السجناء أمس؟».

قال ونستون بقدرٍ من عدم الاكتراث: «كنت أعمل. سوف أشاهدهم على الشاشة... على الأرجح».

أجابه سايم: «هذا لا يغني عن الذهاب إطلاقاً». كانت عيناه تحدقان ساخرتين في وجه ونستون الذي شعر بأنهما تقولان له: «أعرفك، وأرى ما في دخيلتك. أعرف جيداً سبب عدم ذهابك لمشاهدة شنق السجناء».

كان سايم شديد الولاء لإيديولوجيا الحزب على المستوى الفكري. وكان المرء يراه يتحدث مبتهجاً شامتاً إلى حد كريه عن الغارات التي تشنّها الطوافات على قرى الأعداء، وعن محاكمات مجرمي الفكر واعترافاتهم، وكذلك عن الإعدامات التي تُجري داخل زنزانات وزارة المحبّة. أما إن أراد المرء أن يتحدّث معه، فإن الأمر متوقف على مدى قدرته على تحويل الحديث إلى موضوع آخر حتى يبعده عن هذه الأمور، وحتى يستدرجه إن أمكنه ذلك إلى الحديث عن الجوانب الجمالية في اللغة الجديدة التي كان سايم بارعاً فيها حقاً، وكان يحبها. أشاح ونستون بوجهه جانباً حتى يتحاشى تلك النظرة المدققة في عيني سايم السوداوين المتسعتين.

تابع سايم قائلاً: «كان الشنق جيداً. لكنني أظن بأنهم يفسدونه عندما يربطون قدمي المشنوق معاً. أحب أن أراهم يرفسون بأقدامهم. لكن لحظة الإثارة هي

اللحظة التي تأتي في النهاية عندما يتدلّى اللسان مزرقاً إلى الخارج. تلك هي اللحظة التي تعجبني».

صاح عامل يلبس مريلةً بيضاء حاملاً مغرفته بيده: «التالي من فضلكم».

وضع كل من ونستون وسايم صينيته تحت شبك التوزيع فصب العامل لكل منهما الوجبة التي يحدّدها النظام: قصعةٌ من أكلة مسلوقة لها لونٌ رمادي قرمزي، وقطعة من الخبز، ومكعب من الجبن، وفنجان من قهوة النصر من غير حليب، وقطعة واحدة من السكّر.

قال سايم: «ثمة طاولة شاغرة تحت الشاشة. لنأخذ قدحين من الجن ونذهب إليها».

كانوا يقدّمون الجن في أقداحٍ من الصيني ليس لها مقابض. شقّ الرجلان طريقهما عبر القاعة المزدحمة. ثمّ وضعا الصينيتين على الطاولة ذات السطح المعدني. كانت على إحدى زوايا الطاولة برك صغيرة من حساء تركه البعض. بدت تلك البقع كأنها طعام تقيأه شخص ما. أمسك ونستون بقدح الجن. توقف هنيهة حتى يستجمع قواه ثم ابتلع تلك المادة الزيتية الطعم جرعة واحدة. أحسَّ بالجوع فجأة عندما نفرت الدموع من عينيه، فراح يلتهم الحساء الذي كانت فيه أشياء لزجة تشبه مكعبات وردية اللون هلامية القوام... لعلها كانت مصنوعة من اللحم! أنهى كل منهما طعامه من غير أن يتفوّه بكلمة واحدة. كان شخص إلى الطاولة الموجودة إلى يسار ونستون، وراء ظهره قليلاً، يتحدّث حديثاً سريعاً متواصلاً ويوقوق مثل بطة يخترق صوتها ضجيج القاعة كلّها.

سأل ونستون رافعاً صوته ليطغى على ضجيج المكان: «إلى أين وصل عملك في المعجم؟».

قال سايم: «أتقدّم، لكن بطيئاً! إنني في فصل النعوت الآن. عمل جذّاب!».

أضاء وجه سايم عند ذكر اللغة الجديدة. أزاح قصعته جانباً وتناول بيده قطعة الخبز وباليد الأخرى قطعة الجبن. انحنى برأسه فوق الطاولة حتى يتمكّن من الكلام بصوت خفيض.

قال: «ستكون الطبعة الحادية عشرة طبعةً نهائية. نحن نضع اللغة في صيغتها النهائية، في شكلها الذي لن يجري الحديث بغيره بعد ذلك. وعندما ينتهي عملنا، فسوف يضطر الآخرون، من أمثالك أنت، أن يتعلّموا اللغة من جديد! لعلّك تظنّ أن اختراع كلمات جديدة هو عملنا الرئيسي! لا، أبداً! نحن لا نقوم بهذا أبداً. نحن نحطم الكلمات... نُجرى تدمير عشرات الكلمات، بل مئات الكلمات، كل يوم. إننا نسلخ اللغة حتى عظامها. لن تضم الطبعة الحادية عشرة كلمة واحدة يُحتمل أن يتوقف استخدامها قبل عام 2050».

راح يقضم الخبز ويبتلعه بنَهَم. ثم واصل حديثه متحذلقاً بعض الشيء، وقد طغت الحيوية على وجهه الداكن النحيل وزالت نظرة السخرية من عينيه فحلّت محلها سكينةٌ حالمة.

أضاف بعد شيء من التفكير: «إن تدمير الكلمات أمرٌ جميل! وطبيعي أن تكون نسبة التدمير أكبر في الأفعال والصفات. إلا أن ثمة أسماء كثيرة يمكن التخلّص منها أيضاً، فضلاً عن الأضداد والمترادفات! ما مبرر وجود كلمة لا تعدو أن تكون نقيضاً لكلمة أخرى؟ ألا تحمل كل كلمةٍ نقيضها في ذاتها؟ فلنأخذ كلمة «جيد» على سبيل المثال. إذا كانت لدينا هذه الكلمة، فما حاجتنا إلى كلمة «سيئ»؟ إن «غير جيد» تفي بالمعنى تماماً. بل لعلّها أفضل لأنها تحمل المعنى المضاد بالضبط، بينما لا تحمله الكلمة الأخرى على نحو مكتمل إلى هذا الحد. وإذا أردنا تعبيراً أقوى من كلمة «جيد»، فما فائدةَ أن تكون لدينا هذه المتوالية كلها من كلماتٍ غامضة لا نفع فيها من قبيل «ممتاز» و«رائع»، وهكذا دواليك؟ ألا تفي كلمة «جيد جداً» بالمراد؟ أو يمكن أن تكون «جيد جداً جداً» إذا أردنا معنى أقوى! نحن نستخدم هذه الصيغ بالتأكيد. وأما في الطبعة النهائية من قاموس اللغة الجديدة، فلن تكون موجودة أبداً. سوف يكون فهمنا للجودة والسوء محكوماً تماماً بست كلمات فحسب في نهاية الأمر... بل بكلمة واحدة في واقع الأمر! ألا ترى هذا رائعاً يا ونستون؟ إنها فكرةٌ من أفكار الأخ الأكبر في الأصل».

بدا شيء من الحماسة المفتعلة على وجه ونستون عندما جاء ذكر الأخ الأكبر. لكن سايم استطاع من فوره أن يلمس شيئاً من الفتور في هذه الحماسة.

أردف قائلاً وقد بدا الأسف على وجهه: «الظاهر أنك لا تدرك مكانة اللغة الجديدة يا ونستون. بل إن اللغة القديمة تظلّ مسيطرة على تفكيرك حتى عندما تكتب باللغة الجديدة. إنني أقرأ الفقرات التي تكتبها من حينٍ لآخر في صحيفة التايمز. صحيح أنها جيدة بعض الشيء، لكنها تظلّ شبيهةً بالترجمة رغم ذلك. أنت ميالٌ، في داخلك، إلى استخدام اللغة القديمة رغم كل ما فيها من غموض والتباس ومعانٍ فرعيةٍ لا فائدة منها. أنت لا تدرك جمال تدمير الكلمات! هل تعرف أن اللغة الجديدة هي اللغة الوحيدة في العالم كله التي يتناقص عدد مفرداتها كل عام؟».

بالتأكيد، كان ونستون يعرف هذا! لكنه ابتسم ولم يعلّق بشيء. لقد خاف أن يخونه لسانه، وكان يأمل في شيءٍ من التعاطف من جانب سايم. أخذ سايم قضمةً جديدةً من خبزته السمراء فابتلعها سريعاً وتابع يقول: «ألا تدرك أن الهدف النهائي من اللغة الجديدة هو الحد من آفاق التفكير بحيث تصبح جريمة الفكر شيئاً مستحيل الوقوع من الناحية النظرية في آخر الأمر؟ لن يجد المرء كلمات تمكّنه من أن يرتكب هذه الجريمة! سوف يجري التعبير عن كل مفهوم يحتاج إليه الناس بكلمةٍ واحدةٍ لها معنى محدّد واضح لا يقبل تأويلاً. وأما المعاني الفرعية فسوف تُطمس إلى أن ينساها الناس. لن نكون بعيدين عن ذلك الهدف في الطبعة الحادية عشرة. لكن هذه العملية متواصلة على هذا النحو، وستظل متواصلةً حتى بعد أن نختفي أنا وأنت من هذا العالم. سوف تتناقص الكلمات عاماً بعد عام، مثلما يتناقص الوعي والإدراك شيئاً بعد شيء! بل إن جريمة الفكر ما عادت تجد سبباً أو عذراً يبرر اقترافها، حتى في وقتنا هذا! صار الأمر متعلّقاً بالانضباط الذاتي؛ وصار نوعاً من الضبط يفرضه المرء على واقعه. لكن، لن تكون ثمة حاجة حتى إلى هذا الضبط في آخر المطاف. ستبلغ الثورة مداها عندما تكتمل اللغة ويتم إتقانها. إن إشتنج هي اللغة الجديدة، واللغة الجديدة هي إشتنج!»، قال هذه الكلمات منتشياً

تمام النشوة. ثم أضاف: «هل خطر في بالك أن أحداً لن يبقى على وجه الأرض، مع حلول عام 2050 على أبعد تقدير، يستطيع أن يفهم حديثاً كحديثنا هذا؟».

قال ونستون معلّقاً: «لكن... دعنا نستثني...»، قال هذه الكلمات متردداً ثم لم يكملها. لقد كان موشكاً على القول: «دعنا نستثني عامة الناس». لكنه أمسك نفسه عندما أحسَّ أن هذه الملاحظة يمكن أن تُفهَم، على نحوٍ ما، على أنها نقصٌ في الولاء لديه. لكن سايم أدرك ما كان ونستون موشكاً على قوله!

قال من غير اهتمام: «إن أبناء العوام ليسوا من البشر! وأما عندما يأتي عام 2050، أو قبل ذلك، فسوف تكون معرفة الناس الحقيقية باللغة القديمة قد انتهت. وسيكون التراث الأدبي القديم قد باد كلّه. وأما أعمال تشوسر وشكسبير وملتون وبايرون فلن تكون موجودةً إلا عبر ترجماتها في اللغة الجديدة. ولن يقتصر التغيير الذي يصيبها على جعلها مختلفةً عما كانت عليه فحسب، بل سوف تتحوّل إلى نقيض ما ألِفه الناس فيها. بل إن أدبيات الحزب نفسه سوف تتغير، وستتغير شعاراته أيضاً! فكيف يمكن أن يتبنى الحزب شعاراً يقول «الحرية هي العبودية»، في حين يكون مفهوم الحرية نفسه قد جرى تدميره؟ سوف يتغيّر الجو الفكري كلّه! والحقيقة هي أنه لن يكون ثمة «تفكير» على النحو الذي نعرفه الآن! إن الولاء يعني انعدام التفكير، بل يعني انعدام الحاجة إلى التفكير أيضاً. الولاء هو عدم الوعي!».

خطر في بال ونستون، على نحوٍ مفاجئ... بل كان مقتنعاً تماماً... أن سايم سوف تتم تصفيته ذات يوم! إنه لامع الذكاء! وهو صاحب بصيرةٍ نافذة وكلام صريح. ولا يناسب الحزب أن يوجد أشخاص من هذا النوع. سيختفي ذات يوم من الوجود... هذا ما رآه مكتوباً على وجهه.

انتهى ونستون من تناول ما لديه من خبز وجبن. ثم اعتدل في جلسته على كرسيه ليشرب قهوته. كان صاحب الصوت الصاخب إلى الطاولة الواقعة إلى اليسار مستمراً في كلامه من غير توقّف. وكانت إلى جواره فتاة شابة تولي ونستون ظهرها... لعلها سكرتيرته! كانت تصغي إلى كلامه ويظهر عليها أنها موافقةٌ على

كل ما يقول. ومن حينٍ لآخر، كان ونستون يفلح في سماع بعض العبارات التي تقولها الفتاة، من قبيل: «أظن أنك على حقٍّ تماماً! أتفق معك بالكامل!»، كانت تقول هذه العبارات بصوتٍ أنثوي، سخيف لكنه حيوي. وأما الصوت الآخر فما كان يكف عن الكلام لحظة واحدة... حتى عندما تكلمه الفتاة.

إن ونستون يعرف هذا الرجل. لكن معرفته به لا تعدو معرفة أنه يحتل موقعاً مهماً في دائرة الإثارة. كان الرجل في نحو الثلاثين من العمر له رقبةٌ قوية العضلات وفمٌ متّسعٌ دائم الحركة. وكان يميل برأسه إلى الخلف قليلاً عندما يتكلّم. كان جالساً في موضعٍ يجعل نظارتيه تعكسان الضوء صوب ونستون الذي كان يرى عينيه وكأنهما عدستان. لكن ما أزعج ونستون حقاً هو أن تمييز كلمة واحدة من سيل الكلمات المندفعة من فم ذلك الرجل كان شبه مستحيل. تمكّن ونستون مرة واحدة من التقاط عبارة... «إبادة غولدشتاين إبادة تامة نهائية». وقد قيلت هذه العبارة على نحوٍ بالغ السرعة. لكن بقية الكلام كانت وقوقةً وضجيجاً، لا أكثر. صحيحٌ أن المرء كان عاجزاً عن تمييز ما يقوله ذلك الرجل، لكن طبيعته العامة ما كانت موضع شك أبداً. لعله كان يهاجم غولدشتاين مطالباً بتدابير أكثر شدة في حق مجرمي الفكر والمخربين. أو لعله كان يندد بما يرتكبه جيش أوراسيا من فظائع. أو لعله يمتدح الأخ الأكبر أو الجنود المقاتلين الأبطال على جبهة مالابار... لا فارق بين هذه الأمور كلها! فمهما يكن موضوع الحديث، يستطيع المرء أن يكون متيقناً من أن كل كلمة يقولها ذلك الرجل تنبع من ولائه الخالص لمبادئ الحزب القويمة. جلس ونستون يراقب ذلك الوجه الخالي من العينين... بفكّيْه المتحرّكين صعوداً وهبوطاً... فداهمه شعورٌ غريب بأن ما يراه ليس إنساناً حقيقةً بل نوع من الدمية. لم يكن عقله هو الذي ينطق، بل حنجرته فقط! ولم يكن ما يقوله كلاماً بالمعنى الحقيقي للكلمة، بل هو كلماتٌ معزولةٌ وضجيجٌ صادرٌ عن حالةٍ من حالات اللاوعي... ضجيجٌ يشبه وقوقة البطة.

صمت سايم برهةً. وراح يلتقط بملعقته تلك البقايا في طبق الحساء. وأما الصوت القادم من الطاولة الأخرى فتابع وقوقته السريعة المرتفعة التي كان سهلاً

على ونستون سماعها رغم كل ما في قاعة الطعام من صَخَب.

قال ونستون: «ثمة كلمة في اللغة الجديدة... لعلك تعرفها... إنها «يوقوق»، أي يصدر صوتاً مثل البطة! إنها كلمةٌ من تلك الكلمات المدهشة التي تحمل معنيين متضادين. إذا وصفت بها خصماً فأنت تسبّه. وإذا وصفت بها من تتفق معه فأنت تمتدحه».

وخطر في بال ونستون أن سايم سوف تجري تصفيته! جاءته تلك الفكرة فشعر بالحزن رغم معرفته أن سايم يحتقره، بل يكرهه بعض الشيء، ورغم معرفته أنه قادرٌ على الوشاية به بتهمة «جريمة الفكر» إذا ما وجد سبباً يدعوه إلى ذلك. لقد كانت لدى سايم خصالٌ سيئة... ما كانت لديه سمة الحذر والتحفّظ... بل كان مفتقراً أيضاً إلى شيئ من ذلك الغباء الذي يحفظ حياة صاحبه. على أنه كان شخصاً صادق الولاء حقاً. لقد كان مؤمناً بمبادئ إشتنج... وكان يُجِلُّ الأخ الأكبر أيما إجلال... ويهتف للانتصارات... ويمقت من انشقوا عن الحزب... بحماسةٍ شديدة، لا بإخلاص عادي فحسب. وكان سايم حريصاً على معرفة آخر المعلومات التي لم يكن أعضاء الحزب العاديين يلتفتون إليها. لكن سمعته كانت موضع شكوك كثيرة لأنه كان يقول أشياء يُستحسن ألّا تُقال، ولأنه قرأ كتباً كثيرةً جداً، وكذلك لأنه كان من روّاد مقهى شجرة الكستناء... ملتقى الرسامين والموسيقيين.

لم يكن ثمة قانونٌ يحظر ارتياد هذا المقهى... لا قانونٌ مكتوب ولا غير مكتوب! لكنه، رغم ذلك، كان مكاناً ليس من المناسب أن يذهب المرء إليه. لقد كان مكان التقاء قادة الحزب القدامى الذين جرى تشويه ماضيهم قبل أن تتم تصفيتهم في آخر المطاف. بل كان يُقال أيضاً إن غولدشتاين نفسه كان يذهب إلى ذلك المقهى منذ بضع سنين أو بضعة عقود! لم يكن التنبؤ بمصير سايم أمراً عسيراً! لكن سايم نفسه لم يكن ليتردد لحظةً واحدة عن الوشاية بونستون إلى شرطة الفكر إن هو عرف أي شيءٍ عن طبيعة الآراء التي يُضمرها في نفسه. هذا ما سيفعله أي شخصٍ آخر في موضعه. لكن سايم كان أكثر حماسةً للحزب من غيره... والحماسة وحدها غير كافية... فالولاء المطلق يعني انعدام الوعي.

نظر سايم ثم قال: «ها هو بارسونز قادماً إلينا». كانت نبرة صوته توحي بأنه يريد أن يقول «الأحمق بارسونز!». كان بارسونز يشقّ طريقه صوبهما عبر قاعة الطعام. إنه جار ونستون في مبنى النصر. كان رجلاً بديناً مربوع القامة أشقر الشعر. وجهه كوجه الضفدع. صحيحٌ أن الشحوم قد تكاثرت في رقبته ووسطه، إلا أنه لا يزال نشيطاً كثير الحركة كأنه فتى. كانت هيئته كلّها توحي بفتى صغير نما وكبر سريعاً. ولم يكن في وسع المرء أن يرى فيه، رغم زيّ العمل العادي الذي يرتديه، إلا صبياً من أعضاء اتحاد الجواسيس بسرواله الأزرق وقميصه الرمادي وربطة عنقه الحمراء. وكأن المرء يرى فيه دائماً صورة ركبتين ظاهرتين من السروال القصير وكمين يتدلى منهما ساعدان قصيران سمينان. كان بارسونز يرتدي سرواله القصير دائماً كلما خرج في نزهة من تلك النزهات الجماعية، أو كلما مارس نشاطاً بدنياً يمكن أن يبرر ارتداء السروال القصير. تقدَّم صوبهما وحَيَّاهما فرحاً ثم جلس إلى الطاولة. وفاحت منه رائحة عرق كثيفة وظهرت على وجهه الأحمر الداكن قطرات من العرق. كان في وسع المرء أن يعرف أن بارسونز كان يلعب كرة الطاولة في المركز الاجتماعي بمجرّد أن يمسك يد المضرب التي صارت رطبةً لفرط تعرقه. أخرج سايم من جيبه ورقةً فيها قائمةٌ طويلة من الكلمات التي كان يدقّقها. وكان يحمل قلمه بين إصبعيه. غمز بارسونز بعينه وقال لونستون معلقاً: «انظر إليه! يدرس حتى في وقت الغداء... ما هذا الحرص؟ ماذا لديك أيها الصبي العجوز؟ هل هو شيءٌ لا أستطيع فهمه؟... هذا ما أظنه». ثم قال لونستون من جديد: «أوتدري لماذا ألاحقك أيها الصبي العجوز؟ لقد نسيت أن تعطيني التبرّع».

أجابه ونستون متسائلاً: «التبرّع... لأي شيء؟»، قالها وهو يتحسّس ما في جيبه من مال. يجب اقتطاع ربع الراتب لدفع تلك التبرّعات التي لا يستطيع المرء حصر عددها!

أجابه بارسونز: «إنه تبرّع من أجل أسبوع الكراهية. لعلك سمعت بصندوق البيوت! أنا أمين الصندوق في بنايتنا. ونحن نبذل جهداً كبيراً لجمع المال حتى نقيم عرضاً ضخماً. يجب أن تعرف أنني لن أكون أنا المخطئ إذا لم نستطع إظهار مبانينا

بالمظهر اللائق وإذا لم نعلّق عليها أكبر عدد من الأعلام في الشارع كلّه. أعطني دولارين من فضلك». وضع ونستون يده في جيبه فأخرج دولارين مجعدين متسخين. سجّل بارسونز التبرع في دفتر صغير يكتب عليه بخط منمّق يشبه خط من لا يحسنون الكتابة كثيراً.

أضاف بارسونز: «صحيح أيها الصبي العجوز... علمت أن ابني المشاغب قد أصابك أمس بمقلاعه الصغير. لقد وبخته وعاقبته بسبب ذلك. وأكدت له أنني سوف أصادر المقلاع إذا فعلها من جديد».

قال ونستون: «أظنه كان منزعجاً لأنه لم يذهب لمشاهدة الشنق».

أجابه بارسونز: «نعم، صحيح! لكنَّ ولديَّ يُظهران، من خلال ذلك، ما يتمتعان به من روحٍ عالية، أليس كذلك؟ هذان الصغيران الشقيان... إنهما مندفعان كثيراً... لا يشغل بالهما إلا الحرب والجواسيس. هل تعرف ما فعلته ابنتي الصغيرة يوم السبت الماضي عندما ذهبت في رحلةٍ مع فريقها على طريق بركهامستد؟ لقد تركت المجموعة بصحبة فتاتين صغيرتين وأنفقن فترة الظهيرة كلها في تعقّب شخص غريب. لقد اقتفين أثره ساعتين عبر الغابة كلها. وعندما وصلن إلى قرية آميرشن قمن بتسليمه لإحدى الدوريات هناك».

سأله ونستون مدهوشاً: «لكن، ما الذي جعلهنّ يفعلنَ ذلك؟»

تابع بارسونز كلامه منتشياً معتزاً: «لقد أدركت ابنتي أنه واحد من عملاء الأعداء! لعل طائرة طوّافة أنزلته هناك! وما يثير الانتباه أيها الصبي العجوز هو السبب الذي جعلها تشك فيه منذ البداية. لقد لاحظت أن لديه نوعاً غريباً من الأحذية... لم تر أحداً يلبس حذاءً مثل حذائه من قبل. وهكذا ظنّت أنه أجنبي! ملاحظةٌ ذكية من طفلةٍ في السابعة من عمرها، أليس كذلك؟».

قال ونستون: «وماذا حدث لذلك الرجل؟».

«لا أعرف ذلك على وجه الدقّة. لكنني لن أتعجّب أبداً إذا...» أكمل بارسونز جملته عن طريق الإشارة إذ رفع أصابعه على شكل مسدس ثم فرقع بلسانه مقلداً صوت إطلاق النار.

«لا بأس»... علّق ونستون بهذه الكلمة، لكنه لم يرفع نظره عن الورقة التي بين يديه. ثم لم يلبث أن أضاف كمن يشعر بأن من واجبه أن يقول ذلك: «لا يمكننا الدخول في أي مخاطرة، بكل تأكيد!».

قال بارسونز: «نحن في حالة حرب».

صدر صوت بوق من الشاشة التي فوق رؤوسهم... كما لو كان تأكيداً لوجود حالة الحرب... لكنه لم يكن إعلاناً عن نصر عسكري هذه المرة، بل مجرد بيان صادر عن وزارة الوفرة.

هتف صوت شبابي متحمس: «انتبهوا أيها الرفاق! وردتنا أنباء رائعة من أجلكم! لقد انتصرنا في معركة الإنتاج. تُبيِّن تقارير الإنتاج التي تم إنجازها لكافة السلع الاستهلاكية أن مستوى المعيشة قد ارتفع بنسبة عشرين بالمئة على الأقل مقارنة مع العام الماضي. لقد عمّت البلاد كلها مسيرات عفوية عارمة هذا الصباح. خرج العمال من مصانعهم ومن أماكن عملهم ومضوا في الشوارع حاملين الأعلام هاتفين بحياة الأخ الأكبر مظهرين شكرهم وامتنانهم له على هذه الحياة الجديدة السعيدة التي وهبتهم إياها قيادته الحكيمة. وإليكم بعضًا من هذه الأرقام: المواد الغذائية...».

كانت عبارة «الحياة الجديدة السعيدة» من العبارات التي يسمعها المرء كثيراً إلى حد صارت معه من العبارات المفضّلة لدى وزارة الوفرة. جلس بارسونز مصغياً بعد أن شدّ صوت البوق انتباهه... ظهرت على وجهه تعابير توحي بدهشة جدية وسأمٍ مترفّع. لم يكن قادراً على متابعة تلك الأرقام، لكنه كان يعرف أنها مُرضية. أخرجَ من جيبه غليوناً وسخاً ضخماً كان محشواً بالتبغ المتفحّم حتى منتصفه. لقد صار من الصعب أن يملأ المرء غليونه حتى حافته بعد أن جرى خفض حصة الفرد من التبغ إلى مئة غرام في الأسبوع الواحد. وأما ونستون فكان يدخن سيجارة النصر ويمسكها حذراً في وضعية أفقية حتى لا يتناثر التبغ منها. لن يبدأ توزيع الحصّة الجديدة من السجائر إلا صباح اليوم التالي. ولم يعد لديه إلا أربع سجائر الآن. وفي تلك اللحظة، سدَّ ونستون أذنيه عن الضجيج الآتي من القاعة وراح

يرهف سمعه ليسمع ما تذيعه الشاشة عن المسيرات التي تشكر الأخ الأكبر على زيادة حصة الشوكولا إلى عشرين غراماً في الأسبوع. قال في نفسه: كيف ذلك؟ لم يمضِ إلا يومٌ واحد على نبأ خفضها إلى عشرين غراماً في الأسبوع! هل يمكن أن يكون الناس قد نسوا ذلك وابتلعوه في أربعٍ وعشرين ساعة فقط؟ نعم... لقد تناسوا ذلك! لقد تناسى بارسونز هذا الكذب بسهولة... ابتلعه بغباء حيوان! وأما المخلوق الذي بلا عينين الجالس إلى الطاولة الأخرى فقد ابتلع الخبر بحماسةٍ وتعصّب ورغبةٍ شديدةٍ في معرفة كل من تحدِّثه نفسه بأن يذكّر الناس بأن الحصّة كانت ثلاثين غراماً في الأسبوع الماضي حتى يشي به لتتم تصفيته. وحتى سايم نفسه ابتلع الأمر أيضاً، لكن على نحوٍ أكثر تعقيداً، أو على نحوٍ فيه شيءٌ من التفكير المزدوج! هل أنا الشخص الوحيد الذي لا يزال محتفظاً بذاكرته؟

تابعت الشاشة إذاعة الإحصاءات الوهمية. فمقارنةً مع إحصاءات العام الماضي، كان ثمة زيادةٌ في الأغذية والملابس والبيوت والأثاث وأواني المطبخ والمحروقات والسفن والطائرات والكتب، وفي المواليد الجدد أيضاً... ازداد كل شيء، ما عدا المرض والجريمة والجنون. سنةً بعد سنة، ودقيقةً بعد دقيقة، كان كل شيء... وكل إنسان... يتحسّن بسرعة متزايدة! أمسك ونستون ملعقته، مثلما فعل سايم قبل قليل، وغمسها في الحساء ذي اللون الأصفر ثم حملها إلى فمه فرسم خطاً طويلاً من الحساء على الطاولة. راح ينظر مستاءً إلى الحياة التي يحياها... تساءل في ذاته: هل كانت الحياة هكذا دائماً؟ هل كان مذاق الطعام رديئاً على الدوام مثلما هو الآن؟ نظر من حوله فوجد قاعة الطعام مزدحمة، منخفضة السقف، وسَّخت جدرانها آثار أيدٍ وأجسام لا تُحصى، وملأتها طاولات ومقاعد معدنية محطّمة صُفَّت متلاصقةً بحيث تتصادم مرافق الجالسين خلال تناول الطعام. ورأى ملاعق معوجّة وصواني منبعجة وأباريق بيضاً في حالةٍ مزرية. كان ملمس كل آنية، كل سطحٍ لزجاً بسبب الزيوت والشحوم. وكانت الأوساخ تملأ الشقوق كلها. وفاحت من القاعة كلها رائحةٌ حامضةٌ ناتجةٌ عن الجن والقهوة الرديئين والثياب المتّسخة. كانت أصوات احتجاجٍ دائمة تنبعث من معدة المرء

ومن تحت جلده... وكان يشعر بأنه محرومٌ من شيءٍ يحق له أن يحصل عليه. لا يذكر ونستون أن الحال كانت مختلفة عن هذا كثيراً في أي وقتٍ من الأوقات... هذا صحيح! ما كان يذكر على نحوٍ واضح إلا أن النقص في الطعام كان موجوداً دائماً. لم تكن لديه جوارب أو ملابس داخلية غير مرتوقةٍ. لم يكنالأثاث إلا عتيقاً محطّماً على الدوام. لم تكن الغرف إلا من غير تدفئة. ما كانت قطارات الأنفاق إلا مزدحمة. لم تكن البيوت إلا متداعية موشكة على السقوط. صار الخبز أسود اللون. وصار توفّر الشاي نادراً. وصار طعم القهوة عفناً. وصارت السجائر غير كافية. لا شيء متوفّرًا رخيص الثمن إلا الجن المصنّع كيماوياً. فإذا كانت الأحوال تنحدر من سيئ إلى أسوأ كلّما تقدّم في السنِّ، فهل هناك أي دليل يشير إلى أن الأمر لم يكن كذلك دائماً؟ ألا يتألم قلب الإنسان بسبب هذه المنغِّصات كلها: شتاءات طويلة، وجوارب قذرة، ومصاعد معطلة، وماء بارد، وصابونٌ رديء، وسجائر متفتتة، وطعام سيئ غريب المذاق... فهل يمكن أن ينزعج المرء من هذه الأحوال التي لا تُطاق إن لم يكن لديه في ذاكرته ما يقول له إن الأمر كان مختلفاً عما هو الآن؟ نظر في صالة الطعام من حوله فأحسّ أن كل مَنْ حوله كانوا قبيحي الشكل... وأحسَّ أن قبحهم هذا لن يزول حتى إذا خلعوا زيّ العمل الأزرق المألوف وارتدوا ملابس أخرى. كان شخصٌ غريب الشكل ضئيل الجسم يشبه الخنفساء جالساً بمفرده إلى طاولة في الناحية القصية من الصالة. كان يشرب فنجاناً من القهوة ويلقي نظراتٍ مرتابةً هنا وهناك من عينيه الصغيرتين. فكّر ونستون... لو كان النموذج الجسدي الذي وضعه الحزب هو النموذج المثالي حقاً... حيث يكون الشباب فتياناً يافعين مفتولي العضلات... وحيث تكون الفتيات العذارى شقراوات الشعر مكتنزات الصدور مسمرّات بفعل الشمس مفعَمات بالنشاط ومتحرِّرات من القلق. لكن أكثر الناس في واقع الأمر، وبقدر ما يستطيع ونستون أن يرى، كانوا قبيحي الشكل ضئيلي الأجسام سمر البشرة. بل إن الغريب حقاً هو كيف يتمكن ذلك النمط الذي يشبه الخنفساء من الوصول إلى الوزارات: لا يرى المرء في الوزارات إلا رجالاً قصار القامة سماناً في وقتٍ مبكرٍ جداً من أعمارهم، ولهم سيقانٌ قصيرة

وحركات زاحفةٌ سريعة ووجوه منتفخة وعيونٌ بالغة الصغر! هذا هو النمط الذي يزدهر أيّما ازدهار في ظل هيمنة الحزب!

صدح صوت بوقٍ آخر يعلن اختتام بيان وزارة الوفرة. وأتت بعده موسيقى خفيفة. أما بارسونز الذي أثارته ضخامة الإنجازات وحرّكت حماسته الفاترة، فأخرج غليونه من فمه وقال هازّاً رأسه هزّة العارف بالأمور: «لا بد أن وزارة الوفرة قد أنجزت إنجازاتٍ كبرى في هذه السنة. وبالمناسبة، هل لديك شفرات حلاقة لتعطيني واحدة منها أيها الصبي العجوز؟».

أجابه ونستون: «ليس عندي ولا واحدة! إنني أستعمل الشفرة نفسها منذ ستة أسابيع. أنا آسف!»

عاد من جديد صوت الرجل الموقوق الآتي من الطاولة المجاورة بعد أن توقف برهةً خلال إذاعة بيان الوزارة. وجد ونستون نفسه يفكّر في السيدة بارسونز بشعرها الملفوف وبالغبار الذي يملأ تغضّنات وجهها. وقال في نفسه إن أطفالها سوف يشون بها لدى شرطة الفكر خلال عامين لا أكثر. وبعد ذلك ستتم تصفيتها، كما ستتم تصفية سايم وونستون وأوبراين. أما بارسونز فلن يصيبه شيءٌ من هذا أبداً! كما أن هذا المخلوق الذي بلا عينين... المخلوق صاحب الصوت الموقوق... فلن تتم تصفيته هو أيضاً. ولن تتم تصفية هؤلاء الرجال القصار الذين يشبهون الخنافس ويتحرّكون في الممرات الملتوية في الوزارات. ولا تلك الفتاة ذات الشعر الأسود التي تعمل في دائرة الإثارة... لن تتم تصفيتها أيضاً! أحس بأنه يعرف بالفطرة من سيبقى ومن سيزول على الرغم من أن التكهّن بمن سيُكتب له البقاء لم يكن أمراً سهلاً على الإطلاق.

في تلك اللحظة، أيقظته هزةٌ عنيفةٌ من هذه التأملات. التفتت الفتاة الجالسة إلى الطاولة المجاورة نصف التفاتةٍ فنظرت إليه. كانت هي نفسها تلك الفتاة ذات الشعر الأسود! كانت تنظر إليه بطرف عينها... لكنها كانت تنظر بتركيزٍ يثير الاستغراب. وكانت تشيح بنظرها عنه كلما تلاقت أنظارهما.

عند ذلك، أحسَّ ونستون بالعرق ينساب على ظهره. وسرت في جسده نوبة

فزع شديد. صحيح أن نوبة الفزع تلاشت سريعاً، لكنها تركت خلفها شعوراً بالانزعاج. راح يسأل نفسه... ما الذي يجعلها تراقبه؟ ولماذا تتبعه في كل مكان؟ لم يكن قادراً، لسوء الحظ، أن يتذكّر إن كانت جالسةً على هذا المقعد قبل أن يأتي، أو أنها قد جاءت بعده. لكنها، يوم أمس، كانت جالسةً خلفه مباشرةً خلال دقيقتَي الكراهية من غير أن يكون ثمة سبب واضح يدعوها إلى الجلوس في ذلك المكان! من المحتمل جداً أن يكون هدفها الحقيقي هو الإصغاء إليه والتأكد من أنه يهتف بصوتٍ مرتفعٍ حقاً.

عاد إلى سابق أفكاره عن الفتاة! لعلّها ليست عضواً في شرطة الفكر. إذن، فمن المؤكد أنها من الجواسيس... إنهم الأكثر خطراً! لم يكن يعرف كم مضى من الوقت وهي تنظر إليه. لعلها خمس دقائق، أو أكثر. بل لعل ملامح وجهه هي التي فضحت أمره. خطيرٌ جداً أن يترك المرء أفكاره على هواها حين يكون في مكانٍ عام أو حين يكون ضمن مدى الشاشة. فمن الممكن أن تودي أتفه الأشياء بصاحبها، حتى لو كانت مجرد حركةٍ عصبيةٍ أو نظرةً لا إرادية، توحي بالتوتر، أو صوت نحنحة أَلِفَ المرء إطلاقها، أو أي شيءٍ يمكن أن يشي بضعف الولاء. بل إن ظهور أي تعبير غير مناسب على الوجه، الشك أو الارتياب مثلاً عندما يسمع المرء خبر انتصارٍ من الانتصارات، يكون مخالفةً تستلزم العقاب. لقد اخترعوا اسماً لهذه المخالفة في اللغة الجديدة: جريمة الوجه!

أدارت الفتاة ظهرها من جديد. لعلّها لا تترصّده. ولعل جلوسها خلفه، أو بالقرب منه، خلال اليومين الماضيين كان مصادفةً لا أكثر! انطفأت السيجارة فوضعها على حافة الطاولة بكل حرص... لعلّه يعود إلى تدخين ما بقي منها بعد انتهاء العمل... هذا إذا لم يتناثر التبغ منها. قد يكون ذلك الجالس إلى الطاولة المجاورة واحداً من جواسيس شرطة الفكر. ولعله سيجد نفسه قبل أقل من ثلاثة أيام في إحدى زنزانات وزارة المحبّة... لكن من غير الجائز أن يذهب ما بقي من السيجارة هدراً! طوى سايم قائمته الورقية ووضعها في جيبه. أما بارسونز فعاد إلى الكلام من جديد.

قال بارسونز مبتسماً وهو ممسكٌ بغليونه: «هل أخبرتك من قبل أيها الصبي العجوز ما فعله الصغيران الشقيان حين أشعلا النار في تنورة بائعة عجوز في السوق لأنها شاهداها تلفّ قطعاً من النقانق بصورة الأخ الأكبر؟ لقد جاؤوها من الخلف تسللاً فأشعلوا النار في تنورتها بعود ثقاب. أظن أن التنورة قد تضرّرت كثيراً جرّاء ذلك! كم هما شقيان... وما أشد حماستهما! لا شك أن التدريب التمهيدي الذي يقدِّمونه لهم في اتحاد الجواسيس هذه الأيام أفضل مما كنا نتلقّاه في أيامنا. أتعرف ماذا أعطوهم مؤخراً؟ إنها سَمّاعاتٌ للأذن على شكل بوق يتنصتون بها عبر ثقوب المفاتيح. جلبت ابنتي الصغيرة واحدةً منها أمس. وقد جرّبتها على باب غرفة الجلوس فوجدت أنها تتيح السمع الواضح أكثر بمرتين مما يتيحه استراق السمع عندما يضع المرء أذنه على ثقب المفتاح. صحيح أنها لعبة، لا أكثر... لكن، ألا ترى أن هذه اللعبة ستوحي لهم بالأفكار المناسبة؟».

في تلك اللحظة، انبعث صفير مرتفع من الشاشة معلناً أن وقت العودة إلى العمل قد حان. نهض الرجال الثلاثة وانطلقوا يشقّون طريقهم في زحام الزاحفين بحثاً عن مصعدٍ غير معطل. أما التبغ الذي كان باقياً في سيجارة ونستون فتناثر على الأرض.

6

كان ونستون يكتب في مذكراته:

«حدث ذلك قبل ثلاث سنوات. كان الوقت مساءً... وكان الظلام مخيماً. وفي شارعٍ من الشوارع الجانبية الضيّقة بالقرب من إحدى محطات القطار الكبيرة، إلى جانب بابٍ عند جدارٍ تحت ضوء مصباح شحيح النور، كانت تقف امرأة وضعت على وجهها الصغير طلاءً كثيفاً من النوع الذي يعجبني بياضه... بياضٌ يشبه القناع وشفتان حمراوان لامعتان... نساء الحزب ما كنّ يطلين وجوههن أبداً! كانت الشوارع خالية من الناس ومن الشاشات أيضاً. مّدت المرأة يدها وقالت: دولاران! ... أنا...».

توقف ونستون لحظة عن الكتابة. صار الاستمرار صعباً عليه. أغمض جفنيه وضغط عليهما بإصبعيه محاولاً إزالة ذلك المشهد الذي ظل عالقاً في مخيلته. اجتاحته رغبة شديدةٌ في الصياح بأعلى صوته مطلقاً كلماتٍ بذيئة، أو في ضرب رأسه بالحائط وركل الطاولة ورمي المحبرة من النافذة... رغبةٌ في القيام بأي شيءٍ من شأنه أن يخلق عنفاً أو يسبب الضوضاء أو يُلحِق الألم... علّه يطمس تلك الذكرى المؤلمة.

راح يقول لنفسه: «جهازك العصبي أسوأ أعدائك. وقد يؤدي ما يصيبك من توتر إلى تورّطك في أشياء تؤدي إلى سوء العاقبة». تذكّر رجلاً شاهده في الشارع قبل بضعة أسابيع. كان مظهر الرجل عادياً تماماً... عضوٌ في الحزب يناهز الخامسة والثلاثين أو الأربعين من عمره... طويل القامة نحيل الجسم... يحمل حقيبة صغيرة. لم تكن المسافة بينهما أكثر من أمتارٍ قليلة عندما رأى الجانب الأيسر من وجه الرجل يتشنّج فينقبض على نحو مفاجئ. حدث هذا مرةً ثانية عندما تقابلا تماماً. كانت مجرد رجفة أو ارتعاشةٍ سريعةٍ عابرة تشبه حركة مغلاق آلة التصوير. وكان من الواضح أنها عادةٌ عند ذلك الرجل. خطر في باله آنذاك أن تلك هي نهاية

ذلك الرجل المسكين! المرعب في الأمر هو أن تلك الحركة يمكن تماماً أن تكون حركةً لا إرادية فحسب. أما الأمر الأكثر خطراً من ذلك فهو أن يتكلم المرء في نومه... ما من وسيلةٍ للاحتياط في تلك الحالة... على حد علمه. استجمع ونستون شجاعته وعاد يكتب من جديد: «دخلت معها عبر تلك البوابة. عبرنا الساحة الخلفية ثم دخلنا إلى مطبخ في القبو كان فيه سريرٌ قرب الحائط. وكان على الطاولة مصباحٌ خافت الضوء. وكانت...».

صرَّ على أسنانه... تمنّى لو أنه يستطيع البصاق. وفي تلك اللحظة، بينما كان مع المرأة في ذلك المطبخ، خطرت في باله زوجته كاثرين. لقد كان ونستون متزوجاً في وقتٍ من الأوقات. ولعله لا يزال متزوجاً.. فزوجته لم تمت... بقدر ما يعلم! أحس بأنه يشم الآن من جديد تلك الرائحة الدافئة المنبعثة من المطبخ... رائحةٌ اختلطت فيها رائحة الملابس الوسخة برائحة البقّ... مع عطرٍ رخيص رديء لكنه، رغم ذلك، كان مغرياً لأنه ما من امرأة في الحزب تستخدم العطر على الإطلاق. بل لم يكن ممكناً تصوّر وجود امرأة تستخدم العطر لأن ذلك السلوك كان حكراً على عامة الناس. كانت رائحة العطر مرتبطةً في ذهنه بالزنى ارتباطاً لا ينفصم.

كانت ممارسة الجنس مع تلك المرأة هفوته الأولى منذ سنتين، أو أكثر. من المؤكد أن مجامعة المومسات كانت محظورة. لكنها كانت من نوع المحظورات التي قد يستطيع المرء أن يجرؤ على مخالفتها من وقتٍ لآخر. إنها مغامرةٌ محفوفةٌ بالمخاطر، لكنها ليست مسألة حياة أو موت. إذا ألقي القبض على المرء مع واحدة منهن، فقد يُحكَم بخمس سنوات من الأشغال الشاقة فحسب! هذا إن لم يكن مُداناً بجرمٍ آخر. ليس شيئاً مهولاً!... إلا إذا ألقي القبض على المرء متلبِّساً بالجرم المشهود. كانت أحياء الفقراء غاصّةً بنساءٍ مستعداتٍ لبيع أنفسهن. كان من الممكن شراء بعضهن بزجاجةٍ من الجن المحظور على عامة الناس. لقد كان الحزب ميالاً إلى تشجيع الدعارة على نحوٍ غير علني لأنها متنفسٌ للغرائز التي لا سبيل إلى كبتها تماماً. لم يكن الحزب ليعير الدعارة ذاتها كبير اهتمام ما دامت تجري مع نساءٍ من الطبقة الوضيعة المسحوقة... وما دامت تجري خفيةً من غير أي إحساسٍ بلذة

حقيقية. أما الجريمة التي لا غفران لها فهي ممارسة الجنس بين أعضاء الحزب. صحيحٌ أن من كانت تطالهم حملات التطهير الكبرى كانوا مجبرين من غير استثناء على الاعتراف بجرائم من هذا النوع، إلا أن تصوّر أن الأمر قد حدث فعلاً كان أمراً صعباً.

ما كان هدف الحزب مقتصراً على حرمان الرجال والنساء من تكوين ارتباطاتٍ وثيقة في ما بينهم قد يكون التحكم بها مستحيلاً. إن الهدف الحقيقي الذي لا يعلنه الحزب وهو تجريد الممارسة الجنسية من كل لذّة. كانت الشهوة الجنسية هي عدو الحزب، لا الحب!... سواءٌ كانت شهوةً في إطار الزواج أم خارجه. وكان لا بدّ لأي زيجة بين عضوين من الحزب أن تحصل على موافقة لجنة تشكّلت لهذه الغاية تحديداً. وما كان الإذن بالزواج ليُعطى أبداً إذا ظهر لدى الشخصين المعنيّين ميولٌ جنسيةٌ متبادلة، رغم عدم وجود ما ينص على هذا المبدأ صراحةً على الإطلاق. كان إنجاب الأطفال من أجل خدمة الحزب هو غاية الزواج الوحيدة المعترَف بها. وكانت ممارسة الجنس تعتبر عمليةً وضيعةً تثير القرف والاشمئزاز، تماماً مثلما هي الحقنة الشرجية. لم يكن أحدٌ ليعبّر عن هذا الأمر بكلامٍ مباشرٍ صريح، بل على نحوٍ غير مباشر بحيث تزرع الفكرة في نفس كل عضوٍ من أعضاء الحزب منذ أيام طفولته الأولى. وهذا لم يكن سبباً أيضاً في إقامة منظّماتٍ من قبيل رابطة الشبيبة المعادية للجنس التي كانت تنادي بالعزوبة المطلقة للجنسين: يتعيّن إنجاب الأطفال عن طريق التلقيح الصناعي (تدعوها اللغة الجديدة باسم «تلقصن») وتتولاهم مؤسسات عامة بعد ذلك. كان ونستون مدركاً أن الأمر كله لم يكن مقصوداً على نحوٍ جدي، لكنه ملائم لإيديولوجية الحزب العامة على نحوٍ ما. كان الحزب يحاول قتل الغريزة الجنسية أو تشويهها وتسفيهها إن كان قتلها متعذراً. لم يكن ونستون يعرف سبب هذا الأمر، ولكن بدا له أمراً طبيعياً أن يكون الأمر كذلك! وبقدر ما كان الأمر متعلقاً بالنساء، فإن مساعي الحزب كانت ناجحةً إلى حدٍّ كبير!

فكر في كاثرين من جديد! لا بد أن تسع سنوات، أو عشر سنوات قد مرت منذ

انفصالهما... إنها إحدى عشرة سنة تقريباً! عجيبٌ كم هي قليلة المرّات التي يفكر فيها. كانت تمر عليه أيامٌ كثيرةٌ متواصلة يستطيع فيها أن ينسى تماماً أنه كان متزوّجاً ذات يوم. لم يبقيا معاً أكثر من خمسة عشر شهراً. لم يكن الحزب يسمح بالطلاق، لكنه كان يشجع على الانفصال في حال عدم الإنجاب.

كانت كاثرين فتاة طويلة ممشوقة القامة شقراء الشعر رائعة الحركات. وكان لها وجهٌ جريء وأنف معقوفٌ قليلاً... وجهٌ قد يستطيع المرء أن يعتبره نبيل الملامح إلى أن يكتشف عدم وجود شيء خلفه... إلى أقصى حدٍّ ممكنٍ تقريباً! وقد توصل ونستون، في وقتٍ مبكرٍ جداً بعد زواجهما إلى أن لديها، من غير استثناء، أكثر العقول التي صادفها في حياته غباءً وسوقيةً وخواءً... لكن لعل الأمر كان ناجماً عن أنها المرأة الوحيدة التي عرفها هذه المعرفة القريبة من بين الناس جميعاً. لم يكن في رأسها أي فكرةٍ غير الشعارات. وما كانت توجد، على الإطلاق، حماقةٌ ما كانت قادرةً على ابتلاعها إن كان الحزب هو من يقدمها إليها. كان يطلق عليها في سره اسم «شريط التسجيل البشري». لكنه كان قادراً على تحمل العيش معها لولا شيءٌ واحدٌ فقط... الجنس!

كانت تبدو كأنها تُجفِل وتتيبس كلما لمسها. وكانت معانقتها أشبه بمعانقة تمثالٍ خشبي. والغريب هو إحساسه بأنها كانت تدفعه عنها بكل قوتها حتى عندما كانت تتشبّث به! كان تصلّب عضلات جسمها هو ما ينقل إليه هذا الانطباع. كانت تستلقي هناك بعينين مغمضتين، مقاومةً أو غير متعاونة، لكنها خاضعةٌ في الوقت عينه! كان الأمر محرجاً إلى حدٍّ كبير، بل صار فظيعاً بعد حينٍ من الزمن. لكن، حتى في ذلك الوقت، كان لا يزال قادراً على احتمال العيش معها لو استطاع الاتفاق معها على حياة عزوبية بينهما. لكن الغريب أن كاثرين رفضت هذه الفكرة. كانت تقول إن عليهما أن يُنتجا طفلاً إن استطاعا ذلك! وهذا ما جعل أداء الجنس يستمر على نحوٍ منتظم، مرة في الأسبوع، إلا عندما يكون الأمر مستحيلاً. بل كانت تذكّره بذلك في الصباح، باعتباره شيئاً يجب القيام به في المساء ولا يجوز نسيانه. كان لديها اسمان تطلقهما على ذلك الفعل: الأول هو «صنع طفل»، والثاني

«واجبنا تجاه الحزب»... (نعم، كانت تستعمل هذا التعبير فعلاً). لقد نشأ لديه سريعاً إحساسٌ بالذعر الحقيقي عندما يأتي ذلك اليوم. لكنهما لم يفلحا في إنجاب أي طفل. وقد قبلت أن تتخلّى عن المحاولة آخر المطاف فانفصلا بعد ذلك بوقتٍ قصير.

تنهّد ونستون من غير صوت. التقط ريشته من جديد وكتب:

«كانت تلقي بنفسها على السرير... وعلى الفور، من غير أي نوعٍ من التمهيد، وبأفظع وأجلف لا مبالاة يستطيع المرء أن يتخيلها، كانت ترفع تنورتها. وأنا....».

كان هو نفسه واقفاً هناك في ضوء المصباح الشحيح، مع رائحة القمل والعطر الرخيص في منخريه... وفي قلبه إحساسٌ بالهزيمة والغيظ ممتزجٌ، حتى في تلك اللحظة، بصورة جسد كاثرين الأبيض متجمداً إلى الأبد بفعل سلطة الحزب المخدِّرة. لماذا يجب أن يكون الأمر على هذا النحو دائماً؟ لماذا لا تكون له امرأته هو بدلاً من هذه «المشاجرات» القذرة كل بضع سنين؟ لكن قصة حبٍّ حقيقية كانت حدثاً لا يمكن أن يخطر في البال تقريباً. كانت نساء الحزب متشابهات جميعاً. وكانت العفّة مغروسةً فيهن عميقاً كنوعٍ من أنواع الولاء للحزب. فمن خلال إعدادهنّ في عمرٍ مبكر، ومن خلال الألعاب والمياه الباردة، ومن خلال الهراء المزروع فيهن عن طريق المدرسة ورابطة الجواسيس واتحاد الشبيبة، وكذلك المحاضرات والمسيرات والأغاني والشعارات والموسيقى العسكرية، كانت الأحاسيس الطبيعية قد طُردت منهن تماماً. كان المنطق يقول له إن الاستثناءات لا بد أن توجد، لكن قلبه لم يكن يصدق هذا! كانت النساء كلهن منيعات لا يمكن الاقتراب منهن... تماماً مثلما أراد الحزب لهن. وما كان يريده ونستون.. ما أراده حقاً، حتى أكثر من أن يكون موضع حب إحداهن، هو أن يحطِّم جدار الفضيلة ذاك ولو مرةً واحدة في حياته كلّها. كان الفعل الجنسي عصياناً في حد ذاته، إن جرى تنفيذه على نحوٍ ناجح. وكانت الرغبة الجنسية جريمة من جرائم الفكر. بل إن إيقاظ كاثرين، لو كان قادراً عليه، سيكون أشبه بالإغواء، مع أنها زوجته!

لكن للقصة بقية لا بد من كتابتها.

كتب ونستون: «رفعت ضوء المصباح. وعندما رأيتها في الضوء...».

بسبب الظلمة والضوء الخافت، بدا ضوء مصباح الزيت شديد السطوع. لقد استطاع أن يرى المرأة فعلاً للمرة الأولى. كان قد تقدم خطوةً صوبها ثم توقف مليئاً بالشهوة والذعر معاً. كان مدركاً، إلى حد الألم، للمخاطرة التي وضع نفسه فيها بالمجيء إلى هنا. وكان من الممكن تماماً أن تلقي الدوريات القبض عليه في طريق خروجه من هنا: لعلهم ينتظرونه خارج الباب في تلك اللحظة! فإذا خرج من غير حتى أن يفعل ما جاء لفعله...!

لا بد من تدوين ذلك. لا بد من الاعتراف به. لقد رأى فجأةً في ضوء المصباح أن تلك المرأة كانت عجوزاً. وكان الطلاء على وجهها كثيفاً إلى حدٍّ جعله يبدو موشكاً على التشقق كأنه قناعٌ من الورق المقوى. وكانت خصلاتٌ بيض تبدو في شعرها؛ لكن الشيء المخيف حقاً كان فمها الذي انفتح قليلاً فكشف عن هوةٍ فاغرة سوداء ليس فيها شيء. كانت بلا أسنانٌ أبداً!

راح يكتب مسرعاً بما يشبه الخربشة:

«عندما نظرت إليها في الضوء رأيت أنها عجوزٌ تماماً... خمسين عاماً على الأقل! لكنني مضيت قدماً... فعلتها، رغم ذلك».

ضغط بأصابعه على أجفان عينيه من جديد.

لقد كتب ذلك أخيراً، لكن ما الفرق؟ لم يكن هذا علاجاً ناجعاً! كانت رغبته في الصياح بكلماتٍ بذيئة بأعلى صوته لا تزال عنيفة كما هي دائماً!

7

كتب ونستون: «إن كان ثمة أمل، فهو كامنٌ في عامة الناس».

إن كان ثمة أملٌ، فلا بد أن يكون كامناً في عامة الناس، لأن القوة التي يمكن أن تحطّم الحزب لا يمكن أن تتولد إلا في هذه الكتل البشرية المحتَقَرة التي تعادل خمسة وثمانين بالمئة من سكان أوقيانيا. لا سبيل إلى الإطاحة بالحزب من داخله. ولا سبيل إلى أن يتجمع أعداؤه، إنْ كان له أعداء أصلاً، ولا حتى إلى أن يعرف أحدهم الآخر. وحتى لو كانت تلك الأخوية الأسطورية موجودةً، بل لعلها موجودةٌ فعلاً، فمن غير الممكن تصوّر أن يستطيع أكثر من اثنين أو ثلاثة من أفرادها أن يجتمعوا معاً. كان التمرّد يعني نظرةً في العينين، أو تغيراً في نبرة الصوت، في أقصى الأحوال... كلمةً مهموسةً على نحوٍ عارض! أما عامة الناس، إذا استطاعوا أن يدركوا قوتهم على نحوٍ ما... فلا حاجة بهم إلى التآمر. ليس عليهم إلا أن ينهضوا فيهزوا أنفسهم مثلما يهز حصانٌ جسمه ليطرد الحشرات عنه. يمكنهم، إن أرادوا، أن يحيلوا الحزب حطاماً منذ صباح الغد! لا بد أن يخطر فعل ذلك في بالهم، عاجلاً أو آجلاً! ولكن...!

تذكر كيف انفجرت في شارع جانبي على مسافة بسيطة أمامه صيحاتٌ مرتفعة لأصوات مئات النساء. كانت صيحات غضب وقنوط مخيفة... كان صوت «أو-و-و-و-وه» قد دوى مجلجلاً مثلما يتردّد صوت الجرس. وثب قلبه في مكانه. وقال في نفسه: لقد بدأ الأمر! إنه تمرّد! لقد أفلت عامة الناس أخيراً! وعندما وصل إلى ذلك المكان شاهد جمعاً غوغائياً من مئتي امرأة، أو ثلاثمئة امرأة، متجمهراً من حول الأكشاك التي في السوق... كانت وجوههن مأساوية الملامح كأنها وجوه ركّاب سفينة موشكة على الغرق. لكن القنوط العام انفجر في تلك اللحظة إلى عددٍ كبير من المشاجرات الفردية. واتضح له أن واحداً من الأكشاك كان يبيع أواني الطبخ المعدنية في تلك اللحظة. كانت أشياء تعيسة بائسة الصنعة، لكن الحصول على قدور الطبخ كان صعباً على الدوام، مهما يكن نوعها. وقد توفّرت فجأة الآن!

وكانت النساء الفائزات بالقدور يحاولن شقّ طريقهن للخروج بقدورهن وسط تدافع بقية النساء وتزاحمهن. في حين تجمهرت عشرات النساء من حول الكشك متّهماتٍ البائع بالمحاباة وبأن لديه قدوراً أخرى يخفيها في مكانٍ ما. انفجرت موجةٌ جديدةٌ من الصيحات. كانت امرأتان منتفختي الجسم، إحداهما بشعر منسدل، ممسكتين بقدرٍ واحدة. وكانت كل واحدة تحاول انتزاعها من يد الأخرى. كانتا تتجاذبان القدر معاً في لحظةٍ من اللحظات، ثم انخلع مقبض القدر في يد واحدةٍ منهن. كان ونستون ينظر إليهما بقرف. لكن، فكر للحظة واحدة، كم هي مخيفةٌ تلك القوة التي تردّدت في صيحات بضع مئات من الحناجر فقط! ما الذي يجعلهن لا يصحن على هذا النحو من أجل شيءٍ ذي أهميةٍ فعلاً؟

كتب ونستون:

«لن يثوروا إذا لم يعوا! وهم لن يعوا، حتى إذا ثاروا».

فكر ونستون في أن هذا يكاد يكون مقتطفاً مأخوذاً من أحد كتب الحزب! كان الحزب يزعم، بطبيعة الحال، أنه قد حرّر عامة الناس من العبودية. فقد كانوا واقعين تحت اضطهاد الرأسماليين الشنيع قبل الثورة. كانوا يجوعون ويُجلَدون بالسياط. وكانت النساء مجبرات على العمل في مناجم الفحم. (لا تزال النساء تعمل في مناجم الفحم في حقيقة الأمر!) وكان الأطفال يُباعون إلى المصانع في السادسة من العمر. لكن، في الوقت ذاته وعلى نحوٍ يوافق مبادئ التفكير المزدوج في الحزب، كانت تعاليم الحزب تقول إن العامة من سويةٍ متدنية ووضيعة بطبيعتهم، ولا بد من إبقائهم خاضعين... كالحيوانات... عن طريق تطبيق حفنة من القواعد البسيطة. والواقع أن ما كان معروفاً عن العامة كان محدوداً جداً. فما كان ضرورياً أن يعرف المرء كثيراً! لا أهمية لنشاطاتهم الأخرى طالما أنهم مستمرون في العمل والتناسل! لقد ارتد هؤلاء، بعد أن تُرِكوا على هواهم مثلما تترك الأغنام لترعى في سهول الأرجنتين، إلى نوعٍ من الحياة كان يبدو طبيعياً بالنسبة إليهم... نمط حياة يشبه ما كان عليه أسلافهم. كانوا يولدون، ويترعرعون في القنوات، ثم يمضون إلى العمل في سن الثانية عشرة، ثم يمرّون بفترة قصيرة يتفتح فيها جمالهم ورغبتهم

الجنسية، ثم يتزوّجون في العشرين، ويبلغون منتصف العمر في الثلاثين، ثم يموت أكثرهم في الستين. كانت أنفاق عقولهم مليئةً بالعمل الجسدي الشاق، والاهتمام بالمنزل والأطفال، والشجارات التافهة مع الجيران، والأفلام، وكرة القدم، والبيرة... ثم بالمقامرة بعد ذلك كلّه! لم يكن إبقاؤهم تحت السيطرة أمراً صعباً! كان نفرٌ من عملاء شرطة الفكر يتحرّك بينهم على الدوام فينشر إشاعات كاذبة ويرصد، ثم يزيل، الأفراد القلائل الذين يتقرّر أنهم يمكن أن يصبحوا خطيرين. لكن من غير الإقدام على أي محاولة لجعل إيديولوجية الحزب عقيدة لديهم. فما كان مرغوباً أن تكون لدى العامة أي مشاعر سياسية قوية. ولم يكن مطلوباً أن يكون لديهم إلا ذلك النوع من الوطنية البدائية التي يمكن الاستعانة بها عند الحاجة لجعلهم يقبلون ساعات عمل أطول أو مخصّصات أقل. وحتى عندما يثور سخطهم، كما يحدث أحياناً، فإن هذا السخط لم يكن يؤدي بهم إلى أي مكان لأنهم لم يكونوا يستطيعون التركيز إلا على مظالم محددة صغيرة بسبب عدم وجود أفكار عامة بينهم. كانوا، على الدوام، غير قادرين على رؤية الشر الأكبر! بل إن بيوت الأكثرية الغالبة من عامة الناس لم تكن تحوي شاشاتٍ للمراقبة. ولم تكن الشرطة المدنية تتدخل في شؤونهم إلا في ما ندر أيضاً. كان في لندن قدرٌ كبيرٌ من الجرائم، عالمٌ داخل عالمٍ من اللصوص وأفراد العصابات والمومسات ومروّجي المخدرات والمبتزين من مختلف الأنواع. لكن، وطالما كان الأمر محصوراً بين العامة أنفسهم، فما من أهميةٍ له. كان هؤلاء يتبعون قواعد أسلافهم في كل ما يتعلق بالأخلاق. ولم تكن طهرانية الحزب الجنسية مفروضة عليهم. كان الطلاق مسموحاً به لديهم. ولم تكن انفلات المعاشرة الجنسية ليلقى أي عقاب. بل إن الحزب كان ليسمح بممارسة الطقوس الدينية أيضاً لو أن العامة أظهروا أي إشارةٍ إلى رغبتهم فيها أو حاجتهم إليها. لقد كانوا أدنى من أن يطالهم الشك! وكان واحد من شعارات الحزب يقول: «العامة والحيوانات أحرار».

انحنى ونستون وحكّ القرحة في ساقه. لقد بدأت تحكه من جديد. كان الشيء الذي لا يستطيع إلا أن يعود إليه مرةً بعد مرة هو استحالة تصور كيف كانت الحياة

حقاً قبل الثورة. أخرج من درج الطاولة نسخةً من كتاب تاريخ تعليمي للأطفال استعاره من السيدة بارسونز. ثم راح ينسخ فقرةً منه في يومياته:

«في سالف الأيام، قبل الثورة المجيدة، لم تكن لندن مدينة جميلة كتلك التي نعرفها اليوم. لقد كانت مكاناً بائساً قذراً مظلماً لا يكاد المرء فيه يستطيع الحصول على ما يأكله. وكان مئات آلاف الفقراء لا يملكون أحذية في أقدامهم ولا حتى سقفاً ينامون تحته. وكان على الأطفال الذين في سنك أنت أن يعملوا اثنتي عشرة ساعة في اليوم من أجل السادة القساة الذين يجلدونهم بالسياط إذا تباطأ عملهم ولا يطعمونهم إلا كسراتٍ بائتة من الخبز وبعض الماء.

لكن، وفي خِضَمّ هذا الفقر المخيف كله، كان ثمة بيوتٌ كبيرةٌ جميلة يعيش فيها الأغنياء الذين يهتم بكل منهم ثلاثين خادماً. كان هؤلاء الأغنياء يدعون باسم الرأسماليين. كانوا رجالاً بدينين بشعين لهم وجوه شريرةٍ تشبه الوجه الذي تراه في الصفحة المقابلة. وأنت تستطيع أن ترى أنه يرتدي معطفاً طويلاً أسود كانوا يدعونه «فراك»، إضافةً إلى قبعة لامعةٍ غريبةٍ تشبه مدخنة الموقد كانوا يدعونها باسم «القبعة الرسمية». كان هذا هو زي الرأسماليين. وما كان ارتداؤه جائزاً لغيرهم. كان الرأسماليون يملكون كل شيء في العالم. وكان كل امرئٍ غيرهم عبداً لديهم. كانوا يملكون الأرض كلها، والبيوت كلها، والمصانع كلها، والنقود كلها. وإذا عصاهم أي إنسان فإنهم يلقون به في السجن أو يحرمونه من العمل ويجعلونه يموت جوعاً. وعندما كان أي شخصٍ عادي يكلم رأسمالياً، كان عليه أن يتذلل وينحني أمامه ويرفع قبعته ويناديه بلفظ «سيدي». وكان كبير الرأسماليين جميعاً يدعى باسم «الملك». و....».

لكنه كان يعرف بقية المحتويات! سيكون هنالك ذكرٌ للأساقفة بأكمامهم البيض المصنوعة من الشاش، والقضاة بأثوابهم الموشّاة بالفرو، وآلات التعذيب وأعمدته، والكدح الشاق، والقطة ذات الأذيال التسعة، ووليمة العمدة، وعادة تقبيل إصبع قدم البابا. وثمة أيضاً ذكرٌ لشيءٍ يدعى باسم حق الليلة الأولى، لكن

من الأرجح ألّا يكون مذكوراً في كتب الأطفال التعليمية! إنه القانون الذي يمنح كل رأسمالي الحق في أن ينام مع أي امرأة تعمل في مصنعه.

كيف للمرء أن يعرف مقدار الكذب في هذا؟ فقد يكون صحيحاً أن الإنسان العادي يعيش اليوم أفضل مما كانت حاله قبل الثورة. إن الدليل الوحيد الذي يخالف هذا هو الاحتجاج الصامت الذي يحسّه المرء في عظامه، والإحساس الغريزي بأن الأحوال التي يعيش فيها لا تُطاق وبأنها كانت مختلفةً بالتأكيد في وقتٍ آخر. ما كان ما يصدمه هو أن الشيء المميز الحقيقي في الحياة المعاصرة ليس قسوتها أو انعدام الأمان فيها بل هو أنها حياة جدباء وضيعة فاترة. فلو نظر المرء من حوله لوجد حياةً عديمة الشبه ليس بالأكاذيب المتدفّقة من الشاشات فحسب، بل حتى بالمُثُل التي كان الحزب يحاول تحقيقها. كانت مساحاتٌ واسعة من تلك الحياة، حتى بالنسبة لعضو الحزب، حيادية، لا سياسية، مسألة المضي المضني في أعمالٍ مملةٍ كئيبة، والقتال من أجل الظفر بمكانٍ في قطار الأنفاق، ورتق جوربٍ بالٍ، وتسوّل قطعة من السكّر، وتوفير عقب سيجارة! كانت المُثُل التي يرفعها الحزب شيئاً ضخماً مروِّعاً لامعاً... عالمٌ من الإسمنت والفولاذ، من الآلات المتوحّشة والأسلحة المرعبة... أمةٌ من المحاربين والمتعصّبين تسير قدماً في وحدةٍ تامة... يحمل الجميع الأفكار نفسها ويهتفون بالشعارات نفسها... يعملون من غير نهاية، ويقاتلون، وينتصرون، ويضطهدون غيرهم... ثلاثمئة مليون من البشر لهم الوجه نفسه... كلهم. أما الحقيقة الواقعية فهي مدنٌ بائسةٌ متآكلة يجيء أهلها الذين لا يحصلون على كفافهم من الطعام ويذهبون في أحذيةٍ تتسرب المياه إليها، ويعيشون في بيوت القرن التاسع عشر المتداعية الفائحة دائماً برائحة الملفوف والمراحيض المعطّلة. بدا له كأنه يرى منظر لندن، مترامية ومهدمة، مدينة المليون مستوعَب قمامة... وكانت تخالط هذه الصورة صورة السيدة بارسونز، امرأة لها وجهٌ متغضّن وخصلات شعرٍ واهية... تحاول عبثاً إصلاح أنبوب مغسلة مسدود.

انحنى وحك كاحله من جديد. كانت الشاشات تقصف الآذان يومياً بإحصاءات تثبت أن لدى الناس اليوم طعام أكثر، وملابس أكثر، وبيوتٌ أفضل،

وترفيهٍ أفضل... وأنهم يعيشون حياة أطول، ويعملون ساعاتٍ أقل... وأنهم أكبر حجماً وأوفر صحةً وأشد قوةً وأكثر سعادةً وأعلى ذكاءً وأفضل تعليماً من الناس الذين كانوا يعيشون قبل خمسين عاماً خلت. لا سبيل إلى إثبات كلمةٍ من هذا كله، ولا إلى دحضه! يزعم الحزب مثلاً أن أربعين بالمئة من البالغين من عامة الشعب يحسنون القراءة والكتابة: أما قبل الثورة، كما يُقال، فقد كان هذا الرقم خمسة عشر بالمئة لا غير! ويزعم الحزب أن معدل وفيات الأطفال لا يتجاوز الآن مئةً وستين في الألف، في حين كان ثلاثمئة بالألف قبل الثورة... وهكذا دواليك! كان الأمر أشبه بمعادلةٍ واحدةٍ فيها مجهولان. لعل من الممكن تماماً أن تكون كل كلمةٍ في كتب التاريخ محض خيال، حتى تلك الأشياء التي يقبلها المرء من غير سؤال. فانطلاقاً من كل شيءٍ يعرفه، يمكن ألا يكون قد وُجِدَ قط قانونٌ من قبيل حق الليلة الأولى، أو أي مخلوقٍ يشبه أولئك الرأسماليين، أو أي قطعة ملابس من مثل تلك القبعة العالية!

تلاشى كل شيءٍ ولفّه الضباب! كان الماضي قد مُحِي، ونُسيَ من محاه، وصار الكذب حقيقةً! لقد امتلك مرةً واحدةً في حياته... وهذا هو الشيء المهم بعد وقوع الحدث... دليلاً ملموساً لا يخيب على فعلٍ من أفعال التزوير! لقد أمسك به بين أصابعه ثلاثين ثانية. في عام 1973، لا بد أنه ذلك العام... إنه وقت انفصاله عن كاثرين تقريباً على أي حال. لكن التاريخ الحقيقي فعلاً فقد كان قبل ذلك بسبع أو ثماني سنوات.

بدأت القصة فعلياً في أواسط الستينات، أي في فترة التطهيرات الكبرى التي أزيح فيها إلى الأبد قادة الثورة الأصليين. لم يبق أحدٌ منهم حتى عام 1970، إلا الأخ الأكبر نفسه! أما الباقون جميعاً، فكانوا في ذلك الوقت قد انكشفوا باعتبارهم خَوَنة ومعادين للثورة. كان غولدشتاين قد فرّ واختبأ في مكانٍ لا يعرفه أحد. وأما الآخرون، فقد اختفى نفرٌ منهم، في حين جرى تقديم أكثريتهم إلى محاكماتٍ صوَرية عامة اعترفوا فيها بجرائمهم. ومن بين الباقين حتى الفترة الأخيرة كان ثلاثةٌ من الرجال هم جونز وآرونسون وراذرفورد. لا بد أن اعتقال هؤلاء الثلاثة

قد جرى في عام 1965. وكما يحدث غالباً، اختفوا مدة سنةٍ أو أكثر ولم يكن أحدٌ يعرف إن كانوا أمواتاً أو أحياء! ثم جيء بهم فجأة ليدينوا أنفسهم على النحو المعتاد. لقد اعترفوا بالتخابر مع العدو (كان العدو هو أوراسيا في ذلك الوقت أيضاً)، وباختلاس الأموال العامة، وبقتل عدد من أعضاء الحزب المخلصين، وبالتآمر على قيادة الأخ الأكبر منذ وقتٍ يعود إلى ما قبل الثورة بزمنٍ طويل، وكذلك بأفعالٍ تخريبية أدت إلى موت مئات آلاف الأشخاص. وبعد الاعتراف بهذه الأشياء، جرى العفو عنهم، وأعيدوا إلى الحزب، ومُنِحوا مناصب لا قيمة لها لكنها حملت ألقابًا رنّانة توحي بالأهمية. وكتب كل واحدٍ من هؤلاء الثلاثة مقالاتٍ ذليلة في التايمز حلل فيها أسباب ردّته ووعد بإصلاح حاله.

لقد رآهم ونستون حقاً بعد وقتٍ ما من إطلاق سراحهم جالسين في مقهى شجرة الكستناء. وهو يذكر افتتانه المذعور عندما راح يراقبهم من زاوية عينه. كانوا رجالاً في سنٍّ أكبر من سنه بكثير... بقايا العالم القديم، بل كانوا تقريباً آخر الشخصيات الكبرى الباقية من أيام الحزب البطولية. كان ألق النضال السرّي والحرب الأهلية لا يزال عالقاً بهم على نحو باهت. وقد كان لديه إحساسٌ أخبره أنه يعرف أسماءهم قبل زمنٍ طويل من سماعه باسم الأخ الأكبر، رغم أن الحقائق والتواريخ كانت قد بدأت تصير ضبابيةً في ذلك الوقت. لكنهم كانوا أيضاً خارجين على القانون... أعداء، منبوذين، محكومين من غير أدنى شك بالفناء خلال سنةٍ أو اثنتين. لم ينجُ في النهاية ولا واحدٌ ممن سقطوا في أيدي شرطة الفكر! كان هؤلاء الثلاثة جثثاً تنتظر إعادتها إلى قبرها.

لم يكن أحدٌ جالساً على أي طاولةٍ من الطاولات القريبة منهم. كان أمراً غير حكيمٍ على الإطلاق أن يُشاهَد المرء حتى في جوار هؤلاء الأشخاص. كانوا جالسين في صمت أمام كؤوس الجن المعطر بالقرنفل الذي كان اختصاص ذلك المقهى. وقد كان مظهر راذرفورد هو الأكثر تأثيراً على ونستون. كان راذرفورد رسام كاريكاتير ذائع الصيت ساهمت رسومه العنيفة في إثارة الرأي العام قبل الثورة وخلالها. وحتى في هذه الآونة، كانت رسومه تظهر في صحيفة التايمز على

فتراتٍ متباعدة. كانت مجرد محاكاة لأسلوبه القديم... فاقدةً حياتها وقدرتها على الإقناع إلى حدٍّ يثير الدهشة. كانت، دائماً، استعادةً للموضوعات القديمة... سكان الأحياء البائسة، وأطفالٌ على حافة الموت جوعاً، ومعارك الشوارع، والرأسماليون في قبعاتهم الطويلة... كان يظهر أن الرأسماليين مصرين على التمسك بقبعاتهم تلك حتى عند وجودهم على المتاريس، وبمحاولاتهم اليائسة التي لا تنتهي من أجل العودة إلى الماضي. كان راذرفورد رجلاً جسيماً له لُبدة من الشعر الرمادي المدهن، ووجهٌ ذو غضونٍ وجيوبٍ تحت العينين، وشفتان زنجيتان ثخينتان. لا بد أنه كان هائل القوة في وقتٍ من الأوقات. لكن جسده الضخم صار متهدلاً الآن، متهاوياً، منتفخاً، منفرطاً في كل صوب. كان يبدو كأنه يتفكك أمام عيني المرء، مثل جبل يتداعى.

كانت الساعة الثالثة بعد الظهر... ساعة الوحدة! لا يستطيع ونستون الآن أن يتذكر كيف كان جالساً في المقهى في تلك الساعة. كان المكان شبه مقفرٍ من الناس. وكانت موسيقى رخيصة تنبعث من الشاشات. جلس الرجال الثلاثة في زاويتهم صامتين بلا أي حركة. وكان الساقي يجلب كؤوساً جديدةً من الجن من غير أن يطلب أحد منه ذلك. وعلى الطاولة أمامهم، كانت رقعة شطرنج مصفوفة أحجارها، لكن اللعبة لم تبدأ! وعند ذلك، ربما لزمنٍ لا يتجاوز نصف دقيقة، حدث شيءٌ للشاشات. تغيرت النغمة التي تبثّها، وتغيّرت الموسيقى أيضاً. صار فيها... لكنه شيءٌ يصعب وصفه! كان لحناً عدائياً عاوياً متكسراً عجيباً: دعاه ونستون في ذهنه لحناً أصفر. ثم انبعث من الشاشة صوتٌ يغني:

تحت شجرة الكستناء الوارفة

بعتك وبعتني:

هاهم هناك، وها نحن هنا

تحت شجرة الكستناء الوارفة

لم يأتِ الرجال الثلاثة بأي حركة. لكن ونستون شاهد عيني راذرفورد تفيضان دمعاً عندما ألقى إليه نظرةً من جديد. ولاحظ للمرة الأولى، بنوعٍ من الرجفة

الداخلية من غير أن يعرف ما جعله يرتجف، أن أنفي آرونسون ورادزفورد كانا مكسورين.

اعتُقل الثلاثة بعد وقتٍ قصير من ذلك. واتضح أنهم قد انغمسوا في مؤامراتٍ جديدة منذ لحظة إطلاق سراحهم. وفي محاكمتهم الثانية، اعترفوا بجرائمهم كلها من جديد، بالإضافة إلى سلسلةٍ من الجرائم الجديدة. ثم جرى إعدامهم، وسُجِّل مصيرهم في تواريخ الحزب ليكون ذلك عبرةً للأجيال القادمة. وبعد نحو خمس سنوات من ذلك التاريخ، في عام 1973، كان ونستون في مكتبه يفتح لفافةً من الوثائق التي جاءته عبر الأنبوب الهوائي عندما عثر بينها على قطعة ورق كان من الواضح أنها انزلقت بين الأوراق الأخرى ثم نُسيت هناك. وما إن فتحها حتى أدرك أهميتها. كانت نصف صفحةٍ من صحيفة التايمز يعود تاريخها إلى أكثر من عشر سنوات... كان النصف الأعلى من الصفحة، وهو النصف الذي يرد فيه التاريخ... وكان فيها صورةٌ لأشخاص موفدين من أجل نشاطات الحزب في نيويورك. وكان بارزاً في وسط المجموعة كل من جونز وآرونسون ورادزفورد. لم يكن عدم ملاحظتهم في تلك الصورة ممكنة... ذلك أن أسماءهم كانت مكتوبةً أسفل الصورة أيضاً.

كانت النقطة المهمة هي أن الرجال الثلاثة اعترفوا، في المحاكمتين، بأنهم كانوا في أوراسيا في ذلك التاريخ. لقد طاروا من مطارٍ سري في كندا لينضمّوا إلى اجتماعٍ في مكانٍ ما في سيبيريا حيث اجتمعوا مع أعضاء في القيادة العامة الأوراسيةَ فكشفوا لهم أسراراً عسكرية مهمة. كان التاريخ عالقاً في ذاكرة ونستون لأنه كان يوم منتصف الصيف؛ لكن القصة نفسها لا بد أن تكون موجودةً في ما لا يحصى من الأماكن الأخرى أيضاً. وخلص ونستون إلى استنتاج ممكن وحيد من هذا كله: لقد كانت الاعترافات كاذبة وملفّقة.

لم يكن هذ يُعدّ اكتشافاً في حد ذاته، بطبيعة الحال! فحتى في ذلك الوقت،لم يكن ونستون ليتخيل أن الأشخاص الذين تُجرى إزاحتهم في التطهيرات قد اقترفوا فعلياً تلك الجرائم التي اتهموا بها. لكن هذا كان دليلاً ملموساً. كان جزءاً من

الماضي المُلغى. شيءٌ يشبه عظماً أحفورياً يظهر في مكانٍ لا يُفترض ظهوره فيه فيودي بنظريةٍ جيولوجيةٍ كاملة. كان هذا الدليل كافياً لإحالة الحزب هباءً منثوراً لو كان يمكن نشره أمام العالم كله بحيث يُصبح معروفاً للجميع.

انكبّ ونستون على العمل من فوره. وبمجرد إدراكه معنى تلك الصورة، غطاها بورقةٍ أخرى. ولحسن حظه، كانت تلك الورقة في وضعٍ مقلوب بالنسبة للشاشة عندما فتحها.

وضع آلة الإملاء الصغيرة على ركبتيه ودفع مقعده إلى الخلف حتى يبتعد عن الشاشة إلى أقصى حدٍّ ممكن. لم تكن محافظته على وجهه من غير أي تعبيرٍ أمراً صعباً، بل إن التنفس نفسه يمكن التحكّم فيه أيضاً بشيءٍ من الجهد: لكنك لا تستطيع أن تضبط ضربات قلبك... وكانت الشاشة حساسةً إلى الحد الذي يجعلها تلتقط تغيّر ضربات القلب. انتظر ونستون زمناً ظن أنه عشر دقائق... يعذّبه خلال تلك الفترة كلها خوفٌ من حدوث شيءٍ ما... تيارٌ هوائيٌّ مفاجئ يعبر مكتبه مثلاً... شيءٌ يمكن أن يفضح أمره. وعند ذلك، ألقى بالصورة في ثقب الذاكرة من غير أن يكشف عنها الغطاء... ألقاها مع مجموعةٍ أوراق أخرى لا قيمة لها. لعلها بعد دقيقةٍ من ذلك سوف تتحوّل إلى رمادٍ!

كان ذلك قبل عشر سنوات... إحدى عشرة سنة! أما لو حدث ذلك اليوم، فالأرجح أنه كان ليحتفظ بالصورة. والعجيب هو أن حقيقة إمساكه تلك الصورة بين أصابعه قد بدت له حقيقةً مهمة، حتى في هذه اللحظة... في حين أن الصورة نفسها، إضافةً إلى الحدث الذي وثّقته، كانت شيئاً في الذاكرة فحسب! هل تصبح قبضة الحزب على الماضي أقل قوّة لمجرّد أن دليلاً، لم يعد موجوداً الآن، قد وُجِدَ ذات مرة؟ هكذا راح يسأل نفسه!

لكن، لنفترض أن من الممكن استعادة تلك الورقة اليوم من الرماد، فلعل الصورة نفسها لا تكون دليلاً. لم تكن أوقيانيا في حالة حربٍ مع أوراسيا عندما جاء اكتشافه. وبالتالي، فلا بد أن الرجال الموتى الثلاثة قد أفشوا أسرار بلدهم أمام عملاء إيستاسيا! وقد تغيّر الأمر عدة مرات أخرى منذ ذلك الوقت... مرتين،

ثلاثة، لم يكن قادراً على تذكّر عددها. ومن المرجّح تماماً أن تكون الاعترافات قد أعيدت كتابتها ثم أعيدت كتابتها إلى أن فقدت الحقائق والتواريخ الأصلية أيّ معنى لها. لم يجرِ تغيير الماضي فقط، بل إنه يتغير على نحوٍ مستمر. كان أكثر ما يؤثر فيه، كأنه كابوس، هو أنه لم يفهم على نحوٍ واضحٍ أبداً السبب الذي يحملهم على هذا الخداع كلّه. كانت الفوائد المباشرة الناتجة عن تزوير الماضي واضحة، لكن الدافع النهائي وراءها كان غامضاً. أمسك قلمه من جديد وكتب:

«أفهم «كيف»: لا أفهم «لماذا»».

تساءل، مثلما تساءل مراتٍ كثيرة من قبل، ما إذا كان هو نفسه ممسوساً. لعل كون المرء ممسوساً أن يكون أقليةً مؤلفة من شخصٍ واحد. في وقتٍ مضى، كانت علامة من علامات الجنون أن يعتقد المرء أن الأرض تدور حول الشمس. وأما اليوم، فإن من علامات الجنون أن يظن المرء أن الماضي غير قابلٍ للتغيّر. لعله الوحيد الذي يعتقد هذا. وإن كان وحيداً في اعتقاده، فهو ممسوسٌ إذًا!

التقط كتاب التاريخ المخصّص للأطفال ونظر إلى صورة الأخ الأكبر على غلافه الخارجي. راحت العينان المُخدَّرتان تحدقان في عينيه. كان المرء يشعر وكأن قوةً كبيرةً تضغط عليه... شيئاً يخترق جمجمته ويضرب دماغه ويخيفه فيجعله ينبذ أفكاره... بل يكاد يقنعه بأن ينكر الأدلة التي تقدّمها له حواسه. سوف يعلن الحزب آخر الأمر أن اثنين واثنين يساويان خمسة، وسوف يكون عليك أن تصدّق هذا! لا بد أنهم سيزعمون ذلك عاجلاً أو آجلاً: إن منطق حالتهم يستوجب هذا! لم تكن فلسفتهم إنكاراً ضمنياً لصدقية التجربة وحدها بل لوجود الحقيقة الخارجية نفسها أيضاً. كان أفدح أنواع الهرطقة يعتبر حسًّا سليماً. المخيف لم يكن أن احتمال أن يقتلوك إذا فكرت غير ذلك، بل احتمال أن يكونوا على حقٍّ! فمن عساه يعرف، بعد كل اعتبار، أن اثنين واثنين يساويان أربعة؟ أو أن قوة الجاذبية تعمل حقاً؟ أو أن الماضي غير قابلٍ للتغير؟ فإذا كان الماضي والعالم الخارجي موجودين في العقل فقط، وإذا كان العقل بنفسه خاضعاً للتحكم فيه، فماذا إذاً؟

لكن... لا!

بدت شجاعته وكأنها قد تماسكت من تلقاء نفسها على نحوٍ مفاجئٍ من جديد. طفا في ذهنه وجه أوبراين من غير أن تستدعيه أي صلةٍ واضحةٍ بالأمر. أدرك، موقناً أكثر من أي وقتٍ مضى، أن أوبراين يقف في صفِّه. كان يكتب مذكراته هذه من أجل أوبراين... لأوبراين: كانت مثل رسالةٍ لا نهاية لها ولن يقرأها أحد... لكنها كانت موجّهةً إلى شخصٍ بعينه، وكانت تكتسب لونها من تلك الحقيقة.

يقول لك الحزب أن تنكر الدليل الذي تقدمه لك عيناك وأذناك. كان هذا هو الأمر النهائي الأكثر أهميةً الصادر عن الحزب. غار قلبه في صدره عندما فكّر في القوة الهائلة الواقفة أمامه... عندما فكر في سهولة أن يهزمه في الجدال أي مثقف من مثقفي الحزب... في تلك الحجج الماكرة التي لن يكون قادراً على فهمها، ناهيك عن الإجابة عليها! لكنه كان محقاً رغم هذا! هم مخطئون وهو محق. لا بد من الدفاع عما هو واضح وسخيف وحقيقي. البديهيات حقيقة... تمسَّك بهذا! إن العالم المحسوس موجود... وقوانينه لا تتغير. الأحجار صلبة، والماء رطب، والأجسام التي لا يحملها شيء تسقط في اتجاه مركز الأرض. كتب ونستون شاعراً كما لو أنه يخاطب أوبراين، وأيضاً كما لو أنه يقرر حقيقةً مهمة:

«الحرية هي حرية أن تقول إن اثنين واثنين يساويان أربعة. إذا كانت هذه الحرية مضمونة، فكل شيءٍ آخر يأتي من تلقاء نفسه».

8

من مكانٍ ما في نهاية أحد الممرات، جاءت رائحة بُن محمص... بن حقيقي، وليس بن النصر... وملأت الشارع. توقف ونستون لحظةً من غير إرادته. وعاد، لعلهما ثانيتان، إلى عالم طفولته نصف المنسي. ثم... انطبق بابٌ فبدا كأنه قد قطع تلك الرائحة على نحوٍ مفاجئ كما لو أنها صوت.

كان ونستون قد اجتاز عدة كيلومترات ماشياً على الأرصفة. وراحت قرحة الدوالي تنبض الآن. كانت تلك هي المرة الثانية، منذ ثلاثة أسابيع، التي يتخلف فيها عن حضور الأمسية في المركز الاجتماعي: تصرّفٌ طائش... فعلى المرء أن يكون واثقاً من أن عدد مرات حضوره في المركز يخضع لتحقق دقيق. من حيث المبدأ، لم يكن لدى عضو الحزب أي وقت فراغ... وليس له أن يكون وحيداً إلا في السرير! وكان من المفترض أن يشارك عضو الحزب في نوعٍ من أنواع النشاط الاجتماعي إذا كان خارج أوقات عمله أو طعامه أو نومه. وأما أن يقوم بأي شيءٍ من شأنه أن يوحي بالرغبة في الابتعاد عن الآخرين، ولو حتى من أجل نزهة على الأقدام بمفرده، فقد كان أمراً خطيراً بعض الشيء على الدوام. وكان ثمة كلمة في اللغة الجديدة لوصف هذا السلوك: «الحياة الخاصة»، كما كانوا يسمّونها. وهذا يعني الفردانية وغرابة الأطوار! لكن عطر هواء نيسان أغراه بذلك عندما خرج من الوزارة هذا المساء. كانت السماء أدفأ وأكثر زرقةً مما رآها منذ سنوات. وعلى نحوٍ مفاجئ، فالأمسية الطويلة الصاخبة في المركز الاجتماعي، والألعاب المرهقة المضجرة، والمحاضرات، والصحبة المزعجة التي يكون الجن وقوداً لها... بدت كلها أموراً لا تحتمل. دفعه شيءٌ إلى العودة مبتعداً عن موقف الباص والتجوّل في متاهات لندن، إلى الجنوب أولاً، ثم إلى الشرق، ثم إلى الشمال من جديد... راح يتوه في شوارع لا يعرفها، مشى غير آبه في وجهة سيره.

«إن كان ثمة أمل، فهو موجود في العامة»... هكذا كتب في مذكراته. ظلت هذه الكلمات تعود إلى ذهنه... كلماتٌ تنطق بحقيقةٍ سحرية وبسخافةٍ واضحة. إنه

الآن في مكانٍ ما في الأحياء الفقيرة الغامضة ذات اللون البني إلى الشمال الشرقي مما كان يدعى يوماً باسم القديس بانكراس. وكان يسير صعوداً في شارعٍ مرصوف امتدت على جانبيه بيوتٌ صغيرة من طابقين تنفتح على الرصيف مباشرةً لأن مداخلها محطّمة... كانت تحمل شَبَهاً غريباً بجحور الجرذان. وكانت بركٌ من الماء القذر تنتشر هنا وهناك بين بلاطات الشارع. وكان الناس يدخلون ويخرجون من هذه المداخل، ويمضون في الأزقة الضيقة المتفرعة من جانبي الشارع... كانت أعدادهم مدهشة... فتياتٌ في ذروة الصبا يضعن أحمر الشفاه الفاقع الفج على أفواههن، وشبابٌ يطاردون الفتيات، ونساءٌ يتهادين منتفخات فيرى المرء فيهن ما ستكون عليه حال تلك الفتيات بعد عشر سنوات من الآن... ومخلوقاتٌ أحناها العجز تسير على أقدامٍ لا تعرف كيف تستقر على الأرض، وأطفالٌ في ثياب مهلهلة حفاة يلعبون في برك الماء ثم يهربون متفرّقين في كل اتجاه رغم صيحات أمهاتهن الغاضبة. لعل ربع النوافذ في ذلك الشارع كانت محطمة ومغطاة بالألواح. أكثر الناس ما كانوا يلقون انتباهاً إلى ونستون؛ وكان بعضهم ينظر إليه بنوعٍ من الفضول الحذر. وكانت امرأتان هائلتان تعقد كل منهما ذراعيها المحمرين كالقرميد فوق مريلتها تتحدثان في الخارج بالقرب من أحد البيوت. التقط ونستون شذرات من حديثهما خلال اقترابه منهما.

«نعم» قلت لها... «هذا جيدٌ كلّه»... قلت لها. «لكن، لو كنت مكاني لفعلتِ مثلما فعلت. انتقاد الناس سهل»... قلت لها، «لكن مشاكلك غير مشاكلي».

«آه» قالت الأخرى، «هذا هو الأمر. إنه على هذا النحو».

توقف الصوتان الحادان توقفاً مفاجئاً. نظرت إليه المرأتان بصمتٍ بنظرة عدائيةٍ عند مروره بهما. لكنها لتكن نظرة عداء على وجه التحديد... مجرد نوعٍ من الاحتراس، تجمّد لحظي، مثلما يحدث حين يمر حيوانٌ غير مألوف. لم تكن ملابس الحزب الزرقاء تُشاهد كثيراً في هذه الشوارع. والواقع أنه من غير الحكمة في شيء أن يُرى المرء في هذه الأماكن إلا إذا كان لديه عملٌ واضح هناك. وإذا صادف المرء دورية هنا، فمن الممكن أن توقفه: «هل أستطيع أن أرى أوراقك يا

رفيق؟ ماذا تفعل هنا؟ متى غادرت عملك؟ وهل هذا هو طريق عودتك المعتاد إلى المنزل؟»... وهكذا دواليك! لا وجود في الحقيقة لقانونٍ يمنع العودة إلى البيت من غير الطريق المألوف. لكن يكفي أن تسمع شرطة الفكر بالأمر حتى يكون المرء قد لفت انتباهها إليه.

دبت الحركة في الشارع كله على نحوٍ مفاجئ. وتصاعدت صيحات التحذير من كل جانب. كان الناس يندفعون إلى مداخل البيوت مثلما تندفع الأرانب. وثبت امرأةٌ شابة خارجةً من باب أحد المنازل على مسافةٍ صغيرةٍ أمام ونستون فالتقطت طفلاً ضئيل الحجم يلعب في واحدةٍ من برك الماء ولفّته بصدريتها ثم وثبت عائدةً به إلى الداخل... كل ذلك في حركةٍ واحدة... وفي اللحظة نفسها، ظهر من زقاق جانبي رجلٌ يرتدي بدلةً سوداء تشبه بدلات الموسيقيين وجرى صوب ونستون مشيراً إلى السماء بفزع.

صاح الرجل: «طائرة بخارية! انتبه يا سيد! ستسقط فوقنا! انبطح سريعاً».

كان عامة الناس يطلقون على الصواريخ اسم «الطائرات البخارية»، لسببٍ ما! ألقى ونستون بنفسه سريعاً على الأرض. كان عامة الناس محقّين دائماً عندما يطلقون إنذاراً من هذا النوع. والظاهر أن لديهم نوعًا من الغريزة يخبرهم قبل عدة ثوانٍ بالمكان الذي سيصيبه الصاروخ على الرغم من أن سرعة الصواريخ كانت تفوق سرعة الصوت، كما يفترض! شبك ونستون ساعديه فوق رأسه. كان ثمة زئير مدوٍّ وبدا كما لو أنه بلاط الشارع قد ارتجّ بقوّة. وتساقط على ظهر ونستون وابلٌ من أشياء صغيرة. وعندما نهض وجد أنه كان مغطى بشظايا الزجاج من النافذة القريبة.

ثمّ تابع ونستون سيره. كانت القنبلة قد دمّرت مجموعة منازل على بعد مئتي متر أمامه في الشارع. وكان عمود أسود من الدخان تصاعد معلّقاً في السماء، مع غمامةٍ من الغبار كان قد تجمّع فيها حشد من الناس من حول الأنقاض. وكانت أمام ونستون كومة صغيرة من الركام على الرصيف. ومن وسطها ظهر خيط أحمر لامع. وعندما اقترب ونستون رأى فيها يداً بشرية مبتورةً من المعصم. كانت تلك

اليد مبيضةً كلها بفعل الغبار حتى صارت كأنها مصنوعة من الجص، باستثناء البقعة الحمراء عليها.

دفع ذلك الشيء بقدمه إلى فتحة المجارير. ثم استدار منحدراً في شارعٍ جانبي إلى يمينه حتى يتفادى الحشد الذي أمامه. وبعد دقيقتين أو ثلاث صار خارج المنطقة التي أصابتها القنبلة. وعادت الحياة البائسة تدبّ في الشارع كما لو أن شيئاً لم يحدث قبل قليل. كانت الساعة الثامنة تقريباً. وكانت متاجر الشراب التي يرتادها عامة الناس «يسمونها «حانات»» مليئةً بروادها. ومن أبوابها المتأرجحة ذات الألوان الوسخة، التي تنفتح وتغلق على نحوٍ مستمر، كانت تنبعث رائحة البول ونشارة الخشب والبيرة الحامضة. وفي زاويةٍ من الشارع تشكّلت من نتوء بيتٍ أكثر من غيره، وقف ثلاثة رجال متقاربين كثيراً. كان الأوسط بينهم يحمل جريدةً مطويةً. وكان الآخران يتطاولان من فوق كتفه ويقرآن باهتمام.وقبل أن يصبح ونستون على مسافةٍ قريبةٍ تسمح له برؤية تعابير وجوههم، بدا له اهتمامهم الشديد ظاهراً من وضعية أجسادهم نفسها. من الواضح أنهم كانوا يقرأون خبراً خطيراً! صار على مسافة خطواتٍ قليلة منهم عندما انفرطت المجموعة فجأة وانخرط اثنان من الرجال في جدلٍ عنيف. وبدا له، للحظةٍ، أنهما موشِكان على تبادل الضربات.

«ألا تستطيع أبداً أن تستمع لما أقوله لك؟ أقول لك إن أي رقم ينتهي بسبعة لم يربح شيئاً منذ أربعة عشر شهراً».

«بل حدث ذلك!».

«لا، لم يحدث! لقد سجّلت عندي في البيت، على ورقة، مجموعة كبيرة من تلك الأرقام منذ سنتين. إنني أسجّلها على نحوٍ منتظم، مثل الساعة. وأقول لك إن أي رقم منتهٍ بسبعة...».

«نعم، لقد ربحت السبعة! وأكاد أستطيع إخبارك بالرقم الذي ربح. أربعة، أوه، سبعة، هكذا كانت نهايته. كان هذا في شهر شباط، في الأسبوع الثاني من شهر شباط».

«شباط هو جدتك الملعونة! إن الأرقام موجودةٌ عندي على الورق كلها. وأنا أقول لك... لم يربح أي رقم...».

قال الرجل الثالث: «أوه... كفوا عن ذلك».

كانوا يتحدثون عن اليانصيب! التفت ونستون إليهم بعد أن ابتعد عنهم ثلاثين متراً. لا يزالون ماضين في جدالهم... بوجوههم المتحمسة المستثارة. كان اليانصيب، بجوائزه الأسبوعية الضخمة، الحدث العامّ الوحيد الذي يلقى اهتماماً جدياً لدى عامة الناس. ومن الممكن جداً أن يوجد ملايين من هؤلاء الأشخاص الذين يعتبر اليانصيب السبب الأول لبقائهم على قيد الحياة، إن لم يكن سبباً وحيداً. كان اليانصيب فرحتهم، وجنونهم، ومخدّرهم، ومنشّطهم العقلي! وعندما يتعلّق الأمر باليانصيب، يُمكن أن يظهر الأشخاص الذين لا يكادون يستطيعون القراءة والكتابة قدرةً على إجراء الحسابات المعقدة والتعامل مع المبالغ المالية الضخمة. وكان يوجد عددٌ كبير من الرجال الذين يعتاشون من بيع تنبوءات اليانصيب وأنظمته المفترضة والتعويذات الجالبة للحظ. لم يكن لونستون علاقةً بإدارة اليانصيب، فقد كان هذا الأمر من اختصاص وزارة الوفرة. لكنه كان مدركاً (كان كل عضوٍ في الحزب مدركاً هذا الأمر في الحقيقة) أن الجوائز كانت خياليةً إلى حدٍّ بعيد. لم يكن يوزّع منها إلا المبالغ الصغيرة... ولم يكن الفائزون بالجوائز الكبرى إلا أشخاصاً غير موجودين! ففي غياب أي إمكانية تواصل حقيقية بين أنحاء أوقيانيا المختلفة، لم يكن ترتيب هذا الأمر شيئاً صعباً.

لكن، إن كان ثمة أمل، فهو موجود في عامة الناس. لا بد من التعلق بهذا! يبدو الأمر منطقياً عندما يعبِّر عنه المرء بالكلمات: وعندما تنظر إلى بني البشر يمرون بك على الرصيف، يصبح الأمر إيماناً لديك! كان الشارع الذي انعطف إليه يمضي منحدراً. وكان لديه إحساسٌ يخبره أنه قد جاء هذا الحي من قبل، وأن ثمة شارعًا رئيسيًا غير بعيدٍ من هنا. ومن مكان ما أمامه، جاء لغط أصوات كثيرة متصايحة. انعطف الشارع انعطافةً حادة ثم انتهى بمجموعة من الدرجات الهابطة إلى زقاقٍ غائرٍ يبيع فيه عددٌ من أصحاب الأكشاك خضراوات متعبة المظهر. وفي

هذه اللحظة تذكر ونستون أين هو. كان هذا الزقاق مفضياً إلى الشارع الرئيسي. وبعد المنعطف القادم، أقل من خمس دقائق من هذه النقطة، يقع متجر الأشياء القديمة الذي اشترى منه الدفتر الذي يدوِّن فيه مذكراته الآن. ومن مكتبة صغيرة غير بعيدة عن هذه النقطة اشترى المحبرة وريشة الكتابة أيضاً.

توقف لحظة في أعلى الدرجات. إلى الناحية اليمنى من الزقاق كان ثمة حانةٌ بائسة صغيرة تبدو نوافذها وقد اكتنفها الصقيع. لكنها، في الحقيقة، كانت مغطاة بطبقة من الغبار فحسب. فتح رجلٌ عجوزٌ جداً، محني الظهر لكنه نشيط الحركة، الباب المتأرجح ودخل إلى الحانة. كان له شاربٌ أبيض منتصبٌ إلى الأمام مثل شارب برغوث البحر. ظل ونستون واقفاً ينظر. وخطر في باله أن العجوز الذي لا بد أنه في الثمانين على أقل تقدير كان في أواسط العمر عندما قامت الثورة. إن هذا الرجل ونفرٌ قليل من الأشخاص الذين في سنه هم الصلة الأخيرة الموجودة الآن مع عالم الرأسمالية الذي اختفى. وما كان، حتى في الحزب نفسه، من الأشخاص الباقين ممن تشكلت أفكارهم قبل الثورة إلا قلة قليلة . لقد أزيح أكثر الجيل القديم جانباً في التطهيرات الكبيرة التي جرت في الخمسينيات والستينيات. وأما القلة الباقية فقد دفعها الرعب إلى الاستسلام الفكري التام منذ زمنٍ بعيد. ولئن كان ثمة من بقي ممن يستطيعون تقديم رواية صادقة عما كان موجوداً في أوائل القرن، فهم موجودون بين عامة الناس. وعلى نحو مفاجئ، عاد إلى ذهن ونستون ذلك المقطع الذي نسخه من كتاب التاريخ إلى يومياته فاستولى عليه دافعٌ مجنون. سيدخل إلى الحانة. وسيتعرّف على ذلك العجوز ويسأله. سيقول له: «أخبرني عن حياتك عندما كنت فتى. كيف كانت الحياة في تلك الأيام؟ هل كانت الأمور أحسن مما هي الآن، أو أنها كانت أسوأ؟».

انحدر نازلاً الدرجات عل عجَلٍ قبل أن يتاح له الوقت الكافي لأن يخاف فيتراجع. اجتاز الشارع الضيق. كان هذا جنوناً بالطبع! وكالعادة، لا وجود لقاعدة واحدة محددة تمنع التكلم إلى عامة الناس وارتياد حاناتهم. لكن ذلك كان فعلاً غير معتاد إلى حد يجعله يمر من غير أن يُلحَظ. إذا أتت إحدى الدوريات فمن الممكن

أن يزعم أنه كان موشكاً على الإغماء. لكن من المستبعد أن تصدِّقه الدورية! فتح الباب فانبعثت رائحة مدوِّخة صدمته في وجهه... رائحة الجُبن والبيرة الحامضة. وما إن دخل الحانة حتى انخفضت شدة الضجيج فيها إلى النصف. ومن خلف ظهره، كان يشعر بأعين الجميع تنظر إلى بدلته الزرقاء. وأما لعبة رمي السهام التي كانت جاريةً في الناحية الأخرى من الصالة فتوقفت من تلقاء ذاتها... لعلها توقفت ثلاثين ثانية. كان الرجل العجوز الذي يتبعه واقفاً عند البار. وكان ماضياً في مماحكةٍ مع عامل البار الذي كان شاباً ضخماً مكيناً معقوف الأنف له ساعدان ضخمان. وكان عدد من الأشخاص الآخرين يقفون حاملين كؤوسهم في أيديهم ويتفرَّجون على المشهد.

قال العجوز ناصباً كتفيه بحركة مشاكسة: «لقد كلّمتك كلاماً واضحاً، أليس كذلك؟ وأنت تقول لي إنه ليس لديك قدحٌ كبير في هذه الحانة كلّها؟».

قال عامل البار منحنياً إلى الأمام واضعاً أطراف أصابعه على الطاولة: «وما هو القدح الكبير بحق الجحيم؟».

«اسمعوا بالله عليكم! يدعو نفسه عامل بار ولا يعرف القدح الكبير! القدح الكبير يساوي نصف ربع الغالون. والغالون أربعة أرباع! يجب أن أعلّمك الأبجدية في المرة القادمة».

قال عامل البار: «لم أسمع بهذه الأشياء من قبل! أعرف الليتر ونصف الليتر... هذا كل ما نقدمه! وها هي الكؤوس أمامك على الرف».

قال العجوز مصراً: «أحب القدح الكبير! كان يكفيني أن أشرب قدحاً كبيراً. ولم تكن لدينا هذه اللترات اللعينة عندما كنت شاباً».

قال عامل البار وهو يلقي نظرة صوب رواد الحانة الآخرين: «عندما كنت شاباً كنا كلنا نعيش في قمم الأشجار».

انبعثت موجة من الضحك. وبدا أن الضيق الذي سببه دخول ونستون قد اختفى. وأما وجه العجوز الباهت فصار وردياً. استدار مبتعداً وهو يتمتم لنفسه فاصطدم بونستون. أمسكه ونستون بلطفٍ من ذراعه.

قال: «هل لي أن أدعوك إلى شراب؟».

قال العجوز وقد انتصب شاداً كتفيه من جديد: «أنت شخصٌ لطيف». بدا أنه لم يلاحظ بذلة ونستون الزرقاء... وأضاف مخاطباً عامل البار بطريقة هجومية: «قدح كبير... قدح كبير من الشراب».

صب عامل البار في كؤوسٍ سميكة غسلها في سطلٍ تحت المنضدة نصف لتر من البيرة البنيّة القاتمة لكل منهما. كانت البيرة الشراب الوحيد الذي يمكن الحصول عليه في حانات العامة. لم يكن تناول الجن مسموحاً للعامة رغم أنهم يستطيعون الحصول عليه بسهولة ويُسر! عادت لعبة رمي السهام إلى حماوتها الكاملة من جديد وبدأت ثلة الرجال عند البار حديثاً عن بطاقات اليانصيب. لقد نسوا جميعاً وجود ونستون... للحظة! كانت ثمة طاولة خشبية تحت النافذة حيث يمكن أن يتحدث ونستون مع العجوز من غير خوف من أن يسمعهما أحد. كان الأمر خطيراً إلى حد مخيف، لكن الغرفة كانت من غير شاشة مراقبة... هذا ما تأكد منه ونستون فور دخوله إلى الحانة.

غمغم العجوز عندما جلس خلف كأسه: «كان في وسعه أن يصب لي قدحاً كبيراً! إن نصف اللتر غير كافٍ. إنه لا يرضيني! ولترٌ كامل أكثر مما يجب! إنه يجعل مثانتي تتحرّك... ناهيك عن ثمنه».

قال ونستون متردداً: «لا بد أنك رأيت تغيرات كبيرة منذ أن كنت شاباً».

انتقلت عينا العجوز الزرقاوان الشاحبتان من لوحة لعبة السهام إلى البار، ثم من البار إلى باب الحانة... كما لو أنه توقّع رؤية تلك التغيّرات تحدث هناك... في تلك الحانة.

قال أخيراً: «كانت البيرة أفضل. وأرخص أيضاً! عندما كنت شاباً، كان القدح الكبير من البيرة الخفيفة بأربعة سنتات... كنا ندعوها باسم والوب. كان هذا قبل الحرب، بطبيعة الحال».

قال ونستون: «أي حرب كانت؟».

قال العجوز على نحو غامض: «إنها الحروب كلّها». حمل كأسه وانتصبت كتفاه من جديد... «أتمنى لك الصحة التامة».

في رقبته النحيلة، تحرّكت تفاحة آدم الناتئة نتوءاً حاداً حركةً سريعة إلى حد مفاجئ... حركة صعود وهبوط... واختفت البيرة من الكأس. مضى ونستون إلى البار فجاء بنصفي لتر آخرين. يبدو أن العجوز قد نسي ما قاله عن شرب لتر كامل!

قال ونستون: «أنت أكبر مني سناً بكثير. لا بد أنك كنت قد صرت رجلاً ناضجاً قبل أن أولد. وأنت قادر على أن تتذكر كيف كانت تلك الأيام، قبل الثورة. إن الناس الذين في سني لا يستطيعون حقاً أن يعرفوا أي شيء عن ذلك الزمان. نستطيع فقط أن نقرأ عنه في الكتب. وقد لا يكون ما تقوله الكتب صحيحاً! أحب أن أسمع رأيك في هذا. تقول كتب التاريخ إن الحياة قبل الثورة كانت مختلفة تمام الاختلاف عما هي الآن. كان فيها اضطهاد مخيف، وجَوْرٌ، وفقرٌ أسوأ من أي شيء يمكن تخيّله. هنا في لندن كانت أكثرية الناس لا تحصل على طعام يكفيها، منذ أن تولد حتى تموت. وما كان لدى نصف الناس أحذية يضعونها في أقدامهم. كانوا يعملون اثنتي عشرة ساعة في اليوم. وكانوا يتركون المدرسة في التاسعة. وينام العشرة منهم في غرفة واحدة. وفي الوقت نفسه، كان هناك قلَّة من الناس، بضعة آلاف فقط، الرأسماليون، كما كانوا يسمّونهم... كانوا أغنياء وأقوياء. كانوا يملكون كل شيء في المدينة. وكانوا يعيشون في بيوت فخمة كبيرة في كل منها ثلاثون خادماً. وكانوا يتجوّلون في سياراتهم وفي عربات تجرّها أربعة خيول.. كانوا يشربون الشامبانيا. وكانوا يضعون قبعات طويلة».

أشرق وجه العجوز على نحو مفاجئ.

قال: «قبعات طويلة! غريبٌ أن تذكرها. لقد تذكرت الشيء نفسه بالأمس. لا أعرف السبب! لقد كنت أقول لنفسي إنني لم أرَ قبعة طويلة منذ سنين. لقد اختفت الآن! كانت جنازة أخت زوجتي آخر مناسبة أضع فيها قبعة طويلة. لقد كان ذلك... لا أستطيع أن أعطيك تاريخاً دقيقاً، لكن لا بد أن ذلك كان قبل خمسين عاماً مضت. لقد استأجرت تلك القبعة طبعاً من أجل المناسبة... أنت تدرك هذا».

قال ونستون ممتعضاً بصبر: «ليست مسألة القبعات الرسمية بالأمر المهم كثيراً. النقطة المهمة هي أن هؤلاء الرأسماليين... هم وحفنة من المحامين والقساوسة ومن لفَّ لفهم ممن يعتاشون عليهم... كانوا سادة الأرض. كان كل ما هو موجود مُسخَّراً من أجلهم. وأنتم... أنتم الناس العاديين، العمال... كنتم عبيداً لهم. كانوا يستطيعون أن يفعلوا بكم ما يشاؤون. وكانوا يستطيعون أن يشحنوكم إلى كندا مثلما تُشحن الماشية. وكانوا يستطيعون النوم مع بناتكم إن أرادوا ذلك. وكانوا يستطيعون أن يأمروا بجَلدكم بشيء يسمّونه باسم القط ذي الأذيال التسعة. وكان عليكم أن ترفعوا قبعاتكم عندما يمرّون بكم. وكانت تسير مع كل رأسمالي عصبة من خدمه الذين...».

أشرق وجه العجوز من جديد.

قال: «الخدم! ها هي كلمة لم أسمعها منذ زمن بعيد. الخدم! هذا يذكّرني بالماضي... نعم، إنه يذكّرني بالماضي. لقد تذكرت... أوه، لا أعرف منذ كم من السنين... كنت أذهب أحياناً إلى هايدبارك بعد ظهر أيام الأحد لسماع هؤلاء الأشخاص يلقون كلماتهم. جيش الخلاص، والروم الكاثوليك، واليهود، والهنود... كانوا من جميع الأنواع. وكان ثمة واحد منهم... لا أستطيع أن أقول لك اسمه، لكنه كان متحدثاً قوياً فعلاً! كان يتحدث عنهم بلا هوادة! كان يقول: الخدم... خدم البرجوازية الخانعون! خُدّام الطبقة الحاكمة! الطفيليون... كان هذا اسماً آخر من أسمائهم. والضباع أيضاً... نعم، لقد كان يطلق عليهم اسم الضباع. لقد كان يشير إلى حزب العمال بطبيعة الحال... أنت تفهم ذلك».

كان لدى ونستون إحساسٌ يقول له إنهما يتكلمان عن شيئين مختلفين.

قال: «ما أردت معرفته حقاً هو: هل تشعر أنك تتمتع الآن بحرية أكبر من الحرية التي كانت لديك في تلك الأيام؟ وهل تُعامَل الآن ككائن بشري أكثر من ذي قبل؟ في الماضي، الأغنياء، الأشخاص الذين في القمة...».

قال العجوز متذكراً: «مجلس اللوردات».

«حسناً، مجلس اللوردات، إذا أردت! سؤالي هو: هل كان هؤلاء الأشخاص

قادرين على معاملتك معاملة متكبّرة لمجرد أنهم أغنياء وأنت فقير؟ وهل صحيح مثلاً أنك كنت مضطراً إلى مخاطبتهم بكلمة «سيدي» وأن ترفع قبعتك عندما تمرّ بهم؟».

بدا على العجوز مظهر التفكير العميق. ابتلع نحو ربع كأسه قبل أن يجيب.

قال: «نعم! كانوا يحبون أن ترفع يدك إلى قبعتك عندما تمر بهم. كانت هذه علامة احترام. لم أكن أقرّها، من ناحيتي، لكنني كنت أقوم بها كثيراً. كنت مضطراً إلى القيام بها... يمكنك أن تقول ذلك».

«وهل كان من المعتاد... لست أقول هنا إلا ما قرأته في كتب التاريخ... هل كان من المعتاد أن يدفعك هؤلاء الناس، أو خدمهم، عن الرصيف ويرمون بك في المجاري؟».

قال العجوز: «لقد دفعني أحدهم مرة. أذكر هذا كأنه كان بالأمس. كانت ليلة سباق القوارب... وكانوا يميلون ميلاً رهيباً إلى الفظاظة في ليلة سباق القوارب... اصطدمت بشابٍ في جادة شافتسبرغ. كان واحداً من علية القوم... قميص رسمي، وقبعة رسمية، ومعطف أسود. كان يسير سيراً متعرجاً على الرصيف فاصطدمت به مصادفةً. قال لي: «ألا تستطيع النظر أمامك؟». فأجبت: «وهل تظن أنك اشتريت الرصيف؟». قال: «سوف أقتلع رأسك من مكانه إذا أسأت الأدب معي». فقلت: «أنت سكران. وسوف ألقّنك درساً في دقيقةٍ واحدة». ولك أن تصدّقني... لقد وضع يده على صدري ودفعني فكاد يوقعني تحت عجلات إحدى الحافلات. نعم... لقد كنت شاباً في تلك الأيام... وكنت سأردّ عليه فقط لو لم...».

استولى القنوط على ونستون. لم يكن ذاكرة الرجل إلا ركامًا من التفاصيل التي لا قيمة لها. كان يمكن أن يمضي المرء الليل كله في طرح الأسئلة عليه من غير أن يحصل على أي معلومات حقيقية. لعل قصص التاريخ التي يقدّمها الحزب صحيحةٌ رغم ذلك... بل لعلها تكون صحيحة تماماً. لكن ونستون قام بمحاولة أخيرة.

قال للعجوز: «لعلّي لم أعبّر على نحوٍ واضح. ما أحاول قوله هو التالي. لقد مضى على حياتك زمن طويل. وقد عشت نصف هذه الحياة قبل الثورة. لقد كنت مرشداً في عام 1925، على سبيل المثال. هل تستطيع أن تقول لي، اعتماداً على ذاكرتك، إن كانت الحياة في عام 1925 أفضل مما هي الآن، أو أسوأ؟ ولو استطعت الاختيار، فهل تفضل أن تعيش الآن أم في ذلك الوقت؟».

راح العجوز ينظر إلى لوحة لعبة السهام نظرة تأمّل. ثم أنهى كأس البيرة على نحوٍ أبطأ من ذي قبل. وعندما تكلم، كانت نبرته فلسفيةً متسامحة... وكأن البيرة قد لطّفت من طبعه.

قال العجوز: «أعرف ما تتوقّع مني قوله! تتوقّع أن أقول لك إنني أحب أن أعود شاباً. ويقول معظم الناس، إذا سألتهم، إنهم يحبّون أن يعودوا شباباً. يكون المرء قوياً معافى في شبابه. وعندما تصل إلى مثل عمري، فإنك لا تكون في حالٍ طيبة. إنني أعاني شيئاً خبيثاً في قدمي. كما أن حالة مثانتي بائسة تماماً. وقد أستيقظ بسببها ست أو سبع مرات في الليلة الواحدة. أما من ناحية أخرى، فثمة منافع كثيرة لأن يكون المرء عجوزاً. لا تعود لديك تلك المشاغل نفسها. ولا تعود مهتماً بالنساء. هذا أمر عظيم! لم أقرَب امرأة منذ نحو ثلاثين سنة، إن كنت تصدقني. بل إنني لم أرغب في ذلك أيضاً».

استند ونستون بظهره إلى إطار النافذة. لا فائدة من متابعة الأمر. كان موشكاً على شراء مزيد من البيرة عندما نهض العجوز فجأة واتجه مسرعاً إلى المبولة التي تفوح رائحتها في ناحية من الصالة. لقد ظهر عليه تأثير نصف اللتر الإضافي. جلس ونستون دقيقةً أو دقيقتين محدقاً في كأسه الفارغة. ولم يكد يلاحظ كيف حملته قدماه خارجاً إلى الشارع من جديد. وراح يفكر أنه في غضون عشرين سنة على أبعد تقدير، لن تعود الإجابة ممكنة على السؤال البسيط الضخم: «هل كانت الحياة قبل الثورة أفضل مما هي الآن؟» بل إنه سؤالٌ لا إجابة له منذ الآن في حقيقة الأمر، لأن الباقين القلائل من العالم القديم كانوا غير قادرين على المقارنة بين الحقبات

المختلفة من حياتهم. إنهم يتذكرون مليون شيء لا قيمة له... شجار مع زميل في العمل، وبحث عن منفاخ دراجة مفقود، وتعبير كان على وجه شقيقة متوفاة منذ زمنٍ طويل، وزوابع من الغبار في صبيحة يومٍ هبَّت فيه الريح قبل سبعين عاماً: لكن كل حقيقة ذات معنى كانت خارج بصرهم تماماً. إنهم مثل نملة تستطيع أن ترى الأشياء الصغيرة لكنها غير قادرة على رؤية الأجسام الكبيرة. وعندما تخبو ذاكرة هؤلاء الناس، ويجري تزوير السجلّات المكتوبة... عندما يحدث هذا، فلا بد من قبول زَعْم الحزب أنه قد حسَّن ظروف حياة البشر. فلا وجود لمعيار يمكن استخدامه للحكم على هذا الزَّعم... ولن يوجد معيار!

في هذه اللحظة توقف تسلسل أفكاره على نحوٍ مفاجئ. توقف عن السير ورفع رأسه. كان في شارع ضيّق فيه متاجر صغيرة مظلمة متناثرة بين البيوت السكنية. وفوق رأسه تماماً، تدلّت ثلاث كرات معدنية فاقدة ألوانها، لكنها بدت كأنها كانت مذهّبة ذات يوم. أحس بأنه يعرف هذا المكان. نعم! كان واقفاً أمام متجر الخردوات الذي اشترى منه دفتر مذكّراته.

سرت فيه موجة من الذعر. لقد كان شراء الدفتر فعلاً متهوّراً بما فيه الكفاية، منذ البداية. وقد أقسم أنه لن يأتي إلى هذا المكان مرة ثانية. وما إن سمح لأفكاره بالتجوّل على هواها حتى عادت به قدماه إلى هذا المكان من تلقاء ذاتهما. لقد بدأ تدوين مذكراته، في الأصل، لكي يبعد نفسه عن هذا النزوع إلى التصرفات الانتحارية تحديداً. وفي الوقت نفسه، لاحظ أن المتجر لا يزال مفتوحاً رغم أن الساعة قد قاربت التاسعة ليلاً.عَبَرَ ونستون باب المتجر لإحساسه أن وجوده في الداخل أقل إثارةً للشبهات من بقائه واقفاً على الرصيف. فلو سُئل لاستطاع أن يجيب، على نحوٍ مقنع، أنه يحاول شراء شفرات حلاقة.

كان صاحب المتجر قد.أشعل مصباحاً زيتياً علّقه إلى السقف. وكان المصباح يبعث رائحة غير نظيفة، لكنها مع ذلك لطيفة. كان الرجل في الستين من عمره

تقريباً... هشّ الجسم منحنياً، وله أنف طويلٌ لطيف الشكل وعينان ناعمتان شوّهت مظهرهما نظارة سميكة. كان شعره أبيض تقريباً، لكن حاجبيه كثيفان محافظان على سوادهما. وكانت نظاراته، وحركاته اللطيفة الأنيقة، وحقيقة أنه كان مرتدياً سترة عتيقة من المخمل الأسود، تعطيه كلها مظهراً غامضاً لرجل مثقّف، وكأنه كان في الماضي رجلاً من رجال الأدب... أو لعله كان موسيقياً. كان صوته ناعماً، كأنه ذاوٍ. وكانت لكنته عندما يتكلم أقل وضاعةً مما يسمعه المرء لدى أكثر العامة.

قال على الفور: «لقد عرفتك عندما كنت على الرصيف. أنت هو السيد الذي اشترى ألبوم السيدة الشابة التذكاري. كان قطعة فنّية جميلة مصنوعة من الورق. كانوا يسمون ذلك النوع «ورق القشدة». لم يُصنع مثل هذا الورق منذ... أوه، أستطيع أن أقول خمسين سنة». ألقى الرجل نظرة صوب ونستون من فوق إطار نظارته... «هل ثمة شيءٌ أستطيع فعله من أجلك؟ أو تريد أن تلقي نظرة فحسب؟».

قال ونستون على نحوٍ غامض: «كنت ماراً من هنا وأحببت أن ألقي نظرة. لا أريد أي شيء على وجه التحديد».

قال الرجل: «أهلاً وسهلاً! لا أستطيع افتراض أنه لديّ ما يرضيك». أشار براحة يده الناعمة بحركة توحي بالاعتذار... «أنت ترى كيف هو الأمر. ولعلك تقول إنه متجر فارغ! بيني وبينك، إن تجارة الأشياء القديمة موشكة على بلوغ نهايتها. لا طلب عليها بعد الآن... ولا مواد متوفِّرة أيضاً. إن قطع الأثاث والخزف والزجاج كلها مكسورةٌ إلى هذه الدرجة أو تلك. كما أن الأشياء المعدنية قد صُهِرَ أكثرها بطبيعة الحال. لم أرَ شمعداناً نحاسياً منذ سنين».

كان المتجر الصغير مكتظاً إلى حد غير مريح في حقيقة الأمر. لكنه يكاد يكون خالياً من أي شيءٍ ذي قيمة. كانت مساحة الأرضية محدودةً جداً لأن الجدران كلها ازدحمت بما لا يُحصى من إطارات اللوحات المغبرة. وفي النافذة، كانت ثمة صوانٍ من المسامير والصامولات والأزاميل المهترئة، وسكاكين صغيرة مكسورة

أنصالها، وساعات يد وسخة لا يوحي مظهرها بأنها تعمل، وتشكيلة متنوعة من النفايات. فقط على طاولة صغيرة قابلة للطي في الزاوية كان ثمة مجموعة من الأشياء الغريبة... علب سعوط ملمّعة، وحُلي من العقيق، وما يشبه ذلك... قطع يبدو عليها أنها قد تحتوي على شيء ذي قيمة. وما إن تحرّك ونستون صوب تلك الطاولة حتى وقعت عينه على شيء مدوَّر صقيل يتألق على نحوٍ لطيف في ضوء المصباح. التقط ذلك الشيء.

كان الشيء كتلة زجاجية ثقيلة، مقببة من أحد جانبيها، ومسطحة من جانبها الآخر حتى صارت كأنها نصف كرة. وكان ثمة نعومة غريبة، في ملمس الزجاج ولونه. وفي قلب هذه القطعة، كان ثمة شيء ملتوٍ يشبه زهرة أو يشبه شقائق البحر. وكان مكبراً بفعل السطح المنحني.

سأل ونستون مسحوراً: «ما هذا؟».

قال العجوز: «هذا مرجان! لا بد أنه من المحيط الهندي. لقد كانوا يضعونه ضمن الزجاج. مضى على هذه القطعة زمن لا يقل عن مئة سنة. بل أكثر... إذا نظرنا إليها».

قال ونستون: «إنها شيءٌ جميل».

قال الآخر مستحسناً: «إنها شيءٌ جميل! لكن لا وجود لكثيرٍ ممن يقولون ذلك في هذه الأيام». سعل الرجل... «والآن... إذا كنت تريدها، فسوف تكلفك أربعة دولارات. أستطيع أن أتذكر عندما كان شيءٌ كهذا يأتي بثمانية باوندات؛ وثمانية باوندات كانت... لا أستطيع أن أحسبها، لكنها كانت تعادل مالاً كثيراً. لكن من عساه يهتم بالأشياء القديمة هذه الأيام، حتى بالأشياء القليلة الباقية؟».

دفع ونستون الدولارات الأربع على الفور ودسَّ ذلك الشيء في جيبه. لم يكن جمال تلك القطعة هو ما جذبه إليها بقدر ما كان ذلك الإيحاء بأنها تنتمي إلى عصر مختلف عن الزمن الراهن تمام الاختلاف. كان ذلك الزجاج الناعم الشبيه بماء المطر شيئاً لا يشبه أي زجاج شاهده من قبل. بل كانت جاذبية تلك القطعة مزدوجة بسبب انعدام فائدتها الواضح... رغم أنه كان قادراً على تخمين أن المقصود منها

لا بد أن يكون هو استعمالها بمثابة ثقّالة ورق. كانت ثقيلة جداً في جيبه، لكنها لم تسبب انتفاخاً ظاهراً كثيراً، لحسن الحظ. فقد كان وجود شيء من هذا القبيل مع عضو الحزب أمراً غريباً شاذاً، بل أمر خطير أيضاً. كان أي شيء قديم، بل أي شيء جميل إن أردنا الحق، أمراً مشبوهاً على نحو غامض. أما الرجل العجوز فقد ظهرت عليه بهجةٌ واضحة بعد أن استلم الدولارات الأربعة. أدرك ونستون أنه كان سيقبل ثلاثة دولارات، أو حتى اثنين!

قال الرجل: «توجد غرفةٌ أخرى لعلك تحب أن تلقي نظرة عليها. ليس فيها شيءٌ كثير. حفنة من القطع فحسب. سنحتاج لأن نأخذ مصباحاً معنا إن كنت تنوي الصعود».

أضاء الرجل مصباحاً آخر وتقدم ونستون سائراً بظهره المنحني فصعد الدرجات المهترئة بخطواتٍ بطيئة ثم سار عبر ممر ضيِّق مفضٍ إلى غرفةٍ لا تشرف على الشارع بل على فناءٍ مرصوف وغابةٍ من المداخن. لاحظ ونستون أن ترتيب الأثاث في الغرفة لا يزال يوحي بأنها غرفة للمعيشة. كانت قطعة من السجاد موضوعة على الأرض، ولوحة أو اثنتان على الجدران، وكنبة قذرةٌ بالقرب من الموقد. وعلى رف الموقد، كانت توجد ساعة زجاجية على الطراز القديم لها وجه مرقّم وفق نظام الاثنتي عشرة ساعة. وتحت النافذة، جثم سرير ضخم يحتل ربع مساحة الغرفة تقريباً. وكان الفراش لا يزال عليه.

قال العجوز شبه معتذر: «لقد عشت هنا حتى توفيت زوجتي. وأنا أبيع هذا الأثاث شيئاً بعد شيء. هذا سرير جميل من خشب الماهاغوني، أو لعله يمكن أن يكون جميلاً إذا استطعت إخراج البق منه. لكني أجرؤ على القول إنك ستجد ذلك أمراً متعباً بعض الشيء».

كان الرجل قد رفع المصباح عالياً كأنه يحاول إنارة الغرفة كلها فبدا المكان مغرياً على نحو يثير الفضول في ذلك النور الخافت. خطرت لونستون فكرة أنه قد يكون من السهل فعلاً أن يستأجر الغرفة مقابل بضعة دولارات في الأسبوع... إن تجرّأ على هذه المخاطرة. كانت فكرة مجنونة مستحيلة يجب تركها والابتعاد عنها فور

التفكير فيها. لكن الغرفة أيقظت فيه نوعاً من الحنين... نوعاً من ذاكرة الأجداد! بدا له أنه يعرف تماماً ذلك الشعور الذي يبعثه جلوس المرء في غرفة كهذه، في كنبة إلى جوار موقد مفتوح يضع المرء قدميه على حافته... ووعاء الماء الساخن على الصفيحة... وحيداً تماماً، آمناً تماماً، من غير أحد يراقبك، من غير صوت يتبعك، من غير صوت إلا غناء وعاء الماء الذي يغلي وتكات الساعة اللطيفة.

لم يستطع أن يمنع نفسه من التمتمة: «لا وجود لشاشة هنا!».

قال العجوز: «آه... لم يكن لدي واحدة من هذه الأشياء على الإطلاق. إنها غالية الثمن كثيراً. ولم أشعر بحاجة إليها. والآن، هذه طاولة لطيفة قابلة للطي في الزاوية هناك. لكن عليك أن تضع لها مفصّلات جديدة طبعاً إذا أردت أن تستخدم جوانبها المطوية».

كان ثمة خزانة صغيرة للكتب في الزاوية الأخرى. وكان ونستون قد انجذب صوبها فذهب إليها. لم يكن فيها شيء إلا بعض النفايات. كان التفتيش عن الكتب وإتلافها قد جرى بالقدر نفسه من الشمول والدقة في أحياء عامة الناس، مثلما جرى في كل مكان آخر. وكان من المستبعد جداً أن توجد في أي مكان في أوقيانيا أي نسخة من كتاب مطبوع قبل عام 1960. كان الرجل لا يزال حاملاً مصباحه واقفاً أمام لوحة لها إطار من خشب الورد. كانت اللوحة معلقة إلى الناحية الأخرى من الموقد، قبالة السرير.

قال الرجل بصوتٍ رقيق: «والآن، إذا كنت مهتماً باللوحات القديمة...».

اجتاز ونستون الغرفة ليلقي نظرة فاحصة على اللوحة. كانت نقشاً على الفولاذ يمثل بناء بيضوياً له نوافذ مستطيلة وبرج صغير في المقدمة. وكان ثمة سياج من حول المبنى. وظهر ما يشبه التمثال في النهاية الخلفية. حدّق ونستون في اللوحة برهةً. بدا له المشهد مألوفاً على نحوٍ ما، لكنه لم يتذكّر التمثال.

قال العجوز: «إن الإطار مثبت على الجدار، لكن اسمح لي بالقول إنني أستطيع نزع المسامير من أجلك».

قال ونستون أخيراً: «أعرف هذا المبنى! إنه خَرِبٌ الآن. يقع في منتصف الشارع الموصل إلى قصر العدل».

«هذا صحيح! خارج مبنى المحكمة. لقد تعرّض للقصف في نقاط، أوه... منذ سنوات كثيرة. لقد كان كنيسة ذات يوم. كان اسمها كنيسة القدّيس كليمان دينز». ابتسم الرجل ابتسامة اعتذار كمن يدرك أنه قال شيئاً سخيفاً بعض الشيء. ثم أضاف: «برتقالات وليمونات، تقول أجراس القدّيس كليمان».

قال ونستون: «ما هذا؟»

«أوه... برتقالات وليمونات، تقول أجراس القدّيس كليمان. إنها ترنيمة كنا نرددها عندما كنت صبياً صغيراً. لا أذكر تتمتها، لكنني أعرف نهايتها: «ها هي شمعة تنير طريقك إلى الفراش؛ وها هو جلّاد ليقطع رأسك». كانت رقصة من الرقصات. كانوا يمدّون أذرعهم حتى تمر من تحتها. وعندما يصلون إلى «ها هو جلاد يأتي ليقطع رأسك»، كانت أذرعهم تهبط فتمسك بك. كانت الأغنية مجرد أسماء لكنائس. وكانت كنائس لندن كلها مذكورة فيها... بل كل الكنائس الرئيسية».

تساءل ونستون في نفسه على نحو غامض عن القرن الذي كانت فيه هذه الكنائس. كان من الصعب دائماً تحديد عمر أي مبنى في لندن. كانوا يزعمون أن أي مبنى ضخم مؤثر تبدو عليه بعض الجدة المعقولة قد بني بعد الثورة. في حين أن أي شيء يعود بشكل واضح إلى زمنٍ أقدم كان ينسب إلى فترة غامضةٍ ما يطلقون عليها اسم العصور الوسطى. وأما عصر الرأسمالية فكان يعتبر أنه لم تنتج شيئاً ذا قيمة على الإطلاق. لم يكن المرء قادراً على تعلم التاريخ من العمارة بأكثر مما كان قادراً على تعلمه من الكتب! وأما التماثيل والنقوش والنصب التذكارية وأسماء الشوارع... وأيّ شيء يمكن أن يلقي ضوءاً على الماضي، فقد جرى تغييره على نحوٍ منهجي.

قال ونستون: «لم أعرف أبداً أنها كانت كنيسة».

قال العجوز: «ثمة كنائس كثيرة باقية في حقيقة الأمر رغم أنها صارت مخصصة لاستخدامات أخرى. والآن، كيف كانت تتمة تلك الترنيمة؟ آه... لقد تذكّرت!

برتقالات وليمونات، تقول أجراس القديس كليمان

أنت مدين لي بثلاثة قروش، تقول أجراس القديس مارتن

هذا ما أستطيع تذكره الآن. كان القرش قطعة نقدية نحاسية صغيرة تبدو شيئاً شبيهاً بالسنت».

قال ونستون: «وأين كانت كنيسة القديس مارتن؟»

«سان مارتن؟ إنها لا تزال قائمة! هي في ساحة النصر، إلى جانب معرض اللوحات. إنها مبنى له نوع من رواق أمامي مستطيل وأعمدة في المقدمة ودرجات كبيرة تصعد إليها».

عرف ونستون المكان جيداً. كان متحفاً مستخدماً من أجل العروض الدعائية من مختلف الأنواع... نماذج بالحجم الطبيعي للقنابل الطائرة والقلاع العائمة، ولوحات شمعية تمثل الفظائع التي يرتكبها الأعداء، وهكذا دواليك.

قال العجوز مكملاً كلامه: «كانوا يطلقون عليها اسم القديس مارتن في الحقول! لكنني لا أذكر وجود حقول في أي مكان في تلك النواحي».

لم يشترِ ونستون اللوحة. لقد كانت شيئاً لا معنى لاقتنائه... أكثر من ثقّالة الأوراق. وكان من المستحيل حملها إلى البيت إلا إذا انتزعها من إطارها. لكنه ظل هناك بضع دقائق إضافية متحدثاً مع العجوز الذي اكتشف أن اسمه لم يكن ويكس مثلما يمكن استنتاجه من النقش الموجود على واجهة المتجر، بل تشارينغتون. وبدا له أن السيد تشارينغتون كان أرمل في الثالثة والستين من العمر. وهو يقيم في هذا المتجر منذ ثلاثين سنة. وخلال ذلك الوقت كله كان يعتزم تغيير الاسم على الواجهة، لكنه لم يصل إلى نقطة تغييره فعلاً في يوم من الأيام. وطيلة الوقت الذي استغرقه حديثهما، ظلت الترنيمة التي لم يتذكر الرجل إلا نصفها تجول في رأس ونستون. برتقالات وليمونات، تقول أجراس القديس كليمان، أنت مدين

لي بثلاثة قروش، تقول أجراس القديس مارتن! كان الأمر عجيباً... لكن، عندما تقولها في نفسك يخيل لك أنك تسمع أجراساً حقاً... أجراس لندن المفقودة التي لا تزال موجودة في مكان ما، مخفية ومنسية. ومن برج كنيسة شبحي لآخر، بدا لونستون أنه يسمع الأجراس تجلجل وتدق. لكنه لم يكن قادراً على تذكر أنه قد سمع حقاً أجراس كنيسة تدق في حياته كلها.

ترك ونستون السيد تشارينغتون وهبط درجات السلم وحيداً حتى لا يدع العجوز يرى أنه يستطلع الشارع قبل أن يخرج من باب المتجر. لقد استقر عزمه على المخاطرة بزيارة هذا المتجر من جديد بعد فترة مناسبة... بعد شهرٍ مثلاً! لعل ذلك ليس أكثر خطورةً من التغيب عن المركز في إحدى الأمسيات. لقد كانت الحماقة الخطيرة هي العودة إلى هذا المكان أصلاً بعد شراء دفتر المذكرات من غير معرفة إن كانت الثقة بصاحب المتجر جائزة. ولكن...!

نعم... فكر في نفسه من جديد... سوف يعود. سيشتري قطعاً أخرى من سقط المتاع الجميل هذا. وسيشتري لوحة القديس كليمان دينز المنقوشة. سيخرجها من إطارها ويأخذها إلى المنزل مخفيةً تحت سترة العمل الزرقاء. وسوف يستخرج تتمة القصيدة من ذاكرة السيد تشارينغتون. بل إن المشروع المجنون، مشروع استئجار تلك الغرفة في الأعلى، خطر في ذهنه مرة أخرى. لعل خمس ثوانٍ من هذا التفكير قد جعلته ينسى واجب الحَذَر فخرج إلى الرصيف من غير أن يلقي نظرة استطلاعٍ من النافذة. بل راح أيضاً يهمهم لنفسه بلحنٍ ارتجله:

«برتقالات وليمونات، تقول أجراس القديس كليمان،

أنت مدين لي بثلاثة قروش، تقول....»

وفجأة، شعر بأن قلبه قد تجمّد وصار قطعة من الثلج وأن أمعاءه قد ذابت وتؤلمه كثيراً. كان شخص بملابس العمل الزرقاء قادماً صوبه على الرصيف. لم يكن يبعد عنه أكثر من عشرة أمتار! إنها تلك الفتاة من قسم الروايات، الفتاة ذات الشعر الداكن. كان ضوء النهار قد خفُتَ كثيراً، لكن تمييزها لم يكن صعباً. نظرت إلى وجهه نظرة مباشرة، ثم سارت سريعاً كأنها لم تره.

لبضع ثوانٍ أُصيب ونستون بشلل جعله غير قادر على الحركة. ثم استدار يميناً ومضى متثاقلاً غير مدرك في تلك اللحظة أنه كان ماضياً في اتجاه خاطئ. لقد تمت الإجابة على أحد الأسئلة، على أي حال. لم يعد لديه شكّ في أن الفتاة تراقبه. لا بد أنها لحقت به إلى هنا. فليس من المعقول أن تسير بمحض الصدفة في الأمسية نفسها، في الشارع الخلفي نفسه، بعيداً عدة كيلومترات عن أي حيّ من الأحياء التي يعيش فيها أعضاء الحزب. كان هذا أكثر بكثير من مجرد مصادفة. ولم يكن ثمة فرق كبير بين أن تكون عميلة لشرطة الفكر أو مجرّد جاسوسة هاوية يسوقها الفضول. كان يكفي أنها تراقبه. ولعلها رأته عندما دخل الحانة أيضاً.

صار المشي يتطلب جهداً عظيماً! وكانت كتلة الزجاج تصطدم بفخذه في كل خطوة فراودته فكرة أن يخرجها فيلقي بها بعيداً. كان الألم في بطنه أسوأ الأشياء على الإطلاق. وأحس، طيلة دقيقتين، أنه موشك على الموت إن لم يستطع العثور على مرحاضٍ فوراً. لكن، ما من مراحيض عامة في حي من هذه الأحياء. وهكذا... مرت النوبة تاركة ألماً كليلاً خلفها.

كان الشارع زقاقاً مسدوداً. توقّف ونستون... وظلّ واقفاً عدة ثوانٍ مفكّراً على نحوٍ غائم في ما يستطيع فعله، ثم استدار وعاد من حيث أتى. وعندما استدار، خطر في باله أن الفتاة مرّت به منذ ثلاث دقائق فقط، وأنه قد يستطيع اللحاق بها إذا ركض خلفها. يستطيع متابعتها حتى يصبحا في مكانٍ هادئ فيسحق جمجمتها بحجر. إن قطعة الزجاج في جيبه ثقيلة بالقدر الكافي لهذه المهمة. لكنه أبعد الفكرة عن رأسه فوراً لأن مجرد فكرة القيام بجهد جسدي بدت له أمراً لا يستطيع احتماله. لم يكن قادراً على الجري، كما لم يكنقادراً على الضرب. ثم إنها فتيّة عفيّة... وسوف تدافع عن نفسها. فكّر أيضاً في الإسراع إلى المركز الاجتماعي والبقاء هناك حتى إغلاق المكان بحيث يثبت حضوره في تلك الأمسية، ولو جزئياً. لكن هذا كان مستحيلاً أيضاً. لقد استولى عليه فتورٌ قاتل. لم يعد يريد إلا العودة إلى البيت سريعاً ليستلقي هناك في هدوء.

كانت الساعة قد جاوزت العاشرة مساء عندما عاد إلى شقّته. سوف ينقطع

التيار الكهربائي في الحادية عشرة والنصف. مضى إلى المطبخ فازدرد ملء فنجان شاي تقريباً من جن النصر. ثم ذهب ليجلس إلى الطاولة في ذلك التجويف، وأخرج دفتر مذكراته من الدُّرج. لكنه لم يفتحه فوراً. كان صوت أنثوي نحاسي يصدح بأغنية من أغاني النصر في الشاشة. جلس ونستون محدِّقاً في غلاف الدفتر المرمري محاولاً، من غير نجاح، إبعاد صوت المغنية عن رأسه. إنهم يأتون في الليل لأخذ الناس... في الليل دائماً! والأمر الصحيح هو أن تقتل نفسك قبل أن يمسكوا بك. لا بد أن بعض الناس قد فعلوا هذا. وكان كثير من حالات الاختفاء انتحاراً في الواقع. لكن الأمر يتطلّب شجاعة يائسة حتى يقتل المرء نفسه في عالم لا يمكن فيه أبداً شراء أي نوع من أنواع الأسلحة النارية أو أي سمّ سريع المفعول.

راح يفكر بشيء من الدهشة في عدم جدوى الألم والذعر... وفي تخاذل الجسم البشري الذي يتجمّد دائماً وتخور قواه في اللحظة التي يكون فيها المرء بحاجة إلى القيام بمجهودٍ خاص. لعله كان قادراً على إخراس الفتاة ذات الشعر الداكن لو أنه تصرَّف بسرعة كافية: لكنه فَقَدَ قدرته على الفعل بسبب شدة الخطر تحديداً! فاجأه كثيراً أن المرء لا يقاتل ضد عدو خارجي في لحظات الأزمة، بل يقاتل ضدّ جسده هو. وحتى الآن، وعلى الرغم من الجن الذي شربه، كان الألم الفظيع في بطنه يجعل أي تفكير مترابط منطقياً أمراً عزيز المنال. أدرك أن الحال تكون هكذا في الأوضاع التي تبدو بطولية أو مأساوية... كلّها! في ميدان المعركة، وفي غرفة التعذيب، وعلى متن سفينة غارقة... ينسى المرء دائماً الأشياء التي يقاتل من أجلها لأن جسده ينتفخ ويكبر حتى يملأ الكون كله فلا يرى غيره... وحتى عندما لا يقع المرء فريسة الشلل بسبب ذعره أو صراخه من الألم، فإن الحياة تصبح نضالاً يمضي لحظةً بلحظةٍ في مواجهة الجوع أو البرد أو قلّة النوم، أو في مواجهة معدة متقرّحة أو ألم الأسنان.

فتح دفتر مذكراته. شعر بأن من المهمّ أن يكتب فيه شيئاً. لكن تلك المرأة في الشاشة بدأت أغنية جديدة. وأحسّ أن صوتها يلتصق بدماغه مثل شظايا زجاجية مسننة. حاول التفكير في أوبراين... الذي يكتب مذكراته من أجله... أو له... لكنه

راح يفكر بدلاً من ذلك في الأمور التي ستحدث بعد أن تأخذه شرطة الفكر. ليس مهماً أن يقتلوك على الفور. فالقتل هو ما تتوقّعه. لكن، ثمة دائماً حكاية الاعترافات التي لا بد من المرور عبرها قبل القتل. (لا يتحدث أحد عن هذه الأشياء، لكن الجميع يعرفها): الزحف على الأرض. والصراخ طلباً للرحمة. وطقطقة العظام المتكسرة. والأسنان المهشّمة. وخثرات الدم على الشعر.

لماذا تحتمل هذا كله طالما أن النهاية هي نفسها دائماً؟ ولماذا لا يكون ممكناً أن تقتطع بضعة أيام، أو بضعة أسابيع، من حياتك؟ لا ينجو أحد أبداً من اكتشاف أمره، ولا مفرّ لأحد من الاعتراف! وما إن تعترف بجريمة الفكر حتى يصبح أكيداً أنك سوف تموت في تاريخ محدد. فلماذا ذلك الرعب إذًا؟... الرعب الذي لا يغير شيئاً... لماذا يجب أن يظل مختبئاً في لحظة في المستقبل؟

حاول، ونجح أكثر قليلاً من ذي قبل، أن يستحضر صورة أوبراين. لقد قال له أوبراين: «سوف نلتقي في مكان لا ظلمة فيه». كان يعرف معنى هذا، أو ظن أنه يعرفه. المكان الذي لا ظلمة فيه هو المستقبل المتخيَّل الذي لن يراه المرء أبداً، لكنه يستطيع استشرافه وأن يكون جزءاً منه في السرّ. لكنه عجز عن متابعة تسلسل أفكاره أكثر من ذلك تحت وقع الصوت الملحّ الآتي من الشاشة. وضع سيجارة في فمه. سرعان ما تساقط نصف تبغها على لسانه... غبار مُرٌّ يلتصق باللسان يصعب بصقه. راح وجه الأخ الأكبر يسبح في ذهنه فحلَّ محلّ وجه أوبراين. ومثلما فعل قبل أيام قليلة، أخرج قطعة نقد معدنية من جيبه ونظر إليها. حدَّق ذلك الوجه إليه، ثقيلاً، هادئاً، حامياً: لكن، أيّ ابتسامة يخبّئها تحت هذين الشاربين الأسودين؟

عاودته تلك الكلمات مثل ناقوس رصاصي يقرع في ذهنه:

الحرب هي السِّلم

الحرية هي العبودية

الجهل هو القوة

الفصل الثاني

كان الوقت منتصف النهار. عندما غادر ونستون حجرة عمله ذاهباً إلى المرحاض. وكان شخص يسير بمفرده قادماً صوبه من الناحية الأخرى من الممر الطويل ذي الإنارة الساطعة. إنها الفتاة ذات الشعر الداكن! انقضت أيام أربعة منذ تلك الأمسية عندما صادفها قرب متجر الأشياء القديمة. وعندما صارت أقرب إليه رأى يدها اليمنى معلّقة إلى عنقها برباط، لكنه لم يكن مرئيًا من تلك المسافة لأنه كان من لون ملابس العمل نفسها. لعلها حطمت يدها عندما كانت تحاول إدارة واحدة من تلك الآلات الضخمة التي يجري فيها «نسج» حبكات الروايات. كان هذا حادثاً شائعاً في قسم القصص. لعل المسافة بينهما كانت أربعة أمتار عندما تعثَّرت الفتاة فسقطت على وجهها تقريباً. صدرت عنها صرخة ألمٍ حادة. لا بد أن ذراعها المصابة قد جاءت تحتها تماماً. توقف ونستون في مكانه. كانت الفتاة قد نهضت على ركبتيها. استحال لون وجهها إلى لون مصفرّ غائم جعل فمها يبدو أكثر حمرة من أي وقت. كانت عيناها متعلّقتين به وفيهما تعبير متوسِّلٌ بدا له أقرب إلى الذعر منه إلى الألم. خفقت في قلب ونستون عواطف غريبة. فأمامه... كانت عدوّةٌ تحاول قتله. وأمامه أيضاً، كائنٌ بشري متألِّمٌ... لعل ذراعها كانت مكسورة أيضاً. تحرّك غريزياً صوبها حتى يساعدها. لقد شعر بالألم في جسده هو لحظة رآها تسقط على ذراعها المصابة. قال: «هل أصابكِ أذى؟» أجابته: «إنه لا شيء! ... ذراعي. سوف أكون بخير بعد ثانيةٍ واحدة»... قالت هذا، لكن قلبها كان يرتعد. لقد صار لونها شاحباً جداً.

«ألم تتأذّي من كسر؟».

«لا! إنني بخير. سوف يؤلمني هذا لحظة واحدة... هذا كل شيء». ومدَّت يدها السليمة إليه فساعدها على الوقوف. كانت قد استعادت بعضاً من لونها وبدا أنها صارت أحسن حالاً بكثير. رددت باقتضاب: «هذا لا شيء! لقد رتطم معصمي بالأرض، أمر بسيط. شكراً يا رفيق!». ثم مضت في الاتجاه الذي كانت سائرة فيه من قبل... مضت سريعةً خفيفةً كما لو أن شيئاً لم يُصِبها حقاً.

لم تستغرق الحادثة كلها أكثر من نصف دقيقة. لقد كان الحرص على عدم سماح المرء لأحاسيسه بالظهور على وجهه عادةً مترسّخة صارت بمثابة الغريزة... وعلى أي حال، فقد كانا واقفَين أمام الشاشة تماماً عندما حدث الأمر. لكن، ورغم ذلك، كان من العسير جداً كبت الإحساس بالمفاجأة لأن الفتاة دسّت في يد ونستون شيئاً خلال الثانيتين أو الثلاث ثوانٍ عندما ساعدها على النهوض. لا مجال للشك أبداً في أنها قد فعلت ذلك عن قصد. كان ذلك الشيء صغيراً مسطّحاً. وعندما مرّ بباب المرحاض، دس ونستون ذلك الشيء في جيبه وتحسّسه بأطراف أصابعه. كان قصاصة من الورق مطويّة على شكل مربّع. وعندما كان واقفاً عند المبولة، تمكّنت أصابعه من فتح ذلك المربع. من الواضح أن تلك الورقة تحمل رسالة ما. أحس بإغراء يدفعه إلى دخول أحد المراحيض المغلقة وقراءة الرسالة على الفور. لكن من شأن هذا أن يكون غباءً فظيعاً... كان يعرف ذلك! ما من مكان يستطيع المرء أن يكون واثقاً تماماً من أن شاشاته تعمل دائماً أكثر من هذا المكان. عاد ونستون إلى حجرة عمله. جلس، وألقى بقطعة الورق بين بقية الأوراق على مكتبه بحركةٍ تلقائية ثم وضع نظارته وجذب آلة الإملاء إليه. قال في نفسه: «خمس دقائق! خمس دقائق على الأقل!». راح قلبه يخفق في صدره بضجيجٍ مخيف. ولحسن حظه، كان العمل الذي باشره عملاً روتينياً محضاً..كان عليه تصحيح قائمة طويلةٍ من الأرقام، وهو ما لا يحتاج إلى انتباهٍ شديد. مهما يكن مكتوباً على الورقة، فلا بدّ أن له معنى سياسياً. لم يستطع أن يرى في الأمر إلا احتمالين اثنين. الأول، وهو الأكثر ترجيحاً، أن الفتاة عميلة من عملاء شرطة الفكر... مثلما كان قد خشي من قبل. لم

يكن يعرف سبباً قد يجعل شرطة الفكر تختار إيصال رسائلها إليه على ذلك النحو. لكن، لعل لديهم أسبابهم. لعل الشيء المكتوب في تلك الورقة كان تهديداً، أو استدعاءً، أو أمراً بالانتحار، أو فخّاً من نوعٍ ما! لكنْ ثمة احتمال آخر، احتمال أكثر جنوناً كان لا يفتأ يمدّ رأسها رغم محاولته إسكاته من غير طائل: الرسالة ليست من شرطة الفكر على الإطلاق، بل من إحدى المنظّمات السرّية. لعل تلك الأخوية موجودةٌ بعد كل شيء! ولعل الفتاة عضوٌ فيها! لا شك في أنها فكرة سخيفة، لكنها لمعت في رأسه لحظة إحساسه بالقصاصة الورقية في يده. ولم يحضر التفسير الآخر، الأكثر ترجيحاً، في ذهنه إلا بعد دقيقتين من ذلك! وحتى الآن، رغم أن عقله كان يخبره أن تلك الرسالة تعني الموت على الأرجح... فإنه لم يكن مقتنعاً بذلك حقاً... وظلّ ذلك الأمل غير المنطقي ملحّاً على ذهنه... ظلّ قلبه يخفق، ووجد صعوبة في منع ارتجاف صوته عندما كان يتمتم بتلك الأرقام في آلة الإملاء. أنجز رزمة الأوراق كلها وألقى بها في الثقب الهوائي. لقد مرّت ثماني دقائق. صحّحَ وضع نظارته على أنفه. وتنهَّد، ثم جذب رزمة العمل الثانية وفوقها تلك القصاصة الورقية. فتح القصاصة. وعليها... كان مكتوباً بخط يد، غير مرتب: أحبك.

لعدّة ثوانٍ ظلّ مشدوهاً إلى درجة أنه لم يلقِ بذلك الشيء في ثقب الذاكرة. وعندما ألقاه، لم يستطع مقاومة قراءة الكلمة مرة ثانية... فقط حتى يتأكد من أن الكلمة كانت موجودة هناك حقاً... فعل هذا رغم معرفته الأكيدة بأن ثمّة خطراً في إظهار هذا الاهتمام كله!

كان أمراً شديد الصعوبة عليه أن يواصل العمل طيلة الفترة الباقية من ذلك الصباح. وما كان أشقّ عليه من اضطراره إلى تركيز ذهنه على سلسلة المهمات التافهة إلا حاجته إلى إخفاء اضطرابه عن الشاشة. أحس أن ناراً تلسعه في بطنه. وكان تناول طعام الغداء في مطعم الوزارة الحارّ المزدحم والصاخب عذاباً أيضاً. لقد كان يأمل في الانفراد بنفسه قليلاً خلال ساعة الغداء. لكن سوء حظّه شاء أن يكون الأحمق بارسونز آتياً من خلفه. كانت رائحة عرقه اللاذعة تكاد تغلب على رائحة الطعام القصديرية. راح بارسونز يثرثر من غير انقطاع عن التحضيرات

الجارية من أجل أسبوع الكراهية. كان يشعر بحماسة خاصّة تجاه نموذج من الورق المقوّى لرأس الأخ الأكبر. نموذج يبلغ عرضه مترين ويقوم بصنعه الآن، فوج الجواسيس الذي تنتمي إليه ابنته،خصّيصاً لهذه المناسبة. وكانِ الأمر المزعج هو أن شدذة الضجيج جعلت ونستون غير قادرٍ على سماع ما يقوله بارسونز بشكل واضحٍ مما جعله مضطراً على الدوام إلى تكرار بعض ملاحظات بارسون التافهة. لم يلمح الفتاة إلا مرة واحدة... كانت جالسة مع فتاتين إلى طاولةٍ في الناحية البعيدة من الغرفة. الظاهر أنها لم تره؛ وأما هو فلم يكرر النظر في اتجاهها!

كانت فترة بعد الظهر أهون عليه بعض الشيء. أُسند إليه عمل دقيق صعب بعد الغداء مباشرة، عملٌ يستهلك عدة ساعات، ويتطلّب تنحية كل ما عداه جانباً. كان العمل هو تزوير سلسلة من تقارير الإنتاج لسنتين ماضيتين، وذلك على نحوٍ ينتقص من أحد الأعضاء البارزين في الدائرة الداخلية للحزب بعد أن وقع أخيراً. كان ونستون ماهراً في هذا النوع من الأعمال. ونجح، طيلة ساعتين في إبعاد الفتاة تماماً عن ذهنه. لكنْ ذكرى وجهها عادت إليه بعد ذلك. وحلّت به رغبة جامحة غير محتملة في الانفراد بنفسه. لن يستطيع التفكير في ما حدث تفكيراً حقيقياً قبل أن ينفرد بنفسه! وقد كان عليه أيضاً أن يذهب إلى المركز الاجتماعي في هذه الليلة. التَهَمَ وجبة أخرى عديمة المذاق في المطعم. ثم انطلق مسرعاً إلى المركز وشارك في السُّخف الوقور لإحدى «مجموعات المناقشة». ولعب جولتين من كرة الطاولة. وازدرد عدة أقداحٍ من الجن. ثم جلس نصف ساعة مستمعاً إلى جزء من محاضرة بعنوان «إشتنج وعلاقتها بالشطرنج». تلوّت روحه ضجراً... لكنه مع ذلك لم تكن لديه رغبة بالتهرّب من قضاء تلك الليلة في المركز هذه المرة. فمنذ أن رأى كلمة «أحبك» انبثقت في جوارحه رغبة البقاء على قيد الحياة. وفجأة، صار التورّط في مخاطر تافهة يبدو له سلوكاً أحمق. لم يصل إلى بيته ويرقد في سريره إلا بعد أن بلغت الساعة الحادية عشرة ليلاً. وفي الظلام، حيث كان آمناً حتى من الشاشة، إن هو ظلّ صامتاً، صار قادراً على الاسترسال في التفكير بالأمر من دون أن ينقطع تفكيره.

كانت ثمة مشكلة مادية عليه إيجاد حلّ لها: كيف يتصل بالفتاة ليرتب لقاءً معها؟ لم يعد يضع في حسبانه أبداً احتمال أنها تنصب له فخاً من نوعٍ ما. لقد أدرك أن الأمر ليس كذلك بسبب الإثارة الواضحة التي بدت عليها عندما ناولته الورقة. من الجلي أنها تصرفت تصرّفاً متهوّراً بالفعل. كما أن فكرة رفض مبادرتها لم تخطر في باله أصلاً. لقد كان يفكر في تحطيم رأسها بحجر قبل خمس ليالٍ فحسب، لكن هذا لم يعد الآن مهماً أبداً. راح يفكر في جسدها الفَتي العاري... مثلما رآه في أحلامه. كان يتصور أنها حمقاء مثل الآخرين جميعاً، وأن رأسها محشوةٌ بالحقد والأكاذيب، وأن جوفها مملوءُ بالجليد! انتابه نوع من الحُمّى عندما فكّر في أنه يمكن أن يفقدها... أن ذلك الجسد البضّ الفتيّ يمكن أن ينزلق بعيداً عنه! وما كان يخشاه أكثر من أي شيءٍ آخر هو أنها يمكن أن تغيّر رأيها ببساطة إذا لم يستطع التواصل معها سريعاً. لكن صعوبات اللقاء المادية كانت هائلة. كان الأمر يشبه محاولة القيام بنقلة في لعبة الشطرنج بينما يكون الملك واقعاً تحت التهديد. الشاشات تراقب المرء أينما ذهب! والواقع هو أن طرق التواصل الممكنة كلها قد خطرت في ذهنه خلال الدقائق الخمس الأولى من قراءة رسالتها. أما الآن، عندما صار لديه متّسَع من الوقت للتفكير، فقد عاد لاستعراض تلك الطرق واحدةً فواحدة مثل من يصفّ مجموعة من الأدوات أمامه على الطاولة.

من الواضح أن تكرار اللقاء على النحو الذي جرى هذا الصباح كان أمراً مستحيلاً. لو كانت الفتاة تعمل في قسم السجلّات، لكان الأمر هيّناً نسبياً. لكنه لم يكن يملك إلا فكرة غامضة جداً عن موقع قسم القصص في مبنى الوزارة. ولا يملك ذريعة من أجل الذهاب إلى ذلك القسم أصلاً! ولو كان يعرف مكان إقامتها، وموعد انصرافها من العمل، لتمكّن من لقائها في مكان ما في طريق عودتها. لكن محاولة اللحاق بها في طريق عودتها إلى بيتها لم تكن آمنةً لأنها سوف تعني اضطراره إلى التسكّع في الخارج قريباً من الوزارة. وسوف يكون هذا أمراً يلفت الأنظار بالتأكيد. وأما فكرة استخدام البريد ليبعث إليها برسالة فكانت خارج التفكير تماماً. إذ تُفتح الرسائل كلها بموجب نظامٍ معروف ولم يكن ذلك سراً. بل إن قلةً

صغيرةً من الناس كانت تلجأ إلى كتابة الرسائل. أما حين يكون لا بدّ من إرسال رسالة في بعض المناسبات، فإن ثمة بطاقات مطبوعة جاهزة عليها قوائم طويلة من العبارات. وما كان على المرء إلا أن يشطب العبارات التي لا تناسب ما يريد قوله. لكنه لم يكن يعرف اسم الفتاة أصلاً، فضلاً عن عنوانها. قرر أخيراً أن مطعم الوزارة هو المكان الأكثر أماناً. لو استطاع أن يجدها جالسة وحدها إلى إحدى الطاولات، في مكان ما في وسط الصالة غير قريب من الشاشات، وفي حال وجود القدر الكافي من ضجيج الكلام من حولها... إذا توفّرت هذه الظروف واستمرت ثلاثين ثانية مثلاً، فقد يكون تبادل بعض الكلمات ممكناً.

كانت الحياة تشبه حلماً مضطرباً طيلة أسبوعٍ كامل بعد ذلك اليوم. ففي اليوم التالي، لم تظهر الفتاة في مطعم الوزارة إلا لحظة انصرافه. وكانت الصفّارة قد انطلقت معلنة العودة إلى العمل. لعلّ وقت عملها قد تغير إلى النوبة التالية. مرّ أحدهما بالآخر من غير أي التفاتة. وفي اليوم التالي، كانت موجودة في المطعم في الوقت المعتاد، لكنها كانت تجلس مع فتاتين تحت الشاشة مباشرة. ثم انقطع مجيئها إلى المطعم ثلاثة أيام مرعبة. بدا له أن عقله وجسمه واقعَيْن تحت تأثير حساسية غير محتملة... نوعٌ من الشفافية جعل كل حركة وكلّ صوت وكلّ احتكاك وكلّ كلمة يضطر إلى قولها أو إلى سماعها عذاباً حقيقياً. لم يكن قادراً أبداً على تجنّب صورتها، حتى في نومه. لم يلمس دفتر يومياته خلال تلك الأيام كلّها. وما كان يجد أي راحةٍ إلا في عمله حيث يستطيع أن ينسى نفسه أحياناً عشر دقائق متواصلة. لم تكن لديه أي فكرة إطلاقاً عما يمكن أن يكون قد أصابها. ولم يكن قادراً على السؤال عنها. لعلها قد بُخِّرَت... لعلها انتحرت... لعلها نُقِلت إلى الناحية الأخرى من أوقيانيا: والأسوأ من هذا كلّه، والأكثر احتمالاً منه كلّه، هو أنها قد غيرت رأيها، بكل بساطة، وقررت أن تتجنّبه.

في اليوم التالي عاودت الظهور من جديد. وكانت ذراعها من غير حمّالة، لكن ضماداً لاصقاً كان على معصمها. كانت راحته عندما رآها كبيرة إلى حد جعله غير قادرٍ على مقاومة التحديق المباشر إليها طيلة ثوانٍ كثيرة. اقترب كثيراً من النجاح في

التحدّث إليها في اليوم التالي. فعندما دخل إلى المطعم، رآها جالسة إلى طاولة بعيدة عن الجدار... وحيدة تماماً! كان الوقت مبكراً. وكان المكان غير ممتلئ كثيراً. راح صفّ المنتظرين يتقدّم حتى كاد ونستون يصل إلى منضدة توزيع الطعام. ثم توقف الصف دقيقتين لأن شخصاً ما في المقدمة كان قد توقف متذمِّراً لأنه لم يستلم قطعة السكّر. لكن الفتاة كانت لا تزال جالسة وحدها عندما نجح ونستون في الحصول على صينية الطعام وانطلق صوب طاولتها. سار في اتجاهها بطريقة طبيعية وعيناه تفتّشان عن مكان لجلوسه إلى إحدى الطاولات التي تقع خلفها. لعلّ المسافة بينهما قد صارت ثلاثة أمتار. ثانيتان فقط وسينجح الأمر! وعند ذلك، صاح صوت من خلفه: «سميث!»؟. تظاهر بعدم سماع الصوت، لكن النداء تكرّر من جديد... بصوت أكثر ارتفاعاً: «سميث!». لا فائدة من هذا! استدار فرأى شاباً أشقر الشعر سخيف الوجه يدعى ويلشر، لا يعرفه إلا قليلاً، وكان يدعوه مبتسماً إلى مكان شاغرٍ في طاولته. كان الرفض غير آمن! فبعد أن رآه ويلشر، لم يعد قادراً على الذهاب إلى طاولة عليها فتاة وحيدة. كان الأمر ملفتاً كثيراً. جلس مبتسماً ابتسامة ودّية فابتسم له الوجه الأشقر السخيف ابتسامة عريضة. مرّت في ذهن ونستون هلوسة جعلته يتخيّل نفسه يغرس فأساً في وسط هذا الوجه! امتلأت طاولة الفتاة بعد دقائق قليلة.

لكن، لا بد أنها رأته آتياً صوبها. ولعلها فهمت ذلك كإشارة منه. حرص على الوصول باكراً في اليوم التالي. نعم... كانت جالسة إلى طاولة في وسط المكان... وحيدة من جديد. كان الشخص الذي أمامه مباشرة في طابور استلام الطعام رجلاً ضئيل الحجم سريع الحركات يشبه الخنفساء وله وجه مسطّح وعينان صغيرتان شكّاكتان. وما إن استدار ونستون مبتعداً عن منضدة التوزيع حاملاً صينيته حتى شاهد ذلك الرجل الضئيل ماضياً صوب طاولة الفتاة مباشرة. غارت آماله من جديد! كان ثمة مكان شاغر في طاولة بعدها، لكن شيئاً من مظهر الرجل الضئيل أوحى له أنه سيكون حريصاً على راحته فيجلس إلى الطاولة الأقل امتلاءً. سار ونستون خلفه وهو يشعر بجليد في قلبه. لا فائدة من الأمر إذا لم يظفر بالفتاة

وحيدة. وفي تلك اللحظة، انبعث صوت ارتطام مدوٍ. كان الرجل قد سقط على يديه ورجليه. وأما صينيته فقد طارت. وامتد على الأرض خطان من الحساء والقهوة! نهض الرجل ملتفتًا التفاتة لئيمة صوب ونستون. من الواضح أنه اشتبه في أنه هو الذي جعله يتعثّر في مشيه. لكن الأمر مضى على خير! وبعد خمس ثوانٍ، كان ونستون جالساً إلى طاولة الفتاة... وكانت دقّات قلبه تفرقع كالرعد.

لم ينظر إليها! رفع الغطاء عن صينيته وراح يأكل سريعاً. كان من المهم كثيراً أن يبدأ الكلام فوراً قبل أن يأتي أحد آخر. لكن خوفاً فظيعاً استولى عليه! لقد مرَّ أسبوع منذ أن بادرته الفتاة تلك المبادرة الأولى. ولعلها غيّرت رأيها الآن! لا بد أنها غيرت رأيها! من المستحيل أن ينتهي هذا الأمر نهاية ناجحة. لا تحدث أمور من هذا النوع في الحياة الحقيقية. ولعله كان سيحجم عن الكلام معها تماماً لو أنه لم يرَ أمبليفورث في تلك اللحظة. كان ذلك الشاعر ذو الأذنين المشعرتين يتجوّل في الصالة متلكئاً حاملاً صينيته باحثاً عن مكان للجلوس. كان أمبليفورث، بطريقة غامضة، يشعر بأن ثمة صلة تربطه بونستون. ومن المؤكد أنه سيأتي ويجلس إلى طاولته إذا لمحه. ما كانت لديه إلا دقيقة واحدة تقريباً حتى يقوم بالأمر. كان ونستون والفتاة ماضيين في تناول طعامهما بسرعة ثابتة. كانا يأكلان يخنة الفاصولياء... وكانت يخنة كثيرة الماء... مجرد حساء في الواقع! بدأ ونستون الكلام متمتماً بصوتٍ خفيض. لم يرفع أحد منهما رأسه. تابعا تناول ملاعق ذلك الحساء المائي. وراحا يتبادلان الكلمات القليلة الضرورية بين ملعقة وأخرى بصوت منخفض خالٍ من التعبير.

«في أي وقت تغادرين العمل؟».

«في السادسة والنصف».

«أين نستطيع اللقاء؟».

«ساحة النصر، قرب النصب».

«فيها شاشات كثيرة!».

«لا أهمية للشاشات إذا كان المكان مزدحماً».

«هل من إشارة؟».

«لا! لا تقترب مني حتى ترى أشخاصاً كثيرين من حولي. ولا تنظر صوبي. ابقَ على مقربة مني فقط».

«في أي ساعة؟».

«السابعة».

«لا بأس».

لم يرَ أمبليفورث ونستون. جلس إلى طاولةٍ أخرى. لم يتحدّثا بعد ذلك. ولم ينظر أحدهما إلى الآخر... بقدر ما كان ذلك ممكناً بالنسبة لشخصين جالسَيْن متقابليَنْ إلى طاولة واحدة. أنهت الفتاة طعامها سريعاً ومضت. أما ونستون فبقي حتى يدخن سيجارة.

وصل ونستون إلى ساحة النصر قبل الموعد المضروب. تجوّل حول قاعدة العمود المُخدّد الهائل الذي ينتصب على قمّته تمثال الأخ الأكبر محدقاً صوب الجنوب... إلى السماء... حيث قضى على الطائرات الأوراسية (كانت طائرات إيستاسيا قبل بضع سنوات) في معركة القطاع الجوي الأول. وفي الشارع، أمام ذلك التمثال، كان ثمة تمثال لرجل على صهوة حصان. من المفترض أنه تمثال لأوليفر كروميل. مرّت خمس دقائق على تمام الساعة، ولم تظهر الفتاة بعد! ومن جديد، استولى على ونستون ذعر مخيف. لن تأتي... لقد غيّرت رأيها! مضى بطيئاً صوب الناحية الشمالية من الساحة. شعر بنوعٍ من السرور الشاحب عندما رأى كنيسة القدّيس مارتن التي كانت أجراسها، عندما كان لها أجراس، تدق فتقول: «أنت مدين لي بثلاثة قروش». وعند ذلك... رأى الفتاة واقفة عند قاعدة النصب. كانت تقرأ، أو تتظاهر بقراءة، ملصق ملفوف على العمود على نحو حلزوني صاعد. لم يكن الاقتراب منها آمناً قبل أن يتجمّع مزيد من الناس. ثمة شاشات منصوبة حول هذا النصب كلّه. لكن صياحاً كثيراً انبعث في تلك اللحظة وسُمِعَ هدير مركبات ثقيلة في مكانٍ ما إلى اليسار. وفجأة، بدا له أن الجميع قد راح يجري عبر الساحة. دارت الفتاة متكاسلةً حول تماثيل الأسود الموجودة عند قاعدة النصب ثم انضمت إلى

الناس المندفعين. تبعها ونستون. وخلال جريه، فهم من بعض الصياحات المنطلقة من حوله أن قافلةً من السجناء الأوراسيين كانت مارةً من هناك.

سرعان ما صارت كتلة كثيفة من الناس تسدّ الجهة الجنوبية من الساحة. أما ونستون، وهو من ذلك النوع من الناس الذي ينجذب تلقائياً في الأوقات العادية بعيداً عن أي نوعٍ من أنواع التجمعات أو المشاجرات، فقد مضى يدفع الناس ويشق طريقه ماضياً صوب قلب الحشد. سرعان ما صار على مسافة ذراعٍ واحدة من الفتاة. لكن طريقه كان مسدوداً برجل ضخم من العامّة ومعه امرأةٌ تكاد لا تقل عنه ضخامةً... لعلها زوجته... وبدا أنهما يشكلان معاً جداراً من اللحم لا سبيل إلى اختراقه. اتخذ ونستون وضعية جانبية وتمكّن بدفعة شديدة من دس كتفه بين الاثنين. أحس للحظة كأن أحشاءه سوف تُعتَصَر بين عضلات هذين الردفين حتى تخرج من جسده. لكنه تمكّن من اجتيازهما بعد أن تعرّق قليلاً. صار إلى جانب الفتاة الآن. كان كتفاهما متلامسَتين... وكان كلّ منهما يحدق أمامه من غير أن يرمش.

ظهر رتل طويل من المركبات عليها حرس بوجوه خشب ومسلحين ببنادق رشاشة. كان أفراد الحرس واقفين منتصبين في كل زاوية. وكانت المركبات تتقدم بطيئةً في الشارع. وفي تلك المركبات، كان رجال صُفرٌ في ملابس عسكرية موحَّدةٍ مهلهلةٍ خضراء اللون جالسين متزاحمين معاً. وكانت وجوههم المنغولية الحزينة تحدق من فوق جوانب المركبات من غير فضولٍ على الإطلاق. ومن حين لآخر كانت تُسمَع قرقعة المعدن عندما تهتز إحدى المركبات... كانت في أرجل السجناء جميعاً حلقات حديد. مرت مركبة بعد مركبة من هذه الوجوه الحزينة. كان ونستون شاعراً بوجودهم، لكنه لم يكن يراهم إلا على نحو متقطّع، فقد كان كتف الفتاة وذراعها حتى المرفق ملتصقتين بكتفه وذراعه. وكان خدها قريباً منه إلى حدٍّ كافٍ للإحساس بحرارته. تولّت هي المبادرة على الفور... تماماً مثلما فعلت في المطعم. بدأت الكلام بذلك الصوت عديم التعبير الذي استخدمته من قبل، وبشفتين لا تكادان تتحرّكان، راحت تتمتم تمتمةً تغرق بسهولة في ضجيج الأصوات وفي قرقعة العربات.

«هل تستطيع سماعي؟».

«نعم!».

«هل تستطيع التغيّب عن العمل بعد ظهر الأحد؟».

«نعم!».

«إذًا، اصغ إلي جيداً. عليك أن تتذكّر هذا. اذهب إلى محطة بادنغتون...».

ثمّ وبنوع من الدِقّة العسكرية التي أدهشته، راحت الفتاة تشرح له تفاصيل الطريق التي يجب أن يسلكها. رحلة بالقطار مدتها نصف ساعة؛ ثم الاستدارة يساراً خارج المحطة؛ ثم كيلومترين على امتداد الطريق: بوابة من غير عارضة عُليا؛ ثم ممر عبر حقل؛ ثم دربٌ عبر مرج؛ ثم ممر صغير بين الأجمات؛ ثم شجرة ميتة نمت عليها الطحالب.

بدا الأمر كأن لديها خريطة في رأسها.

تمتمت أخيراً: «هل تستطيع أن تتذكّر هذا كله؟».

«نعم!».

«استدر يساراً، ثم يميناً، ثم يساراً مرة ثانية. ثم البوابة التي ليست لها عارضة عليا».

«نعم! في أي وقت؟».

«في حدود الثالثة. قد يكون عليك أن تنتظر. فسوف أصل عبر طريق آخر. هل أنت واثق من أنك تتذكّر كل شيء؟».

«نعم!»

«إذًا، ابتعد عني بأسرع ما تستطيع».

ما كان عليها أن تقول له هذا. فقد كان من المستحيل أن يتخلصا من الحشد المزدحم في تلك اللحظة. لا تزال الشاحنات تمر بهما. ولا يزال الناس فاغرين أفواههم ولم يشبعوا من رؤيتها. كان ثمة قدر من الصفير والاستهجان في البداية، لكنه لم يكن آتياً إلا من أعضاء الحزب الموجودين وسط الناس. وسرعان ما توقّف.

كان الفضول هو العاطفة الطاغية فحسب! وذلك لأن الأجانب، سواء أكانوا من أوراسيا أم إيستاسيا، كانوا نوعاً من أنواع الحيوانات الغريبة! فالمرء لا يراهم أبداً، بالمعنى الحرفي للكلمة، إلا على هيئة سجناء. وحتى كسجناء، فإن المرء لا يراهم إلا لحظة عابرة. كما لا يعرف المرء أيضاً ما يحلّ بهم، اللهم باستثناء القلة الذين يُشنقون باعتبارهم مجرمي حرب: كان الآخرون يختفون ببساطة. ويفترض أنهم يُحملون إلى معسكرات العمل الإجباري. حلّت بعد الوجوه المنغولية وجوه لها أشكال أكثر أوروبية. كانت وجوهاً قذرة ملتحية في غاية الإرهاق. وكانت الأعين تنظر صوب ونستون أحياناً، من فوق عظام الوجنات الناتئة، بإلحاحٍ غريب ثم تبتعد عنه من جديد. بدأت القافلة تقترب من نهايتها. ورأى ونستون في الشاحنة الأخيرة كهلاً ملأ وجهه شعرٌ خالطه الشيب. كان واقفاً متضباً عاقداً معصميه أمامه وكأنه كان معتاداً على عقدهما على هذا النحو دائماً. لقد حان وقت افتراق ونستون والفتاة أيضاً. لكن، في اللحظة الأخيرة... حين كان الحشد مستمراً في تطويقهما، بحثت يدها عن يده وضغطت عليها سريعاً.

لم يستمر ذلك الضغط أكثر من عشر ثوانٍ، لكنه بدا زمناً طويلاً كافياً لأن تلتحم كفّاهما معاً. كان وقتاً كافياً حتى تعرف كفّه كل تفصيل من تفاصيل كفّها. راح يستكشف تلك الأصابع الطويلة، والأظافر الرشيقة، وراحة يدها التي جعلها العمل خشنة وصنع فيها صفاً من النتوءات المتقرّنة، وتلمّس الجلد الناعم عند معصمها. لعله صار قادراً على معرفتها لمجرد أنه استطاع أن يلمسها على هذا النحو. وفي اللحظة نفسها، خطر له أنه لم يعرف لون عينيها. لعلهما بنيتان! لكن أصحاب الشعر الداكن يمكن أن تكون عيونهم زرقًا أحياناً! وأما أن يستدير صوبها لينظر إليها فقد كان فعلاً أحمق لا مجال للتفكير فيه. كانت كفاهما متّحدتين معاً غير مرئيتين وسط ضغط الأجسام من حولهما؛ لكنهما كانا يحدّقان تحديقاً ثابتاً إلى الأمام. وبدلاً من عيني الفتاة، حدّقت فيه عينا السجين الكهل تحديقاً جنائزياً من خلال الشعر المحيط بهما.

2

وجد ونستون طريقه فمضى في الدرب عبر فسحاتٍ من الضوء والظل. كان يخطو في بركٍ من ضياء ذهبي حيث تنفرج أغصان الأشجار. وكانت الأرض تسبحُ في ضباب زهور الأجراس الزرق البرية تحت أغصان الأشجار إلى يساره. كان الهواء كأنه يداعب جلد المرء. إنه الثاني من أيار! ومن مكانٍ ما... عميقاً في قلب الأجمة... جاء هديل الحمامات المطوَّقة.

لقد وصل مبكراً بعض الشيء. لم يُعان أي صعوبة في رحلته. من الواضح أن الفتاة خبيرة بالمكان فقد كان أقل خوفاً مما كان يمكن أن يحصل عادة. وله الآن أن يفترض قدرتها على إيجاد مكان آمن لهما. لم يكن المرء ليستطيع، عامة، افتراض أن يجد في الريف أماناً أكثر بكثير مما يجده في لندن. لا وجود للشاشات هنا بطبيعة الحال، لكن ثمة دائماً خطر وجود المايكروفونات المخفية التي يمكن التقاط صوت المرء بواسطتها، ثم التعرّف إليه. ثم إن ذهاب المرء في رحلة وحده من غير أن يجتذب انتباهاً لم يكن أمراً سهلاً أيضاً. لا ضرورة لختم جواز السفر عندما يسافر المرء مسافة أقل من مئة كيلومتر. لكن ثمة دوريات تتجوّل أحياناً حول محطات القطارات وتتفحّص أوراق أعضاء الحزب الذين تعثر عليهم هناك وتطرح عليهم أسئلة غريبة. لكنه لم يرَ أي دورية. حرص خلال سيره خارجاً من المحطة على إلقاء نظرات حذرة إلى الخلف حتى يتأكّد من أن أحداً لا يتبعه. كان القطار مليئاً بالعامة الذين جعلهم الطقس الصيفي في مزاج أيام العطلات. وكانت عربة القطار ذات المقاعد الخشب التي سافر فيها مليئة عن آخرها بأُسْرَةٍ ضخمةٍ واحدةٍ! فمن الجدة العجوز عديمة الأسنان إلى رضيع يبلغ عمره شهراً واحداً، كانوا ذاهبين جميعاً لقضاء فترة بعد الظهر مع «أنسبائهم» في الريف؛ ولم يجدوا حرجاً في أن يشرحوا لونستون أنهم ذاهبون أيضاً للحصول على بعض الزبدة من السوق السوداء.

اتسعت الدرب قليلاً أمامه. ووصل بعد دقيقة واحدة إلى الممر الذي أخبرته عنه. لم يكن إلا درباً ضيقاً للماشية يمضي متعرّجاً بين الأجمات. لم يكن يحمل ساعة.

لكنها لا يمكن أن تكون قد بلغت الثالثة الآن. كانت أزهار الأجراس الزرق كثيفة تحت قدميه إلى حد يستحيل معه ألا يدوسها. ركع وراح يقطف بعضاً منها، لكي يزجي الوقت من ناحية، وكذلك بسبب فكرة غامضة أوحت له بأن عليه أن يقدّم إلى الفتاة باقة من الأزهار عندما يلتقيها. جمع باقة كبيرة وراح يتشمم شذاها الخفيف اللطيف عندما صدر صوت من خلفه جعله يتجمد في مكانه... صوت تكسر العيدان تحت قدمَيْ شخص يمشي! تابع قطف الزهور. كان هذا أفضل ما يستطيع القيام به. لعلها الفتاة! ... أو لعل أحداً قد لحق به! لو التفت لكان هذا إظهاراً لشعوره بالذنب. التقط زهرة، ثم أخرى، ربّتت على كتفه يد خفيفة.

رفع رأسه فرأى الفتاة! هزّت رأسها له. من الواضح أن ذلك كان تحذيراً لكي يلزم الصمت. باعدت الفتاة بين أغصان الأجمة وتقدمته سريعاً على امتداد مسلك ضيق موصلٍ إلى داخل الغابة. من الواضح أنها قد سلكت تلك الطريق من قبل لأنها كانت تتفادى البرك الصغيرة كمَن اعتاد عليها. تبعها ونستون وهو لا يزال يقبض على باقة الأزهار. كان أول ما شعر به هو الارتياح. لكنه عندما راح ينظر إلى ذلك الجسد القوي الرشيق متحرِّكاً أمامه، مع ذلك الوشاح القرمزي الذي كان مشدوداً على وسطها فأبرز استدارة ردفيها، صار إحساسه بأنه أدنى منها ثقيلاً على قلبه. بدا له ممكناً تماماً، حتى في هذه اللحظة، أنها سوف تتراجع بعد كل شيء عندما تستدير وتنظر إليه. أخافته حلاوة الهواء وخضرة أوراق الأشجار. وكانت شمس أيار قد جعلته، خلال سيره قادماً من المحطة يشعر أنه قذرٌ ذابلٌ... كائنٌ لا يخرج إلى الشمس... في مسام جلده يستقرّ غبار لندن السخامي. وخطر له أن الفتاة لم ترَه ، حتى الآن، في مكان مفتوح تحت ضوء الشمس. وصلا إلى الشجرة المتداعية التي حدّثته عنها. وثبت الفتاة وباعدت بين الأغصان حيث لم يكن ظاهراً أن ثمة فتحة للعبور. وعندما تبعها ونستون وجد أنهما قد صارا في فسحة طبيعية... بقعة عشبية صغيرة أحاطت بها شجيرات طويلة فعزلتها تماماً. توقفت الفتاة واستدارت صوبه قائلة:

«ها قد وصلنا».

كان مواجهاً لها، على مسافة عدة خطوات. لم يجرؤ على الاقتراب منها حتى الآن.

مضت تقول: «لم أكن أريد قول أي شيء في الدرب تحسّباً لوجود مايكروفونات مخفية هناك. لا أظن أنها موجودة، لكن هذا يظل احتمالاً ممكناً. وثمة دائماً احتمال أن يتعرّف أحد هؤلاء الخنازير على الصوت. «نحن آمنان هنا».

لم يجد في نفسه بعد شجاعة تكفيه ليتجرّأ ويقترب منها. فراح يكرّر كلماتها تكراراً غبياً: «نحن آمنان هنا».

«نعم! انظر إلى الأشجار. لقد كانت شتلات صغيرة جرى قصُّها ذات مرة فنبتت من جديد على هيئة غابة من العيدان التي لا يتجاوز الواحد منها ثخانة المعصم. لا وجود لغصن كبير إلى حد يسمح بإخفاء شيء فيه. ثم إنني أتيت إلى هنا من قبل».

كانا يتحدثان فحسب! وكان الآن قد أفلح في الاقتراب منها قليلاً. كانت واقفة أمامه منتصبة تماماً، وعلى وجهها ابتسامة بدا فيها أثر من سخرية كما لو أنها تتساءل عن السبب الذي يجعله بطيئاً إلى هذا الحد. كانت الزهرات التي يحملها قد تساقطت إلى الأرض. بدا له أنها قد سقطت من تلقاء نفسها. أمسك يدها.

قال: «هل تصدقين أنني لم أكن، حتى هذه اللحظة، أعرف لون عينيك؟». كانت عيناها بنّيتين... شيء من البنّي الخفيف... وأهدابٌ سود... «الآن، بعد أن رأيت شكلي الحقيقي، هل لا زلت قادرة على النظر إلي؟».

«نعم، بسهولة!».

«إنني في التاسعة والثلاثين. لدي زوجة لا أستطيع التخلّص منها. ولدي قرحة الدوالي. وعندي خمسة أسنان اصطناعية».

قالت الفتاة: «لا يهمني هذا أبداً!».

وفي اللحظة التالية، ومن دون معرفة من بادر أوّلاً، كانت الفتاة بين ذراعيه. لم يكن لديه أي إحساس في البداية غير عدم تصديق الأمر كله. كان ذلك الجسد الفتيّ مشدوداً إلى جسده. وكان ذلك الشعر الأسود على وجهه. نعم... كانت الفتاة قد رفعت وجهها إليه، وكان يقبل فمها الأحمر الواسع. أطبقت راحتاها على

عنقه وراحت تدعوه بالعزيز والغالي والحبيب. شدّها إلى الأرض فما أبدت أبداً أي ممانَعة. كان في مقدوره أن يفعل بها ما يشاء. لكن الحقيقة أنه كان خلوّاً من أي إحساس جسدي باستثناء ذلك التماس وحده. كان الزهو وعدم التصديق هما كل ما شعر به. كان سعيداً بأن هذا يحدث، لكن من غير أي رغبة جسدية. كان الوقت مبكراً جداً، فقد أخافه شبابها، وأخافه جمالها... وكان قد اعتاد اعتياداً زائداً على العيش من غير امرأة... لم يكن يعرف السبب! نهضت الفتاة واستلّت زهرة من شعرها. جلست إلى جانبه ووضعت ذراعها حول وسطه وقالت:

«لا تهتم يا عزيزي! لسنا في عجلة من أمرنا. لدينا فترة بعد الظهر كلّها. أليس هذا مكاناً رائعاً للاختباء؟ لقد عثرت عليه عندما تُهت مرة في إحدى الرحلات الجماعية. ولو أتى أحدٌ إلى هنا لاستطعنا سماعه قبل وصوله إلينا بمئة متر».

قال ونستون: «ما اسمك؟».

«جوليا! وأنا أعرف اسمك. إنه ونستون... ونستون سميث».

«وكيف عرفت اسمي؟».

«أظن أنني أكثر مهارة منك في العثور على الأشياء يا عزيزي. قل لي... كيف كانت نظرتك إليّ قبل أن أعطيك تلك الرسالة؟».

ما كان يشعر بأي رغبة في الكذب عليها. بل كان يعتبر أن البدء بإخبارها أسوأ الأشياء نوعاً تعبير عن إظهار الحب لها.

قال: «كنت أكره رؤيتك! لقد أردت اغتصابك ثم قتلك بعد ذلك. ومنذ أسبوعين، فكّرت جدّياً في تحطيم رأسك بحجر. وإذا أردت أن تعرفي سبب ذلك حقاً، فقد كنت أتخيّل أن لك علاقة بشرطة الفكر!».

ضحكت الفتاة فرحةً. من الواضح أنها اعتبرت ذلك إطراءً لبراعتها في التخفي.

«لا! ... لا تقل شرطة الفكر! هل فكّرت بهذا فعلاً؟».

«لا بأس... ربما ليس هذا على وجه التحديد. لكن... من مظهرك العام...

ولمجرد أنك شابة نضرة معافاة، أنت تدركين... فكرت أنك ربما... أنك... ربما...».

«ظننت أنني عضو حزب جيدة. طاهرة الكلمات والأفعال. الأعلام والمسيرات والشعارات والألعاب والرحلات الجماعية... وكل تلك الأشياء! وظَننتَ أيضاً أنني، إن سنحت لي ربع فرصة، سوف أشي بك باعتبارك مجرم فكر فأجعلهم يقتلونك؟»

«نعم، شيء من هذا القبيل! تعرفين أن هنالك فتيات كثيرات جداً من هذا النوع».

قالت وهي تفك الوشاح القرمزي، وشاح رابطة الشباب المعادي للجنس، وتعلّقه على أحد الأغصان: «هذا الشيء اللعين هو السبب». عند ذلك وكأن لمس خصرها قد ذكرها بشيء ما، مدت يدها في جيب أوفرولها فأخرجت قطعة صغيرة من الشوكولا. قسمتها إلى نصفين وأعطته إحدى القطعتين. حتى قبل أن يتناولها منها، عرف ونستون من رائحتها أنها نوع نادر من الشوكولا. كانت قاتمة اللون لامعة؛ وكانت ملفوفةً في ورق فضي اللون. عادة ما تكون الشوكولا التي يعرفها مادة متفتتة ذات لون بني كالح ولها مذاق يشبه، كأقرب وصف يستطيعه المرء، مذاق الدخان المنبعث عن حرق القمامة. لكنه كان قد تذوَّق، ذات مرة، شوكولا تشبه تلك التي قدَّمتها له الآن. أثارت فيه أول نفحة من رائحتها ذكرى لم يستطع تحديدها تماماً... لكنها كانت ذكرى قوية حرّكت مشاعره.

قال: «من أين حصلت عليها؟».

قالت من غير اكتراث: «من السوق السوداء!». ثم أضافت: «الواقع أنك تنظر الآن إلى ذلك النوع من الفتيات: أنا ماهرة في الخداع. كنت قائدة فصيل في رابطة الجواسيس. وأنا أقوم بعمل تطوّعي ثلاث أمسيات في الأسبوع من أجل رابطة الشباب المناهض للجنس. كما أنفق ساعات وساعات في لصق سخافاتهم على الجدران في لندن كلها. وأحمل دائماً أحد طرفي لافتة من اللافتات في المسيرات. أجعل مشاعر البهجة تظهر على محيّاي دائماً، ولا أتهرَّب من أي شيء. إنني أصرخ

مع الجمهور... هذا ما أفعله! إنها الطريقة الوحيدة حتى أكون في أمان».

ذابت أول كسرة من الشوكولا على لسان ونستون. كان طعمها بهيجاً. لكن تلك الذكرى ظلت تحوم عند أطراف وعيه... شيءٌ يحسّه المرء إحساساً قوياً لكنه لا يستطيع رَدّه إلى شكل محَدّد... مثل شيء تراه من زاوية عينك. دفع الفكرة بعيداً عن ذهنه مدركاً أنها لم تكن إلا ذكرى أمر ما كان يحب تغييره، لكنه لم يستطع.

قال: «أنتِ فتية جداً. أصغر مني بعشر سنوات أو خمس عشرة سنة. ما الذي رأيتِ أنه يجذبك في شخص مثلي؟».

«إنه شيء في وجهك! وقد قرّرت أن أغامر. أنا ماهرة في اكتشاف الأشخاص غير المنتمين. ومنذ أن رأيتك، عرفت أنك ضدَّهم!»

هم... بدا له أن المقصود بهذه الكلمة هو الحزب، بل الحلقة الداخلية في الحزب قبل كل شيء... الحلقة التي كانت جوليا تتحدث عنها بكراهية متهكمة صريحة جعلت ونستون يحسّ بالقلق رغم معرفته أنهما آمنان هنا... إن جاز القول إنهما يمكن أن يكونا آمنين في أي مكان! ما أدهشه فيها هو خشونة اللغة التي تستخدمها. كان يفترض بأعضاء الحزب ألا يستخدموا الشتائم. ونادراً ما كان ونستون نفسه يستخدمها... بصوت مرتفع على أقل تقدير! وأما جوليا فقد بدت غير قادرة على ذكر الحزب، الحزب الداخلي خاصّة، من غير استخدام ذلك النوع من الكلمات التي يراها المرء مكتوبة بالطباشير في الأزقّة الصغيرة. لكنه لم ينزعج من هذا. كان مجرّد علامة من علامات تمرّدها على الحزب وعلى أساليبه كلها... بدا الأمر، على نحوٍ ما، طبيعياً صحّياً... مثل عطاس الحصان عندما يشم رائحة قش فاسد.

كانا قد غادرا الفسحة المحمية الآن وراحا يتجولان من جديد عبر بقع الظلال والشمس. كان كل منهما يسير محيطاً وسط الآخر بذراعه حيث يكون الطريق متسعاً لمرورهما معاً. انتبه ونستون إلى لدونة خصرها الآن بعد أن نزعت عنه الوشاح. كانا يتحدثان همساً. فقد قالت جوليا إن من الأفضل أن يلتزما الهدوء خارج تلك الفسحة. وصلا الآن إلى حافة الغابة الصغيرة. أوقفته في ذلك المكان.

«لا تخرج إلى العراء. قد يكون هنالك من يراقب. نحن بخير طالما بقينا في ظلّ الأغصان».

كانا واقفين في ظلال شجيرات البندق. وكانا ضياء الشمس المتسرِّب عبر عدد لا يحصى من أوراق الأشجار لا يزال يسقط حاراً على وجهيهما. نظر ونستون إلى الحقل الذي أمامه فأخذته صدمة بطيئة غريبة عندما عرف المشهد. عرفه عندما رآه! مرعى قديم قضمته الماشية. وفيه درب متعرّج رسمته الأقدام... وأكوام من تراب جحور الخلد هنا وهناك. وعلى الحافة المتعرّجة في الناحية المقابلة، كانت أغصان شجرة دردار تتهادى في النسيم على نحو لا يكاد يبين. كانت أوراقها تتحرّك حركة واهنة في كتل كثيفة كأنها خصلات شعر امرأة. لا بد أن ثمة جدولًا في مكان ما قريب غير مرئي... جدول فيه برك خضر تسبح فيها أسماك الداس النهرية.

همس: «ألا يوجد جدول ماء في مكانٍ قريب هنا؟»

«هذا صحيح. ثمة جدول هناك. إنه عند حافة الحقل التالي في الواقع. وفيه أسماك أيضاً... أسماك ضخمة! يستطيع المرء رؤيتها مستلقية في البرك تحت أشجار الصفاف... تحرِّك أذيالها».

تمتم: «إنه الريف الذهبي... تقريباً».

«الريف الذهبي؟».

«إنه لا شيء، في الحقيقة. مشهدٌ أراه في أحلامي أحياناً».

همست جوليا: «انظر!».

كان طائرٌ مغرِّد يقف على غصنٍ لا يبعد أكثر من خمسة أمتار... على مستوى وجهيهما تقريباً. لعله لم يرَهما! كان واقفاً في الشمس... وهما في الظل. فتح جناحيه ثم أعادهما بعناية إلى موضعهما. وحنى رأسه لحظةً كأنه يقدِّم احترامه للشمس. ثم راح يصبّ جدولاً من الألحان. كانت شدّة الصوت مجفلةً في هدأة ما بعد الظهيرة. أمسك كل منهما بالآخر... مسحوراً. تواصلت الموسيقى وتواصلت، دقيقة بعد دقيقة، بتنوعّات ساحرة من غير تكرار... كأنّ الطائر كان يتعمّد استعراض

مهاراته الفنية. كان يتوقّف بضع ثوانٍ أحياناً فيفرد جناحيه ثم يعيدهما كما كانا، ثم ينفخ صدره الأرقط ويمضي في غنائه من جديد. راح ونستون ينظر إليه بخشوعٍ غامض. من أجل من يغني هذا الطائر؟ من أجل ماذا؟ لا رفيقة أمامه، ولا خصم يراقبه! ما الذي جعله يقف على غصن في هذه الأجمة المنفردة فيصبّ موسيقاه في العدم؟ تساءل إن كان ثمة مايكروفون مخفي هنا في مكانٍ ما. لم يتحدثا، هو وجوليا، إلا بهمس منخفض... ولن يستطيع المايكروفون التقاط ما قالاه. لكنه قادر على التقاط صوت الطائر. لعلّ على الجانب الآخر من تلك الأداة رجلًا ضئيلًا يشبه الخنفساء جالسٌ يصغي مهتمّاً... يصغي إلى هذا! لكن تدفّق الموسيقى أبعد عن ذهنه هذه التخمينات كلها. كان الأمر يشبه شيئاً سائلاً ينصبّ عليه ويختلط بضياء الشمس المتسلل عبر أوراق الأشجار. توقّف عن التفكير... صار يشعر فحسب! كان خصر الفتاة عند انحناءة ذراعه طرياً وحارّاً. جذبها فاستدارت حتى صارا متقابلين... وبدا جسدها كأنه يذوب في جسده. كان جسدها مذعناً مطواعاً كالماء... أينما تحرّكت يده عليه. تلاقت شفاههما... كان الأمر مختلفاً تماماً عن القبلات الجامدة التي تبادلاها قبل قليل. وعندما تباعد وجهاهما بعد ذلك، أطلق كل منهما زفرة عميقة. خاف الطائر وفرّ يصفق بجناحيه.

وضع ونستون شفتيه عند أذنها وهمس: «الآن». أجابت هامسة: «ليس هنا! فلنعد إلى المخبأ. إنه أكثر أماناً».

مع طقطقات العيدان التي تتكسّر تحت قدميهما، عادا سريعاً إلى الفسحة. وعندما صارا داخل حلقة الشجيرات، استدارت فواجهته. كان تنفسها سريعاً. لكن تلك الابتسامة عادت فظهرت عند زاويتي شفتيها. وقفت تنظر إليه لحظة، ثم مدت يدها إلى سحاب أوفرولها. و... نعم! كان ذلك كما في الحلم تقريباً! خلعت ملابسها بالسرعة نفسها التي تخيّلها تقريباً. وعندما ألقت بها جانباً، كانت تلك الحركة الرائعة نفسها التي تبدو كأنها تلغي حضارة بأسرها. تألّق جسدها البضّ في الشمس. لكنه، للحظة، لم يكن ينظر إلى جسدها... تعلقت عيناه بوجهها المنمَّش وبتلك الابتسامة الخفيفة الجريئة. ركع أمامها وأمسك يدها بيده.

«هل فعلتِ هذا من قبل؟»

«طبعاً! مئات المرات... لا بأس، عشرات المرات على أي حال».

«مع أعضاء في الحزب؟»

«نعم. دائماً مع أعضاء في الحزب».

«مع أعضاء من الحلقة الداخلية في الحزب؟»

«ليس مع هؤلاء الخنازير، لا! لكن ثمة الكثير منهم ممن لن يتأخروا أبداً لو سنحت لهم نصف فرصة. ليسوا بالقداسة التي يتظاهرون بها».

وثب قلبه. لقد فعلت هذا عشرات المرات: تمنّى لو أنها كانت مئات المرات... آلاف المرات! كان أي شيء موحٍ بالفساد يملأ قلبه بأملٍ عاصف دائماً. من عساه يدري! ... لعل الحزب متعفنٌ تحت السطح... ولعل عقيدة النشاط وإنكار الذات لم تكن إلا مظهراً كاذباً تختفي خلفه الآثام! لو كان يستطيع أن يعديهم جميعاً بالبرص أو السفلس، فكم سيكون سعيداً بأن يفعل ذلك! أي شيء من شأنه أن يؤدي إلى التعفّن، إلى الضعف، إلى التقويض! جذبها إليه حتى صارا راكعين متقابلين وجهاً لوجه.

«اسمعي! كلما كنت تضاجعين رجالاً أكثر كلما أحببتك أكثر. هل تفهمين هذا؟»

«نعم، أفهم تماماً».

«أكره العفّة، وأمقت التبتّل! لا أريد بقاءً لأيّ فضيلة. أتمنى أن يستشري الفساد في كل امرئ حتى العظام».

«حسنٌ! إذن لا بد أنني أناسبك تماماً يا عزيزي. إنني فاسدة حتى العظام».

«أنت تحبين إتيان ذلك الفعل؟ لا أقصد معي أنا فقط: أقصد الفعل في حد ذاته؟».

«أحبه كثيراً».

كان هذا أكثر من أي شيء أراد سماعه. ليس مجرد حب شخص واحد، بل

تلك الغريزة الحيوانية... الرغبة العمياء التي يستوي فيها الجميع: إنها القوة التي يمكن أن تمزّق الحزب إلى أشلاء. دفعها فوق العشب، بين أزهار الأجراس الزرق التي تساقطت. لم يكن في الأمر أي صعوبة هذه المرة. وبعد أن هدأ خَفَق صدراهما وعاد تنفسهما إلى الوضع الطبيعي، انفصلا بنوعٍ من الإعياء البهيج. بدا أن الشمس صارت أكثر حرارة. أحسَّا بالنعاس كلاهما. مد يده إلى الأوفرول المرمي جانباً فغطاها به جزئياً. وعلى الفور تقريباً، غرقا في النوم وظلا نائمين قرابة نصف ساعة.

استيقظ ونستون أولاً. جلس ينظر إلى وجهها المنمَّش... لا تزال نائمة في سلام واضعة كفها تحت رأسها. لم يكن المرء يستطيع أن يقول عنها إنها جميلة... اللهم باستثناء فمها! كان ثمة خط أو اثنان من حول عينيها... إذا نظر إليها المرء عن قرب. وكان شعرها القاتم القصير ناعماً كثيفاً إلى حد استثنائي. خطر في باله أنه لم يعرف اسمها الكامل ومكان عيشها حتى الآن.

ذلك الجسد الفتي القوي، الذي جعله النوم مستسلماً بلا حَوْل، أيقظ في نفسه إحساساً بالشفقة والحماية. لكن الرقة الخَلِية التي أحسّ بها تحت شجرة البندق عندما كان الطائر يغنّي لم تعد إليه تماماً. أزاح الأوفرول عنها وراح يتفحّص وسَطها الأبيض الناعم. وفكر في نفسه أن الرجل، في الأيام القديمة، كان ينظر إلى جسد الفتاة فيرى أنه يشتهيه. وتكون تلك نهاية القصة! لكن المرء لم يعد قادراً على عيش الحب الصافي أو الشهوة الصافية في هذه الأيام. ما من عاطفة صافية لأن كل شيء صار يخلطه الخوف والكره. لقد كان عناقهما معركةً... وكان بلوغهما ذروة النشوة نصراً! كان ضربة موجّهة إلى الحزب. كان فعلاً سياسياً!

3

قالت جوليا: «نستطيع أن نعود إلى هنا مرة واحدة فقط. يكون مأموناً عموماً استخدام المخبأ مرتين. لكن ذلك لن يكون قبل شهر أو اثنين بطبيعة الحال!».

تغيَّر سلوكها منذ لحظة استيقاظها. صارت منتبهة عمليةً. ارتدت ثيابها. عقدت الوشاح القرمزي حول وسطها. وبدأت ترتب تفاصيل رحلة العودة. وبدا ترك هذا الأمر لها شيئاً طبيعياً. من الواضح أن لديها فطنة عملية غير موجودة لدى ونستون. كما أن لديها، في ما يبدو، معرفة شاملة بالريف المحيط بلندن، معرفة تراكمت لديها نتيجة ما لا يحصى من الرحلات الجماعية على الأقدام. كان المسار الذي حدّدته له مختلفاً تماماً عن المسار الذي أوصله إلى هنا. كان مسار عودته ينتهي في محطة قطارات مختلفة في لندن. قالت مثل مَن يعلن عن مبدأ عام مهم: «لا تعد أبداً إلى البيت من الطريق نفسها». سوف تنطلق هي أولاً؛ وعلى ونستون أن ينتظر نصف ساعة قبل أن يتحرّك عائداً.

حددتْ له مكاناً يستطيعان اللقاء فيه بعد العمل، بعد ليالٍ أربع. كان شارعاً في أحد أفقر الأحياء حيث تقوم سوق مفتوحة تكون صاخبةً مزدحمةً بشكل عام. سوف تتجول بين أكشاك البيع متظاهرةً بالبحث عن شرائط ربط الأحذية أو عن الخيوط المستخدمة في الخياطة. وإذا تبين لها أن المكان آمنًا فسوف تمسح أنفها عند اقترابه منها. وأما في غير تلك الحالة، فإن عليه أن يمر من غير أن يُظهر أي معرفة بها. لكن، إذا حالفهما الحظ، فسوف يكون تبادل الحديث لربع ساعة في وسط الحشد من أجل ترتيب لقاء آخر أمراً مأموناً.

قالت بعد أن استوعب تعليماتها جيداً: «عليَّ أن أذهب الآن. يجب أن أصل في السابعة والنصف. يجب أن أمضي ساعتين في توزيع منشورات رابطة الشباب المعادي للجنس، أو شيء من هذا! أليس هذا مقرفاً؟ هل يمكن أن تمرِّر أصابعك في شعري؟ هل ثمة عيدان عالقةٍ فيه؟ هل أنت متأكد؟ إلى اللقاء إذًا يا حبيبي... إلى اللقاء!».

ألقت بنفسها بين ذراعيه وقبّلته قبلات تكاد تكون عنيفةً. وبعد لحظة واحدة كانت تشق طريقها بين الشجيرات ثم اختفت في الغابة من غير أن تُحدثَ أيّ صوت تقريباً. لم يعرف اسمها الكامل ولا عنوانها حتى الآن! لكن، لا فرق! لا يمكن تصوّر أنهما قد يلتقيان في البيت أو يتبادلا أي نوعٍ من الرسائل المكتوبة.

ما حدث هو أنهما لم يعودا قط إلى تلك الفسحة في الغابة! وخلال شهر أيار كله، لم تسنح لهما إلا فرصة واحدة أخرى تمكّنا فيها من ممارسة الحب. كان ذلك في مخبأ آخر تعرفه جوليا... برج كنيسة خَرِبة في منطقة ريفية شبه مهجورة حيث سقطت قنبلة ذرية قبل ثلاثين عاماً. كان ذلك المخبأ جيداً عندما يصل المرء إليه. لكن الوصول إليه كان في غاية الخطورة. وأما خلال بقية تلك الفترة فلم يلتقيا إلا في الشوارع مساءً، كل مرّة في مكانٍ مختلف عن السابق. ولم يزد الأمر أبداً على نصف ساعة في كل لقاء. كان تبادل الكلام ممكناً عادة في الشارع، لكن وفق طريقة بعينها! فعندما كانا يسيران على الأرصفة المزدحمة، من غير أن يكون الواحد منهما في محاذاة الثاني تماماً، ومن غير أن ينظر إليه، كان يجري بينهما حديث عجيب متقطّع يمضي ثم يتوقف مثلما يومض ضوء المنارة ثم يختفي. ينقطع الكلام على نحو مفاجئ ويحلّ الصمت بسبب اقتراب شخص يرتدي زي الحزب أو بسبب قربهما من إحدى الشاشات. ثم يستأنفان الكلام من جديد بعد دقائق في منتصف الجملة. ثم ينقطع عند النقطة المتفق على الافتراق عندها. ثم يُستأنف الحديث نفسه من غير مقدّمة، لكن في اليوم التالي. وقد اتضح أن جوليا معتادة تماماً على هذا النوع من الحديث الذي كانت تدعوه «الحديث على دفعات». وفاجأه أنها كانت قادرة على الكلام من غير تحريك شفتيها. لقد أفلحا مرة واحدة، خلال شهر كامل من اللقاءات الليلية، في تبادل قبلة. كانا مارَّيْن في أحد الشوارع الجانبية. وكانا صامتَين (لم تكن جوليا تتكلم أبداً عندما يكونا خارج الشوارع الرئيسية) عندما سُمِعَ زئير مُصِم، واهتزت الأرض، واسودّ الهواء، ووجد ونستون نفسه مستلقياً على جنبه وقد أصابته الكدمات والذعر أيضاً. لا بد أن قنبلة صاروخية قد سقطت في مكانٍ قريب جداً. وعلى نحو مفاجئ، شاهد وجه جوليا على بعد بضعة سنتيمترات من

وجهه. كان أبيض شاحباً على نحو يوحي بالموت... أبيض مثل الطباشير. كانت شفتاها مبيضّتين أيضاً. لقد ماتت! شدها إليه وتبيّن له أنه يقبّل وجهاً حياً دافئاً. لكن غباراً علق بشفتيه. كانت طبقة كثيفة من غبار الجص قد كست وجهيهما.

وقد حدث في بعض الأمسيات، أن وصلا، كلاهما، إلى مكان اللقاء ثم مرّ كل منهما بالآخر من غير أي إشارة لأن دورية ظهرت فجأة عند زاوية، أو لأن إحدى الحوّامات كانت تحوم فوقهما. وحتى إذا كان الأمر أقل خطورة، فقد كان العثور على وقت من أجل اللقاء صعباً على الدوام. كان ونستون يعمل ستين ساعة في الأسبوع؛ وكان أسبوع جوليا أطول من ذلك أيضاً! كانت أيام عطلاتهما تتغير بحسب ضغط العمل، ولم تكن تتوافق كثيراً. بل إن جوليا نادراً ما كانت تتوفر لديها أمسية حرة بالكامل. كانت تمضي قدراً مدهشاً من الزمن في حضور المحاضرات والمسيرات، وفي توزيع مطبوعات رابطة الشباب المعادي للجنس، وفي إعداد الرايات من أجل أسبوع الكراهية، وجمع التبرعات من أجل حملات التوفير، وغير ذلك من هذه النشاطات. لكنها قالت إن الأمر يستحق الجهد... لقد كان نوعاً من التخفّي. إذا ما التزم المرء بالقواعد الصغيرة، فهو يستطيع خرق القواعد الكبرى. بل إنها راحت تحثّ ونستون أيضاً على التضحية بأمسية أخرى عبر التحاقه بمصنع الذخائر الذي يعمل فيه أعضاء الحزب المتحمسون تطوّعاً بوقت عمل جزئي. وهكذا صار ونستون يقضي أمسية من كل أسبوع... أربع ساعات من الضجر القاتل، وهو يقوم بتجميع قطع معدنية صغيرة لعلها كانت أجزاء من صمامات القنابل، وذلك في ورشة سيئة الإنارة تلعب فيها الريح وتختلط فيها أصوات المطارق بالموسيقى التي تبثها الشاشات اختلاطاً كئيباً موحشاً.

عندما التقيا في برج الكنيسة كان حديثهما المليء بالثغرات يتقطّع ثم يتّصل. كان ذلك في عصر يوم حار. وكان الهواء ساكناً راكداً في الغرفة المربّعة الصغيرة التي تعلو الأجراس... وكان فائحاً برائحة زَرق الحمام. تحدثا عدة ساعات وهما جالسان على الأرض المغبرة المغطاة بالقش. وكان أحدهما ينهض من حين لآخر

فيلقي نظرة عبر فتحات إطلاق السهام في ذلك البرج حتى يتأكد من عدم مجيء أحد إلى ذلك المكان.

كانت جوليا في السادسة والعشرين. وكانت تعيش مع ثلاثين فتاة أخرى في مكان إقامة مشترك (قالت على هامش الحديث: «مع قرف النساء دائماً! كم أكره النساء»). وقد كانت تعمل، مثلما توقّع، على آلات تأليف القصص في قسم القصص. كانت تستمتع بعملها المؤلف بشكل رئيسي من تشغيل وخدمة محرك كهربائي جبار، لكنه دقيق. كانت «غير ذكية»، لكنها تحب استخدام يديها وترتاح للعمل مع الآلات. وكانت قادرة على وصف عملية تأليف القصة بالكامل، منذ إصدار التوجيه العام من قبل لجنة التخطيط، نزولاً حتى اللمسات النهائية التي يقوم بها فريق المراجعة. لكنها لم تكن مهتمة بالمنتج النهائي نفسه. قالت إنها «غير مهتمة كثيراً بالقراءة». كانت الكتب مجرد سلعة لا بد من إنتاجها، مثل المربّى وشرائط أربطة الأحذية.

ما كانت لديها ذكريات عن أي شيء قبل أوائل الستينات. أما الشخص الوحيد الذي عرفته والذي يتحدث كثيراً عن أيام ما قبل الثورة، فكانت جدة لها اختفت عندما بلغت جوليا سنتها الثامنة. وقد كانت في المدرسة تقود فريق الهوكي، وفازت بجوائز الجمباز سنتين متتاليتين. وكانت قائدة مجموعة في عصبة الجواسيس، ومسؤولة فرع في عصبة الشباب قبل أن تنضم إلى رابطة الشباب المعادي للجنس. وكانت تظهر شخصية متميزة دائماً، بل وقع الاختيار عليها أيضاً (وهذه علامة أكيدة على حُسن سمعتها) لتعمل في «قسجنس»، وهو القسم الفرعي في دائرة القصص حيث يجري إنتاج مواد إباحية رخيصة من أجل توزيعها بين عامة الناس. كان العاملون في هذا القسم يطلقون عليه اسم «بيت البذاءة»، كما قالت له. ظلت في ذلك القسم مدة سنة. وكانت تعمل في إنتاج كتيّبات توضع في مغلفات مختومة وتحمل عناوين من قبيل «قصص الضرب على القفا» أو «ليلة في مدرسة البنات»، وذلك لكي يشتريها العمال الشباب سراً ظانّين أنهم يشترون أشياء ممنوعة.

سألها ونستون بفضول: «وكيف هي تلك الكتب؟».

«أوه! قمامة شنيعة! إنها مملة في الحقيقة. لديهم ست حبكات فقط. لكنهم يغيّرون فيها قليلاً كل مرة. لقد كنت أعمل على آلات تشكيل الحبكات فقط. ولم أشارك أبداً في فريق المراجعة. ليست لدي مواهب أدبية يا عزيزي... ليست لدي مواهب تؤهّلني حتى لهذا العمل».

أصابته الدهشة عندما عرف أن العاملين في «قسجنس» جميعهم من الفتيات، باستثناء رؤساء الأقسام. وكانت الفكرة هي أن الرجال معرّضون أكثر لخطر الإصابة بالفساد نتيجة القذارة التي يعملون فيها لأن غرائزهم الجنسية أقل قابلية للضبط من الغرائز الجنسية لدى النساء.

أضافت جوليا: «بل إنهم لا يحبّون أن تعمل النساء المتزوجات هناك أيضاً. يفترض دائماً أن البنات عفيفات شديدات الطهارة والنقاء. لكن ها هي واحدة منهن أمامك. ليست كذلك على أي حال!»

أوّل علاقة حب في حياتها حصلت عندما كانت في السادسة عشرة. وذلك مع عضو في الحزب يبلغ ستين عاماً. وقد انتحر في ما بعد ليتجنّب الاعتقال. قالت جوليا: «حسناً فعل! وإلا لحصلوا على اسمي منه عندما سيعترف». عرفت أشخاصاً كثيرين غيره بعد ذلك. كانت ترى أن الحياة بسيطة: أنت تريد أن تحصل على وقت طيب؛ و«هم»، أي الحزب، يريدون منعك من ذلك. أنت تخرق القواعد بأفضل طريقة تستطيعها. وبدا لها أمراً طبيعياً أن يحاول «هؤلاء» سلبك هذه المسرّات، بقدر ما هي طبيعية محاولتك أن تتجنّب إمساكهم بك. كانت تكره الحزب. وكانت تعبّر عن ذلك بأشنع الكلمات. لم تكن توجِّه أي نقد للحزب، إلّا أنه حين يتعلّق الأمر بحياتها الشخصيّة لم تكن تأبه إطلاقاً بعقيدة الحزب. ولاحظ ونستون أنها لم تكن أبداً تستخدم من كلمات اللغة الجديدة إلا تلك الكلمات التي جرت مجرى الاستخدام العام. لم تكن قد سمعت بالأخوية أبداً. ورفضت أن تصدّق أنها موجودة. وكانت ترى أن أي نوع من التمرّد المنظَّم على الحزب... أي تمرّد، محكوم عليه بأن يفشل بالضرورة... ويصدمها بحمقه. والتصرّف الذكي هو أن تخرق القواعد وتظل حياً في الوقت نفسه. راح يسأل نفسه على نحو غامض عن

عدد من يشبهونها من أبناء الجيل الشاب الذي كَبُر في عالم الثورة ولم يعرف عالماً غيره، الجيل الذي يقبل الحزب باعتباره شيئاً لا يتغير، كالسماء... شيئاً لا يمكن التمرّد على سلطته، ويجب الاكتفاء بالتهرب منها... كما يتهرّب الأرنب من كلب.

لم يناقشا إمكانية الزواج! كان هذا أمراً أبعد منالاً من أن يستحق التفكير فيه. ولا يمكن تخيل موافقة أي لجنة على هذا الزواج. حتى إذا أمكن على نحو ما التخلص من كاثرين، زوجة ونستون. كان ذلك شيئاً لا رجاء فيه، حتى كحلمٍ من أحلام اليقظة.

سألته جوليا: «كيف كانت زوجتك؟».

«كانت... هل تعرفين تعبير «ذو تفكيرصالح في اللغة الجديدة؟ أي الشخص ذو العقيدة القويمة بشكل طبيعي... الشخص غير القادر على التفكير في أشياء سيئة؟»

«لا! لا أعرف هذا التعبير. لكنني أعرف ذلك النوع من الناس معرفة كافية».

راح يخبرها قصة حياته الزوجية. لكن ما أدهشه كثيراً هو أنها بدت على علم بتفاصيلها الرئيسية بالفعل. إذ راحت تشرح له، مثل من رأى الأمر أو أحسّه تقريباً، التيبّس الذي كان يصيب جسد كاثرين عندما يلمسها، وكيف كانت تبدو كأنها تدفعه بعيداً عنها بكل قوتها حتى عندما تحيطه بذراعيها إحاطة محكمة. لم يكن يجد أي صعوبة في الحديث عن هذه الأمور مع جوليا: لقد كفّت كاثرين، على أي حال، عن كونها ذكرى مؤلمة. صارت مجرد ذكرى كريهة، لا أكثر!

قال: «كنت قادراً على تحمّل الأمر لولا شيئًا واحدًا». أخبرها عن تلك المراسم الباردة التي أجبرته كاثرين عليها في الليلة نفسها من كل أسبوع... «كانت تكره ذلك، لكن شيئاً لم يكن ليوقفها عن فعله. كانت تدعوه... لن تعرفي أبداً ما كانت تدعوه».

قالت جوليا سريعاً: «واجبنا تجاه الحزب».

«كيف عرفت هذا؟».

«لقد ذهبت إلى المدرسة أيضاً يا عزيزي. ثمة أحاديث عن الجنس مرة كل شهر لمن يتجاوزن السادسة عشرة من العمر. وفي حركة الشبيبة أيضاً. إنهم يغرسون ذلك فيهن طيلة سنوات. وأستطيع القول إنهم ينجحون في كثير من الحالات. لكن المرء لا يستطيع أن يعرف حقاً... فالناس منافقون كبار بخصوص ذلك».

راحت تتوسّع في ذلك الموضوع. فمع جوليا، كان كل شيء يرتبط بحياتها الجنسية. وعندما يتعلّق الأمر بهذا، كانت قادرة على إبداء فطنة وذكاء كبيرين. وخلافاً لونستون تمكّنت جوليا من التقاط المعنى الدفين لطهرانية الحزب الجنسية. لم يكن الأمر مقتصراً على أن غريزة الجنس تخلق عالمها الخاص بها الواقع خارج سلطان الحزب مما يستدعي تدميره إن أمكن الأمر! فالأكثر أهمية هو أن الحرمان الجنسي يخلق حالة من الهستيريا. وهي حالة مرغوبة لأن من الممكن تحويلها إلى حمّى حربية أو إلى عبادة القائد. عبرت عن فكرتها بالطريقة التالية:

«إنك تستخدم طاقة عند فعل الحب. تشعر بسعادة بعد ذلك فلا تأبه لأي شيء. وهم لا يستطيعون احتمال أن يشعر المرء بذلك. إنّهم يريدونك أن تظلّ مفعماً بالطاقة طيلة الوقت. وكل هذه المسيرات التي تروح وتجيء، والهتاف، والتلويح بالرايات، ليس إلا تنفيساً لطاقة جنسية تذهب في غير سبيلها. إن كنت سعيداً في داخلك، فلماذا تهتم كثيراً بالأخ الأكبر وبخطط السنوات الثلاث وبدقيقتَي الكراهية، وبكل ما بقي من ذلك العفن البائس لديهم».

فكّر ونستون ورأى أن هذا صحيحٌ جداً. ثمة صلة مباشرة وثيقة بين العفّة والالتزام بالعقيدة السياسية القويمة. إذ كيف يمكن للحزب أن يحافظ على هذا المستوى من الكراهية وسهولة التصديق الجنونية اللتين يحتاج لوجودهما في أعضائه إلّا عن طريق قمع وتقييد غريزة قوية في الإنسان واستخدامها لتصير قوة دافعة؟ كان الدافع الجنسي مصدر خطر، وقد حوَّله الحزب لحسابه! إنهم يستخدمون الحيلة نفسها في ما يتعلق بغريزة الأبوة والأمومة. إن مفهوم الأسرة استمرّ في الحقيقة. والواقع هو أنهم كانوا يشجعون الناس أن يكونوا مولعين بأطفالهم، على النمط القديم تقريباً! وأما الأطفال، فيجري تحويلهم ضد أهلهم وتعليمهم أن يتجسّسوا

عليهم وأن يبلّغوا عن أي انحراف يظهر عندهم. والنتيجة هي أن الأسرة صارت امتداداً لشرطة الفكر! لقد صارت وسيلة تسمح بأن يظل كل امرئ محاصراً، ليل نهار، بمخبرين يعرفونه معرفة وثيقة.

وعلى نحوٍ مفاجئ، عاد ذهنه إلى كاثرين. لا شك أبداً في أنها كانت مستعدة للوشاية به لدى شرطة الفكر لولا أنها كانت أغبى بكثير من أن تشعر بعدم التزام آرائه بالعقيدة القويمة. لكنْ ما ذكره بها حقاً في هذه اللحظة هو تلك الحرارة الخانقة في عصر ذلك اليوم، الحرارة التي جعلت جبينه يتفصّد عرقاً. راح يخبر جوليا عن شيء حدث، أو فشل في الحدوث، في عصر يوم صيفي آخر قبل أحد عشر عاماً.

كان ذلك بعد ثلاثة أشهر أو أربعة أشهر من زواجهما. ضلّا طريقهما خلال رحلة جماعية على الأقدام في مكانٍ ما في مقاطعة كِنت. تأخرا قليلاً عن البقية، دقيقتين فقط، ثم انعطفا في اتجاهٍ آخر. وسرعان ما وجدا نفسيهما عند حافة مقلع قديم للحجارة الكلسية. كان هنالك انحدار عمودي عمقه عشرة أمتار أو عشرين متراً، وكتلٌ صخرية صغيرة في الأسفل. لم يكن في المكان أحد يستطيعان سؤاله عن الطريق. أصاب كاثرين انزعاج شديد عندما أدركت أنهما ضاعا. كان وجودها بعيداً عن حشد المتنزّهين الصاخب، ولو لحظة واحدة، يجعلها تحس بأنها ترتكب إثماً. أرادت أن تعود مسرعة عبر الطريق التي جاءا منها لتبدأ البحث في اتجاه آخر. لكن ونستون شاهد في تلك اللحظة بعض شتلات الأزهار البرية النامية في شقوق الجرف من تحتهما. كانت إحدى تلك الشتلات بلونين مختلفين... أرجواني، وأحمر قرميدي... ومن الواضح أن الأزهار، بلونيها، كانت نامية من جذر واحد. لم يكن قد رأى شيئاً مثل هذا من قبل. نادى كاثرين حتى تأتي وتنظر إليها.

«انظري يا كاثرين! انظري إلى هذه الأزهار. تلك التي في الأسفل قرب القعر. هل ترين أنها ذات لونين مختلفين؟».

كانت كاترين قد استدارت لتذهب، لكنها عادت عابسة في تلك اللحظة. بل إنها انحنت فوق حافة الجرف لترى ما كان يشير إليه. كان واقفاً إلى الخلف منها قليلاً فوضع يده على وسطها حتى يثبتها في مكانها. وفي تلك اللحظة، خطر في

باله فجأة، أنهما وحيدان تماماً في هذا المكان. لا وجود لأي مخلوق بشري هنا، ولا ورقة شجر تتحرّك، ولا حتى عصفور يرفرف. إن خطر وجود مايكروفون مخفي في مكانٍ من هذا النوع ضئيلٌ جداً. وحتى إذا كان ثمة مايكروفون، فإنه لن يلتقط إلا الأصوات. كانت تلك أكثر ساعات العصر قيظاً وإغراء بالقيلولة. كان وهج الشمس يتلظّى فوقهما. وتصبّبت حبّات العرق على وجهه.. صدمته الفكرة...

قالت جوليا: «لماذا لم تدفعها دفعة قوية؟ لو كنت مكانك لفعلت».

«نعم يا عزيزتي! لو كنت مكاني لفعلتِ. ولو كنت في ذلك الوقت مثلما أنا الآن لدفعتها أيضاً. أو لربّما كنت أدفعها... لست متأكداً».

«هل أنت آسف لأنك لم تفعلها؟»

«نعم! بشكل عام، آسف، يؤسفني أنني لم أفعلها».

كانا جالسين جنباً إلى جنب على الأرض المغبرة. جذبها قريباً إليه. استقر رأسها على كتفه فشم رائحة شعرها اللطيفة التي طغت على رائحة زَرق الحمام. قال في نفسه إنها فتية جداً، ولا تزال تتوقّع شيئاً من الحياة. لم تفهم بعد أن دَفْع شخص لا يعجبنا من فوق الجرف لا يحلّ شيئاً.

قال: «الواقع هو أن ذلك ما كان ليُحدِثَ أي فرق».

«فلماذا تأسف لأنك لم تفعلها؟».

«فقط لأنني أفضّل التصرف الإيجابي على التصرف السلبي. لا نستطيع أن نفوز في هذه اللعبة! لكنْ ثمة أنواع من الفشل أهون من أنواع أخرى، هذا كل ما في الأمر».

أحس بكتفها يتحرّك حركة تنم عن عدم موافقتها على كلامه. كانت تعارضه دائماً عندما يقول شيئاً من هذا النوع. لم تكن لتقبل أبداً فكرة أن الفرد مهزومٌ دائماً، وأن هذا قانونٌ من قوانين الطبيعة. كانت مدركة، على نحوٍ ما، أنها محكوم عليها... وأن شرطة الفكر ستمسك بها وتقتلها عاجلاً أو آجلاً. لكن جزءاً آخر من عقلها كان مقتنعاً أن من الممكن، على نحوٍ ما، إقامة عالم سري يستطيع المرء أن يعيش فيه

كما يريد. لا يلزم لذلك إلا حظ ومَكْر وجرأة! وما كانت تفهم أن ما من وجود لشيء اسمه السعادة، وأن النصر الوحيد كامن في المستقبل البعيد، بعد أن يموت المرء بزمن طويل، وأن من الأفضل أن يعتبر المرء نفسه ميتاً منذ لحظة إعلان الحرب على الحزب.

قال: «نحن هم الموتى!».

قالت جوليا على نحوٍ مبتذل: «نحن لم نمت بعد!».

«لم نمت جسدياً! ربما بعد ستة أشهر، بعد سنة... خمس سنوات! إني أخاف الموت. أنت شابة، ولعلك أكثر مني خوفاً من الموت! من الواضح أن علينا تأجيل الموت قدر ما نستطيع. لكن الفارق صغير جداً! طالما ظل البشر بشراً، فإن الموت والحياة شيءٌ واحد».

«هذا هراء! من الذي ترغب في النوم معه، أنا أو هيكل عظمي؟ ألا تستمتع بكونك حياً؟ ألا تحب هذا الإحساس: هذه أنا، وهذه يدي، وهذه ساقي، إنني حقيقية، موجودة، إنني حية! ألا تحب هذا أيضاً؟».

التفت صوبها فضغطت بصدرها عليه. شعر بثدييها تحت أوفرولها، يانعَيْن وصلبَيْن. بدا كأن جسدها يصبّ فيه بعضاً من شبابه وحيويته.

قال: «نعم، أحب هذا».

«كُفّ عن حديث الموت إذّاً! والآن استمع يا عزيزي. علينا أن نرتب لقاءنا القادم. قد نستطيع العودة إلى ذلك المكان في الغابة. لقد تركناه يرتاح فترة طويلة. لكن عليك أن تذهب إليه عبر طريق مختلفة هذه المرة. لقد خطَّطْت للأمر كلّه. عليك أن تأخذ القطار... لكن انظر، سوف أرسم لك المخَطّط».

وبطريقتها العملية، سوّت بيدها مربعاً صغيراً من الغبار على الأرض ثم راحت ترسم عليه خريطة بواسطة قشّة سحبتها من عشّ من أعشاش الحمام.

4

راح ونستون يجيل النظر في أرجاء الغرفة البائسة الصغيرة فوق متجر السيد تشارينغتون. كان السرير الضخم بالقرب من النافذة مرتّباً. وكانت عليه بطانيات بالية ووسادة من غير غطاء. أما الساعة عتيقة الطراز المقسّمة إلى اثنتي عشرة ساعة فكانت تُسمع تكتكاتها على رفّ الموقد. وفي الزاوية، على الطاولة القابلة للطي، كانت ثقّالة الورق الزجاج التي اشتراها في زيارته الأخيرة تلمع لمعاناً خافتاً في تلك الظلمة الخفيفة.

وعلى سياج المدفأة كان ثمة موقد زيتي صغير، وإبريق صغير، وفنجانان. لقد أتى السيد تشارينغتون بهذه الأشياء! أشعل ونستون الموقد الزيتي ووضع عليه وعاء الماء حتى يسخن. لقد أحضر كيساً مليئاً من قهوة النصر وبعض قطع السكّر. كانت عقارب الساعة تشير إلى الخامسة والثلث: إنها السابعة والثلث في الحقيقة! وسوف تأتي جوليا في السابعة والنصف.

ظل قلبه ينبئه بأن هذه حماقة... حماقة. حماقة مجّانية انتحارية أتقصّدها! إن إمكانية إخفاء هذه الجريمة أقل من إمكانية إخفاء أي جريمة أخرى قد يرتكبها عضو الحزب. والواقع أن هذه الفكرة انبعثت في ذهنه أول مرة على هيئة رؤيا، أتته من انعكاس صورة ثقّالة الورق الزجاج على سطح الطاولة القابلة للطي. ومثلما توقّع من قبل، لم يُثِر السيد تشارينغتون أي مشكلات في ما يتعلق بتأجير الغرفة. من الواضح أنه كان مسروراً بالدولارات القليلة التي سيدرّها عليه ذلك. ولم يبدُ عليه أيضاً أي أثر للصدمة، ولا أظهر انزعاجاً، عندما بات واضحاً أن ونستون يريد الغرفة من أجل علاقة غرامية. بل إنه تظاهر بقدرٍ من اللامبالاة وراح يتحدّث في العموميات على نحوٍ لطيف يعطي انطباعاً بأنه غير موجود أصلاً. وقال إن الخصوصية أمرٌ بالغ القيمة. فكل امرئ يريد مكاناً يستطيع أن يختلي فيه من حينٍ لآخر. وعندما يوجد مكان من هذا النوع، فمن حسن اللياقة أن يحتفظ كل من يعرف ذلك بالأمر لنفسه. وحتى إنه أضاف، وقد بدا كأنه يختفي من الوجود كله عندما فعل ذلك، أن ثمة

مدخلين للمنزل، واحدٌ منهما يمر عبر الباحة الخلفية المؤدية إلى الزقاق.

كان شخصٌ يغنّي تحت النافذة. استرق ونستون نظرة إلى الخارج محتمياً بستارة الموسلين الشفافة. لا تزال شمس حزيران عالية في السماء. وفي الباحة الخلفية التي ملأتها الشمس، هناك في الأسفل، كانت امرأة هائلة الحجم صلبة كأنها عمود نورماندي، ولها ذراعان سمراوان محمرّتان ومريلة بلّلها الماء مربوطة على خصرها. كانت المرأة تذهب وتجيء بين حوض الغسيل وحبل مشدود تضع عليه سلسلة من أشياء بيض مربّعة الشكل أدرك ونستون أنها حفاضات أطفال. وكلما خلا فمها من مشابك الغسيل كانت تعاود الغناء بصوت جهوري:

لم يكن هذا إلا حلماً لا رجاء فيه.

مر مثل يومٍ من نيسان،

لكنهم سرقوا قلبي مني،

بنظرة وكلمة وأحلامٍ أثاروها!

كانت هذه الأغنية تُسمع في لندن كلها منذ أسابيع. وكانت واحدة من عدد لا يحصى من أغانٍ مماثلة بثّها بين عامة الناس أحد الأقسام الفرعية في قسم الموسيقى. وكانت كلمات الأغنية مؤلفة من غير أي تدخّل بشري على الإطلاق، وذلك باستخدام أداة معروفة باسم «الناظمة». لكن المرأة كانت تغنيها بلحنٍ حيٍّ جعل تلك القمامة المخيفة تكاد تصبح صوتاً يبعث على السرور. كان يسمع صوت غناء المرأة وجرجرة حذائها على بلاط الباحة، وكذلك صياح الأطفال في الشارع، إضافة إلى هدير حركة المرور الخافت قادماً من مسافةٍ بعيدة. لكن الغرفة بدت له صامتةً على نحوٍ غريب بسبب عدم وجود شاشة فيها.

حماقة، حماقة، حماقة! راح يقول في نفسه من جديد.

لا يمكن تصوّر إمكانية أن يترددا على هذا المكان أكثر من أسابيع قليلة من غير إلقاء القبض عليهما. لكن إغراء امتلاك مخبأ يكون لهما هما حقاً... بيت في متناول اليد... كان إغراءً كبيراً جداً لكل منهما. لقد مرّ بعض الوقت، ومنذ لقائهما في

برج الكنيسة صار ترتيب اللقاءات أمراً مستحيلاً. ازدادت ساعات العمل زيادة حادة استعداداً لأسبوع الكراهية. لقد بقي شهر على حلول ذاك الأسبوع. لكن التحضيرات الهائلة المعقّدة التي اقتضاها كانت تلقي بمزيد من الأعباء الإضافية على الجميع. وأخيراً، تمكنا من إيجاد بعد ظهر حُرّ في اليوم نفسه. لقد اتفقا على العودة إلى فسحة الغابة. وفي الأمسية التي سبقت ذلك الموعد، تلاقيا لقاءً سريعاً في الشارع. ومثلما كان يحدث دائماً، لم يكن ونستون ينظر إلى جوليا عندما كان واحدهما يسير صوب الآخر في الزحام. لكن، بدا له من نظرة قصيرة ألقاها صوبها كم أنها كانت أكثر شحوباً من المُعتاد.

تمتمت فور أن رأت الوضع آمناً للكلام: «لقد ألغي! أقصد غداً».

«ماذا؟»

«بعد ظهر الغد. لا أستطيع المجيء».

«لِمَ لا؟».

«أوه، إنه السبب المعتاد! لقد بدأ الأمر في وقت أبكر هذه المرة».

للحظة، استبد به غضبٌ عنيف! لقد تغيرت طبيعة رغبته فيها خلال هذا الشهر الذي مرّ عليهما. ففي البداية، كان ثمة قدر قليل من الإحساس الحقيقي في الأمر كله. لقد كانت ممارسة الحب الأولى بينهما مجرّد إرادة لا رغبة. لكن الأمر اختلف بعد المرة الثانية. وبدا أن رائحة شعرها، ومذاق فمها، وملمس جلدها، قد صارت كلها في داخله، أو في الهواء المحيط به. لقد صارت ضرورة جسدية... شيئاً ليس راغباً فيه فحسب، بل يشعر بأنه من حقه. وعندما قالت إنها لا تستطيع المجيء، أحس أنها تخونه. لكن شدة الازدحام قرّبتهما في تلك اللحظة فمست يده يدها. ضغطت ضغطة سريعة على رؤوس أصابعه... ضغطة بدت كأنها تثير عاطفة، لا اشتهاءً. فاجأته فكرة أن المرء عندما يعيش مع امرأة، فإن هذه الخيبة تحديداً لا بد أن تكون حدثاً عادياً متكرراً؛ فاستولت عليه رقّة عميقة لم يشعر بها نحوها من قبل. تمنى لو أنهما متزوجان منذ عشر سنين. وتمنى لو أنهما كانا يسيران

في الشوارع مثلما يفعلان الآن، لكن علناً من غير خوف... يسيران متحدِّثَيْن عن توافه الأمور ويشتريان هذا وذاك من أجل البيت. وتمنى، أكثر من أي شيء، أن يكون لديهما مكان يستطيعان الاختلاء فيه معاً من غير إحساسٍ بضرورة ممارسة الحب كلما التقيا. لم تخطر في باله فكرة استئجار غرفة السيد تشارينغتون في تلك اللحظة فعلاً. لكنها خطرت له في وقت ما من اليوم التالي. وعندما اقترح الأمر على جوليا وافقت بسرعة لم يتوقّعها. كان كل منهما يعرف أن هذا جنون. وبدا كما لو أنهما يخطوان عامِدَيْن فيقتربان من قبريهما. وعندما جلس منتظراً على حافة السرير، راح يفكر من جديد في زنزانات وزارة الحب. غريب كيف يتحرّك هذا الرعب المحتوم فيدخل وعي المرء ويخرج منه! إنه قابعٌ هناك، محددٌ في وقت من المستقبل، يأتي قبل الموت على نحوٍ مؤكَّد مثلما يأتي العدد تسعة وتسعون قبل العدد مئة. لا قِبَل للمرء بتفاديه، إنما قد يستطيع تأجيله: لكن المرء يختار بدلاً من ذلك، من حين لآخر، وبفعل متعمَّد إرادي، تقريب زمن حدوثه.

سمِعَ ونستون صوت خطواتٍ سريعة على الدرجات في تلك اللحظة. اندفعت جوليا إلى الغرفة. كانت تحمل حقيبة أدوات مصنوعة من قماش بني خشن مثل تلك التي رآها تجيء وتذهب بها مرات عديدة في الوزارة. تقدم ليحتضنها بين ذراعيه، لكنها انفلتت منه على نحو شبه مستعجل... قد يكون ذلك لأنها لا تزال ممسكة بحقيبة الأدوات.

قالت: «نصف ثانية! دعني أريك فقط ما جلبت. هل أتيت بشيء من قهوة النصر القذرة؟ أظن أنك فعلت ذلك. تستطيع أن ترميها بعيداً لأننا لن نحتاجها. انظر هنا».

جثت على ركبتيها وفتحت الحقيبة فأخرجت منها بعض المفكات والمفاتيح المعدنية التي كانت تملأ النصف العلوي منها. وتحت تلك الأدوات، كان عدد من المغلّفات الورقية الأنيقة. كان للمغلف الأول الذي ناولته لونستون ملمس غريب، لكنه مألوف على نحوٍ ما. كان فيه مادة ثقيلة تشبه الملح تنخسف حيثما لمسها المرء.

قال: «ما هذا! سكّر؟».

«سكر حقيقي! وليس سكرين، إنه سكّر. وها هو رغيف من الخبز الأبيض الحقيقي وليس ذلك الخبز المقرف الذي نأكله... وعلبة صغيرة من المربّى! وهذه علبة حليب... لكن انظر! ها هو الشيء الذي أفخر به حقاً. لقد اضطررت إلى لفه بقطعة قماش، لأن...»

لكنها ما كانت في حاجة إلى إخباره عن سبب تغليف ذلك الشيء. لقد ملأت الغرفة رائحةٌ حارة غنية بدت كأنها منبعثة من طفولته الأولى. لكنها رائحة لا يصادفها المرء الآن إلا عَرَضاً... عندما تهبّ من أحد الممرات قبل أن يُصفق بابٌ من الأبواب، أو عندما تتسرّب تسرّباً غامضاً في شارعٍ مزدحم فيشمّها المرء لحظة قبل أن تضيع من جديد.

تمتم قائلاً بدهشة: «إنها قهوة! قهوة حقيقية!».

قالت: «إنها قهوة الحزب الداخلي. لدينا كيلوغرام كامل هنا».

«كيف تمكّنت من الحصول على هذه الأشياء كلّها؟».

«كلّها من مواد الحزب الداخلي. ما من شيء لا يحصل عليه هؤلاء الخنازير... لا شيء! لكن الخدم والسقاة وغيرهم من الناس يتمكنون من اختلاس بعض الأشياء. ثم... انظر، لقد حصلت على علبة صغيرة من الشاي أيضاً».

كان ونستون قد جلس القرفصاء إلى جانبها. ومزّق زاوية من غلاف علبة الشاي.

«هذا شاي حقيقي! لا أوراق نبات العلّيق».

قالت على نحوٍ غامض: «لديهم الكثير من الشاي في الآونة الأخيرة. لقد استولوا على الهند، أو على شيء ما. لكن اسمع يا عزيزي... أريدك أن تدير ظهرك لي ثلاث دقائق. اذهب واجلس على الناحية الأخرى من السرير. لا تقترب من النافذة كثيراً! ولا تستدر قبل أن أقول لك ذلك».

راح ونستون يحدق من غير تركيز عبر ستارة الموسلين. وفي الأسفل، في الباحة الخلفية، كانت المرأة ذات الساعدين الحمراوين مستمرة في الذهاب والمجيء بين الحوض وحبل الغسيل. نزعت مشبكَيْ غسيل من فمها وغنت بإحساسٍ عميق:

يقولون إن الزمن يشفي كل شيء،
ويقولون إنك تستطيع أن تنسى دائماً؛
لكن الابتسامات والدموع، على مرّ السنين
لا تزال تمزّق أوتار قلبي!

كانت تحفظ تلك الأغنية التافهة عن ظهر قلب، على ما يبدو! وكان صوتها يعلو مع هواء الصيف الحلو، مليئاً بالألحان ومفعماً بنوعٍ من الكآبة الفرحة. كانت تجعل المرء يشعر أنها ستكون راضية كل الرضا إذا كانت تلك الأمسية الحزيرانية من غير نهاية، وإذا كان لديها كمية لا تنفد من الملابس... حتى تظل هناك ألف سنة تعلّق الحفاضات على الحبل وتغنّي هذه الأغنية الفارغة. فاجأته حقيقة غريبة... حقيقة أنه لم يسمع قط عضواً من أعضاء الحزب يغني وحده على نحوٍ تلقائي. بل إن من شأن ذلك أن يبدو خروجاً على العقيدة القويمة إلى حد ما، أو غرابةً خطيرة، كمثل من يتحدّث مع نفسه! لعل الناس لا يكون لديهم شيء يدفعهم للغناء إلا عندما يقتربون من حد التضور جوعاً.

قالت جوليا: «تستطيع أن تستدير الآن».

استدار، وللوهلة الأولى كاد لا يعرفها! ما كان يتوقّعه فعلاً هو أن يراها عاريةً. لكنها لم تكن عارية! كان التغيّر الذي أصابها مدهشاً أكثر من ذلك. لقد زيّنت وجهها!

لا بد أنها عرّجت على متجر من متاجر الأحياء البروليتارية فاشترت لنفسها مجموعة كاملة من مواد التجميل. كانت شفتاها قد اكتسبتا لوناً أحمر غامقاً. وصارت وجنتاها ورديتين. ووضعت بعض المساحيق على أنفها. بل كان أيضاً ثمة لمسة من شيء ما تحت عينيها جعلهما أكثر بريقاً. لم تكن ماهرة جداً في فعل ذلك، لكن معايير ونستون في هذه الأمور لم تكن عالية أيضاً! لم يرَ من قبل، ولم يتخيل، امرأة من الحزب تضع مساحيق تجميل على وجهها. كان التحسن في مظهرها صارخاً. فبلمسات قليلة من اللون على وجهها، في الأماكن الصحيحة، لم تصبح أكثر جمالاً فحسب، بل صارت أكثر أنوثة بكثير قبل كل شيء. ولم يفعل

شعرها القصير وأوفرولها الصبياني إلا أن زادا من تأثير ذلك كلّه. وعندما ضمها بين ذراعيه، غمرت منخريه رائحة عطر البنفسج المركّب. تذكر ذلك المطبخ نصف المظلم في القبو. وتذكر فم تلك المرأة الشبيه بالكهف. كانت تستخدم الرائحة نفسها، لكن هذا لم يكن يبدو مهمًّا في تلك اللحظة.

قال: «عطر أيضاً!».

«نعم يا عزيزي... عطر أيضاً! وهل تعرف ما سوف أفعله في المرة القادمة؟ سوف أحصل على فستان نسائي حقيقي من مكانٍ ما وألبسه بدلاً من هذا البنطلون البائس. سوف ألبس جوارب حريرية وحذاء عالي الكعب! سوف أكون امرأة في هذه الغرفة، لا رفيقة حزبية!».

خلعا ملابسهما سريعاً وصعدا إلى السرير الضخم المصنوع من خشب الماهوغاني. كانت تلك المرة الأولى التي يتعرّى فيها أمامها. فقد كان شديد الخجل، حتى الآن، من جسده الهزيل الشاحب بعروق بطّتَي ساقيه المنتفخة بسبب الدوالي، وبتلك البقعة على كاحله. كان السرير من غير ملاءات. لكن البطانية التي رقدا عليها كانت بالية جداً حتى صارت ناعمة. كما أن حجم السرير ومرونة الفراش كانا مدهشين لهما. قالت جوليا: «لا بد أنه مليء بالبق. لكن، من يهتم لهذا؟».

ما كان المرء ليرى سريراً مزدوجاً في هذه الأيام، اللهم إلا في بيوت عامة الناس! كان ونستون قد نام أحياناً على سرير من هذا النوع في طفولته. أما جوليا فلم تعرف هذا السرير من قبل، بقدر ما تتذكّر على الأقل!

سرعان ما غطّا في إغفاءة لبرهة من الزمن. وعندما استيقظ ونستون، كان عقربا الساعة قد اقتربا من التاسعة. لم يتحرّك لأن جوليا كانت تنام واضعة رأسها على طية ساعده. كان القسم الأكبر من زينتها قد انتقل إلى وجهه هو، أو إلى الفراش. لكن بقعة خفيفة من اللون الأحمر ظلت تُظهر جمال وجنتها. سقط شعاع أصفر من أشعة الشمس الغاربة على أسفل الفراش وأنار الموقد حيث كان الماء يغلي سريعاً في وعائه. وفي الباحة الخلفية، كانت المرأة قد كفّت عن الغناء. لكن صيحات الأطفال الخافتة كانت تأتي من الشارع. راح ونستون يتساءل في

نفسه عما إذا كان شيئاً عادياً، في الماضي الذي ألغي، أن يستلقي في الفراش على هذا النحو، في البرودة اللطيفة لأمسية صيفية، رجل وامرأة من غير ملابسهما، يمارسان الحب عندما يشاءان، ويتكلمان عما يشاءان، من غير أن يشعرا بأي شيء يجبرهما على النهوض، يكتفيان بالاستلقاء هناك والإصغاء إلى الأصوات الآتية من الخارج. من المؤكد أنه لا يمكن أن يكون قد مرّ وقت بدت فيه هذه الأشياء عادية! استيقظت جوليا، وفركت عينيها، ورفعت نفسها على مرفقها لتنظر إلى الموقد الزيتي.

قالت: «لقد تبخّر نصف ذلك الماء! سوف أنهض لأصنع لنا قهوة خلال لحظة. لا تزال لدينا ساعة من الزمن. متى يقطعون التيار الكهربائي في بنايتكم؟».

«في الحادية عشرة والنصف ليلاً».

«إنهم يقطعونها في الحادية عشرة في النزل الذي أقيم فيه. لكن على المرء أن يصل أبكر من ذلك لأن... اذهب من هنا أيها الحيوان القذر!».

انحنت سريعاً في السرير فالتقطت فردة حذاء عن الأرض وقذفت بها إلى الزاوية بحركة صبيانية من ذراعها... تماماً مثلما رآها تقذف غولدشتاين بالقاموس خلال دقيقتَي الكراهية في ذلك الصباح.

قال دهِشاً: «ما هذا؟».

«إنه جرذ! رأيته يمد أنفه من ثقب في خشب الأرضية عند الحائط. ثمة جحر هناك. لكنني أفزعته كثيراً!».

دمدم ونستون: «جرذان! في هذه الغرفة!».

قالت جوليا من غير اهتمام عندما استلقيا من جديد: «إنها موجودة في كل مكان. بل إنها موجودة لدينا في مطبخ النزل أيضاً. وثمة أجزاء من لندن تعجّ بها. هل تعرف أنها تهاجم الأطفال؟ نعم، إنها تهاجمهم! وفي بعض تلك الشوارع، لا تجرؤ المرأة على ترك طفلها الصغير وحيداً دقيقتين فقط. إنها الجرذان الضخمة البنية هي التي تفعل ذلك. والأمر القذر هو أن تلك الحيوانات تقوم دائماً...».

قال ونستون وقد أغمض عينيه بشدة: «لا تتابعي الكلام!».

«عزيزي! لقد شحب لونك تماماً! ما الأمر؟ هل تجعلك الجرذان تشعر بالغثيان؟».

«أكثر ما يرعبني في العالم كله هو الجرذان!».

التصق جسدها به ولفّته بذراعيها وساقيها كأنها تحاول طمأنته بدفء جسدها. لم يفتح عينيه على الفور. ظل عدة لحظات شاعراً أنه قد عاد إلى كابوسٍ يزوره من وقتٍ لآخر خلال حياته كلها. كان يتكرر على نحو شديد التشابه في كل مرة. كان ونستون يقف أمام جدار من الظلمة. وعلى الناحية الأخرى من ذلك الجدار، كان ثمة شيء لا سبيل إلى احتماله، شيء أكثر رعباً من أن يواجهه المرء. وفي الحلم، كان أعمق أحاسيسه دائماً إحساسه بأنه يخادع نفسه لأنه كان، في الحقيقة، يعرف ما هو موجود خلف جدار الظلمة. فبجهد مميت، كأنما ينتزع المرء قطعة من دماغه، كان قادراً حتى على جَرّ ذلك الشيء إلى الضوء. لكنه كان يستيقظ دائماً من غير أن يكتشف طبيعته: لكنه كان، على نحوٍ ما، على صلة بما كانت جوليا تقوله عندما قاطعها وجعلها تكفّ عن الكلام.

قال: «آسف! هذا لا شيء. إنني لا أحب الجرذان. هذا كل ما في الأمر».

«لا تقلق يا عزيزي. لن نسمح لهذا الحيوان القذر بالوجود هنا. سوف أسدّ الجحر ببعض القماش قبل أن نذهب. وعندما نأتي في المرة القادمة سوف أجلب معي بعض الإسمنت فأسدّه كما ينبغي».

سرعان ما صارت لحظة الذعر السوداء نصف منسية. جلس ونستون مستنداً إلى رأس السرير وهو يشعر بشيء من الخجل من نفسه. نهضت جوليا من السرير فارتدت أوفرولها ثم أعدّت القهوة. كانت الرائحة التي انبعثت من الوعاء قوية مثيرة إلى حد جعلهما يغلقان النافذة حتى لا يلاحظ الرائحة أحد في الخارج فيستبد به الفضول. وأما ما كان أفضل حتى من طعم القهوة، فهو ذلك المذاق الرائع الذي أكسبها إياه السكّر... شيء كاد ونستون ينساه بعد سنواتٍ من استخدام السكّرين. راحت جوليا تتجول في الغرفة واضعة يدها في جيبها وحاملة قطعة من الخبز مدهونة بالمربى في يدها الأخرى. نظرت إلى خزانة الكتب من غير اهتمام،

وأشارت إلى أفضل طريقة من أجل إصلاح الطاولة القابلة للطي، ثم ألقت بنفسها في الكنبة العتيقة لترى إن كانت مريحة، ثم راحت تتفحص الساعة الغريبة ذات الاثنتي عشرة ساعة بنوع من الدهشة المتسامحة. ثم جلبت ثقّالة الورق الزجاج إلى السرير حتى تراها على نحوٍ أفضل في الضوء. تناولها من يدها مسحوراً، كعهده دائماً، بمظهر الزجاج الناعم كماء المطر.

قالت جوليا: «ما هي في رأيك؟».

«لا أظن أنها أي شيء! أقصد أنني لا أظن أن لها أي استخدام. وهذا ما أحبه فيها! إنها قطعة صغيرة من الماضي غفلوا عن تغييرها. هي رسالة من مئة سنة مضت، إذا عرف المرء كيف يقرأها».

«وتلك الصورة هناك؟» ... قالت هذا مومئة برأسها صوب الصورة المحفورة الموضوعة على الجدار المقابل... «هل عمرها مئة سنة أيضاً؟».

«أكثر من ذلك. بل يمكنني القول إن عمرها يبلغ مئتي عام. لا يستطيع المرء تحديد ذلك. من المستحيل اكتشاف عمر أي شيء في هذه الأيام».

مضت صوب اللوحة حتى تنظر إليها: «من هنا مد ذلك الحيوان رأسه». قالت هذا وهي تدق بقدمها على الخشب تحت الصورة تماماً. «ما هذا المكان؟ لقد رأيته من قبل في مكانٍ ما».

«إنها كنيسة... أو، كانت كنيسة على الأقل. كان اسمها كنيسة القديس كليمان دينز».

عاد ذلك الجزء من الأغنية الذي تعلمه من السيد تشارينغتون إلى ذهنه، فأضاف قائلاً بنوعٍ من الحنين إلى الماضي: «برتقالات وليمونات، تقول أجراس القديس كليمان».

أدهشه أنها أكملت الكلمات:

«أنت مدين لي بثلاثة قروش، تقول أجراس القديس مارتن،

متى تسددها لي؟ تقول أجراس أولد ديلي...

لا أستطيع أن أتذكر تتمة الأغنية بعد ذلك. لكنني أتذكر نهايتها:

ها هي شمعة تنير طريقك إلى الفراش؛ وها هو جلّاد ليقطع رأسك».

كان هذا مثل نصفي أحجية. لكن، لا بد أن ثمة سطراً آخر بعد «أجراس أولد ديلي». لعل من الممكن التنقيب عن تلك الكلمات في ذاكرة السيد تشارينغتون، إذا جرى تنشيطها كما ينبغي.

سألها: «من علَّمك هذا؟».

«جدي! كان يقول هذه الكلمات لي عندما كنت فتاة صغيرة. لقد بخّروه عندما بلغت الثامنة... لقد اختفى على أي حال! لا أعرف ما هو الليمون!» ... أضافت على نحوٍ غير مترابط: «لقد رأيت البرتقال. إنه فاكهة مستديرة صفراء لها قشرة سميكة».

قال ونستون: «أنا أتذكر الليمون! لقد كان شائعاً جداً في الخمسينات. إنه ثمرة حامضة جداً! حتى رائحتها تستطيع أن تجعل أسنانك تؤلمك».

قالت جوليا: «لا بد أن ثمة بقاً خلف هذه الصورة. سوف أنزلها وأنظفها جيداً. أظن أن وقت ذهابنا قد حان. يجب أن أبدأ إزالة مواد التجميل. كم هذا ممل! سوف أزيل أحمر الشفاه عن وجهك بعد ذلك».

ظل ونستون عدة دقائق بعد ذلك قبل أن ينهض. كان الظلام يحلّ على الغرفة. استدار صوب الضوء ورقد محدِّقاً في زجاج ثقّالة الورق. لم تكن قطعة المرجان هي الشيء الذي يثير اهتمامه من غير توقّف، بل قلب الزجاج نفسه. كان فيه عمق! لكنه كان شفافاً كالهواء أيضاً. كان سطح الزجاج كأنه قوس السماء محيطاً بعالمٍ صغير مكتمل. أحس بأنه يستطيع الدخول إليه. بل أحس بأنه في داخله فعلاً... في داخله مع سرير الماهوغاني والطاولة القابلة للطي والساعة واللوحة المحفورة على المعدن وثقّالة الورق نفسها. كانت ثقّالة الورق هي الغرفة التي يجلس فيها الآن، وكانت قطعة المرجان هي حياة جوليا وحياته هو مثبتة في نوع من الأبدية في قلب تلك الكتلة الزجاج.

5

اختفى سايم! لم يأت إلى عمله في صباح أحد الأيام: علّق نفرٌ من الأشخاص الطائشين على غيابه. وفي اليوم التالي، لم يذكره أحد. أما في اليوم الثالث، فذهب ونستون إلى ردهة قسم السجلات لينظر إلى لوحة الإعلانات. كان على اللوحة قائمة مطبوعة بأسماء أعضاء لجنة الشطرنج الذين كان سايم واحداً منهم. بدت القائمة مثلما كانت من قبل... ليس فيها اسم مشطوب... لكنها كانت أقصر بمقدار اسم واحد. كان هذا كافياً. لقد كف سايم عن الوجود. بل هو لم يوجد على الإطلاق!

كان الطقس حاراً كاوياً. حافظت الغرف المكيفة عديمة النوافذ في متاهات الوزارة على حرارتها الطبيعية. أما في الخارج، فكانت الأرصفة تلفح قدمي المرء، وكانت رائحة قطارات الأنفاق في ساعات الزحام فظيعة. كانت الاستعدادات لأسبوع الكراهية في أوجها. وراح موظَّفو الوزارات يعملون وقتاً إضافياً. كان لا بد من تنظيم المسيرات والاجتماعات والعروض العسكرية والمحاضرات والتماثيل الشمعية والعروض والأفلام والبرامج التي تعرض على الشاشات. نُصبت المنصّات، وأقيمت التماثيل، وصيغت الشعارات، وكتبت الأغاني، وأطلقت الشائعات، وزُوِّرت الصور. وأما الوحدة التي تعمل فيها جوليا في قسم القصص فقد توقفت عن إنتاج القصص وراحت تستعجل في إصدار سلاسل من النشرات عن الفظائع. وبالإضافة إلى عمله المعتاد، صار ونستون يمضي فترات طويلة كل يوم في العودة إلى الملفات القديمة لصحيفة التايمز من أجل تغيير المواد الإخبارية المنمّقة التي كان يجب الاستشهاد بها في الخطابات. وفي وقتٍ متأخر من الليل، عندما كانت حشود العامة تجوب الشوارع، كان يسود المدينة جوّ محموم على نحوٍ عجيب. صار سقوط القنابل الصاروخية أكثر تواتراً من ذي قبل. وكانت تقع، على مسافات بعيدة أحياناً، انفجارات هائلة لم يكن أحد قادرًا على تفسيرها، لكن إشاعات مجنونة كانت تدور من حولها.

تم تأليف اللحن الجديد المخصّص لأسبوع الكراهية (كانوا يطلقون على ذلك اسم «أغنية الكراهية»). وكان يعاد بثه على الشاشات من غير نهاية. كان له إيقاعٌ عاوٍ متوحّش لا يمكن دعوته موسيقى على وجه الضبط، لكنه كان يشبه قرع الطبول. كانت تؤديه مئات الحناجر المزمجرة على وقع الأقدام السائرة في خطوٍ عسكري... كان أمراً مخيفاً! وقد أحبّه عامّة النّاس فصار، في شوارع منتصف الليل، منافساً لأغنية «لم يكن هذا إلا حلماً لا رجاء فيه» التي ظلت محتفظة بشعبيتها. كان طفلا بارسونز يعزفان ذلك النشيد على مشط وقطعة من ورق الحمام طيلة ساعات الليل والنهار، على نحوٍ لا يمكن احتماله. صارت أمسيات ونستون أكثر امتلاءً من ذي قبل. وكانت فرق المتطوّعين التي ينظّمها بارسونز تقوم بتجهيز الشارع من أجل أسبوع الكراهية، فتنصب الرايات، وتدهن الأعمدة، وتقيم حوامل الأعلام على الأسطح، وتخاطر بمدّ الأسلاك عبر الشارع من أجل تعليق اللافتات عليها. وراح بارسونز يتشدّق قائلاً إن مبنى النصر وحده سوف ينصب لافتات تبلغ أربعمئة متر. كان الرجل في وضعه الطبيعي تماماً. وكان سعيداً مثل قبّرة! بل إن الحَرّ والعمل اليدوي وفّرا له الذريعة الكافية من أجل ارتداء البنطلون القصير والقميص المفتوح في الأمسيات. كان يظهر في كل مكان، في الوقت نفسه، جاذباً، دافعاً، خائطاً، مثبتاً بالمطرقة، مرتجلاً، ممازحاً الجميع بعبارات رفاقية، وينضح من كل طية من طيات جسده ما كان يبدو دفقاً لا ينتهي من عرقٍ لاذع الرائحة.

وظهر على نحوٍ مفاجئ ملصق جديد في أنحاء لندن كلها. لم تكن عليه أي كتابة: كان يُظهر جندياً أوراسياً ضخماً يبلغ طوله ثلاثة أمتار أو أربعة... يخطو إلى الأمام بوجه مغولي عديم التعابير وحذاء ضخم. وكانت بندقيته الرشاشة ظاهرة عند وركه. كانت فوّهة البندقية، التي تظهر أكبر حجماً لأنها في مقدّمة الصورة، تشير إلى المرء كيفما كانت الزاوية التي ينظر منها. تم وضع ذلك الملصق في كل مكانٍ على كل جدار، ففاق صورة الأخ الأكبر عدداً. وأما عامة الناس، الذين كانوا لا مبالين بالحرب عادة، فقد التهبت حماستهم فاندفعوا في نوبة من نوبات الوطنية الدورية التي تصيبهم. وكأنما كان ذلك من أجل الانسجام مع المزاج

العام، فقد راحت القنابل الصاروخية تقتل عدداً من الناس أزيد مما هو معتاد. سقطت إحداها على سينما في منطقة ستيبني فدفنت عدة مئات من الضحايا تحت الأنقاض. وخرج سكان الحي جميعاً في جنازة طويلة ممتدة دامت عدة ساعات وكانت اجتماع تنديد بالعدو في واقع الأمر. وسقطت قنبلة أخرى على أرض خالية يلعب فيها الأطفال فمزّقت عدة عشرات منهم. خرجت تظاهرات غاضبة أخرى. وأُحرِقت تماثيل غولدشتاين. ومزّقت مئات النسخ من ملصق الجندي الأوراسي ثم ألقيت في النار. وجرى نهب عدد من المتاجر في هذه الفوضى. ثم سرت في الأنحاء اشاعة مفادها أن الجواسيس كانوا يوجّهون القنابل الصاروخية عن طريق موجات لاسلكية. وجرى حرق بيت زوجين عجوزين اشتُبه في أن لهما أصولاً أجنبية فقضيا اختناقاً.

وفي الغرفة الواقعة فوق متجر السيد تشارينغتون، عندما يستطيعان الذهاب إليها، كانت جوليا ومعها ونستون يستلقيان جنباً إلى جنب على سريرهما العاري تحت النافذة المفتوحة... عاريين من أجل الإحساس بشيء من البرودة. لم يظهر الجرذ من جديد أبداً؛ أما البق فقد تكاثر على نحوٍ شنيع في تلك الحرارة. لكن هذا لم يكن يبدو مهماً. كانت الغرفة فردوساً لهما، سواء أكانت نظيفة أم غير نظيفة! وكانا، فور وصولهما، يرشان كل شيء بفلفلٍ اشترياه من السوق السوداء، ثم يخلعان ملابسهما سريعاً ويمارسان الحب بجسدين متعرّقين. وبعد ذلك ينامان ثم يستيقظان ليجدا البق قد اجتمع مجدداً لكي يشن هجومه المضاد.

التقيا أربع، خمس، ست... مرات في شهر حزيران! تخلى ونستون عن عادته في شرب الجن في مختلف الأوقات. وبدا أنه لم يعد في حاجة إليه. زاد امتلاء جسمه. وتراجعت قرحة الدوالي لديه فلم تترك مكانها إلا بقعة بنية على الجلد فوق الكاحل. كما توقفت نوبات السعال التي تصيبه في الصباح. وكفّت عملية الحياة نفسها عن كونها شيئاً لا سبيل إلى احتماله. ما عاد لديه دافع يجعله يسخر من الشاشة أو يرغب في السباب بأعلى صوته. والآن، بعد أن صار لهما مكان اختباء آمن، يكاد يكون بيتاً، لم يعد حتى يبدو مزعجاً لهما أنهما مضطران إلى الاكتفاء

باللقاء على هذا النحو المتقطع، ولمدة لا تتجاوز الساعتين في كل مرة. كان المهم هو أن الغرفة فوق متجر الخردوات موجودة! وكانت معرفة أنها موجودة هناك، آمنة لا يمسّها سوء، أمراً يكاد يضاهي التواجد فيها. كانت الغرفة عالماً كاملاً، جيباً من الماضي تستطيع حيوانات منقرضة أن تسير فيه. وكان السيد تشارينغتون، مثلما رآه ونستون، حيواناً منقرضاً آخر. كان ونستون يتوقف عادة ليتحدث مع السيد تشارينغتون بضع دقائق في طريقه إلى السلّم المؤدي إلى الغرفة. وبدا له أن هذا العجوز نادراً ما يخرج، أو أنه لا يخرج على الإطلاق. وبدا له أنه ليس لديه أي زبائن تقريباً. كان يعيش وجوداً يشبه وجود الأشباح متنقلاً بين متجره الضئيل المظلم وبين مطبخ أصغر منه موجود خلفه حيث يقوم بإعداد وجباته. كان في هذا المطبخ، إلى جانب أشياء أخرى، غرامافون عتيق إلى درجة يصعب تخيّلها، وله بوق ضخم. كان الرجل يبدو سعيداً بفرصة تبادل الكلام. وكان له عندما يتجوّل بين أجزاء بضاعته عديمة القيمة، بأنفه الطويل ونظارته السميكة وكتفيه المنحيتين في سترته المخملية، مظهر غامض يوحي بأنه جامع تحف أكثر مما هو بائع. بنوعٍ من الحماسة الذاوية، كان يشير بإصبعه إلى هذه القطعة من النفايات أو تلك... حامل زجاجات من الصيني أو غطاء علبة سعوط مكسور، أو قلادة تحتوي على خصلة من شعر طفل مات منذ زمن... لم يكن أبداً يسأل ونستون إن كان يريد شراء ذلك الشيء، بل كان يستدرّ إعجابه فحسب. كان الكلام معه يشبه الإصغاء إلى رنين صندوق موسيقى عتيق. وكان الرجل قد استطاع أن يستخرج من زوايا ذاكرته أجزاء أخرى من أغنيات منسية. كانت ثمة أغنية عن أربعة وعشرين عصفوراً أسود؛ وأخرى عن بقرة لها قرن مكسور؛ وأخرى عن موت كوك روبين المسكين! وكان العجوز يقول بضحكة خافتة معتذرة عندما يأتي بجزء جديد من هذه الأغاني: «لقد خطر في بالي فقط أنك يمكن أن تكون مهتماً». لكنه لم يكن قادراً أبداً على استرجاع ما يتجاوز أسطرا قليلة من أي أغنية.

كان كل منهما يعرف، على نحوٍ ما، ولم يغب عن بالهما أبداً، أن ما يحدث الآن لا يمكن أن يستمر طويلاً. وكانت تمر أوقات تبدو فيها حقيقة الموت الوشيك

قريبةً ملموسة مثلها مثل السرير الذي يستلقيان عليه، فيتعلق أحدهما بالآخر بنوع من الشهوانية اليائسة مثل روح محكوم عليها بالفناء تتشبّث بآخر شذرة من المسرّة في الدقائق الخمس الأخيرة من عمرها. لكن، كانت تمر عليهما أيضاً أوقاتٌ لم تكن وَهْم الأمان فحسب، بل من وهم الديمومة أيضاً! كان كل منهما يشعر بأن سوءاً لا يمكن أن يصيبهما طالما كانا في هذه الغرفة فعلاً. كان الوصول إليها خطيراً صعباً! لكن الغرفة نفسها كانت ملاذاً آمناً. كان الأمر يشبه تحديق ونستون في قلب ثقّالة الورق... عندما أحسّ أن من الممكن أن يدخل ذلك العالم الزجاجي وأن الزمن يمكن أن يتوقف عندما يصبح المرء في الداخل. بل كانا يتركان نفسيهما أحياناً لأحلام اليقظة... أحلام عن الهرب! سوف يدوم حسن حظهما، وسوف يواصلان خداعهما لنفسيهما، مثلما يفعلان الآن، طيلة ما بقي من حياتهما الطبيعية. أو... يمكن أن تموت كاثرين فيتمكن ونستون وجوليا من الزواج بعد مناورات ذكية! أو يمكن أن ينتحرا معاً! أو يمكن أن يختفيا... يغيرا نفسيهما بحيث لا يعود التعرّف إليهما ممكناً، ويتعلمان الكلام باللكنة البروليتارية، ويحصلان على عمل في أحد المصانع، ويعيشان بقية عمريهما في شارع خلفي من غير أن يلحظهما أحد. كان هذا كله كلاماً فارغاً... وكانا يعرفان هذا، كلاهما. ما من مهرب في حقيقة الأمر! بل ما كانت لديهما أيضاً قدرة على تنفيذ الخطة الوحيدة التي يستطيعان تنفيذها، الانتحار! وبدا أن الانتظار من يوم لآخر، ومن أسبوع لآخر، وعيش الحاضر الذي ليس له مستقبل، يشبه غريزة لا سبيل إلى قهرها... مثلما تستمر الرئتان في التنفس طالما توفَّر لهما الهواء.

كانا يتحدّثان أحياناً عن المشاركة في تمرّد فعلي ضد الحزب، لكن من غير أي فكرة عن كيفية القيام بالخطوة الأولى. فحتى لو كانت الأخوية الخرافية حقيقة، فإن صعوبة العثور على الطريق المؤدية إليها تظل صعوبة ماثلة. أخبرها عن القرب الغريب الموجود، أو الذي يبدو له موجوداً، بينه وبين أوبراين. وكذلك عن الدافع الذي يحسّه أحياناً لأن يسير صوبه فيعلن له أنه عدو من أعداء الحزب ويطلب عونه. ومما أثار عجبه إلى حد غير قليل أن هذا الأمر لم يفاجئها، بل لم تعتبره أمراً

شديد التهوّر. لقد اعتادت الحكم على الناس من وجوههم. وبدا لها طبيعياً أن يقتنع ونستون بأن أوبراين كان محل ثقة اعتماداً على قوة لمحة واحدة من عينيه. كما أنها كانت تعتبر أمراً مفروغاً منه أن أي شخص، أو أي شخص تقريباً، يمقت الحزب في سره ولا يتأخر عن خرق الأنظمة إذا بدا له أن من الآمن خرقها. لكنها رفضت تصديق أن ثمة معارضة منظَّمة واسعة موجودة، أو يمكن أن توجد. وقالت إن القصص عن غولدشتاين وجيشه السري ليست إلا هراءً اخترعه الحزب لخدمة غاياته وليس على المرء إلا أن يتظاهر بتصديقه. ولمرات لا حصر لها، في مسيرات الحزب وتظاهراته العفوية، كانت تصرخ بأعلى صوتها مطالبة بإعدام أشخاص لم تسمع بأسمائهم قط ولم يكن لديها أدنى اقتناع بأنهم ارتكبوا الجرائم المنسوبة إليهم. وعندما كانت تُعقد المحاكمات العلنية، كانت جوليا تشارك في عصائب رابطة الشباب التي تحاصر المحاكم من الصباح إلى الليل وتنشد من حين لآخر «الموت للخَوَنة». وخلال دقيقتَي الكراهية، كانت دائماً تتفوّق على غيرها في سب غولدشتاين. لكنها لم تكن تملك إلا فكرة في غاية الغموض عن غولدشتاين نفسه وعن العقائد التي يفترض أنه يمثلها! لقد ترعرعت بعد الثورة، وكانت أصغر سناً بكثير من أن تتذكر المعارك الإيديولوجية التي جرت في الخمسينات والستينات. وأما وجود شيء من قبيل الحركات السياسية المستقلة فكان خارج مخيلتها تماماً: لقد كان الحزب منيعاً لا سبيل إلى قهره على أي حال. سوف يكون موجوداً دائماً، وسوف يكون كما هو دائماً. ولا يستطيع المرء تمرداً عليه إلا عن طريق عصيانه سراً أو عن طريق أفعال عنف معزولة، في أقصى الحالات، من قبيل قتل شخصٍ ما أو نسف شيءٍ ما.

لقد كانت، في بعض النواحي، أكثر ذكاءً من ونستون بكثير، وأقل تأثراً بدعاية الحزب أيضاً! وعندما تصادف مرة أن جاء ذكر الحرب ضد أوراسيا، فاجأته تماماً عندما قالت عرَضاً إنها تظن الحرب غير قائمة أصلاً! وأما القذائف الصاروخية التي تسقط على لندن كل يوم، فمن المرجَّح أن حكومة أوقيانيا هي التي تطلقها بنفسها «حتى يظل الناس خائفين فحسب»! كانت تلك فكرة لم تخطر في باله أبداً.

بل إن جوليا أثارت في نفسه شيئاً من الحسد عندما أخبرته أنها، خلال دقيقتَي الكراهية، تجد صعوبةً كبيرةً في تفادي الانفجار ضاحكة. لكنها ما كانت تضع تعاليم الحزب موضع تساؤل إلا عندما يكون لها تأثير على حياتها هي بطريقة ما. وأما في أغلب الأحيان، فقد كانت مستعدة لقبول الميثولوجيا الرسمية لمجرد أن الفارق بين الحقيقة والزيف لم يكن يبدو مهماً في نظرها. لقد كانت مقتنعة، على سبيل المثال، وهذا ما تعلّمته في المدرسة، أن الحزب هو الذي اخترع الطائرات. (يتذكر ونستون من أيام مدرسته هو في أواخر الخمسينات أن الحزب لم يكن يزعم إلا اختراع الطوّافة. وبعد نحو عشر سنوات، ربما صارت جوليا في المدرسة، صار يزعم أنه اخترع الطائرات. وبعد جيل من الآن، سيزعم أنه اخترع المحرّك البخاري أيضاً). وعندما أخبرها أن الطائرات موجودة قبل أن يولد هو، وقبل زمن طويل من الثورة، بدت لها تلك الحقيقة غير مهمة على الإطلاق. فما أهمية هوية مخترعي الطائرات، بعد كل حساب؟ بل كان الأمر مفاجئاً جداً له أيضاً عندما اكتشف، من عبارة قيلت عرضاً، أنها لا تتذكّر أن أوقيانيا كانت في حرب مع إيستاسيا وفي سلمٍ مع أوراسيا قبل أربع سنوات فقط. صحيح أنها تعتبر الحرب كلها كذبة: لكنْ من الواضح أنها لم تلاحظ حتى أن اسم العدو قد تغير! قالت على نحو مبهم: «كنت أظن أننا في حرب دائمة مع أوراسيا». أفزعه الأمر قليلاً. كان اختراع الطائرات أمراً يعود إلى زمنٍ يسبق مولدها بكثير، لكن التغيّر في الحرب حدث قبل أربع سنوات فقط، أي بعد أن صارت امرأة ناضجة بزمن غير قليل. تجادل معها في الأمر نحو ربع ساعة. ثم نجح آخر الأمر في إرغام ذاكرتها على العودة إلى الخلف حتى تذكّرت على نحو مشوَّش أن إيستاسيا كانت هي العدو ذات يوم، لا أوراسيا. لكنها ظلّت تعتبر الأمر غير مهم. قالت نافدة الصبر: «من عساه يهتم بهذا؟ ثمة دائماً حرب قذرة خلف حرب أخرى. ونحن نعرف أن الأخبار كلها أكاذيب على أي حال».

كان يحدثها عن قسم السجلات أحياناً وعن أعمال التزوير الفاضحة التي كان يرتكبها هناك. لم يكن يظهر عليها أن هذه الأشياء تخيفها. ولم تكن تشعر بهوّة تنفتح

تحت قدميها عندما تفكر في أن الأكاذيب تصبح حقائق. أخبرها عن قصة جونز وآرونسون ورادزرفورد، وعن قصاصة الورق التي وقعت عرضاً في يده فأمسكها بين أصابعه ذات يوم. لكن هذا لم يكن له كبير تأثير عليها. بل الواقع أنها لم تدرك مغزى القصة في البداية.

قالت: «هل كانوا من أصدقائك؟».

«لا! لم أعرفهم قط. كانوا من أعضاء الحزب الداخلي. ثم إنهم كانوا أكبر مني سناً بكثير. إنهم ينتمون إلى الأيام القديمة، قبل الثورة. بل إنني لا أكاد أعرف حتى أشكالهم».

«فلماذا تهتم إذًا؟ إن الناس يُقتَلون طيلة الوقت، أليس كذلك؟».

حاول إفهامها قائلاً: «كانت تلك حالة استثنائية. ولم تكن مجرد أمر متعلّق بشخص ما جرى قتله. هل تدركين أن الماضي قد ألغي في الواقع؟ حتى نهار البارحة نفسه! وإذا كان لا يظل حياً في مكانٍ ما، فإن حياته مستمرةٌ في بعض الأشياء الصلبة التي لا تحمل أي كلمات، مثل كتلة الزجاج هذه على سبيل المثال. بل إننا لا نعرف، بالمعنى الحَرْفي للكلمة تقريباً، أي شيء عن الثورة وعن السنوات التي سبقت الثورة. لقد جرى إتلاف السجلات كلها، أو تزويرها. وتمت إعادة كتابة كل كتاب، وإعادة طباعة كل صورة، وأطلق اسم جديد على كل شارع ومبنى وتمثال، وجرى تغيير التواريخ كلها أيضاً. وهي عملية مستمرّة يوماً بعد يوماً، ودقيقة بعد دقيقة. لقد توقف التاريخ! لا وجود لشيء، لا وجود إلّا لحاضرٍ لا نهاية له يكون الحزب على حق دائماً فيه. أعرف، بطبيعة الحال، أن الماضي مزوَّر. لكني ما كنت قادراً أبداً على إثبات ذلك، حتى عندما أقوم أنا بفعل التزوير. فبعد القيام بالأمر، لا يظل بعده أي دليل. ويكون الدليل الوحيد موجوداً في ذهني أنا. ولا أعرف معرفة أكيدةً أبداً أن ثمة مخلوقًا بشريًا آخر يشاركني ذكرياتي. أما في تلك الحالة الوحيدة في حياتي كلها، فقد امتلكت دليلاً فعلياً ملموساً بعد وقوع الحدث... بعد سنين من وقوع الحدث».

«وما كانت فائدة ذلك؟».

«لم يكن له فائدة لأنني ألقيت به بعد دقائق معدودة من ذلك! لكن، لو حدث الأمر نفسه اليوم لاحتفظت بذلك الدليل».

قالت جوليا: «حسنٌ! أما أنا فلن أحتفظ به لو كنت مكانك. إنني مستعدة تماماً لقبول المخاطر. لكن فقط من أجل شيء يستحق ذلك. وليس من أجل قصاصات جرائد قديمة! ماذا كنت عساك تفعل بها حتى لو احتفظت بها؟».

«ربما ما كنت لأفعل بها الشيء الكثير. لكنها كانت دليلاً! ولعلها كانت قادرة على زرع بعض الشكوك هنا وهناك، على افتراض أنني سأجرؤ على إظهارها أمام أي شخص آخر. لا أتخيل أننا نستطيع تغيير أي شيء خلال حياتنا. لكن للمرء أن يتخيل وجود عُقد صغيرة من المقاومة تنبثق هنا وهناك... مجموعات صغيرة من أشخاص يتجمّعون معاً، وتنمو تدريجاً، بل ربما تترك بعض السجلات من خلفها بحيث تستطيع الأجيال القادمة المتابعة من حيث توقّفنا».

«لست مهتمة بالأجيال القادمة يا عزيزي، إنني مهتمة بنا نحن».

قال لها: «أنت متمرّدة من وسطك إلى الأسفل فقط!».

اعتبرت جملته طريفة جداً فألقت بذراعيها حوله مسرورة.

لم يكن لدى جوليا أدنى اهتمام بتشعّبات عقائد الحزب. وكلما بدأ ونستون حديثاً عن مبادئ الإشتنج، أو التفكير المزدوج، أو إمكانية إسكات صوت الماضي وإنكار الحقيقة الموضوعية، أو استخدام كلمات اللغة الجديدة، حتى تصاب بالضجر والتشوّش وتقول إنها لا تهتم أي اهتمام بذلك النوع من هذه الأمور. فالمرء يعرف أنها هراء وفراغ كلها، فلماذا يعيرها اهتماماً؟ كانت تعرف متى يتعيّن عليها أن تهلل وتهتف، وذلك كل ما كان يلزم أي امرئ. وأما إذا أصرّ على الحديث بهذه الأمور، فقد كانت لديها عادة مزعجة... كانت تغفو! لقد كانت من أولئك الأشخاص القادرين على النوم في أي ساعة وفي أي وضع. وأدرك ونستون نتيجة حديثه معها كم يكون الظهور بمظهر التمسك بالعقيدة الحزبية القويمة أمراً سهلاً عندما لا يملك المرء أي فكرة عن معنى تلك العقيدة القويمة أصلاً! وعلى نحوٍ ما، كانت نظرة الحزب إلى العالم تفرض نفسها بسهولة أكبر على الأشخاص غير

القادرين على فهمها! كان يمكن جعلهم يقبلون أفظع الانتهاكات التي تستهدف الحقيقة لأنهم ما كانوا قادرين على إدراك فداحة ما هو مطلوب منهم، ولأنهم ما كانوا على اهتمام بالأحداث العامة يكفي لجعلهم يلاحظون ما يحدث من حولهم. كان هؤلاء الناس يحافظون على عقلهم من خلال عدم الفهم! كانوا يكتفون بابتلاع كل شيء، ولم يكن ما يبتلعونه مؤذياً لهم لأنه ما كان يترك أي شيء باقٍ من خلفه... تماماً مثلما تمر حبة الذرة عبر جسد العصفور من غير أن يهضمها.

6

لقد حدث الأمر أخيراً! جاءت الرسالة المنتظرة! وبدا له أنه كان ينتظر حدوث هذا الأمر طيلة حياته.

كان يمشي في ممر الوزارة الطويل، في المكان عينه تقريباً حيث دسّت جوليا الرسالة في يده، عندما شعر بوجود شخص أضخم منه حجماً يمشي من خلفه. وقد أطلق ذلك الشخص سعلة خفيفة كان من الواضح أنها مقدّمة للكلام. توقف ونستون في مكانه ثم استدار. كان ذلك الشخص أوبراين!

لقد تقابلا وجهاً لوجه آخر الأمر. وأحس ونستون أن رد فعله الوحيد هو الرغبة في الهرب. راح قلبه يخفق عنيفاً. ولم يكن قادراً على الكلام. لكن أوبراين تابع السير صوبه بالحركة نفسها فوضع يده لحظة على ذراع ونستون بحركة ودية فصار الاثنان ماشيين جنباً إلى جنب. بدأ الكلام بلباقته الجدية الغريبة التي كانت تميزه عن معظم أعضاء الحزب الداخلي.

قال: «كنت آمل أن تتاح لي فرصة الحديث معك. لقد كنت في ذلك اليوم أقرأ إحدى مقالاتك المكتوبة باللغة الجديدة في صحيفة التايمز. إن لديك اهتماماً بحثياً باللغة الجديدة على ما أظن!».

كان ونستون قد استعاد بعضاً من شتات نفسه، فقال: «لا يمكن القول إنه اهتمام بحثي! إنني مجرد هاوٍ. وهذا ليس اختصاصي. ولم تكن لي علاقة أبداً بالبناء الفعلي للغة».

قال أوبراين: «لكنك تكتبها على نحوٍ بارع جداً. وهذا ليس رأيي وحدي. لقد كنت أتحدث منذ فترة بسيطة مع صديق لك لا شك في أنه خبير. لا أذكر اسمه في هذه اللحظة».

تحرّك قلب ونستون على نحو مؤلم من جديد. لا يمكن أبداً إلا أن تكون هذه إشارة إلى سايم! لكن سايم لم يكن ميتاً فحسب، بل إنه قد ألغي، لم يعد شخصاً!

ومن شأن أي إشارة واضحة إليه أن تكون شيئاً خطيراً إلى حد مميت. ومن الواضح أن القصد من ملاحظة أوبراين هو أن تكون إشارة... كلمة سر! فمن خلال التشارك في جريمة فكر صغيرة، يصبحان متواطئين معاً، كلاهما. تابعا سيرهما البطيء في الممر. لكن أوبراين توقف الآن. وبتلك الإيماءة الودية التي تجرد المرء من سلاحه والتي كان دائماً ينجح في جعل حركته تنطق بها، عدّل أوبراين وضع نظارته على أنفه، ثم تابع يقول: «ما أردت قوله فعلاً هو أنني لاحظت في مقالتك استخدامك لكلمتين من الكلمات التي صارت عتيقة. لكنها لم تصبح عتيقة إلا في الآونة الأخيرة فقط. هل رأيت النسخة العاشرة من قاموس اللغة الجديدة؟»

قال ونستون: «لا! لم أكن أظن أنها صدرت! لا نزال نستخدم الطبعة التاسعة في قسم السجلات».

«لن تظهر النسخة العاشرة قبل عدة أشهر، على ما أظن. لكن بعض النسخ الأولية قد وضعت في التداول. ولدي واحدة منها. وربما يهمك أن تلقي نظرة عليها؟».

قال ونستون: «بكل تأكيد!» ... لقد فهم على الفور إلى أين يؤدي هذا العرض.

«إن بعض التطويرات الجديدة يتسم بعبقرية حقيقية. تقليل عدد الأفعال... هذه هي النقطة التي سوف تستهويك على ما أظن. دعني أرى... هل أرسل لك القاموس مع أحد السعاة؟ لكنني أنسى هذه الأشياء دائماً! لعلك تستطيع المجيء إلى شقّتي لتأخذ القاموس في الوقت الذي يناسبك؟ انتظر، دعني أعطيك عنواني».

كانا واقفين أمام الشاشة! راح أوبراين يتحسّس اثنين من جيوبه شارد الذهن، ثم أخرج دفتر ملاحظات صغيراً له غلاف من الجلد وقلم حبر مذهّباً. وأمام الشاشة مباشرة، وبوضعية تجعل كل من يراقب من الناحية الأخرى قادراً على قراءة ما كان يكتبه، دوّن أوبراين عنوانه. وانتزع الورقة من الدفتر. وقدمها إلى ونستون.

قال: «أكون في بيتي عادة في الأمسيات. وإذا لم أكن موجوداً، فسوف يعطيك خادمي القاموس».

ذهب أوبراين. وترك ونستون حاملاً قطعة الورق في يده... لم يكن ثمة حاجة إلى إخفائها هذه المرة! لكنه، رغم ذلك، حفظ ما كان مكتوباً فيها. وبعد بضع ساعات، ألقاها في ثقب الذاكرة مع مجموعة من الأوراق الأخرى.

لم يستغرق حديثهما أكثر من دقيقتين، على أبعد تقدير. وليس ثمة إلا معنى واحد كان يمكن لما حدث أن يحمله. لقد اخترع أوبراين ذلك الموقف ليجعل ونستون يعرف عنوانه. كان هذا ضرورياً. لأن اكتشاف مكان إقامة أي شخص كان مستحيلاً من غير سؤال مباشر. لا توجد أدلة عناوين من أي نوع. لقد كان أوبراين يقول له في واقع الأمر «تستطيع أن تجدني هنا إذا أردت أن تراني». لعل القاموس يحمل رسالة نصية في مكانٍ ما منه! لكنْ ثمة أمر مؤكد على أي حال... إن المؤامرة التي كان يحلم بها موجودة بالفعل... وقد بلغ حافتها الخارجية. لقد أدرك أنه سوف يلبي دعوة أوبراين عاجلاً أو آجلاً. لعله يذهب غداً... ولعله يذهب بعد تأخير طويل... ليس متأكداً بعد! ليس ما يحدث الآن إلا اكتمالًا لعملية بدأت منذ سنوات طويلة. كانت الخطوة الأولى فكرة سرية عفوية. وكانت بداية كتابة المذكرات خطوة ثانية. لقد انتقل عندها من الأفكار إلى الكلمات. وهو ينتقل الآن من الكلمات إلى الأفعال. وسوف تكون الخطوة الأخيرة شيئاً سيحدث في وزارة الحب. لقد قبل هذا منذ زمن! إن البداية تشتمل على النهاية! لكنها كانت مخيفة... أو، على نحو أكثر دقة، كانت شيئاً يشبه مذاقاً أوّلياً للموت... كأن يكون المرء حياً، لكن أقل بقليل! وحتى عندما كان يتحدث مع أوبراين، عندما اتّضح له معنى تلك الكلمات، انتابه إحساس برجفة باردة استولت على جسده. لقد شعر بأنه يخطو خطوة صوب رطوبة القبر. ولم يكن الأمر أفضل كثيراً لأنه عرف دائماً أن ثمة قبراً هناك... ينتظره.

7

استيقظ ونستون وعيناه مغرورقتان بالدموع. تقلّبت جوليا في نومها مستديرة نحوه وغمغمت شيئاً قد يكون: «ما الأمر؟».

«لقد حلمت...»، بدأ الكلام ثم قطعه. كان الأمر أكثر تعقيداً من أن يستطيع التعبير عنه بالكلمات. ثمة ذلك الحلم نفسه، وثمة ذكرى متصلة به جاءت إلى ذهنه في الثواني التي أعقبت استيقاظه.

ظل مستلقياً بعينين مغمضتين. وظل غارقاً في جو الحلم. كان حلماً هائلاً... مضيئاً... بدا له فيه أن حياته كلها ممتدة أمامه مثل مشهد طبيعي في أمسية صيفية بعد المطر. حدث الأمر كله داخل ثقّالة الورق الزجاج. لكن سطح الزجاج كان قبة السماء. وكان كل شيء في الداخل مغموراً بضوء رقيق صاف يستطيع المرء أن يرى فيه إلى مسافات لا تنتهي. كان حلمه أيضاً مشتملاً ضمن... بل الواقع أنه كان، بمنعى ما، متألفاً من... حركة من ذراع أمّه... حركة كررتها بعد ثلاثين عاماً امرأة يهودية رآها في الفيلم الإخباري تحاول حماية صبي صغير من الرصاص قبل أن تمزّقهما الهيلكوبتر إرباً.

قال: «هل تعرفين أنني كنت أظن، حتى هذه اللحظة، أنني قتلت أمي؟».

قالت جوليا شبه نائمة: «لماذا قتلتها؟».

«لم أقتلها! لم أقتلها جسدياً».

كان قد تذكر في منامه آخر نظرة ألقاها على أمه. وفي لحظات معدودة بعد استيقاظه، عادت إليه مجموعة من الأحداث الصغيرة التي أحاطت بتلك اللحظة. لا بد أنها ذكرى كان يدفعها عمداً خارج وعيه طيلة سنوات كثيرة. لم يكن يعرف تاريخ الحادثة على وجه التحديد. لكن عمره عندما حدث ذلك لم يكن يمكن أن يكون أقل من عشر سنوات، بل ربما اثنتي عشرة سنة.

كان والده قد اختفى قبل زمن من تلك الحادثة. وما كان قادراً على تذكر قبل

كم من الزمن اختفى. لكنه يتذكّر، على نحو أفضل، الظروف الصعبة الصاخبة في ذلك الزمان: حالات الذعر الدورية نتيجة الغارات الجوية، والاحتماء في محطات قطار الأنفاق. وأكوام الأنقاض في كل مكان. والإعلانات غير المفهومة المعلّقة عند زوايا الشوارع. وعصائب الشباب في قمصان موحّدة اللون. وصفوف الانتظار الضخمة أمام المخابز. ونيران البنادق الرشاشة المتقطعة في أماكن بعيدة... وفوق كل هذا، حقيقة عدم وجود طعام كافٍ أبداً. تذكر الأوقات الطويلة التي كان يقضيها مع صبيانٍ آخرين في التجوّل حول حاويات القمامة وأكوام الأنقاض باحثين عن أضلاع أوراق الملفوف وقشور البطاطا، وأحياناً بعض قطع الخبز التي كانوا ينفضون عنها الرماد بعناية. وتذكّر الوقت الذي كان يمضيه في انتظار شاحنات تمر على طرق بعينها، وكان معروفاً أنها تحمل علف الماشية. وعندما تتقافز الشاحنة فوق حفر الطريق، كانت تسقط منها قطع من كسبة القطن.

عندما اختفى والده، لم تُظهِر والدته أي دهشة ولا أي حزن فاجع. لكنَّ تغيراً مفاجئاً أصابها. بدت كأنها فقدت روحها تماماً. وكان واضحاً، حتى بالنسبة لونستون، أنها تنتظر شيئاً تعرف أنه لا بد أن يحدث. كانت تقوم بكل ما هو ضروري... تطبخ، وتغسل، وتصلح الأشياء، وترتب السرير، وتكنّس الأرض، وتفرغ الموقد من الرماد. وتقوم بهذا كلّه على نحو شديد البطء، على نحو يخلو خلواً عجيباً من أي حركة زائدة... مثل أصابع فنان كسولة تتحرّك على هواها. كان جسدها الضخم الممتلئ يبدو كأنه يرتد إلى حالة السكون ارتداداً طبيعياً. وكانت تجلس ساعات متواصلة على السرير من غير حركة حانيةً على شقيقته الصغيرة... الطفلة الضئيلة، المريضة، شديدة الصمت... الطفلة ذات السنتين أو السنوات الثلاث، التي صار وجهها شبيهاً بوجوه القردة لشدة هزالها. وكانت، في مرات قليلة جداً، تأخذ ونستون بين ذراعيها فتشده إليها زمناً طويلاً من غير أن تقول شيئاً. كان مدركاً، رغم أنانيته وحداثة سنه، أن لهذا صلة بالشيء الموشك على الحدوث... الشيء الذي لم يكن يُذكَر أبداً.

تذكّر الغرفة المظلمة مكتومة الرائحة التي كانوا يعيشون فيها والتي كانت

تبدو نصف ممتلئة بسرير له لحاف أبيض. كان ثمة موقد يعمل على الغاز عند حافة المدفئة، ورفّ يوضع فوقه الطعام، وفسحة في الخارج فيها مغسلة من البورسلان البنّي للاستخدام المشترك بين غرف كثيرة. تذكّر جسد أمه الكبير منحنياً فوق موقد الغاز من أجل تحريك شيء في القدر. وأكثر من كل شيء، كان يتذكّر جوعه المستمر، والمشاجرات الدنيئة العنيفة عند وجبات الطعام. كان يسأل أمه، ملحّاً مرة بعد مرة، عن سبب عدم وجود طعام كافٍ. وكان يغضب ويصرخ عليها (بل تذكّر أيضاً نبرات صوته التي كانت قد بدأت تخشوشن أحياناً، وتدوّي أحياناً على نحوٍ غريب)، أو كان يحاول اصطناع نبرة ذليلة متوسلة في محاولته الحصول على أكثر من حصته. كانت أمه مستعدة دائماً لإعطائه أكثر من حصته. كانت تعتبر أن من المفروغ منه أنه، الصبي، يجب أن يأخذ الحصة الكبرى. لكنه كان يطلب أكثر على الدوام، مهما أعطته! وكانت تتوسل إليه أيضاً، عند كل وجبة، ألّا يكون أنانياً وأن يتذكر أن أخته الصغيرة مريضة وأنها في حاجة إلى طعام أيضاً... ولكن عبثاً! كان يصرخ غاضباً عندما تكفّ عن إعطائه الطعام. بل كان يحاول انتزاع القِدْر والملعقة من بين يديها. وكان يأخذ نتفاً من صحن أخته أيضاً! كان يعرف أنه يسبب الجوع لهما، لكنه لم يكن قادراً على منع نفسه من ذلك! بل كان يشعر أيضاً أن من حقه أن يفعله. كان الجوع الصارخ في معدته يبدو كأنه يبرر ما يفعله. وبين الوجبات، كان يسرق دائماً بعض ما تضعه أمه من طعام على الرف، إذا لم تكن موجودة لتحرسه.

جرى توزيع حصة شوكولا في يومٍ من الأيام. ولم تكن الشوكولا قد وزّعت منذ أسابيع، أو أشهر! تذكّر ونستون على نحوٍ واضح تماماً قطعة الشوكولا الصغيرة الثمينة تلك. كانت قطعة من أونصتين (كانوا لا يزالون يتحدثون عن الأونصات في تلك الأيام). وكانت لهم، ثلاثتهم. كان واضحاً أنه يجب توزيع القطعة إلى أجزاء متساوية. وفجأة، كأنه كان مصغياً إلى كلام يقوله شخص آخر، سمع ونستون نفسه يطالب بصوت مجلجل مرتفع بأن يحصل على القطعة كلها. طلبت منه أمه ألا يكون طمّاعاً. وجرى جدال مزعج طويل، راح يمضي ثم يمضي تتخلّله صيحات

ودموع وبكاء واحتجاجات وصفقات. أما شقيقته الضئيلة، المتعلّقة بأمها بيديها الاثنتين، تماماً كما تتعلّق صغار السعادين بأمهاتها، فقد جلست ناظرة إليه من فوق كتفها بعينين حزينتين كبيرتين. وفي النهاية، كسرت أمه ثلاثة أرباع قطعة الشوكولا فأعطتها لونستون. ثم أعطت الربع الباقي لشقيقته. أمسكت الصغيرة بقطعتها ونظرت إليها نظرة بليدة. لعلها لم تعرف ما هي! وقف ونستون يراقبها لحظة. ثم وثب وثبة مفاجئة سريعة فخطف القطعة من يد شقيقته وفرّ خارجاً من الباب.

صاحت أمه من خلفه: «ونستون، ونستون! عد إلى هنا! أعد الشوكولا إلى شقيقتك». توقف ونستون، لكنه لم يعد. كانت عينا أمه القلقتان مثبتتين على وجهه. كان يفكر في ذلك الشيء، حتى الآن... لم يكن يعرف ما هو موشك على الحدوث! راحت الصغيرة تعول عويلاً واهناً بعد أن أدركت أن شيئاً قد سُلب منها. لفّتها أمها بذراعها فضغطت وجهها على صدرها. أنبأته هذه الحركة أن أخته تموت. استدار وجرى هابطاً الدرجات. بينما بدأت قطعة الشوكولا تذوب في يده.

لم يرَ أمه بعد ذلك أبداً! فبعد أن التهم الشوكولا، أحس ببعض الخجل من نفسه وراح يتسكّع في الشوارع ساعات طويلة إلى أن ساقه الجوع إلى البيت من جديد. وعندما عاد كانت أمه قد اختفت. كان هذا الأمر يصبح عادياً في ذلك الوقت. لم يختفِ شيء من الغرفة غير أمه وشقيقته. لم يأخذا أي ملابس، ولا حتى معطف الأم. وهو لا يعرف، إلى اليوم، بأي قدر من اليقين، إن كانت أمه قد ماتت. من الممكن تماماً أنها قد أرسلت إلى أحد معسكرات العمل الإجباري فحسب. وأما شقيقته، فلعلها تكون قد نُقلَت إلى إحدى مساكن الأطفال المشردين، كما حدث لونستون نفسه. وهي المساكن التي ظهرت نتيجة الحرب الأهلية (وكانوا يطلقون عليها اسم مراكز الإصلاح)، أو لعلهم أرسلوها إلى معسكر العمل مع أمها، أو لعلهم تركوها في مكان ما حتى تموت.

كان الحلم لا يزال حياً في ذهنه، وخاصة حركة الحماية التي طوّقت بها أمه ابنتها الصغيرة، والتي بدا معنى الحلم كله متضمَنًا فيها. عاد ذهنه إلى حلم آخر جاءه قبل شهرين. تماماً عندما كانت أمه جالسة على السرير البائس ذي اللّحاف الأبيض،

والطفلة معلقةً بها، هكذا جلست تماماً في السفينة الغارقة، بعيداً من تحته، غارقة أعمق فأعمق في كل دقيقة، لكنها ظلّت ناظرة إليه عبر مياه تزداد قتامة.

أخبر جوليا بقصة اختفاء والدته. ومن غير أن تفتح عينيها، انقلبت فصارت في وضع أكثر راحة. قالت بصوتٍ غير واضح: «أظن أنك كنت خنزيراً صغيراً كريهاً في تلك الأيام. الأطفال كلهم خنازير!».

«نعم! لكن النقطة الحقيقية في هذه القصة...».

كان واضحاً من صوت تنفسها أنها قد غَفَت من جديد. كان يود لو أنه استطاع مواصلة الحديث عن أمه. ما كان يظنّه، اعتماداً على ما يتذكره عنها، أنها كانت امرأة غير عادية... ولم تكن امرأة ذكية أيضاً. لكن كان لديها نوع من النبل، نوع من النقاء، لمجرد أن المعايير التي تتصرّف وفقها كانت معايير خاصة. كانت مشاعرها ملكاً لها هي. ولم يكن تغييرها من الخارج ممكناً. ولم يكن ليخطر في بالها أن عدم كفاية فعل من الأفعال يجعله أمراً عديم المعنى. إذا كنت تحب شخصاً، فأنت تحبه. وتظل تعطيه حبك حتى عندما لا يكون لديك ما تعطيه إلا الحب. عندما ضاعت بقية الشوكولا، ضمّت أمه صغيرتها بين ذراعيها. لم يكن هذا أمراً نافعاً لها؛ ولم يكن ليغيّر شيئاً؛ وهو لم يأت بمزيدٍ من الشوكولا؛ ولم يحل دون موت الطفلة أو موت الأم... لكن ضم طفلتها بدا لها أمراً طبيعياً. لقد غطّت المرأة اللاجئة طفلها الصغير بذراعها التي ما كانت قادرة على حمايته من الرصاص أكثر مما تفعل قطعة من الورق. وأما الشيء الفظيع الذي فعله الحزب فهو إقناع المرء بأن الدوافع وحدها، أو المشاعر وحدها، ليس لها قيمة أو حساب. وفي الوقت عينه، فإنه يجرد المرء من كل سلطة على العالم المادي. عندما يصبح المرء في قبضة الحزب، فلا أهمية أبداً لما يشعر به أو لا يشعر به، لما يفعله أو لما يمتنع عن فعله. فالمرء يختفي مهما فعل، ولا يعود يسمع به أو بأفعاله أحد. ويكون قد أزيل تماماً من مجرى التاريخ. لكن هذا لم يكن ليبدو أمراً شديد الأهمية في أعين الناس الذين عاشوا قبل جيلين فقط لأنهم لم يكونوا يحاولون تغيير التاريخ. كانت تحكمهم الولاءات الخاصة التي لم يكونوا يشكّون فيها. كانت العلاقات الفردية هي ما يهمهم. وكانت حركة عديمة

الفائدة تماماً، معانقة أو دمعة أو كلمة توجّه إلى شخص ميت، تحمل قيمتها المستقلة في ذاتها. وخطر في ذهنه على نحو مفاجئ أن عامة الناس لا يزالون على هذه الحال. فهم لا يوالون حزباً أو بلداً أو فكرةً بل يوالي أحدهم الآخر. وللمرة الأولى في حياته، لم يشعر باحتقار تجاه عامة الناس ولم يعتبرهم مجرد قوة كامنة سوف تدب فيها الحياة ذات يوم فتعيد خلق العالم من جديد. لقد ظل عامة الناس بشراً! ولم يتصلّبوا من داخلهم. إنهم محافظون على المشاعر البدائية التي يتعيّن عليه، هو نفسه، أن يتعلّمها من جديد بجهدٍ واعٍ. وعندما فكر في هذا، تذكر، من غير أي صلة ظاهرة بما يفكّر فيه، كيف دفع بقدمه منذ أسابيع قليلة مضت يداً مقطوعة إلى حفرة المجاري كما لو أنها مجرد ضلع من أضلاع الملفوف.

قال ونستون بصوت مرتفع: «إن عامة الناس بشر! ونحن لسنا بشراً».

قالت جوليا وقد استيقظت من جديد: «لم لا؟».

فكر برهة قصيرة ثم قال: «هل خطر في بالك يوماً ما أن أفضل شيء يمكن أن نفعله هو أن نخرج من هنا، بكل بساطة، قبل أن يفوت الأوان... وألا يرى أحدنا الآخر بعد ذلك؟».

«نعم يا عزيزي! لقد خطر هذا في بالي مرات كثيرة. لكنني، مهما يكن من أمر، لن أفعل».

قال ونستون: «لقد كنا محظوظين حتى الآن. لكن هذا الحظ لا يمكن أن يستمر طويلاً. أنت فتية. وتبدين طبيعية وبريئة. وإذا بقيتِ بعيدة عن الأشخاص الذين هم مثلي، فمن الممكن أن تظلّي حية خمسين سنة أخرى».

«لا! لقد فكرت في الأمر كلّه. سأفعل ما تفعله أنت. لا تكن قانطاً إلى هذا الحد! إنني بارعة في البقاء على قيد الحياة».

«قد نظلّ معاً ستة أشهر أخرى... سنة... لا سبيل إلى معرفة هذا. لكننا سوف نفترق آخر الأمر. هل تدركين كم سنشعر بالوحدة بعد ذلك؟ عندما يمسكون بنا فلن يكون هنالك شيء... لا شيء أبداً... لا شيء يستطيع أحد منا فعله من

أجل الآخر. سيطلقون النار عليك إن أنا اعترفت. وسيطلقون النار عليك إن أنا رفضت الاعتراف... الأمران سيان! ما من شيء أستطيع فعله أو قوله، أو الامتناع عن فعله أو قوله، يمكن أن يرجئ موتك ولو حتى خمس دقائق. ولن يعرف أحد منا إن كان الآخر حياً أو ميتاً. وسوف نكون عاجزَيْن تماماً عن فعل أي شيء مهما يكن نوعه. الأمر المهم الوحيد هو أن علينا ألا يخون أحدنا الآخر، رغم أن هذا لا يمكن أن يُحدِث أي فرق مهما يكن طفيفاً».

قالت: «إذا كنت تقصد الاعتراف، فسوف نعترف... هذا أكيد! الجميع يعترف! لا تستطيع الامتناع عن ذلك... فهم يعذبونك».

«لا أقصد الاعتراف. الاعتراف ليس خيانة. لا أهمية لما تقولينه أو تفعلينه: المشاعر وحدها هي المهمة. فإذا استطاعوا جعلي أتوقف عن حبك... فسوف تكون تلك خيانة حقيقية». فكرت جوليا في الأمر لحظة ثم قالت أخيراً: «لا يستطيعون فعل هذا. إنه الشيء الوحيد الذي لا يقدرون عليه. يستطيعون جعلك تقول أي شيء... أي شيء... لكنهم لا يستطيعون جعلك تصدِّق ذلك الشيء. لا يستطيعون أن يصبحوا في داخلك».

قال ونستون وقد ظهر عليه الأمل أكثر من ذي قبل: «لا! لا... هذا صحيح تماماً. لا يستطيعون أن يصبحوا في داخلك. وإذا أحس المرء فعلاً أن بقاءه بشرياً أمر مهم، حتى عندما لا يكون لهذا الأمر أي نتيجة من أي نوع، فإنه يكون قد هزمهم».

راح يفكر في الشاشة وفي أذنها التي لا تنام أبداً. إنهم يستطيعون التجسس على المرء ليل نهار. لكن المرء يستطيع أن يكون أذكى منهم إذا حافظ على عقله. فمع كلّ ذكائهم، فإنهم لم يتوصلوا أبداً إلى معرفة سر العثور على ما يفكر فيه كائن بشري آخر. لعل هذا يكون أقل صحة عندما يكون المرء بين أيديهم فعلاً! لا يعرف أحد ما يجري داخل وزارة الحب! لكن تخمين ذلك أمر ممكن: التعذيب، والأدوية المخدّرة، والأجهزة الدقيقة التي تسجّل ردود الأفعال العصبية، وحالة التآكل التدريجي الذي يصيب المرء نتيجة الوحدة وقلة النوم والاستجواب المتواصل.

لا سبيل إلى إخفاء الوقائع على أي حال. ومن الممكن تعقّبها والوصول إليها عن طريق البحث والتحقيق. ويستطيعون استخراجها من المرء بالتعذيب. لكن، إذا لم يكن البقاء على قيد الحياة هدفاً للمرء، بل البقاء إنساناً، فما أهمية ذلك كلّه في آخر المطاف؟ لا يستطيعون تغيير المشاعر: بل إن المرء لا يستطيع تغيير مشاعره هو نفسه، حتى عندما يريد ذلك. إنهم يستطيعون اكتشاف أدق تفاصيل كل ما فعله المرء أو قاله أو فكّر فيه؛ لكن أعماق القلب تظل منيعة لأنه لا يمكن سبر أغوارها... حتى على صاحبها.

8

لقد فعلاها... لقد فعلاها آخر الأمر! كانا واقفين في غرفة متطاولة خفيفة الإنارة. وكان صوت الشاشة منخفضاً إلى حد الهمهمة. كانت كثافة السجادة الزرقاء القاتمة تجعل المرء يشعر أنه يمشي على المخمل. وفي أقصى الغرفة، كان أوبراين جالساً إلى طاولةٍ تحت مصباحٍ له ظلّة خضراء وأمامه كومتان من الورق، إلى اليمين وإلى اليسار. لم يكن قد اهتمّ برفع رأسه حتى ينظر عندما أدخل الخادم جوليا وونستون إلى الغرفة.

كان قلب ونستون يدق عالياً إلى درجة جعلته يشك في قدرته على الكلام. لقد فعلاها! لقد فعلاها أخيراً! هذا كل ما استطاع التفكير فيه. لقد كان مجيئهما نوعاً من الطيش. وكان وصولهما معاً حماقة صرفةً. صحيح أنهما جاءا عبر طريقين مختلفين ولم يلتقيا إلا في أسفل السلم. لكن مجرد الدخول إلى مكانٍ من هذا النوع يستلزم جهداً عصبياً كبيراً. لم يكن يحدث أن يدخل المرء أماكن إقامة أعضاء الحزب الداخلي إلا في حالات نادرة، بل كان من المستبعد أيضاً أن يدخل الحي الذي يضم هذه الأماكن. كان جو هذه الكتل السكنية كلّه، وفخامة ورحابة كل شيء ، والروائح غير المألوفة... روائح ما لذّ من الطعام الجيّد والتبغ الجيّد، والمصاعد الصامتة السريعة إلى حد لا يُصَدَّق عندما تذهب صعوداً وهبوطاً، والخدم ذوي السترات البيض الذين يسرعون آتين وذاهبين... كان كلّ شيء يجعل المرء يفقد شجاعته! وعلى الرغم من أن لديه ذريعة جيدة من أجل القدوم إلى هنا، إلا أن خوفاً كان يستبدّ به مع كل خطوة من أن يظهر على غير انتظار حارس يرتدي ملابس سودً من خلف إحدى الزوايا فيطلب أوراقه ثم يأمره بالانصراف. لكن خادم أوبراين استقبلهما وسمح لهما بالدخول من دون أي اعتراض. كان رجلاً صغير الحجم، قاتم الشعر، يلبس سترة بيضاء، وله وجه على شكل ماسة ومن غير تعبير على الإطلاق... لعله.وجه صيني! تقدّمهما سائراً في ممر فيه سجادة ناعمة وعلى جدرانه ورق بلون القشدة وخشب أبيض اللون. وكان ذلك كلّه نظيفاً إلى

حد يلفت الأنظار. كان هذا مما يذهب بشجاعة المرء أيضاً! لم يكن ونستون يتذكّر أنه رأى في حياته كلّها ممراً لم تكن جدرانه قذرة بفعل احتكاك الأجساد البشرية بها.

كان أوبراين يحمل ورقة بين يديه. وبدا أنه يدرسها دراسة دقيقة. وكان وجهه الثقيل محنياً إلى الأسفل بحيث كان المرء قادراً على رؤية خطّ أنفه... بدا مخيفاً وذكياً في آنٍ معاً. ظلّ من غير حركة نحو عشرين ثانية تقريباً. ثم جذب إليه آلة الإملاء وأملى رسالة بتلك اللغة الهجين المستخدمة في الوزارات:

«البنود واحد فاصلة خمسة فاصلة سبعة تمت الموافقة عليها بالكامل نقطة الاقتراح الوارد في البند ستة سخيف جداً جداً يشبه جريمة فكر إلغاء نقطة التوقف عن الإنشاء عدم جلب آلات زيادة عن التقديرات زيادة الكلفة نقطة انتهت الرسالة».

نهض عن كرسيه بحركة بطيئة وجاء صوبهما ماشياً على السجادة التي تمتصّ صوت وقع الأقدام. بدا أن بعضاً من الجو الرسمي قد زال عنه عند استخدامه كلمات اللغة الجديدة. لكن تعبير وجهه كان أكثر تجهّماً من المعتاد كما لو أنه انزعج من مقاطعته. وأما الذعر الذي كان ونستون يحسّه فقد حلت محله فجأة مسحة من الشعور العادي بالحرج. بدا له أن من الممكن تماماً أنه اقترف خطيئة حمقاء! فما الدليل عنده على أن أوبراين متآمر سياسي؟ لا شيء إلا التماعة عينين وعبارة واحدة ملتبسة. وأما غير ذلك، فما كان لديه إلا خيالاته السرية التي وجدت أساساً لها في حلم من أحلامه. بل لم يكن قادراً أيضاً حتى على التظاهر بأنه أتى من أجل استعارة القاموس! ففي هذه الحالة، يكون تفسير وجود جوليا معه أمراً لا سبيل إليه. وعندما مرّ أوبراين أمام الشاشة، بدا أن فكرة قد خطرت له. توقف، ثم استدار وضغط مفتاحاً موجوداً على الجدار. سُمِع صوت فرقعة حاد، فصمتت الشاشة. أطلقت جوليا صوتاً مكتوماً، نوعاً من شهقة ذهول! بل إن ونستون نفسه لم يكن قادراً على إمساك لسانه رغم كلّ الذعر الذي كان فيه.

قال: «تستطيع أن تغلق الشاشة!».

قال أوبراين: «نعم! نستطيع إسكات الشاشة. إن لدينا هذه المزية!».

كان واقفاً قبالتهما الآن. وكان جسده القوي يعلو فوق قامتيهما. وأما تعابير وجهه فظلت عصية على التفسير. كان ينتظر، على نحوٍ صارمٍ ما... ينتظر أن يتكلم ونستون... لكن، عن أي شيء عساه يتكلّم؟ فحتى الآن... كان من المعقول تماماً أن يكون أوبراين مجرد رجلٍ كثير المشاغل يتساءل منزعجاً عن سبب مقاطعته. لم يتكلّم أحد! صار الصمت قاتلاً في الغرفة بعدما توقف صوت الشاشة. ومضت الثواني... ثقيلةً! وجد ونستون صعوبة في مواصلة النظر إلى عيني أوبراين. وعلى نحوٍ مفاجئ، زال التجهم عن وجه أوبراين وظهر فيه ما يشبه بداية ابتسامة. وبحركته المميزة، دفع أوبراين نظارته على أنفه.

قال: «هل أقولها أنا، أو تقولها أنت؟».

قال ونستون سريعاً: «سأقولها أنا. هل الشاشة مغلقة حقاً؟».

«نعم، كل شيء مغلق، نحن وحدنا الآن».

«لقد أتينا هنا لأن...».

توقف لحظة وقد أدرك للمرة الأولى مدى غموض دوافعه. فبما أنه لم يكن عارفاً نوع العون الذي يتوقّعه من أوبراين، فقد كان صعباً أن يعبّر عما جاء به. لكنه تابع الكلام مدركاً أن ما يقوله لا بد أن يبدو ضعيفاً ومدعياً في الوقت نفسه.

«نعتقد أن هنالك نوعاً من مؤامرة، نوعاً من منظّمة سرية تعمل ضد الحزب. ونعتقد بأنك شريك في تلك المنظّمة. نريد الانضمام إليها والعمل من أجلها. نحن من أعداء الحزب. ولسنا مؤمنين بمبادئ الإشتنج. نحن مجرما فكر. ونحن زانيان أيضاً. أقول لك هذا لأننا نريد أن نضع نفسينا تحت رحمتك. وإذا أردت منا أن ندين أنفسنا بأي طريقة أخرى، فنحن مستعدان».

توقف والتفت من فوق كتفه بعد أن أحسّ بالباب ينفتح. نعم، كان الخادم ذو الوجه الأصفر قد دخل من غير أن يقرع الباب. ورأى ونستون أنه يحمل صينية عليها دورق خمر مع أقداح.

قال أوبراين من غير مبالاة: «مارتن واحد منا! هات الشراب إلى هنا يا

مارتن. ضعه على الطاولة المستديرة. هل لدينا عدد كافٍ من الكراسي؟ فلنجلس ونتحدث براحة. هات كرسياً لنفسك يا مارتن. هذا عمل. تستطيع أن تكفّ عن كونك خادماً خلال الدقائق العشر القادمة».

جلس الرجل صغير الحجم، جلس مرتاحاً، لكنه ظل محتفظاً بهيئة الخادم... هيئة خادم يستمتع بمزية حصل عليها. راح ونستون ينظر إليه من زاوية عينه. فاجأه تماماً أن تكون حياة هذا الرجل كلها تمثيلاً، وأنه شعر بأن ثمة خطراً في التخلي عن شخصيته المزعومة، حتى لحظة واحدة. حمل أوبراين الدورق من رقبته وملأ الأقداح بسائل أحمر قاتم اللون. أثار هذا السائل في ونستون ذكريات غامضة عن شيء رآه منذ زمن بعيد على جدار لوحة إعلانية... زجاجة ضخمة مكوّنة من مصابيح كهربائية كانت تبدو كأنها تتحرّك صعوداً وهبوطاً فتصبّ محتوياتها في كأس. كان السائل يبدو أسود اللون إذا نظر إليه المرء من الأعلى. لكنه تألّق بلونٍ عقيقي في الدورق. كانت له رائحة حلوة ـ حامضة. رأى جوليا ترفع قدحها وتتشمّمه بفضولٍ صريح.

قال أوبراين مبتسماً ابتسامة تكاد لا ترى: «اسمه نبيذ! لا شك في أنكما قرأتما عنه في الكتب. وأخشى أنه لا يوزع الكثير منه خارج إطار الحزب الداخلي». عاد وجهه جاداً من جديد. رفع كأسه: «أظن أن من المناسب أن نبدأ بأن نشرب نخباً. في صحة قائدنا: إيمانويل غولدشتاين».

رفع ونستون قدحه بشيء من اللهفة. كان النبيذ شيئاً سمع عنه وحلم به. وعلى غرار ثقّالة الورق الزجاجية أو الأنشودة التي تذكَّر نصفها السيد تشارينغتون، كان النبيذ منتمياً إلى ماضٍ رومانسي مختفٍ... الأيام العتيقة كما كان يحب أن يدعو ذلك الماضي في أفكاره السرية. ولسبب ما، كانت لديه دائماً فكرة تقول إن طعم الخمر شديد الحلاوة، مثل مربى توت العلّيق، وأن له مفعول مسكر فوري! أما عندما شم النبيذ، فقد كانت تلك المادة مخيّبة لآماله في واقع الأمر. بل إنه كان شبه عاجزٍ عن تذوقها بعد سنوات طويلة من شرب الجن. وضع القدح الفارغ على الطاولة.

قال: «ثمة إذًا شخص اسمه غولدشتاين!».

«نعم، إنه موجود. وهو حي. أين؟ لا أدري!».

«والمؤامرة... المنظّمة؟ هل هي حقيقة؟ أوليست مجرد اختراع من اختراعات شرطة الفكر؟».

«لا، إنها حقيقة! ونحن نسميها «الأخوية». سوف لن تعرفا شيئاً عن الأخوية يزيد كثيراً على أنها موجودة وعن أنكما منتميان إليها. سوف أعود إلى هذه النقطة بعد قليل». نظر إلى الساعة في يده وتابع يقول: «ليس من الحكمة في شيء، حتى بالنسبة لأعضاء الحزب الداخلي، أن تظل الشاشة معطلة أكثر من نصف ساعة. لم يكن حسناً أن تأتيا إلى هنا معاً. وعليكما أن تغادرا المكان على نحوٍ منفصل. أنت يا رفيقة»... أشار برأسه صوب جوليا... «ستغادرين أولاً. لدينا نحو عشرين دقيقة. يجب أن تفهما أن علي أن أبدأ بطرح بعض الأسئلة. بشكل عام، ما الذي أنتما مستعدان للقيام به؟».

قال ونستون: «كل ما نستطيع فعله».

كان أوبراين قد استدار قليلاً في مقعده حتى يصير قبالة ونستون. لقد تجاهل جوليا تقريباً، وبدا كأنه اعتبر أن ونستون يتكلّم باسمها أيضاً. رفّت رموش عينيه قليلاً. وبدأ طرح أسئلته بصوت خفيض خالٍ من التعبير كما لو أن ذلك كان روتيناً اعتاده، أو طقساً، أو أنه يعرف معظم الإجابات سلفاً».

«هل أنت مستعد للتضحية بحياتك؟».

«نعم».

«وهل أنت مستعد للإقدام على القتل؟».

«نعم».

«وهل أنت مستعد للقيام بأعمال التخريب التي يمكن أن تفضي إلى موت مئات الأبرياء؟».

«نعم».

«وهل أنت مستعد لخيانة وطنك لمصلحة قوى أجنبية؟».

«نعم».

«وهل أنت مستعد للغش، والتزوير، والابتزاز، وإفساد عقول الأطفال، وتوزيع المخدّرات، وتشجيع الدعارة، ونشر الأمراض الجنسية... لفعل أي شيء يُحتمل أن يسبب خوراً وضعفاً لسلطة الحزب؟».

«نعم».

«ولو افترضنا أن إلقاء حمض الكبريت في وجه طفل يخدم قضيتك... فهل أنت مستعد لفعله؟».

«نعم».

«وهل أنت مستعد لفقدان شخصيتك والعيش بقية عمرك على هيئة خادم أو عامل بناء؟».

«نعم».

«وهل أنت مستعد للانتحار إذا صدر إليك أمر بالانتحار؟».

«نعم».

«وهل أنتما مستعدان، كلاكما، للانفصال بحيث لا يرى أحدكما الآخر مرة أخرى؟».

قالت جوليا بصوت مرتفع: «لا!».

بدا لونستون أن زمناً طويلاً قد مَرّ قبل أن يجيب عن السؤال. بل أحسّ أيضاً أنه فقد القدرة على الكلام برهة من الزمن. تحرّك لسانه من غير صوت وراح يشكّل بدايات الكلمات أولاً، ثم نهاياتها، مرة بعد مرة. وما كان عارفاً بالكلمة التي سيقولها إلى أن قالها فعلاً. قال أخيراً: «لا!».

قال أوبراين: «لقد فعلتما حسناً بإخباري هذا. من الضروري أن نعرف كل شيء».

استدار صوب جوليا وأضاف بصوتٍ أكثر تعبيراً على نحوٍ ما:

«هل تدركين أنه يمكن أن يصبح شخصاً مختلفاً، حتى إذا ظل على قيد الحياة؟

قد نضطر إلى إعطائه شخصية جديدة. وقد يتغير وجهه وحركاته وشكل يديه ولون شعره... بل حتى صوته! وقد تصبحين أنت أيضاً شخصاً مختلفاً. يستطيع جرّاحونا تغيير الأشخاص إلى حد يجعل التعرف عليهم مستحيلاً. ويكون هذا ضرورياً في بعض الأحيان. بل إننا نعمد إلى بتر أحد الأطراف أحياناً».

لم يستطع ونستون أن يمنع نفسه من استراق نظرة أخرى صوب مارتن صاحب الوجه المغولي. لم تكن عليه ندبات ظاهرة! شحب لون جوليا قليلاً، فظهر النمش على وجهها. لكنها ظلّت جالسة بشجاعة قبالة أوبراين. تمتمت بشيء فهم منها أنها موافقة.

«جيد! انتهينا من هذا الأمر إذًا».

كانت على الطاولة علبة سجائر فضية. دفع أوبراين تلك العلبة صوب الآخرين بذهن شارد، وتناول منها سيجارة لنفسه، ثم وقف وراح يذرع المكان بطيئاً، جيئة وذهاباً، كما لو أنه يستطيع التفكير على نحوٍ أفضل عندما يكون واقفاً. كانت السجائر ممتازة، غليظة ومحشوّة على نحوٍ جيد. وكان ورقها حريري الملمس على نحوٍ غير مألوف. نظر أوبراين إلى ساعته من جديد.

قال: «من الأفضل أن تعود إلى المطبخ يا مارتن. وسوف أعيد تشغيل الشاشة بعد ربع ساعة. انظر جيداً إلى وجهَيْ هذين الرفيقين قبل أن تذهب. سوف تراهما من جديد. أما أنا فقد لا أراهما».

راحت عينا الرجل القاتمتان تتفرّسان فيهما مثلما فعلتا عندما رآهما أول مرة على الباب الخارجي. لم يكن في هيئته أي أثر للود. كان يحفظ شكل وجهيهما، لكنه لم يكن مهتماً بهما... أو هذا ما ظهر عليه على الأقل! خطر في بال ونستون أن له وجهاً مصنوعاً قد لا يكون قادراً على تغيير تعابيره. ومن غير أي كلمة أو أي نوع من التحية، خرج مارتن من الغرفة مغلقاً الباب خلفه من غير صوت. كان أوبراين يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً واضعاً يداً في جيب أوفروله الأسود وحاملاً سيجارته بالأخرى.

قال: «أنتما تفهمان أنكما ستقاتلان في الظلام. ستكونان في الظلام دائماً. سوف تتلقيان الأوامر وتطيعانها من غير معرفة السبب. سوف أرسل إليكما في ما بعد

كتاباً تتعلمان منه الطبيعة الحقيقية لهذا المجتمع الذي فيه نعيش، والاستراتيجية التي سندمره من خلالها. وعندما تقرآن الكتاب، تصبحان عضوين تامَّي العضوية في الأخوية. لكنكما لن تعرفا أي شيء أبداً مما يقع بين الأهداف العامة التي نقاتل من أجلها وبين المهمة الراهنة لهذه اللحظة. إنني أخبركما أن الأخوية موجودة. لكنني لا أستطيع إخباركما شيئاً عما إذا كانت تضم مئات الأعضاء أو عشرة ملايين منهم. ولن تتمكنا أبداً، انطلاقاً مما تعرفانه، أن تقولا إنها تضم ولو حتى عشرة أشخاص. سوف تكون لكما صلة بثلاثة أو أربعة أشخاص فقط. وسوف يتغيرون من وقت لآخر عندما يختفون. لكنني سأظل على صلة بكما لأنني صلتكما الأولى. وعندما تتلقيان الأوامر، فسوف تأتيكما مني أنا. وإذا وجدنا ضرورة للتواصل معكما، فسوف يكون ذلك عن طريق مارتن. وعندما يلقى القبض عليكما في آخر الأمر، فسوف تعترفان! لا مفر من هذا. لكن، لن يكون لديكما إلا القليل جداً مما تعترفان به، إضافة إلى أفعالكما أنتما. لن تتمكنا من إفشاء معلومات تتجاوز حفنة من الأشخاص الذين لا أهمية لهم. بل لعلكما لا تفشيان أمري أيضاً. فقد أكون ميتاً حتى ذلك الوقت، أو يمكن أن أكون قد أصبحت شخصاً آخر، بوجه مختلف».

واصل سيره على السجادة الناعمة. على الرغم من ضخامة جسده، كان ثمة جلال لا تخطئه العين في حركاته. بل كان ظاهراً حتى من طريقة وضعه تلك اليد في جيبه، أو من إمساكه بسيجارته. كان أمراً أكبر من مجرّد القوة. لقد أدخل في نفسيهما انطباعاً يوحي بثقة وبفهم للأمور مفعم بشيء من السخرية. لكن، ومهما تكن الجدية ظاهرة عليه، فقد كان خالياً من أي شيء يمت بصلة إلى الأفق المحدودة للأشخاص المتحمسين المتعصبين. وعندما جاء على ذكر القتل والانتحار والأمراض الجنسية وبتر الأطراف وتغيير الوجوه، قال ذلك بنفحةٍ خفية من الهزء. بدا صوته كأنه يقول: «لا مفر من هذا! هذا ما يتعيّن علينا فعله من غير أن نتردّد. لكن، ليس هذا ما سنفعله عندما تصير لنا حياة تستحق العيش من جديد». سَرَت موجة من الإعجاب، بل من الوَلَه تقريباً، من ونستون في اتجاه أوبراين. بل إنه نسي، لوهلة، شخصية غولدشتاين الغامضة. فعندما ينظر المرء إلى

كتفي أوبراين الجبارين وإلى وجهه ذي الملامح الفظة، شديدة القبح لكنها المتمدّنة المظهر، كان من المستحيل عليه أن يصدق أن من الممكن إنزال الهزيمة به. كان قادراً على مواجهة أي أسئلة والتنبؤ بأي خطر قادم. حتى إن جوليا نفسها بدت متأثرة به كثيراً. لقد سهت عن سيجارتها التي انطفأت وراحت تصغي إليه مهتمة.

تابع أوبراين يقول: «لا بد أنكما سمعتما بعض الإشاعات عن الأخوية. ولا شك عندي في أنكما قد كونتما لنفسيكما صورة عنها. ولعلكما تتخيّلان شبكة سرية هائلة من المتآمرين الذين يجتمعون سراً في الأقبية ويكتبون رسائل على الجدران ويعرف أحدهم الآخر عن طريق حركة يد خاصة. لا وجود لشيء من هذا القبيل. ولا سبيل إلى تعارف بين أعضاء الأخوية. من المستحيل على أي عضو أن يعرف هوية أكثر من حفنة محدودة من الآخرين. إن غولدشتاين نفسه، إذا وقع في أيدي شرطة الفكر، لا يستطيع أن يعطيها قائمة كاملة بأفراد المنظّمة، ولا حتى معلومات يمكن أن تقودهم إلى قائمة كاملة. لا وجود لقائمة من هذا النوع! إن القضاء على الأخوية مستحيل لأنها ليست منظّمة بالمعنى المألوف للكلمة. ولا شيء يجمعها إلا فكرة لا يمكن تدميرها. ولن يكون لديكما ما يساندكما إلا فكرة! لن تحظيا برفقة ولا بتشجيع. وعندما يلقى القبض عليكما في آخر المطاف، فلن تحصلا على أي مساعدة. إننا لا نساعد أعضاء منظّمتنا أبداً. ففي أقصى الأحوال، وعند وجود ضرورة مطلقة لإسكات شخص ما، فقد نتمكن أحياناً من تهريب شفرة إليه في زنزانته. عليكما أن تعتادا العيش من غير رؤية تحقيق أي نتائج، ومن غير أمل. سوف تعملان حيناً من الزمن، ثم يُلقى القبض عليكما، ثم تعترفان، ثم تموتان. هذه هي النتائج الوحيدة التي ستتمكنان من رؤيتها. ولا يوجد أي احتمال لحدوث أي تغيّر ملحوظ خلال حياتكما. نحن موتى! وحياتنا الحقيقية الوحيدة كامنة في المستقبل. وسوف نشارك في هذا المستقبل على هيئة حفنة من الغبار وفتات من العظام. لكن أحداً لا يعرف، كم يبعد هذا المستقبل! قد يأتي بعد ألف عام. لا يمكن القيام بشيء الآن إلا زيادة مساحة العقل نُتفة بعد نتفة. لا نستطيع العمل على نحو جماعي. لا نستطيع إلا أن ننشر ما نعرفه من فرد لآخر، وجيلاً بعد جيل. ما من طريق آخر في مواجهة شرطة الفكر».

توقف لحظة ونظر مرة ثالثة إلى ساعة يده.

قال لجوليا: «لقد حان وقت ذهابك يا رفيقة. انتظري! لا يزال لدينا نصف الدورق».

ملأ الأقداح من جديد. ثم رفع كأسه ممسكاً بالكأس من ساقها.

قال: «ماذا سيكون النخب في هذه المرة؟» ... كان على وجهه ذلك الإيحاء الخفيف بالسخرية... «أنشرب نخب تضليل شرطة الفكر؟ موت الأخ الكبير؟ نخب الإنسانية؟ أو نخب المستقبل؟».

قال ونستون: «نخب الماضي!».

وافقه أوبراين بجدية: «الماضي أكثر أهمية!».

أفرغوا كؤوسهم جميعاً. وبعد برهةٍ حان وقت ذهاب جوليا. تناول أوبراين علبة صغيرة من فوق الخزانة فناولها قرصاً مسطحاً أبيض اللون وقال لها أن تضعه على لسانها. قال إن من المهم ألا يخرج المرء من هنا ورائحة النبيذ تفوح منه، فحرّاس المصاعد شديدو الانتباه. وما إن أغلق الباب من خلفها حتى ظهر على أوبراين أنه قد نسي وجودها. سار في الغرفة خطوة أو خطوتين ثم توقف.

قال: «ثمة تفاصيل لا بد من الاتفاق عليها. أظن أن لديك مكان اختباء من نوعٍ ما؟» .

أخبره ونستون عن الغرفة فوق متجر السيد تشارينغتون.

«إنها وافية بالغرض في الوقت الحاضر. وسوف نرتب شيئاً آخر من أجلك في ما بعد. من المهم أن يكثر المرء من تغيير أماكن الاختباء. وفي أثناء ذلك سوف أرسل لك نسخة من «الكتاب» في أقرب وقت ممكن»... لاحظ ونستون أن أوبراين نفسه كان ينطق تلك الكلمة بنوع من التشديد عليها بحيث يُفهم أن المقصود هو كتاب غولدشتاين. «قد يتطلب الأمر عدة أيام قبل أن أستطيع الحصول على نسخة. لا وجود لكثير من هذه النسخ... تستطيع أن تتخيل هذا. إن شرطة الفكر تصطادها وتتلفها بسرعة توازي سرعة إنتاجنا لها. لكن، لا أهمية كبرى لذلك. إن الكتاب

غير قابلٍ للفناء. وحتى إذا ضاعت آخر نسخة منه، فإننا قادرون على إعادة طباعته مثلما كان، كلمة بكلمة تقريباً. هل تحمل حقيبة معك إلى عملك؟».

«نعم، عادة أحمل حقيبة!».

«كيف هو شكلها؟».

«سوداء، في حالةٍ بائسة جداً. ولها حزامان».

«سوداء، حزامان، في حالة بائسة جداً... جيد! ذات يوم، في مستقبل قريب جداً ـ لا أستطيع تحديد تاريخ الآن ـ ستجد بين الرسائل في عملك الصباحي كلمة مطبوعة طباعة خاطئة. وسوف يكون عليك أن تطلب إعادة طباعتها. وفي اليوم الذي يليه، ستذهب إلى العمل من غير حقيبتك. وخلال وقت من أوقات النهار، في الشارع، سوف يلمس رجل ذراعك ويقول... «أظن أن الحقيبة قد سقطت منك». وسيناولك حقيبةً فيها نسخة من كتاب غولدشتاين. وسوف تعيد الكتاب خلال أسبوعين».

حلّت برهة صمت.

قال أوبراين: «ما زال لدينا دقيقتان قبل أن يحين وقت ذهابك. سوف نلتقي من جديد... وإذا التقينا من جديد...».

رفع ونستون رأسه ونظر إليه، ثم قال متردداً: «سنلتقي في مكان لا ظلمة فيه!»

أومأ أوبراين برأسه من غير أن تظهر عليه الدهشة. قال وكأنه فهم الإيحاء: «في مكان لا ظلمة فيه! وحتى ذلك الوقت، فهل من شيء تريد قوله قبل ذهابك؟ أي رسالة؟ أي سؤال؟».

فكر ونستون. لم يبدُ له أن ثمة أي شيء يريد أن يسأل عنه: وكان أقل من ذلك رغبة في طرح عموميات متشدّقة. وبدلاً من أي شيء على صلة مباشرة بأوبراين أو بالأخوية، جاء إلى ذهنه نوع من صورة مركّبة من تلك الغرفة المظلمة التي أمضت أمه آخر أيامها فيها، وتلك الغرفة فوق متجر السيد تشارينغتون، وثقّالة الورق الزجاجية، واللوحة المحفورة على المعدن في إطارها المصنوع من خشب الورد.

وقال على نحو كاد يكون عشوائياً: «هل حدث أن سمعت مرة أنشودة قديمة تبدأ بالكلمات التالية: برتقالات وليمونات، تقول أجراس كنيسة القديس كليمان؟»
أومأ أوبراين برأسه من جديد. وبنوع من الكياسة الجادة، راح يكمل الأبيات:

«برتقالات وليمونات، تقول أجراس كنيسة القديس كليمان،

أنت مدين لي بثلاثة قروش، تقول أجراس القديس مارتن،

متى تسددها لي؟ تقول أجراس أولد ديلي

عندما أصبح غنياً، تقول أجراس شوردش».

قال ونستون: «أنت تعرف البيت الأخير!».

«نعم... أعرف البيت الأخير. والآن، أخشى أن وقت ذهابك قد حان. لكن انتظر. من الأفضل أن أعطيك واحداً من هذه الأقراص».

عندما وقف ونستون مَدّ له أوبراين يده. سحقت مصافحته القوية عظام كف ونستون. التفت ونستون خلفه عند الباب، لكن أوبراين بدا وكأنه قد باشر عملية إخراجه من ذهنه. كان ينتظر! ومن خلفه كان ونستون يرى طاولة الكتابة بمصباحها ذي الظلّة الخضراء، وآلة الإملاء، والسلة السلكية المليئةً بالأوراق. لقد انتهى اللقاء. خطر في باله أن أوبراين، بعد ثلاثين ثانية من الآن، سوف يعود إلى عمله المهم لمصلحة الحزب من بعد هذه المقاطعة.

9

كان ونستون أشبه بالهلام لشدة إعيائه! الهلام... إنها الكلمة الصائبة! لقد جاءت الكلمة إلى ذهنه عَرَضاً. لم يكن جسده ضعيفاً مثل الهلام فحسب، بل أحس بأن له شفافيته أيضاً! أحس ونستون أنه إذا رفع يده فسوف يستطيع رؤية الضوء من خلالها. لقد جف دمه وسوائل جسمه كلها بعد لُجّة هائلة من العمل فلم يبق فيه إلا هيكل هش من الأعصاب والجلد والعظام. بدت له أحاسيسه مضخّمة كلها. وكان الأوفرول عبئاً ثقيلاً على كتفيه. كان الرصيف يوجع قدميه. بل كان حتى فتح كف يده وإغلاقها يبدو له جهداً يجعل مفاصله تطقطق.

لقد عمل أكثر من تسعين ساعة في خمسة أيام. وكذلك فعل كل شخص غيره في الوزارة! وأما الآن فقد انتهى كل شيء وما عاد لديه شيء يفعله على الإطلاق... لا عمل من أجل الحزب من أي نوع كان... حتى صبيحة الغد. سوف يمضي ست ساعات في مخبئه وتسع ساعات أخرى في سريره. سار بطيئاً في ضياء الشمس اللطيف بعد الظهيرة عبر شارع بائس ذاهب في اتجاه متجر السيد تشارينغتون. ظل يترصّد الدوريات. لكنه كان مقتنعاً اقتناعاً غير منطقي بأن ما من خطرٍ في أن يتعرّض له أحد في عصر هذا اليوم. كانت الحقيبة الثقيلة التي يحملها تصطدم بركبته مع كل خطوة فتبعث إحساساً واخزاً في جلد ساقه. كان فيها الكتاب... الكتاب الذي صار عنده الآن منذ ستة أيام ولم يفتحه بعد، بل حتى لم ينظر إليه!

في اليوم السادس من أسبوع الكراهية، بعد المسيرات والخطابات والهتاف والغناء والرايات والملصقات والأفلام والتماثيل الشمعية وقرع الطبول وزعيق الأبواق ووقع الأقدام وصرير جنازير الدبابات وزئير الطائرات الكثيرة وإطلاق المدافع... بعد ستة أيام من هذا كلّه، عندما كانت النشوة الكبرى موشكة على بلوغ ذروتها، وعندما راح كره أوراسيا يغلي ويفور في هذيان جعل الجمهور في حالة لو استطاع معها أن يضع يده على الألفي مجرم حرب أوراسي الذين كان من المقرر أن يشنقوا علناً في اليوم الأخير من أسبوع الكراهية، لمزّقهم إرباً من غير أدنى شك...

في هذه اللحظة عينها أُعلِن أن أوقيانيا لم تكن في حالة حرب مع أوراسيا! أوقيانيا في حرب مع إيستاسيا. وأما أوراسيا فهي حليف!

لم يكن هنالك، بطبيعة الحال، إقرار بحدوث أي تغيير على الإطلاق. كل ما في الأمر هو أنه صار معروفاً، على نحوٍ مفاجئ تماماً وفي كل مكان، أن إيستاسيا وأوراسيا عدوّين. كان ونستون مشاركاً في مسيرة في إحدى ساحات لندن المركزية في لحظة حدوث ذلك. كان الوقت ليلاً. وكانت الوجوه البيض والبيارق القرمزية تحت الأضواء الساطعة. وكانت الساحة مزدحمة بعدة آلاف من الأشخاص بمن فيهم كتلة تضم زهاء ألف تلميذ مدرسة في زي الجواسيس. وعلى منصة موشّحة بالقرمزي، كان خطيب من الحزب الداخلي... رجل صغير الحجم له ذراعان طويلتان على نحو غير متناسب وجمجمة ضخمة صلعاء تظهر عليها خصلات قليلة متناثرة. كان هذا الرجل يخطب في الحشد. كان يشبه قزماً من أقزام الحكايات، شوّهته الكراهية. أمسك بالمايكروفون بإحدى كفيه في حين راحت الكف الأخرى، كف ضخمة في نهاية ذراعٍ عظمية، تضرب الهواء ضرباً عنيفاً من فوق رأسه. كان صوت الرجل معدنياً بفعل مكبرات الصوت. وراح يزمجر من غير انقطاع بقائمة من الفظائع والمذابح وحالات التهجير والسلب والاغتصاب وتعذيب السجناء وقصف المدنيين والدعاية الكاذبة والاعتداءات الجائرة وخرق المعاهدات. كان من شبه المستحيل أن يصغي المرء إليه من غير أن يقتنع بما يقوله أولاً ثم يصاب بالجنون. وكلما مرّت اللحظات، كان غضب الجمهور يفور فيغرق صوت الخطيب بزمجرة أشبه بزمجرة الوحوش منطلقة من آلاف الحناجر على غير هدى. وكان أكثر الصرخات توحشاً آتياً من تلامذة المدارس! ولعل الخطبة كانت مستمرّة منذ نحو عشرين دقيقة عندما ظهر على المنصة رسول مسرع فدسّ في يد الخطيب قصاصة ورق. فتحها الخطيب وقرأها من غير أن يتوقّف عن كلامه لحظة. لم يحدث تغير في صوته أو هيئته، أو في محتوى ما كان يقوله. لكن الأسماء صارت مختلفة على نحوٍ مفاجئ. ومن غير أن تُقال أي كلمة، سرت موجة من الفهم في صفوف الحشد. إن أوقيانيا في حرب مع إيستاسيا! وفي اللحظة التالية، وقع هرَج

ومرَج عظيمان. كانت البيارق والملصقات التي تزيّن الساحة خاطئة كلها! وكان نصفها يحمل صوراً غير التي يجب أن يحملها. هذا تخريب! إن عملاء غولدشتاين ينشطون! مرّت فترة فاصلة من الفوضى اقتُلعت فيها الملصقات عن الجدران، ومزّقت اللافتات إرباً وديست بالأقدام. واجترح الجواسيس معجزات في تسلق سطوح البنايات وقطع حبال اللافتات المعلّقة من المداخن. لكن ذلك انتهى كله بعد دقيقتين أو ثلاث دقائق! ما زال الخطيب ممسكاً بالمايكروفون. وما زالت كتفاه ناتئتين إلى الأمام ويده الحرّة تضرب الهواء من فوقه. وما زال متابعاً خطبته! وبعد دقيقة أخرى، انفجرت زمجرة الغضب الوحشية في الحشد من جديد.

وأما الشيء الذي كان له أثر كبير على ونستون عندما يتذكّر ما حدث فهو أن الخطيب قد انتقل من خط إلى آخر في منتصف الجملة عملياً... ليس من غير أي توقّف فحسب، بل حتى من غير أي اضطراب في تركيب الجملة! لكن ونستون، كان لديه أمور أخرى تشغله في ذلك الوقت. ففي لحظة الاضطراب تلك، عندما كان يجري تمزيق الملصقات، ربّت رجل لم ير وجهه على كتفه قائلاً: «عفواً، أظن أن حقيبتك قد سقطت منك». أخذ ونستون الحقيبة بحركة تلقائية من غير كلام. كان يعرف أن أياماً ستمضي قبل أن تسنح له فرصة النظر فيها. وفور انتهاء المسيرة، توجّه إلى وزارة الحقيقة رأساً رغم أن الساعة كانت تقارب الحادية عشرة ليلاً! لقد فعل موظفو الوزارة كلهم مثلما فعل ونستون! وما كان ثمة ضرورة تقريباً للأوامر التي صدرت إليهم من الشاشات تستدعيهم إلى مراكز عملهم. كانت أوقيانيا في حرب مع إيستاسيا: لقد كانت أوقيانيا في حالة حرب مع إيستاسيا دائماً! وكان القسم الأكبر من الأدبيات السياسية خلال السنوات الخمس قد صار عتيقاً كلّه في لحظة واحدة. وكان من الواجب تصحيح التقارير والسجلات بجميع أنواعها، والصحف والكتب والكتيبات والأفلام والتسجيلات الصوتية والصور، وذلك بسرعة البرق. ورغم عدم صدور أي أمر إداري، فقد كان معروفاً أن رؤساء الأقسام يعتزمون إلغاء أي إشارة إلى حالة حرب مع أوراسيا أو تحالف مع إيستاسيا، وذلك خلال أسبوع واحد. إذ لا يجوز أن يبقى شيء من ذلك كله في أي

مكان. كان العمل صعباً جداً. خاصّة وأنه ما كان يمكن تسمية أي شيء له علاقة بتلك العملية باسمه الحقيقي. عمل كلّ شخص في قسم السجلات ثماني عشرة ساعة في اليوم، مع اقتطاع ساعتين أو ثلاث ساعات للنوم. جُلِبَت الفرشات من الأقبية وصُفّت في الممرات كلها. وجرى توزيع وجبات مكوَّنة من سندويشات مع قهوة النصر على عربات كان يدفعها العاملون في مطعم الوزارة. وكلما كان ونستون يترك العمل لينال قسطاً من النوم، كان يحاول أن يترك مكتبه نظيفاً خالياً من أي عمل. لكنه كلما عاد زاحفاً إلى حجرة عمله بعينين تؤلمانه فلا يكاد يستطيع فتحهما، كلما وجد ركاماً جديداً من الأسطوانات الورقية قد غطّى مكتبه مثل عاصفة ثلجية فدفن آلة الإملاء تقريباً وتساقط بعضه إلى الأرض. وهكذا كان عمله الأول، على الدوام، هو صفّ تلك الأسطوانات في كومة مرتبة حتى يفسح لنفسه حيزاً للعمل. والأسوأ من ذلك كلّه هو أن العمل لم يكن آلياً بحتاً. لقد كان استبدال اسم باسم كافياً في أحيانٍ كثيرة. لكن أي تقرير تفصيلي عن الأحداث كان يستدعي انتباهاً وخيالاً. بل إن المعارف الجغرافية اللازمة من أجل تحويل الحرب من جزء من العالم إلى جزء آخر كانت غير قليلة أيضاً.

ومع حلول اليوم الثالث، صار ألم عينيه غير محتمل، وصارت نظارته في حاجة إلى المسح كل بضع دقائق. كان الأمر يشبه مجاهدة عمل جسدي مضنٍ... شيء يملك المرء حق رفضه لكنه يحرص حرصاً عصبياً على إنجازه. وما كان ونستون يتذكر زمناً مرّ عليه كان فيه هلِعاً لحقيقة أن كل كلمة كان يهمسها في آلة الإملاء، وكل حرف يخطّه بقلمه، كان كذباً متعمَّداً. وكان مدركاً، مثل كل امرئ آخر في القسم، أن هذا التزوير يجب أن يتم من غير أن تشوبه شائبة. بدأ انهيار الأسطوانات يتراجع في صبيحة اليوم السادس. كان نصف ساعة يمر من غير أن يأتي شيء من الأنبوب. ثم تأتي أسطوانة واحدة. ثم لا شيء! كانت وتيرة العمل قد خفّت في كل مكان في الوقت عينه تقريباً. سَرَت في القسم كله زفرة ارتياح عميقة، لكن سرية! لقد تم إنجاز عمل هائل لم يكن يمكن ذكره أو الإشارة إليه أبداً. وقد صار من المستحيل على أي إنسان الآن أن يثبت بالدليل الوثائقي أن حرباً مع أوراسيا قد

حدثت في وقت من الأوقات. ثم أُعلن، على نحو غير متوقّع، عند الساعة الثانية عشرة، أن العاملين في الوزارة جميعاً قد صاروا أحراراً حتى صبيحة اليوم التالي. عاد ونستون إلى منزله حاملاً حقيبته وفيها الكتاب... حقيبته التي ظلّت بين قدميه طيلة فترة عمله، وتحت جسده خلال نومه في تلك الأيام. حلق ذقنه، وكاد يغفو في الحمّام رغم أن الماء لم يكن إلا فاتراً.

بنوع من الفرقعة اللذيذة في مفاصله، صعد ونستون درجات السلم فوق متجر السيد تشارينغتون. كان متعَباً، لكنه لم يعد نعساً. فتح النافذة، وأشعل الموقد الزيتي الصغير القذر، ووضع عليه غلّاية الماء ليصنع قهوة. ستصل جوليا في الحال. لكن لديه الكتاب ريثما تصل! جلس في الكنبة القذرة وفك حزامي حقيبته.

كان كتاباً ثقيلاً أسود اللون، مجلداً من غير احتراف، وليس له اسم أو عنوان على غلافه. بدت الطباعة أيضاً غير منتظمة بعض الشيء. وكانت الصفحات ممزقة الحواف سهلة الانفراط، كما لو أن الكتاب قد مرّ على أيدٍ كثيرة. كان العنوان على الصفحة الداخلية على النحو التالي:

حكم القلـة الشـمولي

النظرية والممارسة

بقلم

إيمانويل غولدشتاين

بدأ ونستون القراءة:

الفصل الأول

الجهل هو القوة

على امتداد التاريخ المسجَّل كلّه، بل ربما منذ نهاية العصر الحجري الحديث، كان في العالم أنواع ثلاثة من البشر، الطبقة العليا، والطبقة الوسطى، والطبقة الدنيا. وكان هؤلاء منقسمين إلى أقسام فرعية بطرق كثيرة. وحملت هذه الأقسام ما لا يُحصى من الأسماء، فضلاً عن أن أعدادها النسبية، إضافة إلى موقف كل منها

من البقيّة، قد شهدت اختلافاً من عصر إلى آخر: لكن بنية المجتمع الأساسية لم تتغير أبداً. وحتى بعد الهبّات الكبرى والتغيرات التي بدت كأنها لا عودة عنها، فقد ظل هذا النموذج يؤكد نفسه على الدوام، تماماً مثلما يستعيد الجيروسكوب توازنه دائماً مهما دُفِع إلى الانحراف في هذه الناحية أو تلك.

إن أهداف هذه الجماعات غير قابلة للتوفيق بينها على الإطلاق...

توقف ونستون عن القراءة، وذلك حتى يستوعب حقيقة أنه كان يقرأ... يقرأ في أمانٍ وراحة. لقد كان وحده: لا شاشة، ولا أذن تسترق السمع عند ثقب المفتاح، ولا توتّر أعصاب يدفعه إلى الالتفات خلفه أو إلى تغطية الصفحة بيده. راح نسيم الصيف العذب يداعب خده. ومن مكان بعيد جاءت صيحات الأطفال تطفو خافتة في الهواء. أما في الغرفة نفسها، فما كان من صوت إلا تكات الساعة الواهنة. دس ونستون جسده أعمق في الكنبة ومد ساقيه فوق حاجز المدفأة. أحسّ كما لو أنه في جنّة الخلد! وعلى نحوٍ مفاجئ، مثلما يفعل المرء بكتاب يعرف أنه سيعيد قراءته في النهاية كلمة فكلمة، فتح الكتاب على صفحة مختلفة فوجد نفسه في الفصل الثالث. راح يقرأ:

الفصل الثالث

الحرب هي السِّلم

كان انقسام العالم إلى دول كبرى ثلاث حَدَثاً يمكن توقّعه، بل جرى توقّعه فعلاً، منذ ما قبل أواسط القرن العشرين. فبعد أن ابتلعت روسيا أوروبا، وبعد أن ابتلعت الولايات المتحدة الإمبراطورية البريطانية، صارت اثنتان من القوى الثلاث موجودتين بالفعل: أوراسيا وأوقيانيا. وأما القوة الثالثة، إيستاسيا، فلم تظهر على هيئة وحدة قائمة بذاتها إلا بعد عقد كامل من القتال المضطرب. إن الحدود القائمة بين هذه الدول الثلاث الكبرى عشوائية في بعض الأماكن. وهي متغيّرة في مناطق أخرى بحسب تقلّبات الحرب، لكنها تسير عامة وفق خطوط جغرافية. تشتمل أوراسيا على القسم الشمالي من الكتلة الأوروبية الآسيوية، من البرتغال إلى مضيق بيرينغ. وتضم أوقيانيا الأمريكتين وجزر المحيط الأطلسي بما

فيها الجزر البريطانية، وأستراليا، والنواحي الجنوبية من أفريقيا. وتظل إيستاسيا أصغر حجماً من الدولتين الأخريين، ولها حدود غربية أقل تحديداً. وهي تضم الصين والبلاد الواقعة إلى الجنوب منها، فضلاً عن الجزر اليابانية وقسم كبير، وإن يكن غير ثابت، من منشوريا ومنغوليا والتيبت.

إن هذه الدول الكبرى الثلاث في حالة حرب دائمة، لكن ضمن تركيبة متغيرة. وهي على هذه الحال منذ خمسة وعشرين عاماً! لكن الحرب ما عادت ذلك الصراع الإفنائي اليائس مثلما كانت في العقود الأولى من القرن العشرين! إنها حرب جارية من أجل أهداف محدودة بين متقاتلين لا يستطيع أحدهم تدمير الآخر، وليس لها دافع مادي، ولا تحرّكها اختلافات إيديولوجية أصيلة من أي نوع كان. لا يعني هذا القول إن سَير الحرب، أو الموقف السائد إزاءها، قد صارا أقل تعطشاً للدم أو أكثر فروسية ونبلاً. بل على العكس من هذا، لا تزال هستيريا الحرب مستمرة شاملة في هذه البلدان كلّها؛ فضلاً عن أن ممارسة السلب والاغتصاب وذبح الأطفال واستعباد شعوب بأسرها والانتقام من السجناء انتقاماً يبلغ حد دفنهم أحياء أو رميهم في الماء المغلي، أمورٌ تعتبر طبيعية! بل هي تصير محل ترحيب وتقدير عندما ترتكبها جماعة المرء لا جماعة الأعداء! وأما بالمعنى المادي، فقد صارت المشاركة في الحرب مقتصرة على أعداد صغيرة جداً من البشر الذين هم، في أكثرهم، من الاخصائيين المدرَّبين تدريباً عالياً. وهذا ما يجعلها تودي بعددٍ أقل نسبياً من الأرواح. ويجري القتال، عندما يجري، عند الحدود الغامضة التي لا يعرف الناس العاديون مكانها إلا على وجه التخمين، أو من حول القلاع العائمة التي تحرس النقط الاستراتيجية على الممرات البحرية. وأما في المراكز الحَضَرية فإن الحرب لا تعني أكثر من نقص مستمر في السلع الاستهلاكية، وسقوط قنابل صاروخية من حين لآخر تودي بأرواح بضع عشرات من البشر. لقد تغيرت طبيعة الحرب في حقيقة الأمر. وإذا شئنا مزيداً من الدقة، يمكن القول إن ترتيب أهمية أسباب شن الحرب قد تغير. إن الدوافع التي كانت موجودة إلى حد ما في الحروب الكبرى

أوائل القرن العشرين قد صارت الآن دوافع مهيمنة، ويجري الاعتراف بها والعمل وفقاً لها على نحوٍ واعٍ مدرك.

ومن أجل فهم طبيعة الحرب الراهنة... ذلك أنها هي الحرب نفسها على الرغم من إعادة الاصطفاف التي تحدث كلّ بضع سنوات... يتعين على المرء أن يدرك في المقام الأول أن من المستحيل أن تكون هذه الحرب حاسمة. إنّ من غير الممكن هزيمة أي دولة من الدول العظمى الثلاث هزيمة حاسمة حتى إذا اجتمعت عليها الدولتان الأخريان. إنها دول متكافئة إلى حد كبير. كما أن دفاعاتها الطبيعية منيعة جداً. يحمي أوراسيا امتداد أراضيها الشاسع. ويحمي أوقيانيا امتداد المحيطين الأطلسي والهادي. وتحمي إيستاسيا شدة خصوبة سكانها وجدّهم في العمل. ثم إنه لم يعد هنالك شيءٌ من أجل الاقتتال عليه، بالمعنى المادي للكلمة. فمع إقامة اقتصادات الاكتفاء الذاتي، حيث يسير الإنتاج والاستهلاك يداً بيد، فإن التنافس على الأسواق الذي كان سبباً رئيسياً من أسباب الحروب السابقة قد انتهى. في حين أن التنافس على المواد الأولية لم يعد مسألة حياة أو موت. وهذا لأن لكل دولة من الدول العظمى الثلاث اتساع كبير يجعلها تحصل على كل ما يلزمها من مواد أولية تقريباً ضمن حدودها. وبقدر ما تكون للحرب غاية اقتصادية مباشرة، فإنها قد صارت حرباً من أجل القوة العاملة. فبين حدود الدول العظمى ثمة ما يشبه مضلّعاً تقع زواياه الأربع في طنجة وبرازافيل وداروين وهونغ كونغ يشتمل على أراضٍ لا تحوزها أي دولة عظمى حيازة دائمة ويعيش فيها زهاء خُمس سكان الأرض. تتصارع الدول الثلاث صراعاً مستمراً من أجل حيازة هذه المناطق كثيفة السكان ومن أجل وضع اليد على المنطقة المتجمدة الشمالية. وأما من الناحية العملية، فإن السيطرة على المناطق المتنازع عليها لم تتحقق أبداً لأي قوة من القوى الثلاث. فثمة أجزاء منها تنتقل من يد لأخرى على الدوام. وتتمثّل فرصة الاستيلاء على هذا الجزء أو ذاك في القيام بعمل مفاجئ من أعمال الخيانة التي تملي ذلك التغير المستمر في التحالفات.

تشتمل الأراضي المتنازع عليها كلّها على معادن ثمينة؛ كما أن بعضها ينتج

منتجات نباتية مهمة، كالمطاط الذي تضطر الدول إلى أساليب مرتفعة التكلفة لإنتاجه صناعياً في المناخات الباردة. لكنْ في هذه المناطق أيضاً مخزون لا ينضب من العمالة الرخيصة. فالقوة التي تسيطر على أفريقيا الاستوائية، أو على بلدان الشرق الأوسط، أو على جنوب الهند، أو على الجزر الأندونيسية، تسيطر أيضاً على أجساد عشرات، أو مئات الملايين من العمال المَهَرَة منخفضي الأجور. ويجري إنزال مرتبة سكان هذه المناطق، على نحو صريح أو غير صريح، إلى منزلة العبيد. وينتقلون على الدوام من سيطرة فاتح إلى آخر. ويجري استخدامهم مثلما يُستخدم الفحم أو النفط في ذلك السباق من أجل إنتاج أسلحة أكثر، والاستيلاء على أرض أكثر، والسيطرة على قدر أكبر من القوة العاملة، ومن أجل إنتاج المزيد من السلاح، ومن أجل الاستيلاء على مناطق أوسع، وهكذا دواليك من غير نهاية! وجدير أيضاً بالملاحظة أن القتال لا ينتقل عملياً إلى خارج حدود هذه المناطق المتنازَع عليها: تتقدّم حدود أوراسيا وتتراجع بين حوض نهر الكونغو والساحل الشمالي للبحر المتوسط. وتستولي أوقيانيا أو أوراسيا على جزر المحيطين الهندي والهادي أو تخسرهما. وأما في منغوليا، فإن الخط الفاصل بين أوراسيا وإيستاسيا لا يستقر على حال أبداً. وتزعم كل قوة من القوى الثلاث حقوقاً لها على مناطق شاسعة من حول القطب، لكنها في الواقع مناطق غير مأهولة، وأكثرها غير مستكشَف بعد: على أن ميزان القوى يظل على الدوام في حالة توازن تقريبي. وتظل المنطقة التي تشكّل قلب كل دولة من الدول العظمى سليمة على الدوام. ثم إن عمل الشعوب المستَغَلَّة ليس ضرورياً من أجل اقتصاد العالم في واقع الأمر. فهي لا تضيف شيئاً على ثروة العالم لأن كل ما تنتجه يستخدَم من أجل الغايات الحربية. كما أن الهدف من شن الحرب دائماً لا يعدو الاستيلاء على موقع يسمح بشن حرب أخرى. ومن خلال عملهم، فإن البشر المستَعبدين يسمحون لإيقاع الحرب المستمرّة بالتسارع. لكن بنية اقتصاد العالم والعملية التي يستمر من خلالها تظل من دون أي تغير أساسي حتى إذا كفَّ هؤلاء الناس عن الوجود.

إن الهدف الرئيسي من الحرب الحديثة (وفقًا لمبادئ التفكير المزدوج، فإن

العقول الموجِّهة في الحزب الداخلي تعترف بهذا الهدف ولا تعترف به في الوقت ذاته) هو استهلاك منتجات الآلة من دون رفع مستوى المعيشة العام. كانت مشكلة التصرف بفائض السلع الاستهلاكية مشكلة كامنة في المجتمع الصناعي منذ نهاية القرن التاسع عشر. أما الآن، عندما لا تحصل إلا قلة من البشر على كفايتها من الطعام، فمن الواضح أن هذه المشكلة لم تعد ملحّة. ولعلها لا تكون ملحة حتى في حال غياب آليات التدمير المصطنعة. إن عالم اليوم عالم عارٍ فقير خَرِب إذا ما قورن بالعالم الذي كان موجوداً قبل عام 1914. وتزداد المقارنة بؤساً إذا ما جرت مع ذلك المستقبل المتخيَّل الذي كان الناس في تلك الفترة يرجون قدومه. ففي أوائل القرن العشرين، كانت صورة مجتمع المستقبل، المجتمع الثري المرتاح المنظَّم الفعّال إلى حد لا يصدق... عالم متلألئ من الزجاج والفولاذ والإسمنت الأبيض بياض الثلج والنظيف، كانت هذه الصورة جزءاً من ضمير كل شخص متعلم تقريباً. كانت سرعة تطوّر العلوم والتكنولوجيا مذهلة. وبدا طبيعياً أن يفترض المرء أن ذلك التطوّر سوف يمضي قدماً. لكن هذا لم يحدث! وكان السبب في عدم حدوثه، في جزء منه، هو الإفقار الناجم عن سلسلة طويلة من الحروب والثورات، وكان في الجزء الآخر ناجماً عن أن التقدم العلمي والتقني كان معتمداً على تجريبية الفكر التي لم يكن لها أن تستمر حية في مجتمع موحد النسق على نحو صارم. وخلاصة الأمر هي أن العالم صار اليوم أكثر بدائية مما كان عليه قبل خمسين عاماً مضت. لقد شهد بعض المجالات المتخلّفة قدراً من التقدم. وجرى أيضاً تطوير آلات كثيرة، وكلّها مرتبط على نحو ما بالحرب أو بالتجسّس البوليسي؛ لكن التجربة والاختراع توقفا إلى حد كبير، فضلاً عن عدم الإصلاح الكامل للخراب الذي سبّبته الحرب الذرية في خمسينات القرن العشرين. لكن الأخطار الملازمة لوجود الآلة لا تزال موجودة على الرغم مما تَقَدَّم. فمنذ أن ظهرت الآلة أول مرة، كان واضحاً لكل صاحب عقل أن الحاجة إلى الكدح البشري المضني، وبالتالي إلى ذلك القدر الكبير من انعدام المساواة بين البشر، قد زالت. ولو جرى استخدام الآلة على نحو مقصود من أجل بلوغ تلك الغاية لزال الجوع والعمل الإضافي والجهل

والقذارة والمرض منذ عدة أجيال. أما في الواقع، وحتى من غير تعمُّد استخدام الآلة من أجل هذه الغايات، بل بفعل نوع من العملية التلقائية... من خلال إنتاج الثروة التي كان عدم توزيعها أمراً مستحيلاً في بعض الأحيان... فإن الآلة قد رفعت مستوى معيشة البشر رفعاً لا يُستهان به خلال فترة استمرت نحو خمسين عاماً أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين.

لكن، كان من الواضح أيضاً أن من شأن زيادة شاملة في الثروة أن تحمل خطر الدمار للمجتمع التراتبي... بل كانت دماراً له في حد ذاتها بمعنى من المعاني. ففي عالم يعمل فيه كل امرئ ساعات قليلة، ويحصل على كفايته من الطعام، ويعيش في بيت يحتوي على حمام وثلاجة، ويمتلك سيارة، بل حتى طائرة، فإن صيغة انعدام المساواة الأكثر وضوحاً، بل لعلها الأكثر أهمية، كانت لتختفي.

ولو أن الثروة صارت عامة ذات مرة لما كان لتلك الحال أن تنتهي. وما من شك في أنه كان ممكناً تخيل مجتمع تكون فيه الثروة، بمعنى المقتنيات الشخصية وأسباب الرفاهية، موزعة توزيعاً متساوياً؛ في حين تظلّ السلطة في أيدي قلة مميزة. لكن مجتمعاً من هذا القبيل لم يكن له أن يظلّ مستقراً من الناحية العملية! فإذا تمتّع الجميع بالأمان والرخاء على قدم المساواة، فإن الكتلة الكبرى من البشر التي يخدّرها الفقر عادة ستصبح متعلّمة وسوف تبدأ التفكير وحدها. وعندما تفعل ذلك، فسوف تدرك، عاجلاً أو آجلاً، أن القلة ذات الامتيازات عديمة النفع. وهذا ما سيجعلها تزيحها. وعلى المدى البعيد، فإن المجتمع التراتبي لم يكن ممكناً أن يقوم ويستمر إلا على أساس استمرار الفقر والجهل. وأما العودة إلى الماضي الزراعي، مثلما كان يحلم عدد من المفكرين أوائل القرن العشرين، فلم تكن بالحل العملي. إنها نقيض المَيْل صوب المكننة الذي صار شبه غريزي في العالم كلّه تقريباً. هذا فضلاً عن أنّ أي بلدٍ يتخلّف من الناحية الصناعية سيصبح ضعيفاً من الناحية العسكرية مما يسمح لخصومه الأكثر تقدماً بإخضاعه على نحو مباشر أو غير مباشر.

ولم يكن حلاً مرضياً أيضاً أن يترك الجمهور في حالة فقر عن طريق تقليل إنتاج السلع. حدث هذا، إلى حد كبير، خلال الفترة الأخيرة من الرأسمالية، أي

بين 1920 و1940 تقريباً. تُركَ اقتصاد بلدان كثيرة يصل إلى حالة ركود. وجرى التوقف عن زراعة أراضٍ كثيرة. ولم تشهد التجهيزات والأصول الرأسمالية زيادة. ومُنِعت كتل كبيرة من البشر من العمل فعاشت حياة بائسة تعتمد على الإحسان الحكومي. لكنَّ هذا أفضى إلى ضعف عسكري أيضاً. وبما أن حالة الحرمان الناتج عن تلك الحال لم يكن لها ما يبرّرها، فقد صار ظهور المعارضة أمراً لا فرّ منه. وكانت المشكلة هي كيفية المحافظة على دوران عجلة الصناعة من غير زيادة الثروة الحقيقية في العالم. لا بد من إنتاج السلع؛ لكن لا يجوز توزيعها. من الناحية العملية، كانت الحرب المتواصلة سبيلاً وحيداً إلى تحقيق ذلك.

التدمير هو العمل الأساسي للحرب؛ لكن ذلك ليس تدميراً للأرواح البشرية بالضرورة، بل لمنتجات العمل البشري. إن الحرب طريقة من أجل تبديد المواد التي من شأنها، بغير ذلك، أن تُستخدم لجعل الجمهور مرتاحاً أكثر مما يجب مما يعني جعله ذكياً أكثر مما يجب على المدى البعيد؛ أو هي طريقة لدفع تلك المواد إلى الفضاء أو إغراقها في أعماق البحار. وحتى عندما لا يجري تدمير أسلحة الحرب تدميراً فعلياً، فإن صناعتها تظل طريقةً مناسبةً من أجل توسيع قوة العمل من غير إنتاج أي شيء يمكن استهلاكه. إن بناء قلعة عائمة على سبيل المثال يتطلّب عملاً يكفي لبناء عدة مئات من سفن الشحن. وفي النهاية، فإنها تصبح قديمة عتيقة لا تصلح للاستعمال من غير أن تكون قد حققت أي نفع مادّي لأي إنسان. وهكذا يجري استخدام مزيد من طاقات العمل البشري لبناء قلعة عائمة جديدة. ومن حيث المبدأ، فإن المجهود الحربي مصمَّم دائماً بحيث يلتهم أي فائض ممكن بعد تلبية احتياجات السكان الأساسية التي لا بد منها. وأما من حيث الممارسة العملية، فإن حاجات السكان تقدَّر بأقل من حقيقتها دائماً مما يؤدي إلى وجود نقص مزمن في ضروريات الحياة. لكن هذا النقص يعتبر مزية! إنه سياسة مقصودة من أجل المحافظة، حتى على الجماعات التي تحظى ببعض المزايا، على شفا الوقوع في العوَز والحاجة. وهذا لأن حالة الندرة العامة تزيد أهمية المزايا الصغيرة فتجعل الفارق بين جماعة وأخرى أكثر وضوحاً. فإذا أخذنا معايير بداية القرن العشرين نجد أن

عضو الحزب الداخلي نفسه يعيش حياة تتسم بالتقشف والجهد المضني. على أن المسرّات القليلة التي يستمتع بها... شقّته الكبيرة ذات الموقع الحسن، والقماش المستخدَم لصنع ملابسه، وجَودة غذائه وشرابه وتبغه، وخادميه الاثنين أو خدمه الثلاثة، وسيارته الخاصة، أو حتى طائرته... تجعله في عالم مختلف عن عالم عضو الحزب الخارجي. كما أن لعضو الحزب الخارجي مزايا مماثلة إذا ما قورن بالجمهور الغارق إلى القاع، الجمهور الذي نطلق عليه اسم «العامة». ويصبح الجو العام أشبه بجَوّ مدينة محاصرة حيث يكون امتلاك قطعة من لحم الخيل فارقاً بين الغنى والفقر. وفي الوقت عينه، فإن إدراك المرء أنه في حالة حرب، وبالتالي في حالة خطر، يجعل القبول بوجود السلطات كلها بيد جماعة صغيرة من الناس أمراً طبيعياً، بل شرط ضروري من شروط البقاء.

وسوف نرى أن الحرب تنجز التدمير المطلوب، لكنها تنجزه على نحوٍ مقبول من الناحية النفسية. فمن السهل تماماً، من حيث المبدأ أن يجري إتلاف العمل الفائض عن طريق بناء معابد وأهرامات، أو عمل حفر كبيرة ثم ردمها من جديد، أو حتى عن طريق إنتاج كميات هائلة من السلع ثم إضرام النار فيها. لكن من شأن هذا أن يقتصر على توفير الأساس المادّي للمجتمع التراتبي من غير توفير الأساس العاطفي له. فليست المسألة هنا متعلّقة بالحالة المعنوية للجماهير، لأن موقفها غير مهم طالما أمكن جعلها تظل منكبّة على عملها؛ بل هو الحالة المعنوية للحزب نفسه! فمن المنتظر، حتى من أبسط أعضاء الحزب، أن يتسم بالكفاءة والجد، بل حتى بالذكاء ضمن حدود ضيّقة. على أن من الضروري أيضاً أن يكون عضو الحزب سريع التصديق وأن يكون متعصّباً جاهلاً يسود مزاجه الذعر والكره والتملّق الذليل والهياج الجماعي المنتصر. ويمكن التعبير عن ذلك بطريقة أخرى، هي أن من الضروري أن يمتلك عضو الحزب العقلية الملائمة لحالة الحرب. وليس من المهم أن تكون الحرب جارية فعلاً طالما أن الانتصار الحاسم أمر مستحيل الحدوث. بل لا أهمية أيضاً لأن يكون سير الحرب حسناً أو سيئاً. كل ما يلزم هو وجود حالة الحرب نفسها. لقد صارت حالة الوعي المنقسم التي يطلبها

الحزب من أعضائه، والتي يصبح تحقيقها أكثر سهولة في مناخ الحرب، حالة شبه عامة الآن. على أنها تصبح أكثر قوّة وظهوراً كلما ارتفع المرء في التراتبية الحزبية. ففي الحزب الداخلي تحديداً، نجد أن الهستيريا والكراهية تجاه العدو تبلغ أقصاها. وغالباً ما يكون ضرورياً أن يعرف عضو الحزب الداخلي أن هذا الخبر أو ذاك عن الحرب غير صحيح، فهذا متاح له باعتباره من المديرين. بل قد يكون مدركاً، في حالات كثيرة، أن الحرب كلها زائفة وأنها غير موجودة أصلاً، أو أنها موجودة لكنها تُشن لغايات مختلفة تمام الاختلاف عن الغايات المعلنة. لكن من السهل تحييد هذه المعرفة عن طريق أسلوب التفكير المزدوج. وضمن هذا الإطار كله، لا يتخلى أي عضو من أعضاء الحزب الداخلي، لحظة واحدة، عن إيمانه السحري بأن الحرب حقيقية. وبأن نهايتها لا بد أن تكون نصراً يجعل أوقيانيا سيدة على العالم كله لا ينازعها أحد فيه.

إن أعضاء الحزب الداخلي جميعاً يعتقدون اعتقاداً إيمانياً بهذا الفتح القادم. ولسوف يتم تحقيقه إما عن طريق الاكتساب التدريجي لمزيد من الأراضي بحيث يجري بناء قوة طاغية لا سابق لها، أو عن طريق اكتشاف سلاح جديد لا سبيل إلى مواجهته. ويستمر البحث عن أسلحة جديدة من غير انقطاع، بل هو واحد من النشاطات القليلة الباقية التي يمكن للعقول التأملية المجددة أن تجد لنفسها متنفَّساً فيها. لقد كفّ العلم، بالمعنى القديم للكلمة، عن الوجود في أوقيانيا الآن! وما من وجود لكلمة «علم» في اللغة الجديدة. وأما الطرق التجريبية في التفكير، التي قامت عليها منجزات الماضي العلمية كلها، فصارت مخالفة للقسم الأكبر من المبادئ التأسيسية في الاشتراكية الإنجليزية، أي إشتنج. بل إن التقدم التقني نفسه لا يحدث إلا حين يكون من الممكن توظيف منتجاته من أجل مزيد من تقليل حرية البشر. وفي الفنون والعلوم المفيدة كلها، يقف العالم ساكناً في مكانه أو يعود إلى الخلف. تجري حراثة الحقول بمحاريث تجرّها الخيل، في حين يتم تأليف الكتب عن طريق الآلات. أما في المسائل ذات الأهمية الحيوية... أي الحرب والتجسس البوليسي... فلا يزال ثمة تشجيع للمنهج التجريبي، أو تسامح مع استمراره على

أقل تقدير. ثمة هدفان اثنان للحزب: فتح البسيطة كلها؛ وإفناء إمكانية التفكير المستقل إفناء نهائياً. إذاً، فإن ثمة مشكلتين اثنتين يهتم الحزب بإيجاد حل لهما. الأولى هي كيفية اكتشاف ما يفكر فيه الفرد، من غير إرادته؛ وكيفية التوصل إلى قتل عدة مئات ملايين البشر في ثوانٍ معدودة من غير إنذار مسبق. هذان هما موضوعا العلم الذي لا يزال مستمراً! فالعالِم في هذا الزمان إما أن يكون مزيجاً من المحقِّق والاختصاصي النفسي الذي يدرس بدقة حقيقية اعتيادية تعابير الوجوه والحركات ونبرات الصوت، ويختبر مفعول الأدوية والمعالجة بالصدمة والتنويم المغناطيسي والتعذيب الجسدي التي تجعل الناس ينطقون بالحقيقة؛ أو هو كيميائي أو فيزيائي أو عالم أحياء مهتم بمجاله العلمي ذات الصلة بالقدرة على إزهاق الحياة. وفي المخابر الكبيرة الموجودة لدى وزارة السِّلم، كما في محطات الاختبار القائمة في غابات البرازيل أو في الصحراء الأسترالية أو في جزر ضائعة في القارة المتجمدة الجنوبية، تعكف فرق الخبراء على عملها من غير كلل. يهتم بعض هذه الفرق بوضع خطط ووسائل تمويل الحروب القادمة. وتستنبط فرق أخرى قذائف صاروخية أكبر حجماً وأشد قوة انفجارية وأكثر قدرة على اختراق الدروع. ويهتم غيرهم بغازات جديدة أكثر قدرة على القتل أو بسموم قابلة للذوبان يمكن إنتاجها بكميات كافية لقتل النبات في قارة كاملة، أو يبحث عن سلالات من الجراثيم الفتّاكة العصية على أي نوع من أنواع المضادات الحيوية. ويعكف آخرون على إنتاج مركبات قادرة على شقّ طريقها تحت التربة مثلما تفعل الغواصات تحت الماء، أو طائرات تطير مستقلة عن قواعدها مثلما تسير السفن الشراعية في البحر؛ ويستكشف آخرون إمكانياتٍ أكثر بعداً، وذلك من قبيل إمكانية تركيز أشعة الشمس عن طريق عدسات معلّقة على ارتفاع آلاف الكيلومترات في الفضاء، أو إنتاج هزات أرضية اصطناعية وأمواج مَدّية باستخدام حرارة باطن الأرض.

لكن أياً من هذه المشاريع لم يقيَّض له التنفيذ في أي مكان! وما حققت واحدة من الدول العظمى الثلاث تقدماً ظاهراً على غيرها. ولعل ما يستحق الإشارة إليه أكثر من ذلك هنا هو أن القوى الثلاث كلها تمتلك بالفعل، على هيئة قنابل ذرية،

أسلحة أقوى بكثير من أي أسلحة قد يفلح الباحثون المعاصرون في اكتشافها. وعلى الرغم من زعم الحزب، وفق ما اعتاده، بأنه اخترع القنابل الذرية بنفسه، فإن أول ظهور لها كان في أربعينات القرن العشرين، ثم استخدمت على نطاق واسع أول مرة بعد ذلك بعشر سنوات. وفي ذلك الوقت جرى إلقاء عدة مئات من تلك القنابل على مراكز صناعية، أكثرها في الشطر الأوروبي من روسيا وأوروبا الغربية وشمال أميركا. وكانت النتيجة أن اقتنعت الجماعات الحاكمة في البلدان الثلاثة كلها أن مزيداً من استخدام القنابل الذرية سوف يعني إفناء المجتمع المنظَّم كلّه، بما في ذلك سلطتها هي. ومن هنا ورغم عدم التوصل، أو عدم الإشارة إلى أي اتفاقية بهذا الصدد، فإن إلقاء القنابل الذرية قد توقَّف تماماً. وتكتفي الدول الثلاث بمواصلة إنتاج تلك القنابل وتخزينها في انتظار الفرصة الحاسمة التي تؤمن كل دولة من هذه الدول بأنها سوف تسنح لها عاجلاً أو آجلاً. وفي غضون ذلك، ظلّ فن الحرب في حالة ثباتٍ منذ ثلاثين أو أربعين عاماً. وازداد استخدام الحوّامات عن ذي قبل. وأما القذائف ذات الدفع الذاتي فقد حلّت محل الطائرات القاذفة إلى حد كبير. وتنحّت السفن الحربية المتحرّكة سهلة العطب جانباً لتفسح المجال أمام القلاع العائمة التي لا سبيل إلى إغراقها تقريباً. وأما غير هذا فقد كان التطور محدوداً جداً. ويستمر استخدام الدبابات والغوّاصات والطوربيدات والرشاشات، بل حتى البنادق والقنابل اليدوية. وعلى الرغم مما يذيعه الإعلام في الشاشات عن المذابح التي لا نهاية لها، فإن حروب الماضي اليائسة التي كان يقتل فيها في غضون أسابيع قليلة مئات ألوف الرجال، أو ملايين الرجال، لم تعد تتكرّر أبداً.

ولا تحاول أي قوة من القوى العظمى الثلاث القيام بأي مغامرات حربية قد تشتمل على خطر الهزيمة الجدية. وعند القيام بأي عملية كبرى، فعادة ما تكون هجوماً مفاجئاً ضد الحليف! إن الاستراتيجية التي تعتمدها القوى الثلاث كلّها، أو التي تتظاهر باعتمادها، هي نفسها. وتقوم الخطة على اكتساب حلقة من القواعد التي تحيط بواحدة من الدول المنافسة الأخرى إحاطة تامة عن طريق مزيج من القتال وإبرام الصفقات والضربات حسنة التوقيت. وبعد ذلك يجري توقيع

معاهدة صداقة مع تلك الدولة الخصم وتجري المحافظة على السلام معها سنوات كثيرة ريثما يتضاءل الشك. وخلال هذا الوقت، يمكن تجميع الصواريخ المحمَّلة برؤوس نووية في المواقع الاستراتيجية. وأخيراً، سوف يجري إطلاقها كلها في وقت واحد ليكون لها أثر مدمر فظيع إلى حد يجعل الرد الانتقامي مستحيلاً. وعند ذلك يحين وقت توقيع معاهدة صداقة مع الدولة العظمى الباقية استعداداً لهجوم آخر عليها. ويكاد يكون غير ضروري القول إن هذه الخطة ليست إلا أحلام يقظة يستحيل تحقّقها. بل إن أي قتال لم يعد يجري أصلاً إلا في المناطق المتنازَع عليها الواقعة حول خط الاستواء وحول القطب: ولا يجري أبداً القيام بأي غزو لأراضي الأعداء. وهذا ما يفسر حقيقة كون الحدود بين الدول العظمى لا تزال اعتباطية في بعض الأماكن. إن من السهل على أوراسيا، على سبيل المثال، أن تغزو الجزر البريطانية التي هي جزء من أوروبا من الوجهة الجغرافية؛ كما يسهل على أوقيانيا أيضاً أن تدفع بحدودها شرقاً حتى نهر الراين، أو حتى نهر فيستولا. لكن من شأن هذا أن يخرق مبدأ الوحدة الثقافية الذي تعتمده القوى الثلاث كلّها. فإذا فتحت أوقيانيا تلك المناطق التي كانت معروفة باسم فرنسا وألمانيا، فسوف يكون من الضروري إبادة سكانها، وهذه مهمة شديدة الصعوبة من الناحية المادية، أو استيعاب وهضم كتلة سكانية تقارب مئة مليون إنسان من البشر الذين يقفون عند مستوى تطوّر تقني يعادل ما تمتلكه أوقيانيا عامة. نجد هذه المشكلة نفسها لدى الدول العظمى الثلاث جميعاً. فمن الضروري ضرورة مطلقة لبنية هذه الدول أن ينعدم أي اتصال مع الأجانب، اللهم ما خلا قدر محدود من التواصل مع سجناء الحرب والعبيد الملوَّنين. بل إن ثمة ظلاً ثقيلاً من الشك يحيط دائماً حتى بالحلفاء الرسميين في الآونة الأخيرة. فإذا وضعنا سجناء الحرب جانباً، فإن المواطن العادي في أوقيانيا لا يبصر أبداً مواطناً من أوراسيا أو إيستاسيا. وهو ممنوع من تعلم لغات أجنبية أيضاً. ولو سُمح له بالتواصل مع أجانب فسوف يكتشف أنهم بشر يشبهونه وأن معظم ما قيل له عنهم لم يكن إلا كذباً. وعند ذلك فسوف يتشظّى العالم المغلق الذي يعيش فيه، وقد يتبخّر خوفه وكرهه واعتقاده بصلاحه الذاتي، وهي الأشياء

التي تقوم عليها روحه المعنوية الحالية. وهذا ما يجعل الأطراف كلّها مدركة أن أي شيء، عدا القنابل، لا يجوز أن يجتاز الحدود الرئيسية، بصرف النظر عن انتقال أماكن مثل فارس أو مصر أو جاوا أو سيلان من يد لأخرى.

تحت هذا كله تكمن حقيقةٌ لا يجري التعبير عنها علناً رغم التفاهم عليها ضمناً ورغم العمل بموجبها: يجب أن تكون شروط الحياة في الدول العظمى الثلاث كلها شديدة التشابه. تسمّى الفلسفة السائدة في أوقيانيا باسم إشتنج. وتسمّى باسم البلشفية الجديدة في أوراسيا. وهي تحمل في إيستاسيا اسماً صينياً يترجم عادة إلى «عبادة الموت»، لكن لعل من الأفضل استخدام تعبير «محو الذات». وليس مسموحاً للمواطن في أوقيانيا أن يعرف شيئاً عن الفلسفتين الأخريين. لكنهم يعلمونه شجبهما باعتبارهما اعتداءين بربريين على الأخلاق والحس السليم. إن التمييز بين الفلسفات الثلاث يكاد يكون متعذراً من الناحية الفعلية. كما أن الأنظمة الاجتماعية التي تحملها غير قابلة للتمييز في ما بينها على الإطلاق. ونجد، في كل مكان، البنية الهرمية التراتبية نفسها، وعبادة القائد شبه الإله نفسها، والاقتصاد نفسه الذي يقوم على الحرب ومن أجل الحرب. وينتج من هذا أن أي دولة من الدول الثلاث العظمى جميعاً ليست عاجزة عن قهر غيرها فحسب، بل إنها لا تربح شيئاً إن هي فعلت ذلك. وعلى العكس تماماً، فطالما ظلّت في حالة نزاع، فإنها تدعم إحداها الأخرى أيضاً مثلما تقف ثلاث حُزم من عيدان الذرة متساندة معاً. وكما هي العادة، فإن المجموعات الحاكمة في الدول العظمى الثلاث كلها مدركة وغير مدركة لأفعالها، في الوقت عينه. إن حياة هؤلاء الناس مكرَّسة لهذا الصراع العالمي. لكنهم يعرفون أيضاً أن من الضروري أن تستمر الحرب من غير هزيمة ومن غير نصر. كما أن حقيقة انعدام خطر الغزو تجعل إنكار الحقيقة أمراً ممكناً. وهذا الإنكار سمة خاصة بارزة في إشتنج كما في نظامي التفكير الآخرين! ومن الضروري الآن أن نكرر ما سقناه آنفاً من أن الحرب قد تغيرت تغيراً أساسياً لأنها قد صارت حرباً مستمرة.

كانت الحرب في الماضي، من حيث التعريف تقريباً، شيئاً لا بد أن ينتهي بنصر

أو هزيمة واضحَين، عاجلاً أو آجلاً. وفي الماضي أيضاً، كانت الحرب أداة من الأدوات الرئيسية التي تحافظ المجتمعات البشرية من خلالها على صلتها بالواقع. وقد حاول الحكام في العصور كلها أن يفرضوا على محكوميهم نظرة زائفة إلى العالم. لكنهم لم يكونوا بقادرين على تحمل عواقب تشجيع أي أوهام يمكن أن تؤدي إلى إضرارٍ بالكفاءة العسكرية. وبما أن الهزيمة كانت تعني خسارة الاستقلال، أو أي نوع آخر من النتائج غير المرغوب فيها عامة، فقد كانت الجدية أمراً ضرورياً في الاحتياطات المتّخذة لاتقاء الهزيمة. ولم يكن يمكن تجاهل الحقائق المادية. ففي الفلسفة أو الدين أو الأخلاق أو السياسة، يمكن أن يكون حاصل اثنين واثنين خمسة! أما عندما يتعلّق الأمر بتصميم بندقية أو طائرة فلا بد أن يساوي هذا الحاصل أربعة. كانت الأمم التي لا تتّسم بالكفاءة تقع فريسة الفتح عاجلاً أو آجلاً. وكان التسابق من أجل إحراز الكفاءة عدوّاً للأوهام. وحتى يحقق المرء الكفاءة فقد كان ضرورياً أن يتعلم من الماضي. وهذا ما كان يعني ضرورة توفر فكرة دقيقة إلى حد معقول عما حدث في ذلك الماضي. صحيح أن الصحف وكتب التاريخ كانت متلوّنة منحازة على الدوام، لكن تزويراً من النوع الذي يجري اليوم كان أمراً مستحيلاً. كانت الحرب صوناً حقيقياً للعقل وحماية له... بل لعلها كانت أيضاً، وبقدر ما كانت الطبقات الحاكمة مهتمة بهذا، أكثر تلك الحمايات أهمية. كما كان عدم مسؤولية الطبقة الحاكمة أمراً مستحيلاً عندما كان يمكن للحرب أن تنتهي بنصر أو خسارة.

لكن الحرب لم تعد خطيرة عندما صارت مستمرة بالمعنى الحرفي للكلمة. فعندما تكون الحرب مستمرة ينعدم وجود شيء من قبيل الضرورة العسكرية. ويمكن أن يتوقّف التقدم التقني وأن يجري إنكار أو إهمال أكثر الحقائق وضوحاً. وكما رأينا، فإن الأبحاث التي يمكن اعتبارها علماً ظلت مستمرة لغايات حربية. لكنها نوع من أحلام اليقظة في جوهرها، وما من أهمية أبداً لفشلها في التوصل إلى أي نتائج. وحتى الكفاءة العسكرية نفسها لم تعد موضع حاجة! لا شيء يتسم بالكفاءة في أوقيانيا إلا شرطة الفكر. وبما أن كل واحدة من الدول العظمى الثلاث دولة غير

قابلة للهزيمة، فإن كل واحدة منها كونٌ قائم بذاته يمكن أن يجري فيه أي نوع من أنواع فساد الفكر أو انحرافه. إن الواقع لا يمارس ضغطه إلا من خلال حاجات الحياة اليومية... الحاجة إلى الطعام والشراب والمأوى واللباس، وضرورة تجنّب تناول السم أو القفز من نوافذ الطوابق العليا، وهكذا دواليك. ما زال التمييز بين الحياة والموت موجوداً، ومثله التمييز بين المتعة الجسدية والألم الجسدي... لكن هذا كل شيء! إن المواطن في أوقيانيا، المعزول عن التواصل مع العالم الخارجي ومع الماضي، يشبه رجلاً معلقاً في الفضاء بين النجوم. بحيث تنعدم لديه وسيلة التمييز بين الأعلى والأسفل. إن حكام دولة من هذا القبيل حكام مطلقون، على نحوٍ لم يكن الفراعنة ولا القياصرة بقادرين عليه. إنهم مضطرون إلى الحيلولة دون فناء محكومهم جوعاً بأعدادٍ كبيرة إلى حد غير مقبول. كما أنهم مضطرون إلى التزام مستوى التقنية العسكرية المنخفض نفسه الذي يلتزمه خصومهم. لكنهم، بعد تحقيق هذه الحدود الدنيا، قادرون على تطويع الواقع وليّه في أي اتجاه شاؤوا.

من هنا، فإن الحرب ليست إلا دجلاً وخداعاً إذا ما حكمنا عليها بمعايير الحروب الماضية. إنها أشبه بمعارك تدور بين حيوانين مجترَّين معقوفة قرونهما على نحو يجعل إيذاء أحدهما الآخر مستحيلاً. لكنها ليست عديمة المعنى رغم أنها غير حقيقية! إنها تلتهم فائض السلع الاستهلاكية وتساعد في الحفاظ على المناخ الذهني الخاص الذي يستلزمه المجتمع التراتبي. وسوف يُنظَر إلى الحرب الآن باعتبارها شأناً داخلياً محضاً! كانت الجماعات الحاكمة في الماضي، في مختلف البلدان، تتقاتل في ما بينها فعلاً رغم إدراكها لوجود مصالح مشتركة بينها... وهو إدراك يجعلها تحد من تدميرية الحرب الدائرة. وكان الغالب ينهب المغلوب دائماً. أما في أيامنا هذه فلا يقاتل أحدهم الآخر على الإطلاق! تُشنّ الحرب من قبل كل مجموعة حاكمة ضد رعاياها هي. وليس موضوع الحرب هو فتح مناطق أخرى أو منع غزوها، بل المحافظة على بنية المجتمع كما هي. إن كلمة حرب نفسها تصبح إذًا كلمة مضلِّلة. ولعله يصبح من الصائب القول إن الحرب كفّت عن الوجود مُذ صارت مستمرة! وقد اختفى منها الضغط الذي مثّله التقاتل على حياة البشر بين العصر الحجري

الحديث وأوائل القرن العشرين فحل محله شيء مختلف تمام الاختلاف. ولسوف يحصل الأثر نفسه إذا ما اتفقت الدول العظمى الثلاث على العيش في سلم أبدي بدلاً من التقاتل ما بينها، وذلك بحيث تظل كل واحدة منها آمنة ضمن حدودها. وذلك لأنها تظل في تلك الحالة أكواناً قائمة، كلاً بذاته، متحرّرة إلى الأبد من أثر الخطر الخارجي الذي يجعلها في يقظة دائمة. ومن شأن سلم يكون دائماً بالفعل أن يكون مثل الحرب الدائمة! وهذا هو المعنى الداخلي لشعار الحزب «الحرب هي السِّلم» رغم أن الأكثرية الغالبة من أعضاء الحزب يفهمون هذا الشعار فهماً شديد الضحالة.

توقف ونستون عن القراءة لحظة. وفي مكان ما، دوى انفجار قذيفة صاروخية في البعيد. ما زال إحساس الهناءة الناجم عن كونه وحده مع الكتاب المحظور في غرفة لا شاشة فيها ماثلاً لم يتلاش. كان الأمان والوحدة إحساسين ماديين ممتزجين على نحو ما مع إرهاق جسده ومع نعومة الكنبة ولمسة النسيم الرقيق الآتي من النافذة مداعباً خدّه. لقد سحره الكتاب، بل طمأنه، إن شئنا الدقة. لم يقل له الكتاب شيئاً جديداً، لكن ذلك كان جزءاً من جاذبيته! لقد قال ما كان ونستون ليقوله بنفسه لو قيّض له أن يجمع شتات أفكاره. لقد كان نتاج عقل يشبه عقله، لكنه أكثر منه قوة ومنهجية بكثير، وأكثر منه انعتاقاً من الخوف. أدرك ونستون أن أفضل الكتب هي تلك التي تقول لك ما تعرفه بالفعل. كان قد عاد إلى الفصل الأول عندما سمع وقع خطوات جوليا على السلم فنهض ليلقاها. ألقت حقيبة الأدوات البنية على الأرض ورمت نفسها بين ذراعيه. لقد مرّ أكثر من أسبوع منذ أن رأى واحدهما الآخر.

قال لها عندما انفكّ عناقهما: «لقد حصلت على الكتاب».

قالت من غير كبير اهتمام: «أوه! هل حصلت عليه؟ جيد». وركعت من فورها تقريباً إلى جانب الموقد لتُعدّ القهوة.

لم يعودا إلى الموضوع إلا بعد أن أمضيا نصف ساعة في الفراش. كانت برودة الأمسية كافية لجعلهما يجذبان اللحاف فوقهما. ومن الأسفل جاء صوت الغناء

المألوف وجرجرة الأحذية على الأرض الحجرية. كانت المرأة مفتولة العضلات حمراء الذراعين التي رآها ونستون عندما جاء أول مرة أشبه بمَعْلم ثابت من معالم الباحة الخلفية. وبدا له أن ما من ساعة من ساعات النهار تمر من غير أن تخطر تلك المرأة ذهاباً وإياباً بين وعاء الغسيل والحبل... سادّة فمها بمشابك الغسيل حيناً ومنطلقة في أغنية بهيجة حيناً آخر. كانت جوليا قد اتكأت على جانبها وبدا أنها موشكة على الإغفاء. مد ونستون يده إلى الكتاب القابع على الأرض وجلس مسنداً جسده إلى رأس السرير.

قال لها: «علينا أن نقرأ الكتاب! أنت أيضاً! على أعضاء الأخوية جميعاً قراءة هذا الكتاب».

قالت جوليا بعينين مغمضتين: «اقرأ أنت. اقرأ بصوت مرتفع. إنها الطريقة المثلى. وعندها، تستطيع أن تشرح لي الكُتاب مع القراءة».

أشارت عقارب الساعة إلى السادسة، أي إلى الساعة الثامنة عشرة. لا يزال لديهما ثلاث أو أربع ساعات. أسند الكتاب إلى ركبتيه وبدأ القراءة:

الفصل الأول

الجهل هو القوة

على امتداد التاريخ المسجّل كلّه، بل ربما منذ نهاية العصر الحجري الحديث، كان في العالم أنواع ثلاثة من البشر، الطبقة العليا، والطبقة الوسطى، والطبقة الدنيا. وكان هؤلاء منقسمون إلى أقسام فرعية بطرق كثيرة. وحملت هذه الأقسام ما لا يُحصى من الأسماء، فضلاً عن أن أعدادها النسبية، إضافة إلى موقف كل منها من البقية، قد شهدت اختلافاً من عصر إلى آخر: لكن بنية المجتمع الأساسية لم تتغير أبداً. وحتى بعد الهبّات الكبرى والتغيرات التي بدت كأنها لا عودة عنها، فقد ظلّ هذا النموذج يؤكد نفسه على الدوام، تماماً مثلما يستعيد الجيروسكوب توازنه دائماً مهمّا دُفِع إلى الانحراف في هذه الناحية أو تلك.

قال ونستون: «جوليا! هل أنت مستيقظة؟».

«نعم يا حبيبي. إنني مصغية إليك. تابع القراءة. هذا رائع».

تابع ونستون القراءة:

إن أهداف هذه الجماعات غير قابلة للتوفيق بينها على الإطلاق. تريد الطبقة العليا أن تبقى حيث هي. وتريد الطبقة الوسطى أن تحلَّ محلها. وأما هدف الطبقة الدنيا، عندما يكون لها هدف... لأن من الخصائص الملازمة للطبقة الدنيا أنها مسحوقة تحت وطأة بؤسها إلى درجة لا تكاد تجعلها قادرة على إدراك شيء خارج مقتضيات حياتها اليومية، إلا لماماً... فهو إلغاء التمايزات كافة وإقامة مجتمع يتساوى فيه الناس جميعاً. ومن هنا، فقد امتد على طول التاريخ صراع متكرر مرة بعد مرة وله الخطوط الأساسية ذاتها. كانت الطبقة العليا تبدو مستقرة في السلطة زمناً طويلاً. لكن لحظة تأتي، عاجلاً أو آجلاً، تفقد عندها إيمانها في نفسها أو قدرتها على الحكم بفعالية، أو الأمرين معاً. وعند ذلك تطيح بها الطبقة الوسطى التي تجنِّد الطبقة الدنيا في صفها عبر تظاهرها أمامها بأنها تقاتل من أجل الحرية والعدالة. وفور وصول الطبقة الوسطى إلى هدفها، فإنها تعيد الطبقة الدنيا إلى موقعها العبودي السابق وتجعل من نفسها طبقة عليا. وفي الحال تنشأ طبقة وسطى جديدة منشطرة من واحدة من الجماعتين، أو من الجماعتين معاً، ويبدأ الصراع نفسه من جديد. ومن بين المجموعات الثلاث، تتميز الدنيا وحدها بأن النجاح لم يكن يوماً من الأيام حليفاً لها في تحقيق أهدافها. لعل من المبالغة القول إن التاريخ لم يعرف أي تقدم على المستوى المادي! فحتى اليوم، في زمن الانحدار هذا، يعيش البشر في مستوًى مادّي أفضل مما كانوا عليه قبل بضعة قرون مضت. لكن قضية المساواة بين البشر لم تتقدم ميليمتراً واحداً، لا عبر زيادة الثروة ولا عبر تحسّن الأحوال ولا الإصلاح ولا الثورة! ومن وجهة نظر الطبقة الدنيا، لم يكن لأي تغير تاريخي أي معنى يتجاوز تغيير أسماء السادة.

ومع أواخر القرن التاسع عشر، صار تكرار الأحداث على هذا المنوال أمراً واضحاً لكثير من المراقبين. فنشأت في تلك الآونة مدارس فكرية فسّرت التاريخ على أنه عملية دورانية، وزعمت أن انعدام المساواة قانون من قوانين

الحياة البشرية لا سبيل إلى تغييره. وقد كان لهذه النظرية أتباعها دائماً، بطبيعة الحال. لكنْ ثمة تغيّر مهمٌ قد حدث في صيغتها الحالية. ففي الزمن الماضي، كانت الحاجة إلى صيغة تراتبية للمجتمع عقيدة خاصة بالطبقة العليا. وقد كان يدعو إليها الملوك والأرستقراطيون وقساوستهم ومحاموهم ومن لفّ لفّهم ممن يتعيّشون عليهم. وكان يجري التلطيف من وطأة هذه النظرية عامة عن طريق الوعد بتعويض أو جزاء في عالم خيالي بعد الموت. أما الطبقة الوسطى، التي كانت تناضل من أجل السلطة، فقد استخدمت دائماً مصطلحات الحرية والعدالة والأخوة. لكن مفهوم الأخوة البشرية بدأ الآن يتعرّض للهجوم من جانب أناس لم يكونوا بعد في موقع الأمر أو السلطة، لكنهم يأملون في إحراز هذا الموقع في أمد غير بعيد. كانت الطبقة الوسطى قد قامت بثورات في الماضي تحت راية المساواة، ثم أقامت طغياناً جديداً فور الإطاحة بالطغيان القديم. وأما الجماعات الوسطى الجديدة فقد أعلنت طغيانها سلفاً! ظهرت النظرية الاشتراكية في أوائل القرن التاسع عشر وكانت آخر حلقة من حلقات سلسلة ممتدة إلى الوراء حتى تمردات العبيد في الزمن القديم. وكانت لا تزال عميقة التأثر بطوباويات القرون الماضية. لكن كل نسخة من نسخ الاشتراكية التي ظهرت أوائل القرن العشرين تقريباً، ثم بعد ذلك، كانت مبتعدة على نحوٍ أكثر فأكثر صراحة عن هدف إقامة الحرية والمساواة. وأما الحركات الجديدة التي ظهرت في أواسط القرن العشرين: الاشتراكية الإنجليزية (إشتنج) في أوقيانيا، والبلشفية الجديدة في أوراسيا، وعبادة الموت (كما يسمّونها عادة) في إيستاسيا، فقد كان لها هدف واعٍ متمثّل في تأبيد انعدام الحرية وانعدام المساواة. لقد نشأت هذه الحركات الجديدة، بطبيعة الحال، من الحركات القديمة؛ وكانت أميَل إلى المحافظة على أسمائها وعلى الولاء الشكلي لإيديولوجياتها. لكن هدفها كلها كان إيقاف التقدم وتجميد التاريخ عند لحظة مختارة! كان على حركة النواس [البندول] المألوفة أن تحدث مرة واحدة أخرى فحسب... ثم تتوقّف نهائياً! وكما كان معتاداً، كان يجب الإطاحة بالطبقة العليا لصالح الطبقة الوسطى، التي ستصبح

طبقة عليا بدلاً منها. لكن في هذه المرة، وبموجب استراتيجية واعية، كان مراداً للطبقة العليا الجديدة أن تنجح في المحافظة على موقعها باستمرار.

كان جزء من أسباب ظهور العقائد الجديدة تراكم المعرفة التاريخية، ونمو الإحساس التاريخي الذي لم يكن له وجود تقريباً قبل القرن التاسع عشر. لقد صارت حركة التاريخ الدورانية قابلة للفهم، أو هي بدت كذلك! وإذا صارت قابلة للفهم، فقد صارت قابلة للتغيير أيضاً! لكن السبب الرئيسي الكامن خلف ذلك فكان، أنه منذ أوائل القرن العشرين، صارت المساواة بين البشر أمراً ممكناً من الناحية التقنية. لقد ظل صحيحاً أن الناس غير متساوين في قدراتهم الطبيعية ولا بد من التخصص الوظيفي على نحوٍ يؤدي إلى تمتع بعض الأفراد بمزايا أكثر من غيرهم. لكن، ما عادت هنالك أي حاجة حقيقية إلى تمييز طبقي أو إلى فوارق كبيرة في الثروة. لم تكن الفوارق الطبقية أمراً لا مفرّ منه فحسب في الأزمان الأقدم عهداً، بل كانت أمراً مرغوباً فيه أيضاً. لقد كان انعدام المساواة ثمناً لا بد من دفعه لقاء المدنية. لكن الحال تغيرت مع نشوء الإنتاج الآلي وتطوره. فحتى وإن ظل ضرورياً قيام الأشخاص المختلفين بأنواع مختلفة من العمل، فإن ضرورة عيشهم ضمن مستويات اجتماعية أو اقتصادية مختلفة لم تعد موجودةً. إذاً، من وجهة نظر الجماعات الجديدة التي كانت على وشك إحراز السلطة، فإن المساواة بين البشر لم تعد مثالاً يتعين النضال من أجله، بل صارت خطراً لا بد من تفاديه. في العصور الأكثر بدائية، عندما كان المجتمع المسالم العادل أمراً لا سبيل إليه في حقيقة الأمر، كان من السهل تماماً أن يؤمن الناس بهذا المجتمع. وكانت فكرة الفردوس الأرضي الذي يجب أن يعيش فيه الناس في حالة أخوّة من غير قوانين ومن غير عمل شاق قد سكنت مخيلة البشر آلاف السنين. وكان لهذه الرؤية أثر حقيقي حتى على الجماعات التي كانت مستفيدة من كل تغيّر تاريخي حدث. لقد كان ورثة الثورات الفرنسية والإنجليزية والأميركية مؤمنين، جزئياً، بما قالوه عن حقوق الإنسان وحرية التعبير والمساواة أمام القانون، وما شابه ذلك. بل كانوا يسمحون أيضاً لسلوكهم بأن يتأثر بهذه العبارات إلى حد ما! وأما مع العقد الرابع من القرن العشرين، فقد

صارت تيارات الفكر السياسي الرئيسية كلها سلطوية! لقد فقد الفردوس الأرضي مصداقيته وجاذبيته في اللحظة عينها التي صار فيها تحقيقه ممكناً! وصارت كل نظرية سياسية، مهما يكن الاسم الذي تطلقه على نفسها، تفضي إلى عودة التراتبية والتنظيم الصارم للمجتمع. ومع التصلب العام الذي أصاب النظريات التي ظهرت في العقد الرابع من القرن العشرين، عادت إلى الظهور ممارسات أقلع عنها الناس منذ زمن بعيد، بل منذ مئات السنين في بعض الحالات... الحبس من غير محاكمة، واستعباد أسرى الحرب، والإعدامات العلنية، والتعذيب من أجل انتزاع الاعترافات، واستخدام الرهائن، وتهجير شعوب بأسرها. لم تعدُ تلك الممارسات لتصبح أمراً شائعاً من جديد فحسب، بل صارت محل تسامح، وراح يدافع عنها أشخاص يعتبرون أنفسهم تقدميين متنوِّرين!

لم تظهر الاشتراكية الإنجليزية ومنافساتها على هيئة نظريات سياسية مكتملة التكوّن إلا بعد عقد من الحروب القومية والحروب الأهلية والثورات والثورات المضادة في أنحاء العالم كله. لكن نُذر هذه النظريات ظهرت قبل ذلك في الأنظمة الكثيرة، المدعوة عامة باسم الأنظمة الشمولية، والتي قامت في وقت سابق من القرن. وكان الإطار العام للعالم الذي سوف يظهر بعد تلك الفوضى المهيمنة واضحاً قبل وقت طويل. كما كان واضحاً نوع الأشخاص الذين سوف يحكمون هذا العالم. تكوّنت الأرستقراطية الجديدة، في قسمها الأكبر، من البيروقراطيين والعلماء والفنيين وقادة النقابات وخبراء الإعلام وعلماء الاجتماع والمدرّسين والصحافيين والسياسيين المحترفين. وقد تشكل هؤلاء الناس، المتحدرون من الطبقة الوسطى العاملة بأجر ومن الشرائح العليا من الطبقة العاملة، وتجمعوا في عالم الاحتكارات الصناعية والمركزية الحكومية القاحل. وإذا ما قورنوا بنظرائهم في العصور الماضية، فقد كانوا أقل شراهة للمال وأقل تأثراً بإغراءات الرفاهية، لكنهم أكثر جوعاً للسلطة الخالصة... وفوق ذلك، كانوا أكثر إدراكاً لما كانوا يفعلون، وأكثر مَيْلاً إلى سحق المعارضة. وقد كان هذا الفارق الأخير جوهرياً. فبالمقارنة مع ما هو موجود اليوم، كان طغاة الماضي كلهم ضعاف القلوب تنقصهم

الكفاءة. كانت الجماعات الحاكمة مصابة دائماً بقدر ما من الأفكار الليبرالية. وكانت راضية بترك أمور سائبة في كل مكان بحيث لا تهتم إلا بالأفعال العلنية من غير إيلاء انتباه لما يفكّر فيه رعاياها. بل إن الكنيسة الكاثوليكية نفسها في العصور الوسطى كانت متسامحة وفق المعايير المعاصرة. ولعل جزءاً من أسباب هذا كامنٌ في أن حكومات الماضي ما كانت لديها قدرة على إبقاء مواطنيها تحت رقابة دائمة. لكن اختراع الطباعة جعل التلاعب بالرأي العام أكثر سهولة. كما سارت السينما والإذاعة بهذه العملية خطوة إلى الأمام. وأما مع ظهور التلفزيون، ثم التطورات التقنية التي سمحت بالاستقبال والإرسال في آن واحد عبر الجهاز نفسه، فقد حلت نهاية الحياة الخاصة! وصار كل مواطن، أو كل مواطن له من الأهمية ما يجعله يستحق المراقبة، واقعاً تحت أعين الشرطة وتحت وطأة الدعاية الرسمية أربعاً وعشرين ساعة في اليوم؛ وذلك مع إغلاق قنوات التواصل الأخرى كلها. وقد وجدت الآن، للمرة الأولى، ليس إمكانية فرض الطاعة التامة لإرادة الدولة فحسب، بل أيضاً الوحدة التامة في الرأي لدى الرعايا جميعاً.

بعد الفترة الثورية في الخمسينات والستينات، أعاد المجتمع توزيع نفسه، كعهده دائماً، إلى طبقة عليا وطبقة وسطى وطبقة دنيا. لكن المجموعة العليا الجديدة، على خلاف سابقاتها، لم تتصرف انطلاقاً من غريزتها بل كانت تعرف ما يلزمها من أجل المحافظة على موقعها. وقد كان معروفاً منذ زمنٍ بعيد أن الأساس الآمن الوحيد لحكم القلة هو الشمولية الجمعية. إن الدفاع عن الثروة والمزايا يكون أكثر سهولة عندما يحصل امتلاكها جمعياً. وقد كان المعنى الحقيقي لما أطلق عليه اسم «إلغاء الملكية الفردية»، الإلغاء الذي حدث أواسط القرن، هو تركيز الملكية في أيدٍ أقل عدداً بكثير من ذي قبل. لكن ذلك مع وجود فارقٍ ألا وهو أن المالكين الجدد كانوا جماعةً لا جمهوراً من الأفراد. فعلى المستوى الفردي، لا يملك أي عضو من أعضاء الحزب أي شيء، اللهم إلا ممتلكاته الشخصية الصغيرة. على أن الحزب يملك كل شيء في أوقيانيا، لأنه مسيطر على كل شيء، ولأنه يتصرف بالمنتجات وفق ما يراه مناسباً. وفي السنوات التي أعقبت الثورة، تمكن الحزب من الوصول إلى هذا الموقع

المسيطر من غير معارضة تقريباً لأن العملية كلها كانت مقدَّمة باعتبارها فعلاً من أفعال إسباغ الصفة الجمعية. ولقد افترض دائماً أن الاشتراكية لا بد أن تأتي في أعقاب مصادرة ممتلكات الطبقة الرأسمالية. لا شك أبداً في أن أملاك الرأسماليين قد صودرت! لقد انتزعت منهم المصانع والمناجم والأراضي والبيوت ووسائل النقل. وبما أن هذه الأشياء ما عادت ملكية خاصة، فقد افتُرض أنها يجب أن تكون قد صارت ملكاً عاماً. أما الاشتراكية الإنجليزية التي نشأت من الحركة الاشتراكية الأسبق عهداً وورثت مصطلحاتها وعباراتها، فقد حملت في واقع الأمر البند الرئيسي من بنود البرنامج الاشتراكي؛ مع نتيجة مرتقَبة ومقصودة قبلاً، ألا وهي جعل انعدام المساواة الاقتصادية حالة دائمة.

لكن مشكلات تأبيد المجتمع التراتبي أعمق من هذا! ثمة طرق أربع، لا غير، يمكن بها أن تخسر الجماعة الحاكمة سلطتها. فإما أن تتعرض لغزو خارجي، أو أن تحكم على نحو عديم الكفاءة إلى حد يجعل الجماهير تتحرّك وتثور عليها، أو أن تسمح بوجود طبقة وسطى قوية غير منضبطة، أو أن تفقد ثقتها بنفسها وتفقد إرادتها في الحكم. إن هذه الأسباب لا تعمل منفصلة. بل إن كلاً منها، وهذه قاعدة، يكون حاضراً بدرجة ما. وتظل الطبقة الحاكمة التي تتمكن من اتخاذ احتياطاتها إزاء هذه الأسباب كلها في السلطة من غير نهاية. على أن الموقف الذهني للطبقة الحاكمة نفسها يظل هو العامل المحدِّد في نهاية المطاف. كان الخطر الأول قد اختفى عقب أواسط القرن الحالي. وصارت كل قوة من القوى الثلاث التي تقاسمت العالم الآن قوة غير قابلة للهزيمة في حقيقة الأمر، ولا سبيل إلى قهرها إلا عبر تغييرات سكانية بطيئة تمتلك الحكومة قدرات واسعة تسمح لها بتفاديها. وأما الخطر الثاني، فلم يكن، بدوره، إلا خطراً نظرياً لأن الجماهير لا تثور من تلقاء نفسها أبداً، كما أنها لا تتمرد أبداً لمجرد أنها مضطهدة. والواقع هو أن هذه الجماهير لا يمكن حتى أن تصبح مدركة لحقيقة اضطهادها طالما ظل امتلاك معايير للمقارنة غير متاح لها. لقد صارت الأزمات الاقتصادية المزمنة التي عرفها الزمن الماضي غير ضرورية على الإطلاق، ولم يعد يُسمح بحدوثها؛ على أن ثمة انزياحات لا تقل ضخامة

يمكن أن تحدث، بل هي تحدث فعلاً من غير أن تكون لها نتائج سياسية لأنه ما من سبيل يمكن التعبير عن عدم الرضا من خلاله. وأما مشكلة فائض الإنتاج التي كانت كامنة في مجتمعنا منذ ظهور التقنية الآلية فقد جرى حلها عن طريق الحرب الدائمة (انظر الفصل الثالث) التي هي مفيدة أيضاً من أجل المحافظة على الإيقاع المطلوب للمعنويات العامة. وبالتالي، فإن الأخطار الحقيقية الوحيدة، من منظور حكامنا الحاليين، هي انشقاق جماعة جديدة من الأشخاص القادرين، الذين لا يحصلون على كفايتهم من فرص العمل، والذين لديهم جوع إلى السلطة، ونمو الليبرالية والتشكّك في صفوفهم. يمكن القول إذًا إن المشكلة مشكلة تربوية! إنها مشكلة التشكيل الدائم لوعي كلّ من الجماعة المتحكّمة والجماعة التنفيذية الأكبر عدداً التي تأتي خلفها مباشرة. وأما وعي الجماهير فما من حاجة إلا إلى التأثير فيه على نحو سلبي.

انطلاقاً من هذه الخلفية يمكن للمرء أن يستنتج البنية العامة لمجتمع أوقيانيا، إن لم يكن يعرفها أصلاً. ففي قمة الهرم يأتي الأخ الأكبر. إن الأخ الأكبر معصوم، كلّي القدرة! فكل نجاح، وكل إنجاز، وكل نصر، وكل اكتشاف علمي، وكل معرفة، وكل حكمة، وكل مسَرّة، وكل فضيلة، لا بدّ صادرة عن قيادته وإلهامه. إن أحداً لم يرَ الأخ الأكبر! إنه وجه على اللوحات، وصوت في الشاشات! ولنا أن نكون واثقين تماماً من أنه لن يموت أبداً؛ فضلاً عن أن هنالك دائماً قدر غير قليل من عدم معرفة تاريخ مولده. إن الأخ الأكبر قناع يقدِّم الحزب نفسه من خلاله إلى العالم. ووظيفته هي أن يكون نقطة يتركز فيها الحب والخوف والإجلال... وهي مشاعر يكون الإحساس بها تجاه شخص بعينه أكثر سهولة من الإحساس بها تجاه مؤسسة بأسرها. ومن بعد الأخ الأكبر يأتي الحزب الداخلي. يقتصر عدد أعضاء الحزب الداخلي على ستة ملايين، أي أقل قليلاً من اثنين بالمئة من مجموع سكان أوقيانيا. وتحت الحزب الداخلي يأتي الحزب الخارجي الذي يمكن اعتباره يد الدولة إذا اعتبرنا الحزب الداخلي دماغها. وتحت الحزب الخارجي تأتي جماهير الغوغاء الذين نطلق عليهم عادة اسم «العامة». ولعل نسبة هؤلاء أزيد من خمسة

وثمانين بالمئة من السكان. فإذا استخدمنا مصطلحات التصنيف القديمة نقول إن العامة هم الطبقة الدنيا. وذلك لأن جمهور العبيد في المناطق الاستوائية التي تنتقل دائماً من محتلٍّ إلى آخر ليس جزءاً دائماً أو ضرورياً من أجزاء هذه البنية.

إن العضوية في هذه الجماعات ليست وراثية من حيث المبدأ! ولا يكون طفل الأبوين العضوين في الحزب الداخلي مولوداً ضمن الحزب الداخلي من الناحية النظرية. ويجري القبول في أي قسم من قسمي الحزب عن طريق الاختبار الذي يخضع له المرء في سن السادسة عشرة. ولا وجود أيضاً لأي تمييز عرقي، ولا أي هيمنة لمنطقة على غيرها. ويجد المرء يهوداً وزنوجاً وأميركيين جنوبيين من أصل هندي صافٍ في أعلى مراتب الحزب؛ كما أن من يديرون شؤون أي منطقة يكونون آتين دائماً من سكان تلك المنطقة عينها. ولا يشعر السكان في أي مكانٍ في أوقيانيا بأنهم مستعمَرون تحكمهم عاصمة نائية عنهم. بل لا وجود لعاصمة في أوقيانيا التي يرأسها من الناحية الاسمية شخص لا يعرف مكانه أحد! وهي ليست دولة مركزية بأي شكل من الأشكال، اللهم باستثناء أن الإنجليزية هي لغتها العامة الرئيسية، واللغة الجديدة هي لغتها الرسمية. كما لا تربط بين حاكمي أوقيانيا صلة دم بل التزام بعقيدة مشتركة واحدة. صحيح أن مجتمعنا مقسم إلى طبقات بعضها فوق بعض، بل هو مقسم على نحو شديد الصلابة أيضاً، وذلك وفق ما قد يبدو نهجاً وراثياً للنظرة الأولى. وذلك أن الانتقال، جيئة وذهاباً، بين المجموعات المختلفة يحدث بمعدل يقل كثيراً عما كانت تعرفه الرأسمالية أو حتى ما قبل العصر الصناعي. ثمة قدر من الانتقالات بين شعبتي الحزب، لكنها لا تتجاوز ما يلزم لضمان استبعاد الضعفاء المتراخين من الحزب الداخلي والسماح للأعضاء الطموحين في الحزب الخارجي بالانضمام إلى الحزب الداخلي تجنباً لخطورتهم. وأما البروليتاريون فهم غير مسموح لهم، من الناحية العملية، بالترقي إلى صفوف الحزب. وتقوم شرطة الفكر بتحديد الأكثر موهبة منهم، ممن قد يتحوّلون إلى بذور للانشقاق، ثم تزيلهم من الوجود. لكن هذه الحالة ليست دائمة بالضرورة، كما أنها ليست مسألة مبدئية أيضاً. فليس الحزب طبقة بالمعنى القديم للكلمة. وهو

لا يهدف إلى نقل السلطة إلى أبناء أعضائه أيضاً. وإذا لم تتوفر طريقة أخرى لإبقاء قمة الهرم في أيدي الأشخاص الأكثر قدرة، فإن الحزب على أتم استعداد لإدخال جيل جديد من القادة الآتين من صفوف البروليتاريا! وفي السنوات الحاسمة، كانت حقيقة أن الحزب ليس جسماً وراثياً حقيقة كبيرة الأثر في ما يتعلق بتحييد من يعارضونه. وذلك أن النمط القديم من الاشتراكيين، ممن اعتادوا النضال ضد شيء يدعى «الامتيازات الطبقية» افترضوا أن ما لا يكون وراثياً لا يمكن أن يكون دائماً. ولم يرَ هؤلاء أن تواصل حكم القلة ليس بحاجة لأن يكون تواصلاً مادياً؛ ولم يتوقف هؤلاء الناس قليلاً ليفكروا في أن الأرستقراطيات الوراثية كانت قصيرة العمر دائماً في حين أن المؤسسات التي تستطيع إدخال أشخاص جدد، كالكنيسة الكاثوليكية مثلاً، استطاعت الاستمرار مئات السنين أو آلاف السنين! ليس جوهر حكم القلة كامناً في التوارث بين الآباء والأبناء، بل في استمرار نظرة محدّدة إلى العالم وطريقة محددة في العيشْ يفرضهما الموتى على الأحياء. وتظل الجماعة الحاكمة جماعة حاكمة طالما ظلت قادرة على تسمية من يخلفونها. ليس الحزب معنياً بتأبيد استمراره الدموي، بل بتأبيد نفسه هو! فليست شخصية الممسكين بدفة الحكم بالشيء المهم طالما أن البنية التراتبية باقية على حالها. إن معتقدات زماننا هذا، وعادته، وأذواقه، وعواطفه، ومواقفه العقلية، مصمَّمة حقيقة من أجل إدامة أسطورة الحزب ومنع إدراك الطبيعة الحقيقية لمجتمع اليوم. إن التمرد الفعلي المادي، أو أي حركة أولية صوبَ ذلك التمرد، ليست أمراً ممكناً في الوقت الحاضر. ولا خوف من شيء يأتي من جانب البروليتاريا. فإذا ما تُرك هؤلاء الناس وحدهم، فسوف يواصلون العيش من جيل إلى جيل ومن قرن إلى قرن، يعملون ويتناسلون ويموتون، ليس من غير أي دافع يدعوهم إلى التمرد فحسب، بل أيضاً من غير أي قدرة على التفكير في أن العالم يمكن أن يكون أفضل مما هو عليه. ولا يمكن أن يصبح هؤلاء الناس خطرين إلا إذا جعل تطور التقنية الصناعية زيادة تعليمهم أمراً ضرورياً. لكنْ، وبما أن المنافسة العسكرية والتجارية لم تعد مهمة، فإن سويّة التعليم العام تتراجع في واقع الأمر. ولا يبالي أحد بالآراء التي يحملها

الجمهور، أو التي لا يحملها! ومن الممكن منحهم حرية الفكر لأنه لا فكر لديهم أصلاً! وأما لدى عضو الحزب، فإن أدنى انحراف فكري في أقل المواضيع أهمية أمرٌ لا يمكن التهاون فيه أو التسامح معه أبداً!

يعيش عضو الحزب من المهد إلى اللحد تحت أعين شرطة الفكر. وحتى عندما يكون وحيداً، فإنه لا يكون واثقاً أبداً من أنه وحيد حقاً! ومهما يكن ما يفعله، صاحياً أو نائماً، أو عاملاً أو مرتاحاً، في حمّامه أو في سريره، فإن من الممكن تحرّي حاله من غير إنذار ومن غير حتى أن يعلم بذلك. ولا يمكن اعتبار شيء مما يفعله نافلاً لا أهمية له. إن صداقاته، وتسلياته، وسلوكه إزاء زوجته وأطفاله، وتعبير وجهه عندما يكون وحيداً، والكلمات التي يقولها في نومه، بل حتى الحركات الجسدية المميِّزة له، تخضع كلّها لتدقيق لا يعرف كللاً. فمن الممكن لأي غرابة في السلوك مهما تكن بسيطة، وأي تغير في العادات، وأي عصبية حتى من غير أن تمثل تغيراً حقيقياً في السلوك، أن تكون عرَضاً من الأعراض المنبئة بصراع داخلي، ولا بد من رصدها. وليس لعضو الحزب حرية اختيار، أبداً، في أي مجال كان. على أن أفعاله كلها غير محكومة بقانون أو بقواعد سلوك صيغت على نحو واضح! ما من قانون في أوقيانيا أصلاً! لكن الأفكار والأفعال التي من شأنها أن تعني موتاً محتّماً، إن هي اكتشفت، ليست أفكاراً أو أفعالاً ممنوعة من الناحية الرسمية. كما أن التطهيرات التي لا تنتهي، وحالات الاعتقالات والحبس والتبخير، لا تحدث عقاباً على جرائم ارتُكبت فعلاً، بل هي مجرد حذف وإزالة لأشخاص يُحتمل أن يرتكبوا جريمة في وقت من الأوقات في المستقبل. وليس عضو الحزب مطالباً بأن يكون لديه الرأي الصائب دائماً فحسب، بل هو مطالب بامتلاك الغرائز الصحيحة أيضاً. وكثير من المواقف والمعتقدات المطلوبة منه ليس مما يجري التعبير عنه صراحة، بل لا يمكن التعبير عنه صراحة من غير تعرية التناقضات الكامنة في اشتنج. فإذا كان عضو الحزب شخصاً قويم التفكير على نحوٍ طبيعي («حسنتفكير» في اللغة الجديدة)، فإنه يعرف الرأي السديد أو المشاعر المطلوبة، في الظروف جميعاً ومن غير تفكير في الأمر. لكن التدريب العقلي المتأني الذي يخضع له المرء في طفولته ويجري التعبير

عنه بكلمات اللغة الجديدة «وقفجريمة» و«أسودأبيض»، و«تفكيرمزدوج» يجعل المرء غير راغب في زيادة التعمّق عندما يفكّر في أي موضوع، كائناً ما كان، بل غير قادر على ذلك أيضاً! ينتظر من عضو الحزب أن لا تكون لديه أي مشاعر خاصة، ولا أي إحجامٍ عن الحماسة. ويفترض فيه أن يكون في حال شُعار مستمر من كراهية الأعداء الأجانب والخَوَنة الداخليين، ومن سُعار الاحتفال بالانتصارات، ومن تصغير الذات أمام سلطة الحزب وحكمته. ويجري، على نحو مقصود، تحويل الغضب الناتج عن الحياة المجدبة غير المرضية ليعبر عن نفسه من خلال أشكال من قبيل «دقيقتَي الكراهية». كما أن حالات التفكير التي يمكن أن تحرّض على اتخاذ مواقف تشكيكية أو متمردة تُقتل قبل أن تصل إلى هذا الحد، وذلك بفعل الانضباط الداخلي المكتسَب في زمن مبكر. إن المرحلة الأولى الأكثر بساطة في هذا الانضباط، وهي ما يمكن تعليمه في سنوات الطفولة الأولى، هي ما تدعوه اللغة الجديدة باسم «وقفجريمة». وتعني هذه الكلمة القدرة على التوقّف تماماً، كما لو أن ذلك يحدث بفعل الغريزة، قبيل الوصول إلى أي فكرة خطيرة. وهي تشتمل على القدرة على عدم إدراك التماثلات، وعلى الغفلة عن الأغلاط المنطقية، وعدم فهم أبسط الحجج إذا كانت في غير صالح إشتنتج، والإحساس بالملل والغضب إزاء أي تسلسل أفكار يمكن أن يؤدي إلى وجهة هرطوقية. واختصاراً نقول إن «وقفجريمة» تعني الغباء الوقائي. على أن الغباء غير كافٍ في حدّ ذاته! بل إن صواب الفكر واستقامته يستلزمان، بمعناهما الكامل، ضبط المرء عمليات عقله الداخلية ضبطاً تاماً مثلما يضبط البهلوان حركات جسمه. يقوم مجتمع أوقيانيا في نهاية المطاف على إيمان مفاده أن الأخ الأكبر كلّي القدرة وأن الحزب معصوم. لكن، وبما أن الأخ الأكبر ليس كلّي القدرة في حقيقة الأمر، وبما أن الحزب ليس معصوماً، فإن ثمة حاجة إلى وجود مرونة مستدامة، في كل لحظة، في التعامل مع الحقائق. إن الكلمة المفتاح في هذا المجال هي «أسودأبيض». وعلى غرار كثير من كلمات اللغة الجديدة، فإن لهذه الكلمة معنيين متبادلين متناقضين. فإذا استخدمت الكلمة في معرض الحديث عن خصم من الخصوم، فأنت تشير إلى صفاقته في الزعم بأن

اللون الأسود أبيض، وذلك على نحو يخالف الحقائق الجلية الواضحة. أما عند استخدام هذه الكلمة في إشارة إلى عضو الحزب، فهي تعني الاستعداد المخلص للقول إن الأسود أبيض عندما يقتضي الانضباط الحزبي هذا. على أنها تعني أيضاً القدرة على الاعتقاد بأن الأبيض أسود، بل هي تعني معرفة أن الأسود أبيض حقاً، ونسيان أن المرء كان يفكر عكس ذلك في يوم من الأيام. إن هذا يستلزم تغييراً متواصلاً للماضي. وهو ما صار ممكناً بفعل نظام التفكير الذي يحيط بكل شيء آخر، وهو ما يُعرف في اللغة الجديدة باسم «التفكير المزدوج».

ثمة سببان اثنان لضرورة تغيير الماضي: سبب إخضاعي وآخر وقائي، إن جاز القول! وذلك لأن قبول عضو الحزب قبولاً جزئياً، مثله مثل البروليتاري، بشروط العيش الحاليّة ناجم عن انعدام معيار المقارنة لديه. يجب أن يكون مقطوعاً عن الماضي؛ تماماً مثلما يجب أن يكون مقطوعاً عن البلاد الأجنبية، وذلك لأن من الضروري أن يقتنع بأنه أفضل حالاً من أسلافه وبأن متوسط سوية الراحة المادية يشهد ارتفاعاً مستمراً. لكن السبب الأكثر أهمية بكثير من أجل تعديل الماضي هو الحاجة إلى حماية فكرة عصمة الحزب. فالأمر غير متوقف عند التحديث المستمر للخطب والإحصاءات والسجلّات بمختلف أنواعها من أجل إظهار أن توقّعات الحزب كانت صائبة كلها. بل هو متصل أيضاً بإثبات عدم حدوث أي تغيير في عقائد الحزب وتحالفاته السياسية على الإطلاق. إن تغيير المرء رأيه، أو حتى تغيير سياساته، علامة من علامات الاعتراف بالضعف. فإذا كانت أوراسيا أو إيستاسيا (على سبيل المثال، ومهما تكن) هي العدو اليوم، فلا بد أن يكون ذلك البلد هو العدو على الدوام. وإذا كانت حقائق الماضي تقول غير هذا، فمن الواجب تغييرها. وهكذا تجري إعادة كتابة التاريخ على الدوام. إن ضرورة هذا التزوير اليومي للماضي، الذي تضطلع به وزارة الحقيقة، من أجل استقرار النظام لا تقل أهمية عن أعمال القمع والتجسس التي تقوم بها وزارة الحب.

إن قابلية الماضي للتغيير هي المعتقد المركزي في إشتنج. يجري النظر إلى الأحداث الماضية على أنه لم يكن لها وجود موضوعي، بل هي حية فقط في السجلات المكتوبة

وفي ذكريات البشر. فالماضي هو ما تتفق عليه السجلات وذكريات الناس. وبما أن الحزب مسيطر سيطرة تامة على السجلات، ومسيطر سيطرة تامة، لا تقل عن الأولى، على عقول أعضائه، فنتيجة ذلك أن الماضي هو أي شيء يقرر الحزب أن يكون. وينتج عن ذلك أيضاً أن الماضي، رغم قابليته للتغيير، لم يتعرض لأي تغيير في أي حالة يمكن تحديدها! وذلك أنه، عندما يُعاد خلقه على أي صورة تقتضيها اللحظة، فإن صورته الجديدة هذه تصير هي الماضي؛ ولا يعود ثمة إمكانية لأن يكون قد وُجد أي ماضٍ آخر. يصح هذا حتى عندما يلزم تغيير الحدث الماضي نفسه مرات كثيرة في سنة واحدة مثلاً، وهذا ما يحدث كثيراً! إن الحزب، في هذه الأوقات كلها، يمتلك الحقيقة المطلقة؛ ومن الواضح أن ما هو مطلق لا يمكن أبداً أن يكون مختلفاً عما هو موجود الآن. ولسوف يتضح أن السيطرة على الماضي معتمدة، قبل كل شيء آخر على تدريب الذاكرة. فإمكانية التوصل إلى الثقة في أن السجلات المكتوبة كلها متفقة مع ما يعتبر صائباً قوياً في هذه اللحظة ليست إلا فعلاً آليا، لا غير. لكن من الضروري أيضاً أن يتذكر المرء أن الأحداث قد جرت على النحو المرغوب فيه فعلاً. وإذا كان ضرورياً أن يعيد المرء ترتيب ذكرياته، أو أن يعبث بالسجلات المكتوبة، فإن من الضروري أيضاً أن ينسى أنه قد فعل هذا. إن مهارة القيام بذلك أمر يمكن تعلّمه، مثلما يمكن تعلّم أي تقنية عقلية أخرى. هذا ما تتعلّمه أكثرية أعضاء الحزب... ومن بينهم، بالتأكيد، كل من يتّسمون بالذكاء والمعتقد القويم. إن اللغة القديمة تدعو هذا الأمر، على نحوٍ صريح تماماً، باسم «التحكّم بالواقع». وأما اللغة الجديدة فتدعوه «التفكير المزدوج»؛ رغم أن عبارة التفكير المزدوج تشتمل على ما يتجاوز ذلك بكثير.

التفكير المزدوج يعني قدرة عقل المرء على حمل معتقَدَيْن متناقضَيْن في الوقت عينه، وقبولهما معاً! يعرف مثقف الحزب الوجهة التي يجب أن تتغير ذكرياته وفقاً لها. وهو يعرف إذًا أنه يتلاعب بالوقائع. لكنه يكون مقتنعاً أيضاً، بفعل تمرّنه على التفكير المزدوج، أن الحقيقة لم تُنتهك. يجب أن تكون هذه العملية واعية، وإلا لما أمكن إجراؤها بالدقة المطلوبة. لكنها يجب أن تكون غير واعية أيضاً، وإلا لأتت

معها بإحساس بالزيف يستدعي إحساساً بالذنب أيضاً. يحتل التفكير المزدوج موضع القلب من إشتنج لأن عمل الحزب الأساسي هو استخدام الخداع الواعي مع المحافظة على صلابة الهدف المتفقة مع الصدق التام. فأن تسرد أكاذيب مقصودة مع اعتقادك الأصيل بصحّتها، وأن تنسى أي حقيقة صارت غير ملائمة، ثم أن تستعيد من غياهب النسيان، عندما يصير ذلك ضرورياً من جديد، ما يلزمك وللمدة اللازمة، وأن تنكر وجود الواقع الموضوعي، مع إدراكك تماماً لوجود الواقع الذي تُنكره... أمر ضروري كلُّه ضرورة لا مفر منها. بل إن ممارسة التفكير المزدوج أمر ضروري حتى من أجل استخدام كلمة «تفكير مزدوج». وذلك أن المرء، عند استخدامه هذا التعبير، يقر أنه يعبث بالواقع. لكنه، بفعل جديد من أفعال التفكير المزدوج، يمحو هذه المعرفة؛ ثم يكرر ذلك على نحوٍ غير منتهٍ، بحيث تسبق الكذبة الحقيقة بخطوة واحدة دائماً. بل إن الحزب، باستخدام التفكير المزدوج، كان قادراً... وسوف يظل قادراً آلاف السنين وفق ما نرى... على القبض المستمر على التاريخ.

لقد كان حكم القلة يخسر السلطة في الماضي لأنه يتحجّر أو يصاب بالليونة الزائدة. فإما أن يصبح الحكام مغرورين حمقى فيفشلون في التكيف مع الظروف المتغيرة، فيُطاح بهم؛ أو أن تصبح السلطة ليبرالية جبانة فتقدم التنازلات حين يكون عليها أن تستخدم القوة، فيُطاح بها أيضاً! كانت تلك الحكومات تسقط، إن جاز القول، إما على نحوٍ واعٍ أو على نحوٍ غير واعٍ. وقد كان إنجازاً للحزب أن يتوصل إلى نظام تفكير يستطيع هذان الشرطان الوجود فيه معاً في الآن ذاته. ما من أساس فكري آخر يمكن أن يجعل هيمنة الحزب دائمة أبدية. فإذا أراد المرء أن يحكم وأن يظل مستمراً في الحكم، عليه أن يتمكن من إزاحة الإحساس بالواقع جانباً. وهذا لأن سر الحكم كامن في قدرة المرء على الجمع بين الاعتقاد بأنه لا يخطئ، وبين القدرة على التعلّم من أخطائه الماضية!

وما من حاجة تقريباً إلى القول إن أكثر من يمارسون التفكير المزدوج حنكة هم الأشخاص الذين اخترعوا هذا التفكير والذين يعرفون أنه نظام واسع من الخداع

الذهني. ففي مجتمعنا، يكون الأشخاص الأكثر معرفة بما يحدث حقاً هم أنفسهم أيضاً الأشخاص الأكثر بعداً عن رؤية العالم مثلما هو في حقيقة الأمر. فكلما ازداد الفهم عامة، كلما ازداد الوهم أيضاً؛ وكلّما ازداد الذكاء، كلّما قلّ الصحو! ولعلّ من الأمثلة الجلية على هذا حقيقة أن هستيريا الحرب تزداد شدة كلما ارتفع مكان المرء في السلم الاجتماعي. ونجد أن الذين يكون موقفهم من الحرب أكثر قرباً من العقلانية هم أبناء الشعوب المغلوبة في المناطق المتنازَع عليها. فالحرب بالنسبة لأولئك الناس ليست إلا محنة مستمرة تنداح جيئة وذهاباً فوق أجسامهم مثلما تفعل موجة تتقدم وتتراجع. وأما هوية من يربح الحرب فهي مسألة لا أهمية لها أبداً في نظرهم. وهم مدركون أن تغير السيادة عليهم لا يعني إلا استمرارهم في أداء العمل نفسه كما كان من قبل، لكن من أجل سادة جدد يعاملونهم بالطريقة عينها التي كانت عليها معاملة سابقيهم. وأما العمال الأكثر حظوة بقليل، أي الذين ندعوهم «عامة الناس» فهم لا يلقون بالاً إلى مجريات الحرب إلا لماماً. وعندما تنشأ ضرورة لذلك، يمكن دفعهم إلى حالة من سعار الذعر والكراهية. أما إذا تُركوا وشأنهم، فإنهم قادرون تماماً، لفترات طويلة، على نسيان أن ثمة حرباً جارية. وأما الحماسة الحقيقية للحرب فنجدها في صفوف الحزب، وفي صفوف الحزب الداخلي خاصة. ونجد أشد المؤمنين بفتح العالم كله بين صفوف أولئك الذين يعرفون أن هذا مستحيل. إن عملية الربط الغريبة بين المتناقضات... ربط المعرفة بالجهل، وربط التشكك الساخر المتهكم بالتعصب الأعمى... هي علامة من العلامات المميزة الرئيسية في المجتمع الأوقياني. إن الإيديولوجيا الرسمية لزاخرة بالمتناقضات حتى عند غياب أي سبب عملي يستدعي وجودها. ومن هنا، فإن الحزب ينبذ ويحتقر تلك المبادئ عينها التي قامت عليها الحركة الاشتراكية في الأصل، لكنه يفعل هذا باسم الاشتراكية. وهو يُعلِّم ازدراء الطبقة العاملة على نحو لا مثيل له منذ قرون، لكنه يجعل أعضاءه يرتدون ملابس موحَّدة كانت، ذات يوم، ملابس مميزة للعمال اليدويين ثم اعتمدها الحزب لهذه الغاية. ويعمل الحزب عملاً منهجياً من أجل تقويض التضامن العائلي، لكنه يدعو زعيمه باسم

يستلهم عاطفة التضامن العائلي استلهاماً مباشراً. بل إن أسماء الوزارات الأربع نفسها، الوزارات التي تحكمنا، تظهر ضرباً من ضروب الصفاقة لأنها قلب متعمد للحقائق. فوزارة السِّلم مشغولة بالحرب، ووزارة الحقيقة تعمل على الأكاذيب، ووزارة الحب تهتم بالتعذيب، وأما وزارة الوفرة فعملها إبقاء الناس على حافة الموت جوعاً. ليست هذه التناقضات من فعل المصادفة، ولا هي ناتجة عن النفاق بمعناه العادي: إنها تمرينات متعمّدة على التفكير المزدوج. فلا يمكن الاحتفاظ بالسلطة من غير نهاية إلا عن طريق التوفيق بين المتناقضات. ولا سبيل إلى كسر الدورة المألوفة العتيقة إلا بهذه الطريقة. فإذا أمكن تفادي المساواة بين البشر على الدوام... أي إذا كان لمن هم في الأعلى، كما ندعوهم، أن يحافظوا على أماكنهم إلى الأبد... فلا بد من المحافظة على الشرط الذهني السائد محافظة جنونية.

لكنْ ثمة سؤال تجاهلناه تقريباً حتى هذه اللحظة! السؤال هو: لماذا يتعيّن تفادي المساواة بين البشر؟ فإذا افترضنا أن آليات العملية الجارية قد وُصفت وصفاً صحيحاً، فما هو الدافع الكامن خلف هذا الجهد الهائل المخطّط على نحو دقيق من أجل تجميد التاريخ عند لحظة بعينها من الزمن؟

وهنا نصل إلى السر المركزي! فكما رأينا، يعتمد لغز الحزب، بل الحزب الداخلي قبل كل شيء، على التفكير المزدوج. لكنْ ثمة دافع أصلي كامن في مكان أعمق من هذا، غريزة لا يتساءل أحد عنها... غريزة قادت في البداية إلى الإمساك بالسلطة وأتت بالتفكير المزدوج وبشرطة الفكر وبالحرب المستمرة، وبكل ما عدا ذلك من أدوات ضرورية. إن هذا الدافع موجود حقاً...

على نحوٍ مفاجئ، انتبه ونستون إلى الصمت مثلما ينتبه المرء إلى صوت جديد. بدا له أن جوليا ساكنة جداً منذ بعض الوقت. كانت مستلقية على جانبها، عارية من وسطها فما فوق. وكان خدها متوسداً كفها، في حين غطت عينيها خصلة من شعرها. وكان صدرها يعلو ويهبط بطيئاً منتظماً مع تنفسها.

«جوليا».

لا إجابة.

«جوليا، هل أنت مستيقظة؟»

لا إجابة! إنها نائمة. أغلق ونستون الكتاب ووضعه على الأرض بحرص، ثم استلقى وجذب اللحاف فوقهما.

راح يفكر في أنه لم يعرف ذلك السر النهائي حتى الآن. كان يفهم الإجابة على «كيف»، لكنه لم يفهم «السبب». لم يعطه الفصل الأول، ولا الفصل الثالث، شيئاً جديداً بالفعل، شيئاً جديداً حقاً لم يكن يعرفه من قبل؛ لكنهما وضعا المعرفة التي كانت لديه على نحوٍ منهجي فحسب. إنما، بعد القراءة، صار يعرف أفضل من قبل أنه ليس مجنوناً. فأن يكون المرء أقلية، حتى إن كانت أقلية مؤلفة من شخص واحد، لا يعني أنه مجنون! ثمة حقيقة وكذب؛ وإذا تمسك المرء بالحقيقة، حتى لو في مواجهة العالم كله، فإنه ليس مجنوناً. تسرَّب شعاع أصفر من الشمس الغاربة عبر النافذة ووقع على الوسادة. أغمض ونستون عينيه. منحته الشمس التي لمست وجهه وجسد الفتاة الناعم وجسده إحساساً قوياً واثقاً ورغبة بالنوم. إنه آمن، وكل شيء على ما يرام. أغفى ونستون متمتماً «سلامة العقل ليست مسألة إحصائية»، وشاعراً أن هذه العبارة تشتمل على حكمة عميقة. وعندما استيقظ، أحس أنه نام زمناً طويلاً. لكن التفاتة إلى الساعة عتيقة الطراز أنبأته أن الساعة ما زالت الثامنة والثلث. ظل مستلقياً نصف نائم حيناً من الزمن إلى أن صدح في الأسفل، في الباحة الخلفية، صوت الغناء العميق المألوف:

«لم يكن هذا إلا حلماً لا رجاء فيه.

مر مثل مرور يومٍ من نيسان،

لكنهم سرقوا قلبي مني،

بنظرة وكلمة وأحلامٍ أثاروها!».

يبدو أن تلك الأغنية الساذجة لا تزال محتفظة بشعبيتها. لا يزال المرء يسمعها في كل مكان. لقد عاشت أكثر من أغنية أسبوع الكراهية! استيقظت جوليا على ذلك الصوت وتمطّت متلذّذة، ثم نهضت من السرير.

قالت: «إنني جائعة! سوف أُعد بعض القهوة. اللعنة! لقد انطفأ الموقد وبرد الماء». رفعت موقد الطبخ وهزته قليلاً... «ليس فيه زيت».

«أظننا نستطيع الحصول على بعض الزيت من العجوز تشارينغتون».

قالت جوليا: «الأمر الغريب هو أنني تأكدت من امتلائه. سوف أرتدي ملابسي. يبدو أن الجو بدأ يبرد».

نهض ونستون أيضاً فارتدى ملابسه. ظل صوت الغناء صادحاً لا يتعب أبداً:

«يقولون إن الزمن يشفي كل شيء،

ويقولون إنك تستطيع أن تنسى دائماً؛

لكن الابتسامات والدموع على مرّ السنين

لا تزال تمزّق أوتار قلبي!».

سار ونستون صوب النافذة بعد أن ربط حزام أوفروله. لا بد أن الشمس قد غربت من خلف البيوت لأن أشعّتها ما عادت منصبَّة على تلك الباحة. كان بلاط الباحة رطباً كما لو أنه غُسل بالماء. أحس ونستون بأن السماء مغسولة أيضاً... كانت الزرقة بين المداخن تبدو نضرة يميل لونها إلى البياض. وكانت المرأة تروح وتجيء من غير تعب، تضع مشابك الغسيل في فمها ثم تخرجها من فمها، وتغني ثم تصمت، وتعلّق مزيداً من الحفاضات، ثم تعلق مزيداً منها أيضاً! تساءل ونستون في نفسه ما إذا كانت تلك المرأة تعتاش من الغسيل أو أن لديها عشرين أو ثلاثين حفيداً يستعبدونها! جاءت جوليا فوقفت إلى جانبه وراحا ينظران بنوع من الافتتان إلى ذلك الجسد المتين في الأسفل. وعندما راح ونستون يحدق في تلك المرأة: في هيئتها المميَّزة، وفي ذراعيها الثخينتين ترتفعان إلى حبل الغسيل، وفي ردفيها الناتئين مثل ردفَيْ فرس، فاجأه للمرة الأولى أنها كانت جميلة! لم يخطر في باله قبل هذا أبداً أن جسد امرأة في الخمسين، جسداً بلغ هذه الأبعاد الهائلة بفعل كثرة الولادات، ثم تصلَّب وقسا نتيجة العمل حتى صار خشناً كله مثلما يحدث لثمرة اللفت بعد أن تنضج كثيراً، يمكن أن يكون جسداً جميلاً! لكنه كان جميلاً! ثم لماذا

لا يكون جميلاً؟ إن العلاقة بين هذا الجسد الصلب عديم الملامح الذي يشبه كتلة من الغرانيت بجلده الأحمر الخشن، وبين جسد فتاة صبية، هي العلاقة نفسها بين الزهرة والثمرة. فلماذا يجب اعتبار الثمرة أقل من الزهرة؟

قال متمتماً: «إنها جميلة».

قالت جوليا: «يكاد عرض ردفيها يبلغ متراً... بكل سهولة».

قال ونستون: «هذا هو نمط جمالها».

أحاطت ذراعه بخصر جوليا الرشيق بسهولة. كان جنبها ملتصقاً بجنبه من الردف إلى الركبة. لا يمكن أن يأتي طفل من هذين الجسدين! كان هذا شيئاً لا يمكن أن يفعلاه أبداً. ليس لهما أن ينقلا السر إلا بالكلمة، إلا من عقل إلى عقل. وأما المرأة هناك في الأسفل، فهي بلا عقل! ليس عندها إلا ذراعان قويتان، وقلب حار، وبطن خصب. تساءل ونستون عن عدد الأطفال الذين أنجبتهم. من الممكن تماماً أن يكونوا خمسة عشر طفلاً! لقد مرت بلحظة إزهارها، لعلها كانت سَنَة، لحظة جمال الوردة البرية، ثم انتفخت فجأة مثلما تنتفخ ثمرة بعد إخصابها وتتصلب ثم تصبح حمراء خشنة، وصارت حياتها كلّها غسلاً وفركاً ورتقاً وطبخاً وكنساً وتلميعاً وإصلاحاً.. وفركاً وغسلاً... لأطفالها أولاً، ثم لأحفادها... طيلة ثلاثين سنة من غير انقطاع! ثم هي لا تزال مستمرة في الغناء بعد هذا كله! كان الاحترام الغامض الذي أحسه تجاه هذه المرأة مختلطاً على نحوٍ ما بمشهد السماء الشاحبة اللانهائية الممتدة بعيداً خلف المداخن إلى مسافة لا تنتهي. غريب هو التفكير في أن السماء واحدة للجميع، في أوراسيا وإيستاسيا، مثلما هي هنا. والناس تحت هذه السماء متشابهون إلى حد كبير... في كل مكان، في العالم كله، مئات آلاف ملايين البشر مثل هذه المرأة، بشر يجهل أحدهم وجود الآخر، تفصل بينهم جدران الكره والأكاذيب، لكنهم يكادون يكونون متماثلين رغم ذلك... بشر لم يتعلّموا التفكير أبداً، لكنهم يخزّنون في قلوبهم وفي بطونهم وعقولهم وعضلاتهم قوة سوف تقلب العالم كله ذات يوم. إن كان ثمة أمل، فهو في عامة الناس! ومن غير أن يقرأ الكتاب حتى نهايته، أدرك ونستون أن هذه لا بد أن تكون رسالة غولدشتاين النهائية. إن

المستقبل ملك لعامة الناس. فهل له أن يكون واثقاً من أن العالم الذي سوف يبنونه، عندما يأتي وقتهم، لن يكون غريباً بالنسبة له، هو ونستون سميث، كمثل غرابة عالم الحزب؟ نعم، لأنه سيكون عالماً عاقلاً على أقل تقدير! حيث تكون المساواة يكون العقل! سيحدث هذا عاجلاً أو آجلاً، وستتحوّل القوة إلى وعي. إن العامة خالدون... ليس للمرء أن يشك في هذا عندما ينظر إلى تلك القامة الشجاعة في الباحة. سوف تأتي لحظة استيقاظهم في آخر المطاف. وإلى أن يحدث هذا، رغم أنه قد لا يحدث قبل ألف سنة، فسوف يظلّون أحياء رغم كل شيء، كالطيور، وسينقلون من جسد إلى جسد تلك الحيوية التي لا يمتلكها الحزب ولا يستطيع قتلها.

سأل: «هل تذكرين ذلك الطائر الذي غنى لنا في يومنا الأول عند حافة الغابة؟».

قالت: «لم يكن يغني لنا! كان يغني لمتعته هو. بل ليس الأمر حتى كذلك... كان يغني فحسب!»

الطيور تغنّي، وعامة الناس يغنّون. والحزب لا يغنّي! وفي العالم كله، في لندن ونيويورك، وفي أفريقيا والبرازيل، وفي تلك الأراضي الغامضة المحرّمة الواقعة خلف الحدود، في شوارع باريس وبرلين، وفي قرى السهوب الروسية التي لا تنتهي، وفي أسواق الصين واليابان... في كل مكان، تقف تلك القامة الصلبة التي لا سبيل إلى قهرها، القامة التي شوهها الإنجاب والكدح الشاق من المهد إلى اللحد... وما زالت تغني! لا بد أن يأتي عِرق من الكائنات العاقلة من هذه الأصلاب الجبّارة ذات يوم. أنتم هم الموتى، وأبناؤهم هم المستقبل! لكن المرء يستطيع أن يكون مشاركاً في ذلك المستقبل إذا حافظ على عقله حياً طالما ظل هو حياً، وإذا ما استطاع نقل العقيدة السرية التي تقول إن اثنين واثنين يساويان أربعة.

قال ونستون: «نحن هم الموتى».

كررت جوليا من بعده بإخلاص: «نحن هم الموتى».

قال صوت حديدي من خلفهما: «أنتما ميتان».

طفرا متباعدين. أحس ونستون بأحشائه تستحيل جليداً. ورأى البياض من حول حَدَقَتَيْ جوليا. صار وجهها أصفر حليبياً. وبرزت البقعتان الحمراوان على وجنتيها بروزاً حادًّا، كأنهما غير متّصلتين بالجلد من تحتهما.

كرر الصوت الحديدي: «أنتما ميتان».

قالت جوليا همساً: «إنه آتٍ من تحت الصورة».

قال الصوت: «إنه آتٍ من تحت الصورة. ابقيا حيثما أنتما تماماً. لا تأتيا بأي حركة إلى أن تؤمرا».

لقد بدأ الأمر... لقد بدأت النهاية! لا يستطيعان شيئاً إلا أن يظلا واقفَين يحدّق أحدهما في عينَي الآخر. وأما أن يجريا فراراً بحياتهما، أن يخرجا من المنزل قبل أن يفوت الأوان... فما خطرت في بالهما فكرة من هذا القبيل أبداً! لا مجال للتفكير في عصيان ذلك الصوت الحديدي الآتي من الجدار. سُمِعَ صوت طقة كما لو أن قفلاً قد انفتح. ثم سُمع صوت تحطم زجاج على الأرض. كانت الصورة قد سقطت على الأرض كاشفة عن الشاشة التي خلفها.

قالت جوليا: «إنهم يستطيعون رؤيتنا الآن».

قال الصوت: «نستطيع رؤيتكما الآن. قفا في وسط الغرفة. قفا ظهراً لظهر. وليضع كل منكما يديه خلف رأسه من غير تلامس بينكما».

وقفا غير متلامسين. لكنه شعر بأنه يستطيع الإحساس بارتجاف جسد جوليا. أو لعله كان ارتجاف جسده هو فحسب! تمكن من منع أسنانه من الاصطكاك، لكنه عجز عن السيطرة على ركبتيه. سُمِع وقع أحذية في الأسفل، داخل المنزل وخارجه. بدت الباحة مليئة بالرجال.

كان شيء يُجَرُّ على حجارة الباحة. توقف صوت غناء المرأة توقفاً مفاجئاً. وسُمِع صوت قعقعة طويل متتالٍ، كأن حوض الغسيل قد ألقي به متدحرجاً من طرف الباحة إلى طرفها. ثم سُمِع خليط من أصوات غاضبة انتهى بصرخة ألم.

قال ونستون: «المنزل محاصر».

قال الصوت: «المنزل محاصر».

سمع صوت جوليا تكزّ على أسنانها: «أظن أن علينا أن نقول وداعاً».

قال الصوت: «عليكما أن تقولا وداعاً». ثم سمع صوت مختلف تمام الاختلاف... صوت مهذّب رقيق فوجئ ونستون عندما أحس بأنه قد سمعه من قبل: «وبالمناسبة، طالما أننا لا نزال في الأمر نفسه، «ها هي شمعة تنير طريقك إلى الفراش، وها هو جَلّاد ليقطع رأسك»!».

سمع ونستون صوت اصطدام شيء عند السرير من خلفه. كان رأس سلم طويل قد برز عبر إطار النافذة. وكان شخص يتسلق السلم ليدخل الغرفة من نافذتها. كان ثمة وقع أحذية على الدرجات المفضية إلى باب الغرفة أيضاً. امتلأت الغرفة برجالٍ متيني البنية يلبسون ملابس موحدة سودً وينتعلون أحذية حديدية النعال. وكانت الهراوات في أيديهم.

لم يعد ونستون يرتعد على الإطلاق! حتى عيناه ظلتا من غير حركة تقريباً. لا أهمية الآن إلا لشيء واحد... أن يظل المرء ساكناً... أن يظل ساكناً حتى لا يعطيهم سبباً لضربه. وقف قبالة ونستون رجل يضع على وجهه قناعاً صقيلاً يشبه ما يضعه الملاكمون وفيه شِقٌّ في مكان الفم. كان يوازن هراوته بين إبهامه وسبابته وكأنه يتأمل في شيء ما. التقت عينا ونستون بعينيه. كان إحساسه بالعري... يداه خلف رأسه ووجهه وجسده مكشوفين بالكامل... شعوراً يكاد يكون غير محتمل. أخرج الرجل رأس لسانه الأبيض ولعق مكان الشفتين ثم مضى متجاوزاً ونستون. سُمع صوت صدمة أخرى. كان أحدهم قد التقط ثقّالة الورق الزجاج من على الطاولة فهشّمها على حجر الموقد.

تدحرجت على الحصير قطعة مرجان صغيرة... قطعة صغيرة وردية اللون كأنها برعم ورد سكري على قطعة حلوى. كم هي صغيرة... فكر ونستون... كم كانت صغيرة على الدوام! صدرت شهقة وصدمة مكتومة من خلفه. وأتته رفسة عنيفة على كاحله كادت تفقده توازنه. كان أحد الرجال قد لكم جوليا في بطنها فجعل جسدها ينثني مثل مسطرة قابلة للطي. راحت تتخبّط على الأرض

وتكافح من أجل استعادة تنفّسها. لم يجرؤ ونستون على إدارة رأسه ولو ميليمتراً واحداً. لكنَّ وجهها الشاحب اللاهث كان يظهر له أحياناً من زاوية عينه. وحتى في غمرة ذعره هذه، كان قادراً على الإحساس بألمها في جسده هو... ذلك الألم القاتل الذي يظل أقل إلحاحاً من الكفاح من أجل استعادة التنفّس. وكان يعرف كيف يكون هذا: ألم معذِّب مخيف موجود هناك طيلة الوقت، لكن المرء لا يستطيع معاناته بعد لأن عليه أن يتمكّن من التنفس قبل ذلك! عند ذلك، حملها اثنان من الرجال من ركبتيها وكتفيها وخرجا بها من الغرفة كأنها كيس من الأكياس. لمح ونستون وجهها، مقلوباً، مصفرّاً، مشوَّهاً بعينين مغمضتين، مع البقعة الحمراء لا تزال ظاهرة على وجنتها. لم يرها بعد ذلك!

ظل ونستون واقفاً من غير حركة على الإطلاق. لم يضربه أحد بعد. بدأت تطوف في رأسه أفكار جاءت من تلقاء ذاتها، لكنها بدت غير ذات أهمية على الإطلاق. تساءل إن كانوا قد قبضوا على السيد تشارينغتون. وتساءل عما فعلوه بتلك المرأة في الباحة. انتبه إلى أنه في حاجة شديدة إلى التبوّل. وأحس بشيء من الدهشة لأنه قد تبول منذ ساعتين أو ثلاث ساعات فقط. لاحظ أيضاً أن الساعة على رفّ الموقد تشير إلى التاسعة، أي إلى الساعة الحادية والعشرين. لكن ضوء النهار بدا له أشد مما يجب أن يكون. ألا يخبو ضوء النهار عند الساعة الحادية والعشرين في أمسية من أمسيات شهر آب؟ تساءل في نفسه... لعلهما، هو وجوليا، لم ينتبها إلى الزمن، لعلهما ناما طيلة الليل وحسبا أن الساعة قد بلغت الثامنة والنصف مساء بينما هي الثامنة والنصف من صباح اليوم التالي! لكنه لم يتابع الفكرة أكثر من ذلك... كانت عديمة الأهمية!

سمع صوت خطوة أخرى عند الباب.. خطوة أخفّ وقعاً. دخل الغرفة السيد تشارينغتون. تغيرت هيئة ذوي الملابس السود تغيّراً مفاجئاً فصارت أكثر خضوعاً. كان مظهر السيد تشارينغتون قد تغيّر فيه شيء أيضاً. وقع نظره على شظايا ثقّالة الورق الزجاج على الأرض.

قال بحدة: «التقطوا هذه القطع!».

اندفع أحد الرجال منفّذاً أمره. لقد اختفت النبرة النائحة من صوت تشارينغتون. وعرف ونستون فجأة الصوت الذي سمعه قبل لحظات معدودة عبر الشاشة. ما زال السيد تشارينغتون مرتدياً سترته المخملية. لكن شعره الذي كان شبه أبيض قد عاد أسود اللون الآن. ولم يكن يضع نظارته أيضاً. التفت التفاتة حادة سريعة صوب ونستون كأنه يتحقّق من هويته، ثم لم يلتفت إليه بعد ذلك. كان لا يزال على هيئته القديمة، لكنه لم يعد الشخص نفسه على الإطلاق. لقد استقام جسده فبدا كأنه صار أطول قامة. وطرأت تغيرات طفيفة على وجهه جعلته، على قلّتها، يتغير تماماً. كان الحاجبان الأسودان أقل كثافة، واختفت التجاعيد، وبدا أن خطوط الوجه كلها قد تغيّرت... بل إن أنفه بدا أقصر من ذي قبل أيضاً. كان وجهاً بارداً منتبهاً لرجل في الخامسة والثلاثين. وخطر في بال ونستون أنها المرة الأولى التي ينظر فيها إلى أحد أفراد الشرطة السرية وهو عارف هويته.

الفصل الثالث

1

لم يعرف أين هو! لا بد أنه في وزارة الحب؛ لكن ما من وسيلة للتأكّد! كان في زنزانة مرتفعة السقف من غير نوافذ، ولها جدران من البورسلان الأبيض اللامع.

كانت الزنزانة غارقة في ضوء باردٍ صادرٍ عن مصابيح مخفية. وكان ثمة أزيز ثابت منخفض افترض ونستون أن له علاقة بالتهوئة. وعلى امتداد جدران الزنزانة كلها كان ثمة مقعد، أو رفّ، يكفي عرضه للجلوس عليه فقط. وكان منقطعاً عند الباب. وأما في الناحية المقابلة للباب، فكان في الأرض مرحاض من غير مقعد خشبي. وكان في الزنزانة أربع شاشات، واحدة على كل جدار. كان في بطنه ألم كليل. لقد لازمه هذا الألم منذ ألقوا به في الشاحنة الصغيرة المغلقة التي انطلقت به بعيداً. لكنه كان جائعاً أيضاً... ذلك النوع الكريه المزعج من الجوع. لعل أربعاً وعشرين ساعة مرت منذ تناول طعاماً آخر مرة... ولعلها ستاً وثلاثين ساعة. إنه لا يعرف بعد، ولعله لن يعرف أبداً، ما إذا كان الوقت صباحاً أو مساء عندما اعتقلوه. لكنهم لم يطعموه شيئاً منذ ذلك الوقت.

جلس محافظاً على أقصى درجة استطاعها من السكون فوق ذلك المقعد الضيق... جلس عاقداً كفيه على ركبتيه. لقد تعلم أن يجلس ساكناً. إذا قام المرء هنا بأي حركة غير متوقّعة، فإنهم يصرخون عليه عبر الشاشة. لكنَّ اشتهاءه الطعام كان في ازدياد. كان ما اشتهاه أكثرِ من شيء آخر هو قطعة خبز. كان يظن أن لديه كسرات خبز في جيب أوفروله. بل كان من الممكن أيضاً أن تكون في جيبه قطعة

غير صغيرة من الخبز اليابس... لقد ظن هذا لأن شيئاً كان ينخز ساقه من حين لآخر. وفي النهاية صار إغراء اكتشاف ما في جيبه أكبر من خوفه فدسّ يده في الجيب.

زعق صوت من الشاشة: «سميث! 6079، سميث ونستون! ممنوع وضع الأيدي في الجيوب في الزنازين».

جلس ساكناً من جديد ويداه معقودتان على ركبته. لقد أخذوه إلى مكان آخر قبل أن يأتي إلى هنا. لا بد أنه كان سجناً عادياً أو سجناً مؤقتاً تستخدمه الدوريات. لا يعرف كم مرّ عليه من الوقت هناك... إنها بضع ساعات؛ فمن غير وجود ساعة أو من غير رؤية ضوء النهار، يكون تقدير الوقت أمراً صعباً! كان مكاناً صاخباً سيئ الرائحة. وضعوه في زنزانة تشبه زنزانته هذه، لكنها شديدة القذارة ومزدحمة دائماً بعشرة أشخاص أو خمسة عشر شخصاً. كان أكثر هؤلاء من المجرمين العاديين. لكن فيهم أيضاً بضعة سجناء سياسيين. جلس هناك ساكناً ملتصقاً بالجدار مضغوطاً بين أجسام وسخة. وجعله الخوف الذي استولى عليه، وألم بطنه، غير منتبه كثيراً إلى ما يحيط به. لكنه لاحظ الفارق المدهش في السلوك بين السجناء الحزبيين وبقية السجناء. كان السجناء الحزبيون صامتين دائماً، مذعورين؛ أما المجرمون العاديون فبدوا غير مهتمين بأحد أو بشيء! كانوا يقذفون الحراس بشتائمهم، ويقاتلون قتالاً عنيفاً عند حجز متعلّقاتهم، ويكتبون كلمات فاحشة على الأرض، ويأكلون طعاماً مهرباً يخرجونه من مخابئ سرية في ملابسهم، بل كانوا أيضاً يصرخون على الشاشات عندما تحاول أوامرها استعادة النظام. كما أن قسماً منهم كان يبدو على علاقة طيبة بالحراس. كانوا يخاطبونهم بألقابهم ويحاولون تملّقهم حتى يعطونهم السجائر عبر ثقوب التلصّص في الباب. وكان الحراس أيضاً يعاملون المجرمين العاديين بقدر من التسامح، حتى عندما يضطرون إلى التعامل معهم تعاملاً خشناً. وكان ثمة كلام كثير عن معسكرات العمل الإجباري التي كان أكثر السجناء يتوقّع الذهاب إليها. كان الوضع «لا بأس به» في تلك المعسكرات... هكذا استنتج... طالما كان للمرء علاقات جيدة وطالما عرف

الخيوط الصحيحة! كان في المعسكرات رشوة، ومحاباة، وابتزاز من كل نوع. وفيها شذوذ جنسي ودعارة. بل فيها أيضاً كحول يقطّرونه من البطاطا على نحو غير مشروع. ولم تكن الأعمال التي تتطلّب ثقة الحرّاس لتعطى إلا للمجرمين العاديين: خاصة القتلة وأفراد العصابات ممن يشكلون نوعاً من الأرستقراطية هناك. وأما الأعمال القذرة كلها فيُعهد بها إلى المعتقلين السياسيين.

كان سجناء من مختلف الأنواع يأتون ويذهبون على الدوام: باعة مخدرات، ولصوص، وقطّاع طرق، ومتاجرون في السوق السوداء، وسكارى، وداعرات. وكان عنف بعض السكارى شديداً إلى حد يجعل بعض السجناء يتعاونون من أجل ضبطهم. حملوا إلى الزنزانة حطام امرأة ضخمة تبلغ نحو ستين عاماً من العمر ولها ثديان متدليان ضخمان ولفّات شعر أبيض كثيرة انفلتت أثناء عراكها معهم. كانت ترفس وتصيح عندما حملها أربعة من الحراس، من أطرافها الأربعة. انتزعوا حذاءها التي كانت تحاول رفسهم به. وألقوا بها في حضن ونستون مباشرة فكادت تكسر عظام فخذيه. استقامت المرأة جالسة وشيّعتهم بصرخة «أولاد الحرام!». ثم لاحظت أنها جالسة على شيء غير مستوٍ فزلقت جسمها عن ركبتي ونستون واستقرت على المقعد.

قالت: «عفواً يا عزيزي! لم أقصد أن أجلس عليك. لقد وضعني الأوباش هنا. إنهم لا يعرفون كيف يجب التعامل مع سيدة، أليس كذلك؟». توقفت عن الكلام قليلاً وربتت على صدرها ثم تجشأت. قالت: «آسفة! لستُ على ما يرام».

ثم انحنت ثم تقيأت بغزارة على الأرض.

قالت مستندة إلى الخلف ومغمضة عينيها: «هذا أفضل! أقول دائماً إن المرء لا يجوز أن يتركه في بطنه. يجب إخراجه قبل أن يمر عليه زمن طويل في المعدة».

هدأت قليلاً ثم استدارت لتلقي نظرة أخرى على ونستون فبدا عليها من فورها أنها تميل إليه. وضعت ذراعها الضخمة على كتفه وشدته إليها فغمرت وجهه أنفاسها المشبعة برائحة البيرة والقيء.

قالت: «ما اسمك يا عزيزي؟».

قال ونستون: «سميث».

قالت المرأة: «سميث؟ اسمي سميث أيضًا!» أضافت على نحوٍ عاطفي: «قد أكون أمك!».

قال ونستون في نفسه إنها يمكن أن تكون أمه فعلاً. إن سنها وبنية جسمها يناسبان ذلك. ومن المرجح أن الناس يتغيرون بعض الشيء بعد عشرين عاماً في معسكر العمل الإجباري.

لم يكلّمه أحد غيرها. كان المجرمون العاديون يتجاهلون السجناء الحزبيين إلى حد يثير الدهشة. كانوا يدعونهم باسم «سياسة»، ويعاملونهم بنوع من الازدراء واللامبالاة. وكان السجناء الحزبيون يبدون خائفين من تبادل الحديث مع أي كان، ومن تبادل الحديث في ما بينهم خاصة. مرة واحدة فقط، عندما جلست اثنتان من الحزبيات مضغوطتين معاً على المقعد، سمع ونستون في خضم جلبة الأصوات في الزنزانة كلمات مهموسة سريعة قليلة تشير خاصةً إلى شيء اسمه «الغرفة 101». وهو ما لم يفهمه ونستون.

لعلهم أتوا به إلى هنا منذ ساعتين أو ثلاث ساعات. لا يزال الألم الكليل في بطنه لم يفارقه. لكنه كان يشتد حيناً ويخف حيناً آخر. وكانت أفكاره تتمدّد أو تتقلّص وفق ذلك. فعندما يشتد الألم كان يفكر في الألم ذاته فحسب، وفي رغبته في الطعام. وعندما يتحسن الحال كان الذعر يستولي عليه. مرت عليه لحظات كان يرى فيها ما سوف يحدث له على نحو ملموس جداً إلى حد يجعل ضربات قلبه تتسارع وأنفاسه تتقطّع. كان يحس بضربات الهراوات على مرفقيه وبضربات الأحذية المدعمة بالحديد على قصبتَي ساقيه. كان يرى نفسه زاحفاً على الأرض صارخاً يطلب الرحمة عبر أسنان محطمة. لم يفكر في جوليا تقريباً. وما كان قادراً على تركيز أفكاره عليها. لقد أحبها، ولن يخونها! لكن تلك كانت حقيقة فحسب... حقيقة يعرفها مثلما يعرف المرء قواعد الحساب. لم يكن يشعر بحب نحوها، ولم يفكر تقريباً في ما كان يحدث لها. كان يفكر في أوبراين أكثر منها... بأملٍ متوثّب. لعل أوبراين عرف أنه قد اعتُقل. لقد قال له إن الأخوية لا تحاول إنقاذ أعضائها. لكنْ ثمة شفرة أو نصلٌ.

سوف يرسلون الشفرة إذا استطاعوا. وقد تكون لديه خمس ثوانٍ قبل أن يتمكن الحارس من دخول الزنزانة. سوف تغوص الشفرة فيه بنوع من البرودة الحارقة؛ بل إنها سوف تجرح الأصابع الممسكة بها أيضاً، حتى العظام. كان كل شيء يرتدّ إلى جسده المريض الذي كان ينكمش مرتعداً عند أدنى قدرٍ من الألم. لم يكن واثقاً من قدرته على استخدام الشفرة حتى إن سنحت له فرصة استخدامها. لقد كان من الطبيعي أكثر أن يستمر المرء على قيد الحياة من لحظة لأخرى، وأن يقبل بعشر دقائق إضافية من الحياة حتى عندما يكون واثقاً من أن تعذيباً ينتظره عند نهايتها.

كان يحاول أحياناً إحصاء عدد بلاطات البورسلان على جدار الزنزانة. يجب أن يكون هذا أمراً سهلاً! لكنه كان يخطئ العد دائماً عند نقطة ما. وكان يفكر كثيراً في مكان وجوده، وفي معرفة الوقت. كان يحس أحياناً بأنه متأكد من أن الوقت نهار في الخارج؛ وكان في أوقات أخرى يحس، بالقدر نفسه من التأكد، أن الظلمة حالكة في الخارج. كان يعرف بغريزته أن الأنوار لا تُطفأ أبداً في هذا المكان. إنه المكان الذي لا ظلمة فيه: عرف الآن ما الذي جعل أوبراين يبدو كمن فهم التلميح. لا نوافذ في وزارة الحب. وقد تكون زنزانته في قلب البناء أو عند جداره الخارجي. قد تكون على عمق عشرة أدوار تحت الأرض، أو ثلاثين دوراً فوقها. كان يحرّك نفسه، عقلياً، من مكان لآخر ويحاول أن يقرِّر انطلاقاً من إحساس جسده ما إذا كان معلَّقاً عالياً في الهواء أو مدفوناً عميقاً تحت الأرض.

سمع صوت أحذية تمشي في الخارج. انفتح الباب الفولاذي صارّاً. دخل برشاقة من الباب ضابط شاب ذو قامة أنيقة بملابس سود، وبدا متلألئاً كله في الجلد الملمّع. أما وجهه الشاحب ذو الملامح الحادة فبدا أشبه بقناع من شمع. أشار للحراس الواقفين في الخارج بأن يحضروا السجين الذي كان معهم. دخل الزنزانة متثاقلاً الشاعر أمبليفورث. وانغلق الباب صارّاً من جديد.

تحرّك أمبليفورث حركة أو حركتين غير واثقتين، من ناحية لأخرى، كأنه ظن أن ثمة باباً آخر يخرج منه. ثم راح يذرع الزنزانة جيئة وذهاباً. لم يلاحظ وجود ونستون بعد! كانت عيناه مضطربتين تحدقان في الجدار أعلى من مستوى رأس

ونستون بمترٍ تقريباً. كان من غير حذاء. وكانت أصابع قدميه الكبيرة القذرة بارزة من ثقوب جواربه. لقد مرت عليه عدة أيام من غير حلاقة فغطّت وجهه لحية قصيرة فوضوية بلغت وجنتيه مسبِغة عليه منظراً وحشياً منسجماً انسجاماً غريباً مع جسده الضخم الضعيف وحركاته العصبية.

نهض ونستون بجسده قليلاً من وضعية السبات التي كان عليها. عليه أن يتحدَّث مع أمبليفورث وأن يغامر بأن تصرخ الشاشة به. بل لعل من الممكن أن يكون أمبليفورث هو من يحمل الشفرة إليه.

قال: «أمبليفورث!».

لم تصدر أي صيحة عن الشاشة. توقف أمبليفورث في منتصف خطوته. تركزت نظراته بطيئة على ونستون.

قال: «آه! سميث. أنت أيضاً!».

«لماذا أتوا بك؟».

قال: «إن أردت قول الحقيقة...» جلس جلسة غريبة على المقعد الخشبي مقابل ونستون... «ثمة جريمة واحدة فقط، أليس كذلك؟».

«وهل ارتكبتها؟».

«من الواضح أنني فعلت».

وضع كفه على جبهته وضغط على صدغيه لحظة كمن يحاول أن يتذكر شيئاً.

بدأ الكلام على نحوٍ غامض: «هذه الأشياء تحدث. إنني قادر على تذكر حالة واحدة... حالة محتملة. لا شك في أنها كانت حالة طيش. لقد كنا ننتج نسخة نهائية من أشعار كيبلينغ. وقد تركت كلمة «الله» في نهاية أحد السطور. لم أستطع أن أمنع نفسي عن هذا». أضاف ذلك ساخطاً تقريباً ورفع رأسه لينظر إلى ونستون: «كان تغيير ذلك السطر مستحيلاً. كانت القافية (بحرف الهاء). هل تدرك أن في اللغة الإنجليزية كلها اثنتي عشر قافية بحرف الهاء فقط؟ لقد عصرت ذهني عدة أيام. لم أجد قافية أخرى».

تغيّر تعبير وجهه. غاب الانزعاج عنه، وبدا للحظة شبه مسرور. ظهر عليه نوع من الدفء الفكري، فرحة شخص متحذلق اكتشف حقيقة لا قيمة لها. شعّ هذا الدفء عبر أوساخه ولحيته المشعثة.

قال: «هل خطر في بالك يوماً ما أن تاريخ الشعر الإنجليزي كله حددته حقيقة أن اللغة الإنجليزية فقيرة بالقوافي.؟.

لا! لم تخطر في بال ونستون هذه الفكرة تحديداً على الإطلاق. ولم يجدها، في هذه الظروف، خطيرة أو مثيرة للاهتمام.

سأل: «هل تعرف في أي وقت من النهار نحن؟».

بدا أمبليفورث مجفلاً من جديد: «لم يخطر هذا على بالي. لقد اعتقلوني... لعل ذلك منذ يومين... وربما ثلاثة». راحت عيناه تمسحان جدران الغرفة كما لو أنه توقّع العثور على نافذة في مكان ما. «لا فارق بين الليل والنهار في هذا المكان. ولا أعرف كيف يمكن حساب الزمن هنا».

امتد حديثهما على غير هدى بضع دقائق. ثم انبعثت من الشاشة صيحة من غير سبب ظاهر فألزمتهما الصمت. جلس ونستون هادئاً عاقداً كفيه. أما أمبليفورث الذي كانت ضخامة جسده لا تسمح له بالجلوس مرتاحاً على المقعد الضيّق فقد راح يتململ من ناحية لأخرى واضعاً يديه النحيلتين على إحدى ركبتيه مرة، ثم ينقلهما إلى الأخرى. زعقت الشاشة طالبة منه السكون. ومر الوقت. عشرون دقيقة، ساعة... يصعب تقدير هذا. ومن جديد، سُمِعَ صوت أحذية في الخارج. تقلصت أحشاء ونستون. قريباً، قريباً جداً، ربما خلال خمس دقائق، وربما الآن، سوف يكون معنى وقع الأحذية أن دوره قد جاء.

انفتح الباب. ظهر الضابط ذو الوجه البارد من جديد، ودخل إلى الزنزانة. وبحركة صغيرة من يده أشار إلى أمبليفورث.

قال: «الغرفة 101».

سار أمبليفورث بخطوات خرقاء خارجاً من الزنزانة بين عناصر الحرس. كان وجهه قلقاً على نحو غامض، لكن من غير إدراك.

مر ما بدا أنه وقت طويل. استيقظ الألم في بطن ونستون من جديد. وراح ذهنه يضرب هنا وهناك حول الفكرة نفسها... مثل كرة تسقط مرة بعد مرة في سلسلة الشقوق نفسها. كانت لديه ست أفكار فحسب! الألم في بطنه؛ وقطعة خبز؛ والدم والصراخ؛ وأوبراين؛ وجوليا؛ والشفرة. تقلّصت أحشاؤه من جديد عندما سمع صوت الأحذية الثقيلة مقترباً. وعندما انفتح الباب، جلبت موجة الهواء التي أحدثتها رائحة عرق بارد شديدة. دخل بارسونز الزنزانة. كان مرتدياً بنطلونه القصير الكاكي وقميصه الرياضي.

فوجئ ونستون هذه المرة إلى درجة جعلته ينسى حذره.

«أنت هنا!».

ألقى بارسونز على ونستون نظرة لم يكن فيها اهتمام ولا مفاجأة... بؤس فحسب! راح يمشي في الزنزانة جيئة وذهاباً بخطوات متقافزة. كان واضحاً أنه لا يطيق البقاء ساكناً. وكان ارتجاف ركبتيه السمينتين يظهر كلما استقامت ساقه. كانت عيناه مفتوحتين واسعتين كأنه لم يكن قادراً على منع نفسه من التحديق في شيء غير بعيد كثيراً عنه.

قال ونستون: «لماذا أتوا بك؟».

قال بارسونز شبه منتحب: «جريمة فكر!». كانت نبرة صوته موحية باعتراف تام بالذنب وبنوع من ذعر من لا يصدق إمكانية أن تنطبق هذه الكلمة على حالته. توقف قبالة ونستون وراح يستعطفه فارغ الصبر: «أتظن أنهم سيطلقون النار علي؟ هل تظن هذا يا صديقي؟ إنهم لا يطلقون النار عليك إذا لم تكن فعلت شيئاً حقاً... مجرد أفكار، أفكار لا يستطيع المرء منع نفسه عنها! أعرف أنهم يمنحون المرء محاكمة منصفة. نعم، إنني أثق فيهم من هذه الناحية. سوف يطّلعون على سِجِلّي، أليس كذلك؟ أنت تعرف أي رجل كنته. لم أكن شخصاً سيئاً من أي ناحية. لست ذكياً بطبيعة الحال، لكنني مخلص. لقد حاولت أن أبذل كل ما أستطيع من أجل الحزب... ألم أفعل ذلك؟ سوف أنال خمس سنوات، ألا تظن ذلك؟ بل ربما حتى عشر سنوات؟ من الممكن لشخص مثلي أن يجعل نفسه مفيداً تماماً في معسكر

العمل. ولن يطلقوا النار عليّ لأنني ضللت سواء السبيل مرة واحدة فقط».

قال ونستون: «هل أنت مذنب؟».

صاح بارسونز ناظراً إلى الشاشة نظرة خضوع: «إنني مذنب طبعاً! أنت لا تظن أن الحزب يمكن أن يعتقل شخصاً بريئاً، هل تظن ذلك؟». صار وجهه الشبيه بوجه الضفدع أكثر هدوءاً، بل اكتسب أيضاً تعبيراً ورعاً بعض الشيء. قال مندفعاً: «إن جريمة الفكر شيء مرعب يا صديقي. إنها جريمة غادرة! ومن الممكن أن توقع بك حتى من غير أن تعرف ذلك. هل تعرف كيف أوقعت بي؟ كان ذلك في نومي! نعم، إنها الحقيقة. لقد كنت أعمل وأحاول أن أقوم بواجبي... ولم أعرف أبداً أن في رأسي أي شيئ سيئ على الإطلاق. ثم رحت أتكلم في نومي. هل تعرف ماذا سمعوني أقول؟». خفض صوته مثلما يفعل من يكون مضطراً، لأسباب طبية، إلى التلفظ بكلمات نابية.

«قلت: يسقط الأخ الأكبر! نعم، لقد قلتها. قلتها مرة بعد مرة، على ما يبدو. بيني وبينك يا صديقي، إنني سعيد لأنهم اعتقلوني قبل أن أمضي إلى ما يتجاوز ذلك. هل تعرف ما أعتزم قوله لهم عندما أمثُلُ أمام المحكمة؟ سأقول لهم: شكراً لكم. أشكركم لأنكم أنقذتموني قبل أن يفوت الأوان!».

سأل ونستون: «من الذي وشى بك؟».

قال بارسونز بنوع من الفخر الحزين: «إنها ابنتي الصغيرة. لقد سمعتني من ثقب الباب. استمعت إلى ما أقول ثم نقلته إلى الدوريات صبيحة اليوم التالي. هذا ذكاء حقيقي من فتاة في السابعة، أليس كذلك؟ لست ناقماً عليها على الإطلاق. بل إنني فخور بها في واقع الأمر. هذا يبين أنني أنشأتها على الروح القويمة».

عاد يذرع الغرفة متقافزاً. جاء وذهب عدة مرات ملقياً نظرة توق على المرحاض. ثم أنزل بنطاله القصير على نحوٍ مفاجئ.

قال: «معذرة أيها العجوز! لا أستطيع الامتناع عن هذا. إنه تأثير الانتظار».

أفرغ من أحشائه كمية كبيرة في المرحاض. وغطى ونستون وجهه بيديه.

زعق صوت من الشاشة: «سميث! 6079 سميث ونستون! اكشف وجهك. لا يُسمح بإخفاء الوجوه في الزنازين».

كشف ونستون وجهه. ومضى بارسونز في استخدام المرحاض بغزارة وبصوت مرتفع. ثم اتضح أن التصريف معطل في المرحاض. وظلت رائحة فظيعة تفوح في الزنزانة عدة ساعات بعد ذلك.

أخذوا بارسونز. وكان السجناء يأتون ويذهبون على نحوٍ غامض. وعندما استُدعيت إحدى النساء إلى الغرفة 101، لاحظ ونستون أنها بدت كأنها تقلّصت وتغير لونها عندما سمعت بتلك الكلمات. مرّ بعض الزمن، ويجب أن يكون الوقت قد صار بعد الظهر إذا كانوا أتوا به إلى هذا المكان ليلاً؛ أو أنهم أتوا به في الصباح، وصار الوقت منتصف الليل الآن. كان في الزنزانة ستة سجناء، رجال ونساء. جلسوا هادئين جميعاً. وكان جالساً قبالة ونستون شخص له وجه عديم الذقن ضخم الأسنان يشبه زاحفاً من الزواحف، ضخماً وغير مؤذٍ. وكانت وجنتاه السميتان المنقطتان بارزتين من الأسفل إلى حد يجعل من العسير على المرء تصديق أنه لا يخفي فيهما بعض الطعام. وكانت عيناه الرماديتان الشاحبتان تنتقلان سراً من وجه إلى وجه ثم تسارعان إلى النظر بعيداً عندما تلتقيان بنظرة أي شخص آخر.

انفتح الباب من جديد وأتوا بسجين آخر أطلق مظهره قشعريرة سَرَت في جسد ونستون. كان شخصاً عادياً زريّ المظهر يمكن أن يكون مهندساً أو فنياً من نوع ما. لكنّ نحول وجهه كان مخيفاً. كان يشبه جمجمةً. وبسبب نحوله هذا، بدا فمه وعيناه على غير تناسب مع بقية وجهه. وبدت عيناه مليئتين بكره قاتل لا يهدأ إزاء شيء ما أو شخص ما.

جلس الرجل على المقعد غير بعيد عن ونستون. لم ينظر ونستون إليه مرة ثانية. لكن الوجه المعذَّب، الشبيه بالجمجمة، ظل حياً في ذهنه كأنه ماثل أمام عينيه تماماً. ثم أدرك ونستون فجأة حقيقة الأمر. كان الرجل يموت جوعاً! وفهم أن الفكرة نفسها خطرت لجميع من في الزنزانة في الوقت عينه تقريباً. حدث نوع من

التململ الطفيف على امتداد المقعد المثبت إلى الجدار. ظلت عينا الرجل الذي من غير ذقن تتقافزان صوب الرجل ذي الوجه الشبيه بالجمجمة، ثم تشيحان عنه بعيداً شاعرتين بالذنب، ثم تعودان تحت وطأة شيء يجذبهما إليه ولا تستطيعان مقاومته. وسرعان ما بدأ يتململ في جلسته. نهض آخر الأمر، واجتاز الزنزانة بمشية خرقاء. ثم راح ينقب في جيب أوفروله فأخرج، بهيئة خجولة، قطعة خبز وسخة مدها بيده صوب الرجل الشبيه بالجمجمة.

صدر عن الشاشة زئير غاضب يصم الآذان. قفز الرجل الذي من غير ذقن في مكانه. وأما الرجل ذو الوجه الشبيه بالجمجمة فسرعان ما وضع يديه خلف ظهره كما لو أنه يظهر للعالم كله أنه يرفض ما قُدِّم له.

زأر صوت الشاشة: «بومستيد! 2313 بومستيد ج! دع قطعة الخبز تسقط على الأرض».

أسقط الرجل قطعة الخبز.

قال الصوت: «ابق واقفاً حيث أنت. وجهك إلى الباب. لا تتحرّك».

أطاع الرجل الذي من غير ذقن أوامر الشاشة. وكان انتفاخا خدّيه يرتجفان على نحو لا يستطيع ضبطه. انفتح الباب. دخل الضابط الشاب ثم تنحّى جانباً فظهر من خلفه حارس قصير مكين له ذراعان وكتفان هائلان. وقف الحارس أمام الرجل الذي من غير ذقن، وبإشارة من الضابط سدّد إليه لكمة مخيفة صب وزنه كله فيها فأصابه في وجهه مباشرة. بدا أن قوة اللكمة قد اقتلعت الرجل من على الأرض. تطوَّح جسده عبر الزنزانة ثم اصطدم بقاعدة المرحاض. ظل راقداً هناك برهة كأنه مصعوق. وراح دم قاتم ينز من فمه وأنفه. صدر عنه صوت نواح أو بكاء خافت جداً بدا كأنه غير واعٍ. ثم تكوَّر على نفسه ونهض على يديه وركبتيه من غير ثبات. ووسط انصباب الدمِ واللعاب، سقط من فمه نصفا جسر أسنان صناعي مكسور.

ظل السجناء جالسينِ في سكون تام. كانت أيديهم معقودة على رُكَبِهم. تسلق الرجل الذي من غير ذقن مكانه على المقعد من جديد. راح لون جانب من وجهه

يزداد قتامة. وانتفخ فمه فصار كتلة عديمة الشكل لها لون الكرز وفيها ثقب أسود في وسطها.

كان بعض الدم يسيل إلى صدر أوفرول الرجل من حين لآخر. وظلت عيناه الرماديتان تتنقّلان من وجه إلى وجه وفيها إحساس بالذنب أكثر من ذي قبل، كما لو أنه كان يحاول اكتشاف مقدار ازدراء الآخرين له بعد هذا الإذلال.

انفتح الباب. وبحركة صغيرة من يده، أشار الضابط إلى الرجل ذي الوجه الشبيه بالجمجمة.

قال الضابط: «الغرفة 101».

صدرت آهة وحركة مضطربة بالقرب من ونستون. كان الرجل قد ألقى بنفسه راكعاً على الأرض وقد مد ذراعيه مطبقاً كفّيه معاً.

صاح يقول: «أيها الرفيق! أيها الضابط! ليس لك أن تأخذني إلى ذلك المكان! ألم أقل لكم كل شيء؟ ما الذي تريدون معرفته غير ذلك؟ ما من شيء رفضت الاعتراف به، لا شيء! قل لي ما هو، وسوف أعترف به فوراً. اكتبه لأوقّع عليه... أي شيء! لا تأخذني إلى الغرفة 101».

قال الضابط: «الغرفة 101».

استحال وجه الرجل الذي كان شديد الشحوب أصلاً إلى لون لم يكن ونستون يصدِّق أنه ممكن. لقد كان بالتأكيد، وعلى نحو لا تخطئه العين، درجة من درجات اللون الأخضر.

زعق الرجل: «افعل بي أي شيء! أنتم تجوّعونني منذ أسابيع. إنهوا الأمر ودعوني أموت. إطلقوا النار علي. اشنقوني. أصدروا علي حكماً بخمس وعشرين سنة. هل من شخص آخر تريدون أن أشي به؟ قولوا اسمه فقط وسوف أقول لكم أي شيء تريدون سماعه. لا أبالي بمن عساه يكون أو بما قد تفعلون به. إن لديّ زوجة وثلاثة أطفال أكبرهم لم يبلغ السادسة. تستطيعون أخذهم جميعاً، وذبحهم أمام عيني. وسوف أقف متفرِّجاً عليهم. لكن لا تأخذوني إلى الغرفة 101».

قال الضابط: «الغرفة 101».

راح الرجل ينظر محموماً إلى السجناء الآخرين وكأن لديه فكرة تقول إنه يستطيع وضع ضحية أخرى في مكانه. استقرّت عيناه على الوجه المحطَّم، وجه الرجل الذي من غير ذقن. مد صوبه ذراعاً نحيلة.

صاح: «هذا هو الذي يجب أن تأخذونه، وليس أنا! لم تسمعوا ما كان يقوله بعد أن هشّمتم وجهه. امنحوني الفرصة لأقول لكم كل كلمة قالها. إنه الشخص الذي يقف ضد الحزب، وليس أنا». خطا الحراس صوبه. فارتفع صوت الرجل وصار زعيقاً. وقال مكرراً: «أنتم لم تسمعونه! لقد جرى شيء ما للشاشة. إنه الشخص الذي تريدون. خذوه هو، وليس أنا».

تقدم حارسان قويان ليمسكانه من ذراعيه. لكنه، في هذه اللحظة تماماً، ألقى بنفسه إلى أرض الزنزانة فتشبث بإحدى قوائم المقعد الحديد. وراح يطلق عويلاً من غير كلمات، مثل صوت حيوان. أمسك الحارسان به وحاولا جعله يُفلِت المقعد. لكنه واصل تشبّثه بقوّة مدهشة. ظلا يحاولان جره زمناً لعله استمر عشرين ثانية. وظل السجناء جالسين، عاقدين أيديهم حول ركبهم، ناظرين أمامهم من غير التفات. توقف عويل الرجل. لم تبق لديه أنفاس لأي شيء، إلا لمواصلة التشبث بالمقعد. ثم صدرت عنه صرخة مختلفة. لقد كسرت رفسة من حذاء أحد الحارسين أصابع إحدى يديه. جرّاه فأنهضاه على قدميه.

قال الضابط: «الغرفة 101».

اقتيد الرجل خارجاً. كان يمشي مشية غير ثابتة برأس منكّس، محاولاً حماية يده المهشّمة. كان قد استسلم تماماً.

مر وقت طويل. إن كانوا قد أخذوا الرجل ذا الوجه الشبيه بالجمجمة منتصف الليل، فقد حل الصباح الآن. وإن كانوا أخذوه في الصباح. فقد حل بعد الظهر. كان ونستون وحيداً. مضى عليه الآن وحيداً عدة ساعات. كان الألم الذي سببه الجلوس الطويل على المقعد شديداً إلى درجة جعلته يُكثر القيام والمشي في الزنزانة... من غير اعتراض من الشاشة. لا تزال قطعة الخبز على الأرض هناك

حيث أسقطها الرجل الذي من غير ذقن. اقتضى الأمر في البداية جهداً شديداً حتى يمتنع عن النظر إليها. لكن الظمأ صار أشد من الجوع الآن! صار فمه دبقاً كريه الطعم. أثار فيه صوت الطنين وذلك البياض الذي لا يتغيّر من حوله نوعاً من الدوخة... إحساس فارغ داخل رأسه! كان ينهض لأنه لم يعد يستطيع احتمال الألم في عظامه. ثم يجلس من جديد، على الفور تقريباً، لأن الدوار يجعله غير واثقٍ من قدرته على البقاء واقفاً على قدميه. وكلما كان يتمكن من ضبط أحاسيسه الجسدية بعض الشيء، كلما عاوده الذعر. كان يفكر أحياناً، بأمل متلاشٍ، في أوبراين وفي الشفرة. من المعقول أن تصل الشفرة إليه مخفية في الطعام، إذا أطعموه! فكّرَ في جوليا أيضاً، على نحو أكثر ضبابيةً. إنها تعاني الآن في مكانٍ ما. ولعلها تعاني أكثر منه. لعلها تصرخ ألماً في هذه اللحظة. قال في نفسه: «لو استطعت إنقاذ جوليا بمضاعفة ألمي، فهل أفعلها؟ نعم، سأفعلها». لكن هذا كان قراراً ذهنياً فحسب... قراراً اتخذه لأنه يعرف أن عليه اتخاذه. قرارًا لم يحسّه! في هذا المكان، لا يستطيع المرء أن يحسّ شيئاً غير الألم... ومعرفة أن هذا الألم سوف يأتي. ثم هل يمكن، عندما يعاني المرء الألم حقاً، أن يتمنى ازدياده لأي سببٍ كان؟ ما من سبيل إلى الإجابة عن هذا السؤال حتى الآن.

كان وقع الأحذية يقترب من جديد. انفتح الباب. دخل أوبراين.

هب ونستون واقفاً على قدميه. لقد جعلته صدمة مشاهدته ينسى كل حذر. ونسي وجود الشاشة للمرة الأولى منذ سنين طويلة.

قال صائحاً: «لقد أمسكوا بك!».

قال أوبراين بسخرية خفيفة تكاد تكون معتذرة: «لقد أمسكوا بي منذ زمن طويل». خطا أوبراين جانباً فظهر من خلفه حارس عريض الصدر وفي يده هراوة طويلة سوداء.

قال أوبراين: «أنت تعرف يا ونستون! لا تخدع نفسك. لقد كنت تعرف هذا... لقد عرفته دائماً».

نعم، أدرك الآن، لقد كان يعرف هذا دائماً. لكنه لم يكن يملك وقتاً للتفكير في

الأمر الآن. كان اهتمامه منصباً كله على الهراوة في يد الحارس. قد تسقط على أي مكان: على قمة رأسه، أعلى أذنه، عضده... على مرفقه...

على المرفق! سقط على ركبتيه شبه مشلول... ممسكاً بيده الأخرى مرفقه الذي أصابته الضربة. انفجر كل شيء في ضياء أصفر. لا يعقل... لا يعقل أبداً أن ضربة واحدة يمكن أن تسبب هذا الألم كله! زال الضوء الأصفر فاستطاع رؤية الرجلين واقفين ينظران إليه من عَلٍ. كان الحارس يضحك من تَلَوّيه على الأرض. لقد اتضحت إجابة أحد الأسئلة، على الأقل! لا يمكن أبداً، لأي سبب على وجه البسيطة، أن يتمنّى المرء زيادة الألم! يستطيع المرء أن يتمنّى شيئاً واحداً إزاء الألم: أن يتوقف! لا شيء في العالم أسوأ من الألم الجسدي. لا بطولة في مواجهة الألم، ولا أبطال! هكذا راح يفكر مرة بعد مرة بينما كان يتلوّى على الأرض ممسكاً من غير جدوى بذراعه اليسرى المعطوبة.

2

كان مستلقياً على شيء أحس أنه يشبه سريراً من أسرّة المخيمات. إلا أنه كان أكثر ارتفاعاً عن الأرض. كما أنه كان مثبّتاً إلى السرير بطريقة جعلته غير قادر على الحركة. وكان ضوء بدا أقوى من المعتاد مسلَّط على وجهه. كان أوبراين واقفاً إلى جواره ناظراً إليه نظرة اهتمام. وإلى الناحية الأخرى منه وقف رجل في رداء أبيض حاملاً في يده حقنة من النوع الذي يُعطى تحت الجلد.

لم يستوعب ونستون ما يحيط به إلا على نحو تدريجي، حتى بعد أن فتح عينيه. كان لديه إحساس أنه سبح إلى هذه الغرفة قادماً من عالم مختلف تماماً... نوع من عالم تحت الماء... من أعماق بعيدة. وما كان يعرف طول الزمن الذي أمضاه في ذلك العالم. لم ير ضوء النهار، ولا رأى ظلمة، منذ لحظة اعتقاله. كما أن ذكرياته لم تكن متصلة أيضاً! كانت هنالك أوقات توقّف فيها وعيه تماماً، حتى ذلك الوعي الذي يظل موجوداً عندما ينام المرء، ثم عاد من جديد بعد فاصل فارغ من كل شيء. وما كان لديه سبيل إلى معرفة ما إذا كانت تلك الفواصل أياماً أو أسابيع، أو ثوانٍ فحسب.

بدأ الكابوس مع تلك الضربة الأولى على المرفق. أدرك ونستون لاحقاً أن كل هذا الذي حدث كان بداية فحسب... استجواباً روتينياً يتعرّض له كل سجين على وجه التقريب. كانت ثمة قائمة طويلة من الجرائم... التجسس، والتخريب، وما يشبه ذلك... لا بد لكل امرئ من الاعتراف بها. كانت الاعترافات أمراً شكلياً، لكن التعذيب كان حقيقياً. وما كان قادراً على تذكر عدد المرات التي تعرّض فيها للضرب، وكم استمر ذلك الضرب! كان خمسة أو ستة رجال في ملابس سود ينهالون عليه معاً كل مرة، بقبضاتهم أحياناً، وبالهراوات أحياناً أخرى، وبقضبان فولاذية، وبالأحذية. مرت عليه أوقات كان يتدحرج فيها على الأرض، مثل حيوان بائس، ويتلوّى جسده إلى هذه الناحية أو تلك في محاولة يائسة لا تنتهي من أجل تفادي الرفسات من غير أن ينجح إلا في استجلاب رفسات جديدة على أضلاعه، وعلى بطنه، وعلى مرفقيه، وعلى قصبتَي ساقيه، وفي أسفل بطنه،

وفي خصيتيْه، وعلى أسفل عموده الفقري. كانت تمر أوقات يستمر ذلك فيها، ويستمر، حتى يبدو له أن الأمر القاسي الشرير الذي لا يمكن الصفح عنه هو عجزه عن إجبار نفسه على فقدان الوعي، وليس استمرار الحراس في ضربه! وكانت تمر أوقات تخذله أعصابه فيها إلى درجة تجعله يبدأ الصياح طالباً الرحمة حتى قبل أن يبدأ الضرب... حين يكون مجرد رؤية الاستعداد لتوجيه الضربة كافياً لجعله يصب اعترافات بجرائم حقيقية أو متخيلة! وكانت تمر أوقات أخرى يكون في بدايتها مصمماً على عدم الاعتراف بشيء، ولا تخرج منه كلمة إلا بين شهقتي ألم. وكانت ثمة أوقات يحاول فيها إقامة نوع من التسويات، ويقول لنفسه: سوف أعترف، لكن ليس بعد. يجب أن أصمد حتى يصبح الألم غير محتمل. ثلاث رفسات أخرى، رفستان، ثم أخبرهم بما يريدون! وكان يُضرَب أحياناً حتى يكاد يعجز على الوقوف، ثم يُلقى به مثل كيس من البطاطا فوق أرض الزنزانة الحجرية، ويُترك حتى يستريح بضع ساعات، ثم يُؤخذ من الزنزانة فيُضرب من جديد. وكان ثمة فترات استراحة أكثر طولاً أيضاً. إنه يتذكر هذه الفترات على نحو غائم لأنه كان يمضي أكثرها في النوم أو في حالة من السبات. يتذكر زنزانة فيها سرير خشبي... شيء يشبه رفاً بارزاً من الجدار، ومغسلة معدنية، ووجبات من الحساء الحار والخبز، وبعض القهوة أحياناً. ويتذكر أيضاً حلّاقاً فظاً كان يأتي فيحلق ذقنه ويقص شعره؛ ورجالاً غير متعاطفين، عليهم هيئة جدية في ملابس بيض يقيسون نبضه ويفحصون منعكساته ويقلبون أجفان عينيه ويمرون بأصابعهم القاسية على جسده بحثاً عن عظام مكسورة، ويحقنون في ذراعه إبراً تجعله ينام.

صار الضرب أقل تواتراً. وصار يُستخدم للتهديد على الأغلب... صار رعباً يُهدَّد بإعادته إليه في أي لحظة عندما تكون إجاباته غير مرضية. وما عاد من يستجوبونه الآن أشراراً في ملابس سود، بل أشخاص من مثقَّفي الحزب، رجال مكتنزين صغار الحجم لهم حركات سريعة ونظارات لامعة. كانوا يتناوبون الاشتغال عليه فترات تستمر الواحدة منها عشر ساعات أو اثنتي عشرة ساعة... هكذا يظن، لكنه ما كان واثقاً! وقد حرص هؤلاء المحققون الجدد على أن يظل

تحت ألم طفيف متواصل؛ لكنهم ما كانوا معتمدين على الألم من الوجهة الأساسية! كانوا يصفعون وجهه ويشدون أذنيه وشعره ويجعلونه يقف على ساق واحدة ويرفضون السماح له بالتبوّل ويسلطون الأضواء الساطعة على وجهه حتى تسيل الدموع من عينيه؛ لكن الهدف من هذا كان إذلاله فحسب وتحطيم قدرته على المناقشة والتفكير. وكان سلاحهم الحقيقي هو الاستجواب الذي يستمر ويستمر من غير رحمة، ساعة بعد ساعة، والإيقاع به، ونصب الشراك له، وتحوير كل ما يقوله، واتهامه عند كل خطوة بالكذب والتناقض إلى أن يبدأ البكاء لشدة خزيه، كما لشدة إعيائه العصبي. كان يبكي أحياناً خمس أو ست مرات في الجلسة الواحدة!

كانوا يشتمونه زاعقين معظم الوقت، ويهددونه عند كل تردّد بإلقائه إلى الحرّاس من جديد. لكنهم كانوا يغيرون نغمتهم أحياناً فينادونه بالرفيق، ويناشدونه باسم إشتنج وباسم الأخ الأكبر، ويسألونه متحسّرين أحياناً إن كان، حتى في هذه اللحظة، قد بقي لديه ولاء للحزب يجعله يتمنى أن يُصلح الشرور التي أتاها. وعندما كانت أعصابه تغدو مزقاً بعد ساعات من الاستجواب، كانت حتى هذه المناشدة قادرة على جعله يعْوِل باكياً. وفي نهاية المطاف، صارت هذه الأصوات النقّاقة أكثر تحطيماً له من أحذية الحراس وقبضاتهم. لقد صار أخيراً مجرد فم ينطق، ويد توقّع كل ما كان مطلوباً منه. وصار همّه الوحيد متركزاً على اكتشاف ما يريدون منه الاعتراف به، ثم الاعتراف به سريعاً قبل أن يبدأ إيذاؤه من جديد. اعترف باغتيال أعضاء بارزين في الحزب، وبتوزيع نشرات تحريضية، وباختلاس الأموال العامة، وببيع أسرار عسكرية، وبتخريب متعدّد الأنواع. واعترف أنه كان يتجسّس مقابل المال لصالح حكومة إيستاسيا منذ عام 1968. واعترف أنه كان متديّناً مؤمناً، ومعجباً بالرأسمالية، ومنحرفاً جنسياً. واعترف أنه قتل زوجته رغم معرفته أنها كانت لا تزال حية وأن مستجوبيه يعرفون ذلك حتماً. واعترف أنه كان على صلة شخصية بغولدشتاين منذ سنوات كثيرة، وأنه عضو في منظّمة سرية تكاد تضم كل كائن بشري عرفه في حياته. كان من الأسهل أن يعترف بكل شيء وأن يورِّط كل شخص. ثم إن هذا كله كان صحيحاً بمعنًى من المعاني، فصحيح أنه

كان عدو الحزب؛ ولا فارق في نظر الحزب بين الأفكار والأعمال!

كانت لديه أيضاً ذكريات من نوع آخر... ذكريات قائمة من غير اتصال بينها، مثل صور يحيط بها السواد من جهاتها جميعاً.

كان في زنزانة قد تكون مظلمة أو مُنارة لأنه لم يكن يرى فيها شيئاً إلا زوجاً من عيون! وفي موضع قريب جداً كان ثمة أداة تُصدر تكتكات بطيئة منتظمة. كبرت العينان وازداد بريقهما. وفجأة، طفا من مقعده فغاص في تلك العينين وابتُلع فيهما تماماً.

كان مقيَّداً في كرسيّ ومحاطاً بلوحات ذات مؤشرات تحت أضواء ساطعة. وكان رجل في ثوب أبيض يقرأ هذه المؤشّرات. سُمع وقع أحذية ثقيلة في الخارج. انفتح الباب. دخل الضابط ذو الوجه الشمعي وخلفه اثنان من الحراس.

قال الضابط: «الغرفة 101».

لم يلتفت الرجل ذو الرداء الأبيض. ولم ينظر إلى ونستون أيضاً. كان ينظر إلى المؤشّرات فحسب!

كان ونستون سائراً في ممر ضخم يبلغ عرضه كيلومتراً... ممر يغمره ضوء ذهبي بهي. كان يضحك عالياً جداً ويصيح باعترافاته بأعلى صوته. كان يعترف بكل شيء، حتى بأشياء نجح في كتمها تحت التعذيب. كان يروي قصة حياته كلها أمام جمهور يعرف تلك القصة أصلاً. وكان معه الحارسان، وبقية المستنطقين، والرجال ذوي الثياب البيض، وأوبراين، وجوليا، والسيد تشارينغتون... كانوا كلهم سائرين في ذلك الممر معاً مطلقين ضحكات مرتفعة الصوت. ثمة شيء مخيف كان متروكاً للمستقبل... لكنه جرى تجاوزه على نحو ما فلم يحدث! كان كل شيء على ما يرام، لا مزيد من الألم، وكان التفصيل الأخير من تفاصيل حياته يظهر عارياً، مفهوماً، مغفوراً.

كان يحدق إلى الأعلى راقداً في سرير خشبي شبه واثق من أنه قد سمع صوت أوبراين. كان لديه شعور، طيلة فترة الاستجواب، أن أوبراين كان لا يزال واقفاً عند مرفقه، خارج مجال إبصاره... رغم أنه لم يره أبداً. كان أوبراين هو من يدير كل شيء.

كان هو الذي يطلق الحرّاس على ونستون، وهو الذي يمنعهم من قتله. كان هو الذي يقرر متى يتعين أن يصرخ ونستون ألماً، ومتى يجب أن يحظى باستراحة، ومتى يجب إطعامه، ومتى يجب أن ينام، ومتى يجب حقنه بالأدوية في ذراعه. كان هو الذي يطرح الأسئلة ويوحي بالإجابات. كان هو المعذِّب؛ وكان هو الحامي؛ وكان هو المستنطق، وكان هو الصديق. وفي لحظة من اللحظات... لم يكن ونستون يتذكر إن كان هذا خلال نومه المخدَّر، أو نومه العادي، أو حتى في لحظة من لحظات اليقظة... تمتم صوت في أذنه: «لا تقلق يا ونستون. أنت في عهدتي. إنني أراقبك منذ سبع سنوات. والآن جاءت نقطة الانعطاف. سوف أنقذك، وسوف أجعلك مكتملاً». لم يكن واثقاً إن كان هذا الصوت صوت أوبراين؛ لكنه كان هو الصوت نفسه الذي قال له: «سوف نلتقي في مكان لا ظلمة فيه»، في ذلك الحلم الآخر، قبل سنوات سبع.

لم يستطع أن يتذكر متى بدأ استجوابه أو متى ينتهي. مرت فترة من الظلمة، ثم أتت الزنزانة، أو الغرفة، التي ظهرت من حوله. كان شبه ممدّد على ظهره وغير قادر على الحركة. كان جسده مثبتاً إلى السرير في كل نقاطه الأساسية. بل إن مؤخر رأسه أيضاً كان ممسوكاً على نحو ما. وكان أوبراين ينظر إليه نظرة جدية حزينة بعض الشيء. كان وجهه، منظوراً إليه من الأسفل، يبدو خشناً متعباً. كانت فيه انتفاخات تحت العينين وخطوط متعبة منطلقة من الأنف إلى الذقن. كان أكبر سناً مما ظنه ونستون؛ لعله في الثامنة والأربعين أو الخمسين. وتحت يده، كان قرص فيه درجات وله مفتاح من الأعلى ومؤشرات على وجهه.

قال أوبراين: «قلت لك إننا سنلتقي هنا، إذا التقينا».

قال ونستون: «نعم».

ومن غير أي إنذار، اللهم إلا حركة طفيفة من يد أوبراين، غمرت جسد ونستون موجة من الألم. كان ألماً مخيفاً لأنه لم يكن قادراً على رؤية ما يحدث. وكان لديه إحساس أن إصابة قاتلة تلحق به. لم يكن يعرف إن كان ذلك الشيء يحدث حقاً أو أنه تأثير كهربائي ما. لكن جسده كان يتلوّى ألماً. وكانت مفاصله تتمزّق على نحو بطيء. ومع أن الألم جعل العرق يتفصّد من جبينه، إلا أن أسوأ شيء كان

خوفه من أن عموده الفقري موشك على أن يتحطّم. شدّ على أسنانه وراح يتنفس من أنفه محاولاً أن يبقى صامتاً أطول فترة ممكنة.

قال أوبراين مراقباً وجهه: «أنت خائف من أن شيئاً سوف يتحطم فيك عند أي لحظة. وأنت خائف خاصة من أن يتحطم عمودك الفقري. إنك ترى صورة عقلية حية للفقرات تنفكّ متباعدة فيقطر السائل الشوكي منها. هذا ما تفكر فيه، أليس كذلك يا ونستون؟».

لم يجبه ونستون: أرجع أوبراين المفتاح الذي على القرص المدرج. تراجعت موجة الألم بسرعة تعادل سرعة مجيئها تقريباً.

قال أوبراين: «هذه كانت أربعين! وأنت ترى أن الأرقام على هذا القرص تصل إلى مئة. أرجو أن تتذكر خلال حديثنا أنني قادر على إلحاق الألم بك في أي لحظة، إلى الدرجة التي أريد. فإذا كذبت، أو حاولت المراوغة بأي طريقة، أو حتى إذا بدا ذكاؤك أدنى من مستواه المعتاد، فسوف تصيح ألماً على الفور. هل تفهم هذا؟».

قال ونستون: «نعم».

صارت هيئة أوبراين أقل ضراوة. صحّح وضع نظارته على عينيه بحركة فطنة ثم تمشّى خطوتين في الغرفة. وعندما تكلم من جديد كان صوته لطيفاً صبوراً. كانت له هيئة طبيب، أو معلِّم، أو حتى كاهن، حريص على الشرح والإقناع بدلاً من العقاب.

قال: «إنني أتعب نفسي معك لأنك تستحق التعب! أنت تعرف مشكلتك تمام المعرفة. أنت تعرفها منذ سنين، لكنك قاومت هذه المعرفة. أنت مختلّ عقلياً. وأنت تعاني ذاكرة فيها عَيْب. وأنت غير قادر على تذكّر الأحداث الحقيقية، لكنك تقنع نفسك بأنك تتذكر أحداثاً أخرى لم تحدث قط. على أن هذا قابل للشفاء، لحسن الحظ! أنت لم تُشفِ نفسك منه أبداً لأنك لم تُرِد ذلك. كان الأمر في حاجة إلى جهد إرادي صغير لم تكن مستعداً لبذله. وأنا مدرك تماماً، حتى الآن، أنك متمسّك بمرضك ظاناً أنه فضيلة لك. سوف أضرب لك مثالاً: ضد من تحارب أوقيانيا الآن؟».

«كانت أوقيانيا في حرب مع إيستاسيا عندما اعتُقلت».

«مع إيستاسيا! جيد! وقد كانت أوقيانيا في حرب مع إيستاسيا دائماً، أليس كذلك؟».

استنشق ونستون نفساً عميقاً. فتح فمه ليتكلّم لكنه لم ينطق. لم يستطع إبعاد عينيه عن القرص في يد أوبراين.

«قل الحقيقة من فضلك يا ونستون. حقيقتك أنت. قل لي ما تظن أنك تتذكّره».

«أتذكر أننا لم نكن في حرب مع إيستاسيا على الإطلاق قبل أسبوع واحد من اعتقالي. كنا متحالفين معها. وكانت الحرب ضد أوراسيا. وقد استمرت الحرب مع أوراسيا أربع سنين. وقبل ذلك...».

أوقفه أوبراين بحركة من يده.

قال: «مثال آخر! منذ بضع سنوات، كان لديك وهم خطير جداً في الحقيقة. لقد ظننت أن رجالاً ثلاثة... ثلاثة ممن كانوا أعضاء في الحزب ذات يوم وهم جونز وآرنسون ورادرفورد، ثم أُعدموا بسبب الخيانة والتخريب، وذلك بعد إدلائهم بأوسع اعترافات ممكنة... ظننت أنهم ليسوا مذنبين بالجرائم التي اتُّهموا بها. وظننت أنك رأيت دليلاً وثائقياً أكيداً يثبت أن اعترافاتهم كانت زائفة. وحدثت لديك هلوسة بخصوص صورة بعينها. وظننت أنك أمسكت هذا الدليل بيدك فعلاً. لقد كان صورة، أو شيئاً من هذا القبيل».

ظهرت بين أصابع أوبراين قصاصة ورق متطاولة. ظهرت الصورة ضمن مجال رؤية ونستون مدة لعلها خمس ثوان. كانت صورة... وما كان ثمة مجال للشك في هويتها! كانت هي الصورة نفسها. كانت نسخة أخرى من صورة جونز وآرنسون ورادرفورد في اجتماع الحزب في نيويورك... الصورة التي رآها قبل أحد عشر عاماً فأتلفها سريعاً. ظهرت تلك الصورة أمام عينيه الآن لحظة واحدة، ثم اختفت عن نظره من جديد. لكنه رآها... ولا مجال للشك في أنه رآها! بذل جهداً معذّباً يائساً حتى يحرر النصف الأعلى من جسده. كانت الحركة مسافة سنتيمتر واحد في أي

اتجاه أمراً مستحيلاً. لقد نسي حتى القرص في هذه اللحظة. كان كل ما أراده هو أن يمسك تلك الصورة بين أصابعه من جديد. أو أن يراها على الأقل.

صاح قائلاً: «إنها موجودة!».

قال أوبراين: «لا!».

سار أوبراين في الغرفة. كان في الجدار المقابل ثقب ذاكرة. رفع أوبراين غطاء الثقب. ومن غير أن تظهر، طفت قصاصة الورق وغابت بعيداً يحملها تيار الهواء الدافئ. لقد كانت تختفي في شعلة من اللهب. استدار أوبراين مبتعداً عن الجدار.

قال: «رماد! ليست حتى رماداً يمكن التعرف عليه... بل غبار! إنها غير موجودة، ولم توجد قط!».

«لكنها كانت موجودة! إنها موجودة! إنها موجودة في الذاكرة. إنني أتذكرها. وأنت تتذكرها أيضاً».

قال أوبراين: «لا أتذكرها».

غار قلب ونستون. هذا هو التفكير المزدوج! أحس بشعور قاتل بالعجز. إن كان يستطيع التأكّد من أن أوبراين كاذب، فلا أهمية للأمر أبداً. لكن من الممكن تماماً أن يكون أوبراين قد نسي الصورة حقاً! وإن كان الأمر هكذا، فسرعان ما سينسى إنكاره تذكّر وجود الصورة؛ وسينسى فعل النسيان نفسه. كيف للمرء أن يكون واثقاً من أن الأمر لم يكن إلا خداعاً بسيطاً؟ لعل هذا الانزياح المخبول في العقل يمكن أن يحدث حقاً: كانت تلك هي الفكرة التي هزمته. كان أوبراين واقفاً ينظر إليه نظرة تأمل. وظهرت عليه أكثر من قبل هيئة المعلم الصابر على طفل مشاكس، لكنه واعد.

قال: «ثمة شعار من شعارات الحزب متعلّق بالسيطرة على الماضي. قله من فضلك».

قال ونستون الشعار مطيعاً: «من يتحكّم بالماضي يتحكّم بالمستقبل. ومن يتحكّم بالحاضر يتحكّم بالماضي».

قال أوبراين هازّاً رأسه بحركة استحسان متأنية: «من يتحكّم بالحاضر يتحكّم بالماضي. وبحسب رأيك أنت يا ونستون، فهل للماضي وجود حقيقي؟».

مرّة أخرى شعر ونستون بالعجز يلفّه من جديد. ألقت عيناه نظرة خاطفة على القرص. لم يكن عاجزاً فقط عن معرفة إن كانت الإجابة بنعم أو بلا هي التي ستجنّبه الألم؛ بل كان غير عارفٍ حتى بالإجابة التي يعتقد فعلاً بأنها إجابة صحيحة!

ابتسم أوبراين ابتسامة خفيفة وقال: «أنت لست ضليعاً في الماورائيات يا ونستون! ولم تفكّر حتى الآن في ما هو مقصود بكلمة وجود. سوف أطرح الأمر على نحو ملموس. هل من وجود ملموس للماضي، في المكان؟ هل ثمة مكان ما، عالم من الأجسام الصلبة، لا يزال الماضي يحدث فيه الآن».

«لا».

«فأين يوجد الماضي إذًا، إن كان موجوداً؟».

«في السجلّات. إنه مكتوب».

«في السجلات. و...؟».

«في الذهن. في الذاكرة البشرية».

«في الذاكرة! حسنٌ جداً! إننا، أي الحزب، نتحكّم بالسجلات. ونحن نتحكم بالذاكرات كلها. إذًا، فنحن نتحكم بالماضي، أليس كذلك؟».

صاح ونستون من جديد ناسياً القرص في تلك اللحظة: «لكن كيف يمكنكم جعل الناس يكفّون عن تذكر الأشياء؟ هذا أمر لا إرادي! إنه يتجاوز قدرة المرء. فكيف تستطيعون السيطرة على الذاكرة؟ أنت لا تتحكم بذاكرتي!».

عادت القسوة إلى هيئة أوبراين من جديد. وضع يده على القرص.

قال: «على العكس! أنت الذي لم تسيطر على ذاكرتك. وهذا ما أتى بك إلى هنا. أنت هنا لأنك فشلت في التواضع، وفي الانضباط الذاتي. أنت ترفض الخضوع الذي هو ثمن المحافظة على العقل. لقد فضّلت أن تكون مجنوناً، أقلية مكوَّنة من شخص واحد! وحده العقل المنضبط هو الذي يستطيع رؤية الحقيقة يا ونستون.

لقد ظننت أن الواقع أمر موضوعي، خارجي، موجود في ذاته. وظننت أيضاً أن طبيعة الواقع بينة بذاتها. وعندما تغشّ نفسك فتقول إنك ترى شيئاً، فأنت تفترض أن كل شخص غيرك يرى الشيء نفسه أيضاً. لكني أقول لك يا ونستون إن الواقع ليس شيئاً خارجياً. إنه موجود في عقل الإنسان، لا في أي مكان آخر! ليس موجوداً في العقل الفردي، لأنه يمكن أن يخطئ؛ وهو سريع الفناء أيضاً: الواقع موجود في عقل الحزب فقط... عقل الحزب الذي هو جمعيٌّ خالد. كل ما يراه الحزب حقيقة، فهو حقيقة. تستحيل رؤية الواقع إلا عبر عين الحزب. هذه هي الحقيقة التي ينبغي لك أن تتعلمها من جديد يا ونستون. وهي في حاجة إلى فعل من أفعال التدمير الذاتي، جهد إرادي. عليك أن تهزم نفسك قبل أن تستطيع أن تصبح عاقلاً».

توقف لحظات قليلة وكأنه يريد إعطاء ما قاله وقتاً حتى يستقر في عقل ونستون.

تابع يقول: «هل تتذكر ما كتبته في مذكراتك؟ الحرية هي حرية القول إن اثنين واثنين يساوي أربعة؟»

قال ونستون: «نعم».

مد أوبراين يده اليسرى. طوى إبهامه وأظهر أربع أصابع ممدودة.

«كم إصبعاً هذه يا ونستون؟».

«أربعًا».

«وإذا قال الحزب إنها ليست أربعًا بل خمس... فكم يكون عددها؟».

«أربعة».

انتهت تلك الكلمة بنوبة من الألم. قفزت إبرة المؤشّر حتى الخامسة والخمسين. انبجس العرق من أنحاء جسد ونستون كلها. أحس بالهواء يمزق رئتيه ثم يخرج منهما مجدداً في آنّات عميقة لم يستطع إيقافها حتى عندما صرّ على أسنانه.

ظل أوبراين ناظراً إليه ماداً أصابعه الأربع. أعاد المفتاح إلى الخلف. تراجع الألم قليلاً فحسب هذه المرة.

«كم إصبعاً يا ونستون؟»

«أربعًا».

قفز المؤشّر حتى الستين.

«كم إصبعاً يا ونستون؟»

«أربعًا! أربعًا! ماذا أستطيع أن أقول غير هذا؟ أربعًا!»

لا بد أن المؤشّر قد قفز من جديد؛ لكنه لم ينظر إليه. ملأت ناظريه الأصابع الأربع الممدودة والوجه الثقيل الصارم. انتصبت تلك الأصابع أمام عينيه كأنها أعمدة... ضخمة، مشوشة... كأنها تهتز... لكنها أربع بالتأكيد.

«كم إصبعاً يا ونستون؟».

«أربعًا! أوقف هذا، أوقف هذا! كيف تستطيع المتابعة؟ أربعًا! أربعًا!»

«كم إصبعاً يا ونستون؟».

«خمسة! خمسة! خمسة!».

«لا يا ونستون! هذا لن يفيدك. أنت تكذب! لا زلت تعتقد أنها أربع. كم إصبعاً من فضلك؟».

«أربعًا! خمسًا! أربعًا! أي شيء تريد! أوقفها فقط، أوقفها فقط!».

وفجأة، وجد ونستون نفسه جالساً وذراع أوبراين تلفّ كتفيه. لعله فقد الوعي بضع ثوانٍ. كان ما يثبت جسده على الطاولة قد تراخى قليلاً. أحس ببرد شديد. كان يرتجف ارتجافاً لا سبيل إلى السيطرة عليه. وكانت أسنانه تصطكّ، والدموع تتدحرج على وجنتيه. تعلّق لحظة بأوبراين كأنه طفل صغير. والعجيب هو أن تلك الذراع الثقيلة على كتفيه أشعرته بالراحة. كان لديه إحساس بأن أوبراين هو حاميه، وأن الألم كان شيئاً آتياً من الخارج، من مصدر آخر، وأن أوبراين هو الذي أنقذه منه.

قال أوبراين بلطف: «أنت بطيء التعلّم يا ونستون».

أجاب ونستون منتحباً: «وكيف أستطيع تجنب هذا؟ كيف أستطيع الامتناع عن رؤية ما هو أمام عيني؟ اثنان واثنان يساوي أربعًا».

«أحياناً يا ونستون! وأحياناً تساوي خمسًا، وأحياناً تساوي ثلاثًا. وفي أحيان أخرى يمكن أن تكون كل هذه الأشياء معاً. عليك أن تبذل جهدًا أكبر. ليس سهلاً أن يصبح المرء عاقلاً».

جعل ونستون يستلقي على السرير. عادت القوة التي تثبته فاشتدت من جديد. لكن الألم تراجع بعيداً وتوقف الارتعاش تاركاً محله إحساساً بالضعف والبرد فحسب. أشار أوبراين برأسه إلى الرجل في الرداء الأبيض الذي ظل واقفاً من غير حركة خلال ما جرى كله. انحنى الرجل فأمعن النظر في عيني ونستون ثم جسّ نبضه ووضع سماعة على صدره وراح ينقر هنا وهناك ثم أومأ برأسه إلى أوبراين.

قال أوبراين: «من جديد».

انداح الألم في جسد ونستون. لا بد أن المؤشّر قد بلغ السبعين، أو الخامسة والسبعين. أغمض ونستون عينيه هذه المرة. كان يعرف أن الأصابع لا تزال مرفوعة هناك. وأنها لا تزال أربعًا. ما كان مهماً الآن، على نحوٍ ما، إلا أن يبقى حياً حتى تمر هذه النوبة. لم يعد منتبهاً إن كان يصرخ أو لا! خفّ الألم قليلاً. فتح عينيه. كان أوبراين قد أعاد المفتاح قليلاً.

«كم إصبعاً يا ونستون؟»

«أربعًا! أظن أنها أربع. أود أن أراها خمسًا لو استطعت. إنني أحاول أن أراها خمسًا».

«أيها تريد: أن تقنعني بأنك ترى خمسًا، أو ترى خمسًا فعلاً؟»

«أن أراها فعلاً».

قال أوبراين: «من جديد».

لعل الإبرة بلغت الثمانين أو التسعين هذه المرة! لم يعد ونستون يتذكّر في تلك اللحظة السبب الذي جاء بهذا الألم. ومن خلف جفنيه المشدودين، بدا له أنه يرى غابة من الأصابع المتحرّكة في ما يشبه رقصة من الرقصات... تتداخل ثم تتباعد، يختفي أحدها خلف الآخر ثم يظهر من جديد. كان يحاول عَدّها، لكنه ما عاد

يتذكر السبب. لم يعرف إلا أن عَدّها صار مستحيلاً، وأن السبب في هذا عائد إلى الفارق الغامض بين الرقمين خمسة وأربعة. تراجع الألم من جديد. وعندما فتح عينيه وجد أنه لا يزال يرى الشيء نفسه. عدداً لا يحصى من الأصابع، مثل أشجار متحرّكة، كان لا يزال متدفّقاً في كل اتجاه... أصابع تتقاطع ثم تتقاطع من جديد. أغمض عينيه مرة أخرى.

«كم إصبعاً أرفع الآن يا ونستون؟».

«لست أدري! لست أدري! سوف تقتلني إذا فعلت هذا من جديد. أربعًا، خمسًا، ستًا... بصدق... لا أعرف!»

قال أوبراين: «هذا أفضل».

وخزت إبرة ذراع ونستون. وفي اللحظة عينها، تخلّل جسده كله دفء هانئ ساخن. كان الألم قد صار نصف منسيّ. فتح عينيه ونظر إلى أوبراين شاكراً. أحسّ أن قلبه يتحرّك عندما شاهد ذلك الوجه الثقيل ذا الغضون... وجه شديد البشاعة، شديد الذكاء. لو كان يستطيع الحركة لمدّ يده ووضعها على ذراع أوبراين. لم يحبه من قبل هذا الحب العميق الذي يحسّه نحوه الآن، ليس لأنه قد أوقف الألم فحسب! إنه الشعور القديم نفسه... ليس المهم إن كان أوبراين صديقاً أو عدواً... عاد هذا الشعور إليه. كان أوبراين شخصاً يستطيع الحديث معه. ولعل المرء لا يريد أن يكون محبوباً بقدر ما يريد أن يُفهَم! لقد عذّبه أوبراين إلى حد الجنون، بل إنه واثق من أن أوبراين كان على وشك إرساله إلى الموت بعد لحظة. هذا ليس مهماً! فالأمر، بمعنى من المعاني، تجاوز الصداقة... صارت تربطهما علاقة حميمة: رغم أن الكلمات الفعلية كان يمكن ألّا تُقال، إلا أن ثمة مكانًا يستطيعان اللقاء والكلام فيه، في مكان ما! كان أوبراين ينظر إليه من الأعلى وعلى وجهه تعبير يوحي بأن الفكرة نفسها يمكن أن تكون في ذهنه الآن. وعندما تكلم، جاءت نبرة صوته هيّنة، حوارية!

قال: «هل تعرف أين أنت الآن يا ونستون؟».

«لست أدري! أستطيع التخمين... في وزارة الحب».

«وهل تعرف كم من الوقت مرّ عليك هنا؟».

«لست أدري! إنها أيام، أسابيع، شهور... أظنها شهوراً».

«ولماذا نأتي بالناس إلى هذا المكان، بحسب رأيك؟».

«لجعلهم يعترفون».

«لا! ليس هذا هو السبب. حاول مجدَّداً».

«لمعاقبتهم».

صرخ أوبراين: «لا!». كان صوته قد تغير تغيّراً شديداً، وصار وجهه صارماً مهتاجاً على نحو مفاجئ... «لا! ليس حتى ننتزع الاعترافات منك فقط، وليس حتى نعاقبك فقط! هل علي أن أخبرك عن سبب مجيئنا بك إلى هنا؟ حتى نشفيك! حتى نجعلك عاقلاً! هل تستطيع أن تفهم يا ونستون أن أحداً ممن نأتي بهم إلى هنا لا يخرج من بين أيدينا إلا بعد أن يشفى؟ لسنا مهتمين بتلك الجرائم الغبية التي ارتكبتها! ليس الحزب مهتماً بالأفعال المباشرة: نحن لا نهتم إلا بالأفكار. إننا لا نكتفي بتدمير أعدائنا. إننا نغيرهم! أتفهم ما أعنيه بهذا؟».

كان منحنياً فوق ونستون. بدا وجهه ضخماً لشدة قربه. وبدا شديد القبح لأن ونستون كان ينظر إليه من أسفل. ثم إنه كان مليئاً بعَظَمَة مجنونة، بعنف مختلّ! انكمش قلب ونستون من جديد. ولو استطاع لاختفى في ذلك السرير. كان متأكداً من أن أوبراين موشك على إدارة المفتاح من جديد لشدة إثارته. لكن أوبراين استدار مبتعداً عنه في تلك اللحظة. سار في الغرفة خطوتين ثم تابع كلامه بقدر أقل من الشدّة:

«أول شيء يجب أن تفهمه هو أنه لا وجود للاستشهاد في هذا المكان! لقد قرأتَ عن الاضطهاد الديني في الماضي. كانت لديهم محاكم التفتيش في العصور الوسطى! لكنها كانت فشلاً! لقد أرادت استئصال الهرطقة، لكن انتهى الأمر بتأبيدها. فمقابل كل هرطوقي أحرقته ظهر آلاف الهراطقة. لماذا حدث هذا؟ لأن

محاكم التفتيش كانت تقتل أعداءها علناً. كانت تقتلهم من غير أن يُظهروا توبتهم وندمهم: والواقع هو أنها كانت تقتلهم لأنهم لم يظهروا توبة ولا ندماً. كان الناس يموتون لأنهم لم يقبلوا التخلّي عن معتقداتهم. وبطبيعة الحال، كان المجد كله من نصيب الضحية، وكان العار كله من نصيب محكمة التفتيش التي أحرقتها. ثم ظهرت الأنظمة الشمولية، كما كانوا يدعونها، في ما بعد... في القرن العشرين. إنهما نظاما النازيين الألمان والشيوعيين الروس. كان الروس يضطهدون الهراطقة على نحو أكثر شدة مما فعلت محاكم التفتيش. وقد ظنوا أنهم تعلموا من أخطاء الماضي! لقد فهموا، على أقل تقدير، أن على المرء ألا يصنع الشهداء. فقبل عرض ضحاياهم في محاكم علنية، كانوا يعمدون إلى تدمير كرامتهم. وكانوا ينهكونهم بالتعذيب والحبس الانفرادي حتى يصيروا حطاماً مزرياً ذليلاً فيعترفون بكل ما يقال لهم ويجلّلون أنفسهم بالعار، ويتهم بعضهم بعضاً، ويختبئ بعضهم خلف بعض، ويبكون طالبين الرأفة. لكن الشيء نفسه كان يحدث من جديد بعد سنوات معدودة. صار الأموات شهداء ونُسِي كل ما أصابهم من خزي. مرة أخرى، لماذا حدث هذا؟ لقد حدث في المقام الأول لأنه كان واضحاً أن الاعترافات التي يدلون بها منتزَعَة تحت التعذيب. نحن لا نرتكب أخطاء من هذا القبيل! فكل اعتراف يتلفظ به المرء هنا يكون صحيحاً. إننا نجعل الاعترافات صحيحة. ثم إننا لا نسمح للأموات بأن ينهضوا في وجهنا من جديد. عليك التوقف عن تخيل أن المستقبل سوف ينتقم لك يا ونستون. لن يسمع عنك المستقبل شيئاً أبداً! سوف تُزال تماماً من مسار التاريخ. سوف نحوِّلك إلى غاز نطلقه في الغلاف الجوي. لن يبقَ منك شيء. لا اسمٌ في سِجِلّ، ولا ذكرى لدى عقل حَيّ. سوف تفنى في الماضي وفي المستقبل. ولن تكون قد وُجدت أبداً».

قال ونستون في نفسه وقد انتابته لحظة من المرارة: فلماذا يهتمون بتعذيبي إذًا؟

توقفت خطوات أوبراين كما لو أن ونستون قد قال تلك الفكرة بصوت مرتفع. اقترب وجهه الكبير البشع وقد ضيّق عيناه قليلاً.

وقال: «ما تفكر فيه هو أن شيئاً مما تقوله أو تفعله لا يمكن أن تكون له أي

أهمية طالما أننا نعتزم تدميرك تماماً... وفي تلك الحالة، لماذا نتجشّم عناء استجوابك أصلاً؟ هذا ما تفكر فيه».

«نعم».

ابتسم أوبراين ابتسامة خفيفة: «أنت خلل في النموذج يا ونستون. أنت غلطة لا بد من إزالتها. ألم أقل لك الآن أننا مختلفون عن مضطهدي الماضي؟ نحن لا نرضى بالطاعة السلبية، ولا حتى بأكثر أنواع الخضوع خسّة. وعندما تستسلم لنا آخر المطاف، يجب أن يكون ذلك نابعاً من إرادتك الحرة. إننا لا ندمّر الهراطقة لأنهم يقاوموننا: نحن لا ندمر الهرطوقي طالما ظل مقاوماً لنا. إننا نقوم بتحويله... نقبض على ذهنه من الداخل... ونعيد تكوينه. إننا نحرق الشر كله، والوهم كله، فنُزيله منه تماماً. ونحن نجعله ينتقل إلى صفّنا، لا على نحو ظاهري بل على نحو أصيل، قلباً وروحاً. إننا نجعله واحداً منا قبل أن نقتله. ونحن لا نتسامح أبداً مع أي فكرة ضالة يمكن أن توجد في أي مكان في العالم مهما تكن فكرة سرية عديمة الحول. بل إننا لا نستطيع السماح بأي تراخٍ حتى في حالة الموت. كان الهرطوقي يسير إلى المحرقة في الماضي وهو لا يزال هرطوقياً، مجاهراً بهرطقته، مباهياً بها. بل إن ضحية التطهيرات الروسية كان قادراً أيضاً على المحافظة على تمرّده في رأسه عندما كان يسير في الممر منتظراً الرصاصة التي تقتله. أما نحن فإننا نصل بالدماغ إلى حد الكمال قبل أن ننسفه. كان الأمر الصادر عن طغاة الزمن القديم يقول: «لا تفعل». وكان الأمر الصادر عن الشموليين يقول: «عليك أن تفعل». وأما أمرنا نحن فهو: «كن». ولا يحدث أبداً أن يقف في وجهنا أحد ممن نأتي بهم إلى هذا المكان. هنا يغدو كل امرئ مغسولاً نظيفاً. حتى هؤلاء الخَوَنة البائسين الثلاثة الذين اعتقدتَ ذات مرة ببراءتهم، جونز وآرنسون وراذرفورد... حتى هؤلاء، حطّمناهم في النهاية. لقد شاركت في استجوابهم بنفسي. ورأيتهم يتآكلون تدريجياً، ويتوسّلون، ويتذلّلون، ويبكون... وما كان هذا، في النهاية، نتيجة ألم أو خوف، بل بفعل الندم وحده! لقد صاروا أشباح رجال عندما انتهينا منهم. لم يبق في قلبهم شيء إلا الأسف على ما فعلوه، وحب الأخ الأكبر. كان مؤثراً أن يرى المرء مقدار

حبّهم للأخ الأكبر! لقد توسلوا أن تطلق النار عليهم سريعاً حتى يستطيعوا الموت بعقول لا تزال نظيفة».

صار صوته حالماً تقريباً. وكان ذلك التسامي، الحماسة المجنونة، لا يزال ظاهراً على وجهه. إنه لا يتظاهر بالأمر، قال ونستون في نفسه، وهو ليس منافقاً... بل هو مؤمن بكل كلمة قالها. لكن ما آذاه أكثر من غيره هو إدراكه أنه أدنى منه ذهنياً. راح يراقب ذلك الهيكل الضخم، لكن الجميل، يخطو آتياً ذاهباً، داخل مجال نظره ثم خارجاً منه. كان أوبراين كائناً أكثر ضخامة منه من النواحي كلها. ولم تكن فكرة قد خطرت في باله، أو يمكن أن تخطر في باله، إلا وعرفها أوبراين منذ زمن طويل ودرسها ورفضها. كان عقله مشتملاً على عقل ونستون. لكن، كيف يمكن أن يكون أوبراين مجنوناً في هذه الحالة؟ لا بد أنه هو، ونستون، الشخص المجنون. توقف أوبراين ونظر إليه. صار صوته صارماً من جديد.

«لا تتخيل أنك تستطيع إنقاذ نفسك يا ونستون مهما كان استسلامك لنا كاملاً. نحن لا نترك أحداً ممن يضلون سواء السبيل. وحتى إذا قررنا تركك تعيش حتى نهاية حياتك الطبيعية، فسوف لن تكون قادراً على الإفلات منا أبداً. ما يحدث لك هنا أمر دائم. إفهم هذا منذ الآن. سوف نسحقك إلى درجة لا تستطيع العودة منها. وستحدث لك أشياء لا شفاء لك منها أبداً، حتى لو عشت مئة عام. لن تكون قادراً من جديد أبداً على الإحساس بالمشاعر الإنسانية العادية. سيكون كل شيء ميتاً فيك. ولن تكون قادراً من جديد أبداً لا على الحب ولا على الصداقة ولا على التمتّع بالحياة ولا الضحك ولا الفضول ولا الشجاعة ولا الاستقامة. سوف تكون مجوَّفاً. سنعصرك حتى نفرغك من كل ما فيك. ثم نملأك بأنفسنا».

توقف أوبراين وأشار إلى الرجل ذي الرداء الأبيض. شعر ونستون بشيء ثقيل يُدفَع خلف رأسه. كان أوبراين قد جلس إلى جانب السرير فصار وجهه على مستوى وجه ونستون.

قال متحدثاً من فوق رأس ونستون إلى الرجل ذي الرداء الأبيض: «ثلاثة آلاف».

التصقت بصدغي ونستون وسادتان ناعمتان أحس أنهما مبللتان قليلاً. أصابته رجفة. ثمة ألم قادم، نوع جديد من الألم. وضع أوبراين يده على يده مطمئناً، على نحو يكاد يكون لطيفاً.

قال: «لن يؤلمك الأمر هذه المرة. ابق عينيك مثبتتين على عيني».

وفي تلك اللحظة، كان هنالك انفجار مدمر، أو ما بدا أنه انفجار، رغم أن ونستون لم يكن واثقاً من أنه قد سمع أي صوت. لاشك في أنه رأى وميض ضوء يعمي الأبصار. لم يصبه ألم... سقط على ظهره فحسب. صحيح أنه كان مستلقياً على ظهره أصلاً عندما بدأ الأمر، لكن إحساساً غريباً انتابه فشعر بأنه أطيح به إلى هذا الوضع. لقد أطاحت به ضربة مخيفة من غير ألم. لكن شيئاً حدث في رأسه أيضاً. فما إن استعادت عيناه تركيزهما حتى تذكر من هو، وأين هو، وعرف الوجه الذي كان محدقاً فيه. لكن مساحة ضخمة من الفراغ كانت هناك، على نحو ما، كما لو أن قطعة من عقله قد أزيلت.

قال أوبراين: «لن يدوم هذا! انظر في عيني. ضد أي بلد تحارب أوقيانيا؟».

فكر ونستون لحظة. لقد فهم المقصود بكلمة أوقيانيا، وعرف أنه مواطن فيها. وقد تذكر أيضاً كلاً من أوراسيا وإيستاسيا؛ لكنه لم يعرف من كان في حرب مع من. بل إنه لم يكن يعلم أصلاً بوجود أي حرب.

«لا أذكر».

«أوقيانيا في حرب مع إيستاسيا. هل تتذكر هذا الآن؟».

«نعم».

«لقد كانت أوقيانيا في حرب مع إيستاسيا دائماً. منذ بداية حياتك. ومنذ بداية الحزب، ومنذ بداية التاريخ. تواصلت هذه الحرب من غير توقّف... الحرب نفسها دائماً. هل تذكر هذا؟».

«نعم».

«لقد قمتَ منذ أحد عشر عاماً باختراع أسطورة عن ثلاثة رجال حُكم عليهم

بالموت نتيجة خيانتهم. وقد تظاهرت أنك رأيت قصاصة ورق تثبت براءتهم. ما كان لهذه الورقة من وجود قط! لقد اخترعتها أنت. ثم صدّقتها. وأنت تتذكّر الآن لحظة اختراعك تلك القصة أول مرة. هل تتذكر ذلك؟».

«نعم».

«إنني أرفع الآن أصابع يدي أمامك. وأنت ترى خمس أصابع. هل تتذكّر هذا؟»

«نعم».

رفع أوبراين أصابع يده اليسرى طاوياً إبهامها.

«ها هي خمس أصابع. هل ترى خمس أصابع؟»

«نعم».

لقد رأى خمس أصابع حقاً... رآها لحظة طويلة قبل أن يتغيّر المشهد الذي في عقله. رأى خمس أصابع، وما كان في اليد تشوه أبداً. ثم عاد كل شيء عادياً، وعاد إليه خوفه القديم، وكراهيته، وحيرته، متزاحمة معاً كلّها. لكن لحظة مرّت... لم يعرف طولها، لعلها ثلاثين ثانية... من ثقة منيرة... عندما كان كل ما يوحي به أوبراين يملأ قطعة من الفراغ فيصبح حقيقة مطلقة، عندما صار يمكن لاثنين واثنين أن يساويا ثلاثة مثلما يمكن أن يساويا خمسًا أيضاً، إذا كان ذلك هو المطلوب. تلاشى الأمر قبل أن ينزل أوبراين يده. لكن، وعلى الرغم من أنه لم يعد قادراً على التقاط ذلك، فقد كان قادراً على تذكّره مثلما يتذكّر المرء تجربة حية في فترة من فترات حياته عندما كان شخصاً مختلفاً بالفعل.

قال أوبراين: «أنت ترى الآن. أنت ترى أن هذا ممكن».

قال ونستون: «نعم».

نهض أوبراين واقفاً وقد بدا عليه الرضا. ورأى ونستون من فوق كتفه اليسرى الرجل ذا الرداء الأبيض يكسر أنبولة ويسحب مكبس الحقنة إلى الخلف. استدار أوبراين إلى ونستون مبتسماً. وصحح وضع نظارته على أنفه... بالطريقة القديمة نفسها تقريباً.

قال: «هل تتذكّر أنك كتبت في مذكراتك أن كوني صديقاً أو عدواً ليس بالأمر المهم طالما أنني، على الأقل، شخص يفهمك وتستطيع أن تتحدث معه؟ لقد كنت محقاً! إنني أستمتع بالحديث معك. وعقلك يعجبني. إنه يشبه عقلي، إلا أنه مجنون. تستطيع أن تطرح علي بعض الأسئلة قبل أن ننهي هذه الجلسة، إذا أحببت».

«أي أسئلة أريد؟».

«أي شيء تريد!»، (رأى عيني ونستون متّجهتين صوب القرص المدرج)... «إنه مغلق. ما هو سؤالك الأول؟».

قال ونستون: «ماذا فعلتم بجوليا؟».

ابتسم أوبراين من جديد: «لقد خانتك يا ونستون! فوراً ومن غير تحفّظ. لم أر إلا في ما ندر من يستسلم لنا بهذه السرعة. لن تعرفها تقريباً إذا رأيتها. لقد زال منها تمردها كله، وخداعها، وحماقتها، وقذارة عقلها... لقد أحرق كل شيء فيها. لقد كان تحوّلاً تاماً، حالة مدرسية».

«هل عذبتموها؟».

ترك أوبراين هذا السؤال من غير إجابة. قال: «السؤال التالي».

«هل الأخ الأكبر موجود؟»

«إنه موجود طبعاً! الحزب موجود. والأخ الأكبر هو تجسيد للحزب».

«وهل هو موجود مثلما أنا موجود؟».

قال أوبراين: «أنت لست موجوداً!».

ومن جديد، غمر ونستون إحساسه بالعجز. كان يعرف، أو كان قادراً على تخيّل الحجج التي تثبت أنه غير موجود. لكنها كلام فارغ. وهي لعب بالكلمات، لا أكثر. أفلا تحتوي عبارة «أنت لست موجوداً» على سخفٍ منطقي؟ لكن ما فائدة قول هذا؟ أحسَّ بانسحاق ذهنه عندما فكَّر بالحجج المجنونة التي لا إجابة عليها والتي سوف يدمره أوبراين بها.

قال ضجِراً: «أظن أنني موجود. إنني مدرك لهويتي. وقد ولدت، وسوف أموت.

لدي ساقان وذراعان. وأنا أحتل نقطة بعينها في الفراغ. لا يستطيع أي جسم صلب آخر احتلال النقطة عينها في الآن عينه. وبهذا المعنى، فهل الأخ الأكبر موجود؟».

«لا أهمية لهذا. إنه موجود».

«وهل سيموت الأخ الأكبر في يوم من الأيام؟».

«بالطبع لا! كيف يمكن أن يموت؟ السؤال التالي».

«هل الأخوية موجودة؟».

«هذا ما لن تعرفه أبداً يا ونستون. فحتى لو قرّرنا إطلاق سراحك عندما نفرغ منك. وإذا كان لك أن تعيش حتى تبلغ تسعين عاماً، فلن تعرف أبداً إن كانت إجابة هذا السؤال نعم أو لا. وسيظل السؤال في ذهنك أحجية لا حل لها طالما عشت».

رقد ونستون صامتاً. كان صدره يعلو ويهبط أسرع قليلاً من السابق. لم يطرح بعد السؤال الذي جاء إلى ذهنه في البداية. إن عليه أن يطرح هذا السؤال لكنه أحسّ بأن لسانه لن يطاوعه في قوله. ظهر أثر من السخرية على وجه أوبراين. حتى نظارته بدت كأنها اكتسبت لمعة ساخرة. إنه يعرف... قال ونستون في نفسه... إنه يعرف ما أريد أن أسأله! ومع تلك الفكرة خرجت الكلمات من فمه:

«ما هي الغرفة 101؟».

لم يتغير التعبير الموجود الذي ارتسم على وجه أوبراين. أجابه بصوت جاف:

«أنت تعرف ما في الغرفة 101 يا ونستون. الكل يعرف ما في الغرفة 101».

رفع أصبعه مشيراً إلى الرجل في الرداء الأبيض. من الواضح أن الجلسة قد انتهت. انغرست إبرة في ذراعه. فغرق في نومٍ عميق... على الفور تقريباً.

3

قال أوبراين: «إن لعملية إعادة اندماجك مراحل ثلاث: مرحلة التعلّم، ومرحلة الفهم، ومرحلة القبول. حان الآن بدء المرحلة الثانية».

كان ونستون، كالعادة، ممدداً على ظهره دائماً. لكن ما يثبّته إلى السرير صار أقل شدة في الآونة الأخيرة. لقد ظل مقيَّداً إلى سريره. لكنه صار الآن قادراً على تحريك ركبتيه قليلاً، وصار قادراً على تحريك رأسه من جانبٍ لآخر، وعلى رفع ذراعيه من المرفقين. كما لم يعد استخدام القرص المدرج مخيفاً مثلما كان في السابق. لقد صار قادراً على تفادي ألمه المفاجئ إذا كان سريع البديهة إلى الحد الكافي: لم يكن أوبراين يحرِّك المفتاح على القرص إلا عندما يُبدي ونستون قدراً من الغباء. وكانا أحياناً يمضيان جلسة كاملة من غير استخدام القرص. لم يكن ونستون قادراً على تذكر عدد الجلسات التي مرّت. وبدت له العملية ممتدة على زمن طويل لا حدود له... لعلها أسابيع... كما كان يمكن أن تمتد الفترات الفاصلة بين جلسة وأخرى أياماً، لكنها قد تكون ساعة أو ساعتين فحسب في بعض الأحيان.

قال أوبراين: «خلال استلقائك هنا، تساءلتَ كثيراً، بل سألتني أيضاً، عن السبب الذي يجعل وزارة الحب تنفق هذا الوقت والجهد عليك. وعندما كنت طليقاً، كان هذا السؤال نفسه، من حيث الأساس، يحيّرك أيضاً. لقد استطعت فهم آلية سَير المجتمع الذي تعيش فيه، لكنك لم تفهم الدوافع الكامنة خلف تلك الآلية. هل تتذكر أنك كتبت في مذكراتك: «أفهم كيف: ولا أفهم لماذا». وقد بدأ شكّك في سلامة عقلك عندما بدأت تفكر في «السبب». لقد قرأت الكتاب، كتاب غولدشتاين، أو قرأت جزءاً منه على الأقل! هل أخبرك الكتاب شيئاً لم تكن تعرفه من قبل؟».

قال ونستون: «هل قرأته أنت؟».

«لقد كتبته! بل يصح القول إنني ساهمت في كتابته. لا يتم إنتاج أي كتاب من شخص بمفرده، كما تعلم».

«وهل ما يقوله الكتاب صحيحًا؟»

«من حيث الوصف، نعم! لكن البرنامج الذي يضعه بعد ذلك كلام فارغ. ذلك التراكم السرّي للمعرفة... النشر التدريجي للاستنارة... ثم ثورة بروليتارية في النهاية... والإطاحة بالحزب! لقد توقّعت بنفسك أنه سيصل إلى هذا. لكن هذا كله هراء! لن يتمرَّد البروليتاريون أبداً، ولا بعد ألف، أو مليون، عام. هم لا يستطيعون ذلك! ولست مضطراً إلى إخبارك السبب، فأنت تعرفه أصلاً. وإذا كانت قد راودتك في وقت من الأوقات أفكار عن الانتفاض العنيف، فإن عليك أن تقلع عنها. ما من سبيل إلى الإطاحة بالحزب. إن حكم الحزب مستمر إلى الأبد. اجعل هذا نقطة انطلاق في تفكيرك».

اقترب أوبراين من السرير وقال مكرراً: «إلى الأبد! والآن، فلنعد إلى السؤال عن «كيف» و«لماذا». أنت تدرك تماماً كيف يحافظ الحزب على بقائه في السلطة. والآن، قل لي... لماذا نتمسَّك بالسلطة؟ ما هو دافعنا؟ ولماذا نريدها؟ هيا، تكلم»... قال هذا عندما رأى أن ونستون قد ظل صامتاً.

لكن ونستون لم يتكلم للحظة أو لحظتين بعد ذلك. غمره إحساس بالإرهاق. عاد ذلك البريق الخافت، بريق الحماسة المجنون، إلى وجه أوبراين. كان ونستون يعرف مسبقاً ما سوف يقوله أوبراين. سيقول إن الحزب لا يريد السلطة من أجله هو، بل من أجل مصلحة الأكثرية. وإنه سعى إلى السلطة لأن جموع الناس كائنات هشّة جبانة لا تستطيع تحمل الحرية أو مواجهة الحقيقة ولا بد من حكمها وخداعها المستمرَّيْن من طرف من هم أقوى منها. سيقول إن خيار البشرية واقع بين الحرية والسعادة. وأن الكثرة الغالبة من البشر تفضل السعادة. وسيقول إن الحزب وصيّ أبديٌّ على الضعفاء، ومجموعة متفانية تأتي شراً حتى يأتي الخير في النهاية، وتضحّي بسعادتها من أجل سعادة الآخرين. لكن الشيء المخيف، فكّر ونستون في نفسه، الشيء المخيف هو أنه سيصدِّق هذا الكلام عندما سيقوله أوبراين. يستطيع المرء أن يرى هذا في وجهه! أوبراين يعرف كل شيء! إنه يعرف العالم أفضل مما يعرفه ونستون بألف مرة، ويعرف في أي دَرْكٍ يعيش أكثر بني البشر، وبأي أكاذيب

وأفعال بربرية يبقيهم الحزب هناك. لقد فهم ذلك كله، ووَزَنه كله، ولا أهمية لذلك كله: الغاية النهائية تبرر كل شيء. ماذا يستطيع المرء أن يفعل، قال ونستون في نفسه، في مواجهة مجنون أذكى منه... مجنون يسمع حججك إلى النهاية ثم يتابع جنونه، بكل بساطة؟

قال بصوت واهن: «أنتم تحكموننا من أجل مصلحتنا. وأنتم ترون أن البشر غير مؤهلين لحكم أنفسهم، وبالتالي...».

كاد صوته يصبح صراخاً. سَرَت في جسده وخزة ألم شديدة. كان أوبراين قد دفع بمفتاح القرص المدرج حتى الرقم خمسة وثلاثين.

قال: «كانت هذه حماقة يا ونستون، حماقة! يجب أن تكون أعقل من أن تقول هذا الكلام».

أعاد المفتاح إلى الصفر ثم تابع يقول:

«سوف أنبئك الآن بالإجابة عن سؤالي. إنها على النحو التالي: يريد الحزب السلطة لنفسه. ونحن لسنا مهتمين بمصالح الآخرين. إننا مهتمون بالسلطة فحسب! لسنا مهتمين بالثروة أو الرفاهية أو العمر المديد أو السعادة: السلطة وحدها، السلطة المحض. وستفهم الآن معنى السلطة المحض. نحن مختلفون عن أي قلة حَكَمت في الماضي من حيث إننا نعرف ما نفعله. كان كل من سبقونا، بمن فيهم من يشبهوننا، منافقين جبناء. لقد اقترب النازيون الألمان والشيوعيون الروس منا اقتراباً شديداً من حيث الأساليب، لكنهم لم يتملّكوا قط شجاعة تكفيهم للاعتراف بدوافعهم. لقد كانوا يتظاهرون، بل لعلهم كانوا يعتقدون أيضاً، أنهم قد تسنَّموا السلطة من غير رغبة منهم، ولفترة محدودة من الزمن؛ وأن ثمة فردوساً، هناك خلف الزاوية، سوف يعيش فيه بنو البشر متساوين أحراراً. نحن لسنا كذلك! نحن نعرف أن ما من أحد يتسنّم السلطة بنيّة التخلّي عنها. ليست السلطة أداة، بل هي غاية! لا يقيم المرء ديكتاتورية حتى يحمي ثورة... يقوم المرء بثورة حتى يبني حكماً ديكتاتورياً! دافع الاضطهاد هو الاضطهاد! ودافع التعذيب هو التعذيب! ودافع السلطة هو السلطة! هل بدأت تفهمني الآن؟».

فوجئ ونستون كثيراً، مثلما فوجئ من قبل، بمدى الإرهاق على وجه أوبراين. كان وجهاً قوياً لحيماً قاسياً... وكان مفعماً بالذكاء وبنوع من العاطفة المضبوطة التي تجعل ونستون يشعر بانعدام الحَوْل... لكنه كان وجهاً متعباً! كانت فيه انتفاخات تحت العينين، وكان الجلد مرتخياً عند الوجنتين. مال أوبراين عليه قاصداً تقريب وجهه المتعب.

قال: «أنت تفكر في أن وجهي عجوز مرهق! وأنت تقول في نفسك إنني أتكلم على السلطة لكنني غير قادر حتى على منع شيخوخة جسدي. ألا تستطيع أن تفهم يا ونستون أن الفرد ليس إلا خلية؟ وأن انحلال الخلية ليس إلا قوة للكائن العضوي كله؟ هل تموت عندما تقص أظافرك؟».

استدار مبتعداً عن السرير وراح يذرع الغرفة من جديد واضعاً يده في جيبه.

قال: «نحن سَدَنة السلطة. الله هو السلطة. لكن السلطة الآن ليست إلا كلمة بالنسبة لك. وقد حان الوقت حتى تكوِّن لنفسك فكرة عن معنى السلطة. الشيء الأول الذي يتعيّن عليك إدراكه هو أن السلطة جمعية. ولا يمتلك الفرد سلطة إلا بقدر ما يكفّ عن كونه فرداً. أنت تعرف شعار الحزب القائل «العبودية هي الحرية». فهل خطر في بالك يوماً أنه قابل للعكس؟ الحرية هي العبودية! وحيداً... حراً... يكون الكائن البشري مهزوماً على الدوام. يجب أن يكون الأمر كذلك لأن كل كائن بشري محكوم بالموت. والموت هو أكبر الهزائم على الإطلاق! أما إذا استطاع المرء الوصول إلى الخضوع الكامل المطلق، إذا استطاع الهرب من شخصيته الفردية، إذا استطاع الاندماج بالحزب بحيث يصير هو الحزب، فإنه يكون كلّيّ القدرة خالداً! الأمر الثاني الذي يتعيّن عليك إدراكه هو أن السلطة هي السلطة على بني البشر. على الجسد، لكن على العقل قبل كل شيء آخر. وأما السلطة على المادة... الواقع الخارجي مثلما تدعوه أنت... فما هي بالأمر المهم. إن سيطرتنا على المادة مطلقة منذ الآن».

تجاهل ونستون القرص في هذه اللحظة. وبذل جهداً عنيفاً حتى ينهض إلى وضعية الجلوس. لكنه لم ينجح إلا في ليّ جسده على نحو مؤلم.

انفجر قائلاً: «لكن، كيف تقول إنكم مسيطرون على المادة؟ أنتم لا تستطيعون حتى أن تتحكّموا بالمناخ أو بالجاذبية. ثم هنالك الأمراض والألم والموت...»

أسكته أوبراين بحركة من يده: «نحن نتحكّم بالمادة لأننا نتحكم بالعقل. الواقع موجود داخل الجمجمة. سوف تتعلّم على مراحل يا ونستون. لا شيء لا نستطيع فعله. الاختفاء عن الأنظار، ورفع الأشياء في الهواء بقوّة الذهن... أي شيء! أستطيع أن أجعل أرض الغرفة هذه تطفو مثلما تطفو فقاعة صابون إذا أردت ذلك. وأنا لا أريد ذلك لأن الحزب لا يريده. عليك أن تتخلّص من أفكار القرن التاسع عشر هذه في ما يتعلّق بقوانين الطبيعة. نحن من يضع قوانين الطبيعة».

«لكنكم لا تستطيعون ذلك! بل إنكم لستم حتى سادة هذا الكوكب. فماذا عن أوراسيا وإيستاسيا؟ لم تستطيعوا هزيمتهم بعد».

«لا أهمية لهذا! سوف نهزمهم عندما نرى أن هذا يناسبنا. وإذا لم نهزمهم، فما أهمية ذلك؟ نستطيع أن نلغيهم من الوجود. أوقيانيا هي العالم».

«لكن العالم كله ليس إلا ذرة من غبار. والإنسان ضئيل عديم القدرة! فكم مرّ عليه منذ أن وُجد؟ ظلّت الأرض غير مسكونة ملايين السنين».

«هذا كلام فارغ! إن الأرض من عمرنا، لا أكثر! فكيف يمكن أن تكون أكبر منا؟ لا وجود لشيء إلا من خلال الوعي البشري».

«لكن الصخور مليئة بعظام حيوانات منقرضة... الماموث والماستودون وزواحف عملاقة كانت تعيش هنا قبل أن يسمع أحد عن الإنسان بزمن طويل».

«هل رأيت هذه العظام بنفسك يا ونستون؟ أنت لم ترَها. لقد اخترعها علماء الأحياء في القرن التاسع عشر. لم يكن شيء موجوداً قبل الإنسان! ولن يكون شيء موجوداً بعد الإنسان، إذا انتهى وجود الإنسان فعلاً. لا شيء موجوداً خارج الإنسان».

«لكن الكون كله موجود خارجنا. انظر إلى النجوم! منها ما هو بعيد ملايين السنوات الضوئية. إنها خارج متناولنا إلى الأبد».

قال أوبراين من غير اهتمام: «وما هي النجوم؟ إنها شذرات من نار على مسافة

بضعة كيلومترات فحسب. نستطيع الوصول إليها إن أردنا. ونستطيع إخمادها أيضاً. الأرض هي مركز الكون. والشمس والنجوم تدور من حولها».

تحرّك ونستون حركة متشنّجة أخرى. لم يقل شيئاً هذه المرة. لكن أوبراين تابع كلامه كما لو أنه يجيب على اعتراض لم يقله ونستون:

«من أجل بعض الغايات، يكون هذا غير صحيح بطبيعة الحال! عندما نبحر في المحيط، أو عندما نتنبأ بكسوف الشمس، فإننا نجد من المناسب غالباً أن نفترض أن الأرض تدور حول الشمس وأن النجوم تقع على مسافة ملايين الكيلومترات. لكن، ما أهمية هذا؟ أتظن أننا لا نستطيع إنتاج نظام مزدوج للفلك؟ يمكن أن تكون النجوم قريبة أو بعيدة، بحسب حاجتنا! هل تظن أن رياضيينا لا يستطيعون ذلك؟ هل نسيت التفكير المزدوج؟».

انكمش ونستون فوق سريره. كانت الإجابة السريعة، مهما قال، تسحقه سحقاً مثل هراوة. لكنه كان يعرف، كان يعرف، أنه على حق! لا بد أن ثمة طريقة لإظهار زيف الاعتقاد بأن لا شيء يمكن أن يوجد خارج ذهن الإنسان. ألم يتم إثبات زيف ذلك منذ زمن بعيد؟ بل إن ثمة اسماً لهذا الإثبات، لكنه نسيه! رفّت ابتسامة خافتة عند زاويتي فم أوبراين وهو ينظر إليه.

قال له: «قلت لك يا ونستون إنك لست قوياً في الماورائيات. الكلمة التي تحاول تذكرها هي «نظرية الأنا». لكنك مخطئ! هذه ليست نظرية الأنا. يمكنك أن تسميها «نظرية الأنا الجَمعية» إن أحببت. لكن هذا أمر مختلف: بل هو نقيض ذلك في واقع الأمر. لكن هذا كله خروج عن الموضوع»... أضاف بنبرة صوت مختلفة... «السلطة الحقيقية، السلطة التي يتعين علينا أن نقاتل من أجلها ليل نهار، ليست سلطة على الأشياء، بل على الناس». توقف لحظة، واستعاد للحظة هيئة المعلّم الذي يطرح أسئلته على تلميذ واعد: «كيف يفرض إنسان سلطته على إنسان آخر يا ونستون؟».

فكر ونستون ثم قال: «بأن يجعله يعاني».

«بالضبط! بأن يجعله يعاني. ليست الطاعة كافية. إذا لم يعاني، فكيف تكون

واثقاً من أنه يطيع إرادتك أنت لا إرادته هو؟ السلطة هي إنزال الألم والإذلال بالآخر. السلطة هي تمزيق عقول البشر إرباً ثم تركيبها من جديد في أشكال أخرى تقررها أنت. هل بدأت ترى نوع العالم الذي نصنعه؟ إنه على النقيض تماماً من تلك الطوباويات المغرية التي تخيلها المصلحون في الماضي. إنه عالم من الخوف والخداع والعذاب، عالم من السحق والانسحاق، عالم يزداد فيه، ولا يتناقص، انعدام الرحمة كلما اقترب من الاكتمال. سيكون التقدم في عالمنا تقدماً صوب مزيد من الألم. زعمت الحضارات القديمة أنها كانت قائمة على الحب أو العدل. أما حضارتنا فهي قائمة على الكره. ولن يكون في عالمنا مكان إلا لمشاعر الخوف والغضب والانتصار واحتقار الذات. ولسوف ندمِّر كل شيء آخر، كل شيء! نحن الآن نحطِّم عادات التفكير التي ظلت منذ ما قبل الثورة. ولقد قطعنا الصلة الرابطة بين الطفل وأبويه، وبين الرجل والرجل، وبين الرجل والمرأة. ما عاد أحد يجرؤ على الثقة بزوجته أو طفله أو صديقه! أما في المستقبل، فلن يكون ثمة زوجات أو أصدقاء. سوف يؤخذ الأطفال من أمهاتهم لحظة الولادة مثلما يأخذ المرء البيض من تحت الدجاجة. وسوف يجري اجتثاث الغريزة الجنسية. وسوف يصبح الإنجاب طقساً سنوياً مثله مثل تجديد بطاقة الإعاشة. وسوف نلغي الرعشة الجنسية. إن اختصاصيي الأعصاب عاكفون على هذا الموضوع الآن. لن يبقى وفاء، إلا للحزب. ولن يبقى حب، إلا للأخ الأكبر. ولن يبقى ضحك، إلا عند الانتصار على عدوٍّ مهزوم. ولن يبقى فن، ولا أدب، ولا علم! وعندما تصبح قدرتنا كلية، فلن نكون في حاجة إلى العلم. ولن يبقى من تمييز بين الجمال والقبح. لن يبقى فضول، ولا استمتاع بالحياة نفسها. سوف تُدمَّر كل المسرات المتنازعة. لكن... لا تنس هذا يا ونستون... ذلك السُّكر بالسلطة سيظل موجوداً على الدوام، وسيكبر دائماً، ويزداد إتقاناً. وستظل دائماً، في كل لحظة، تلك النشوة بالنصر، بإحساس الدَّوْس على عدو عاجز عن فعل أي شيء. إذا أردت أن ترى صورة للمستقبل، فتخيَّل حذاءً يدوس على وجه بشري... إلى الأبد».

توقَّفَ كأنه توقَّعَ كلاماً من ونستون. لكن ونستون كان يحاول الانكماش كأنه

يريد أن يدخل في وجه السرير من جديد. لم يكن قادراً على قول أي شيء. أحس أن قلبه قد تجمّد. تابع أوبراين قائلاً:

«وتذكر أن هذا سوف يستمر إلى الأبد. سوف يظل الوجه حتى يُداس دائماً. وسوف يظل الهرطوقي، عدو المجتمع، حتى يُهزم ويُذَلّ مرة بعد مرة. وكل ما مررت به منذ أن وقعت في أيدينا... سوف يستمر، وأسوأ منه أيضاً! التجسّس، والخيانات، والاعتقالات، والتعذيب، والإعدامات، والاختفاء، لن تتوقف كلها أبداً. سيكون عالماً من الرعب بقدر ما هو عالم من الانتصار. وكلما صار الحزب أقوى، كلما صار أقل تسامحاً: كلما ضعفت المعارضة، كلما اشتد الطغيان! سوف يعيش غولدشتاين وتعيش هرطَقاته إلى الأبد. وفي كل يوم، في كل لحظة، سوف يُهزم، ويُخزى، ويتعرّض للسخرية، ويُبصق عليه... لكنه سيظل حياً. وهذه المسرحية التي لعبتها معك منذ سبع سنوات سوف تستمر وتتكرر مرة بعد مرة وجيلاً بعد جيل، بأشكال أكثر إتقاناً على الدوام. وسوف يكون الهرطوقي هنا دائماً، تحت رحمتنا، زاعقاً من الألم، محطّماً، مُحتَقَراً ذليلاً... وسيكون في النهاية تائباً وقد أنقذناه من نفسه، زاحفاً عند أقدامنا بإرادته هو. هذا هو العالم الذي نُعِدّ له العدة يا ونستون. عالم مصنوع من انتصار بعد انتصار، من فوز بعد فوز: ضغطٌ لا ينتهي، ضغط، ضغط على عصب السلطة. أرى الآن أنك بدأت تدرك كيف سيكون هذا العالم. لكن ما ستفعله في النهاية يتجاوز الفهم: سوف تقبله، وترحِّب به، وسوف تصبح جزءاً منه».

كان ونستون قد استجمع شتات نفسه إلى الحد الكافي ليتكلم. قال بصوت ضعيف: «لا تستطيعون!»

«ماذا تعني بهذه العبارة يا ونستون؟».

«لا تستطيعون خلق العالم الذي وصفته الآن. هذا حلم. إنه مستحيل».

«لماذا؟».

«من المستحيل أن تقيم حضارة على الخوف والكره والقسوة. لن تستمر أبداً».

«لماذا لن تستمر؟».

«لن تكون فيها أي حيوية. سوف تتفكّك. سوف تنتحر».

«كلام فارغ. أنت لديك انطباع أن الكره أكثر استهلاكاً للطاقة من الحب. لماذا يكون الأمر كذلك؟ وإذا كان كذلك، فما أهمية الأمر؟ افترض أننا أردنا استهلاك أنفسنا على نحو أسرع. افترض أننا أضعفنا إيقاع الحياة البشرية حتى صار الرجل يخرّف في الثلاثين من عمره. فما أهمية ذلك؟ ألا تستطيع أن تفهم أن موت الفرد ليس موتاً؟ الحزب خالد!»... وكما هي العادة، سحق هذا الصوت ونستون فجعله عديم القدرة. ثم إنه كان فوق هذا كله مذعوراً من أن إصراره على مخالفة أوبراين سيجعله يحرّك مفتاح القرص من جديد. لكنه لم يستطع أن يظلّ على صمته أيضاً. عاد إلى الهجوم على نحوٍ خائر، من غير حُجج، من غير أن يكون لديه ما يسنده إلا رعبه غير المفهوم مما قاله أوبراين.

«لست أدري... ولست أبالي! سوف تفشلون على نحوٍ ما. سوف يهزمكم شيء ما. سوف تهزمكم الحياة».

«نحنُ نتحكّم بالحياة يا ونستون، على مستوياتها كلّها. أنت تتخيل أن ثمة شيئًا اسمه الطبيعة البشرية سوف يغضبه ما نفعله فينقلب علينا. لكننا نحن الذين نخلق الطبيعةِ البشرية. إن البشر قابلون للتشكيل إلى ما لا نهاية. أو لعلك عدت إلى فكرتك القديمة القائلة إن البروليتاريين، أو العبيد، سوف ينهضون فيطيحون بنا. لكنَ هذا من اختلاق ذهنك أنت. إنهم عاجزون مثل الحيوانات. البشرية هي الحزب. والآخرون في الخارج... لا أهمية لهم».

«لست أبالي! سوف يهزمونكم في النهاية. سوف يرون حقيقتكم عاجلاً أو آجلاً. وسوف يمزِّقونكم إرباً».

«وهل ترى دليلاً على حدوث ذلك؟ أو أي سبب يجعله يحدث؟».

«لا! إنني مؤمن بهذا. أعرف أنكم ستفشلون. ثمة شيء في الكون... لست أدري، روح ما، مبدأ ما... لن تستطيعون التغلب عليه».

«هل تؤمن بالله يا ونستون؟».

«لا».

«فما هو إذًا... ما هو المبدأ الذي سيهزمنا؟»

«لست أدري! روح الإنسان».

«وهل تعتبر نفسك إنساناً؟».

«نعم».

«إذا كنت إنساناً يا ونستون، فإنك الإنسان الأخير! إن جنسك منقرض. ونحن هم الوارثون. هل تفهم أنك وحدك؟ أنت خارج التاريخ... أنت غير موجود».

ثم تغيرت هيئته وقال على نحوٍ أكثر خشونة: «وأنت تعتبر نفسك متفوقاً علينا من الناحية الأخلاقية، بكل ما لدينا من أكاذيب وقسوة!».

«نعم! أرى نفسي متفوّقاً عليكم».

لم ينطق أوبراين. سُمِع صوتان آخران يتكلمان. وبعد لحظة، أدرك ونستون أن أحد الصوتين كان صوته هو. كان هذا تسجيلاً لمحادثة جرت بينه وبين أوبراين ليلة انضمّ إلى الأخوية. سمع نفسه يعد بأن يكذب ويسرق ويزوِّر ويقتل ويشجِّع تعاطي المخدرات والدعارة وينشر الأمراض التناسلية ويلقي بالحمض في وجه طفل. بدرت حركة نفاد صبر صغيرة من أوبراين كما لو كان يقول إن هذا العرض لا داعي له. ثم أدار مفتاحاً فتوقفت الأصوات.

قال: «انهض عن السرير».

كانت الأحزمة التي تشدّه إلى السرير قد زالت. نزل ونستون إلى الأرض فوقف من غير ثبات.

قال أوبراين: «أنت هو الإنسان الأخير. وأنت هو حارس الروح البشرية. سوف ترى نفسك على حقيقتها. اخلع ملابسك».

فكّ ونستون الخيط الذي يمسك أوفروله. كان سحّاب الأوفرول قد انفرط منذ زمن طويل. وما كان قادراً على تذكر إن كان قد خلع ملابسه كلها في أي وقت

منذ اعتقاله. كان جسده ملفوفاً، تحت الأوفرول، بخرقٍ قذرة مصفرّة يبدو عليها أنها بقايا ملابسه الداخلية. وعندما أنزلها إلى الأرض رأى أن في أقصى الغرفة مرآة لها ثلاثة جوانب. اقترب من المرآة ثم توقف فجأة. ندّت عنه صرخة لا إرادية.

قال أوبراين: «تابع سيرك. قف بين جناحي المرآة. سوف ترى المشهد الجانبي أيضاً».

كان ونستون قد توقف لأن الذعر أصابه! رأى في المرآة شيئاً منحنياً رماديّ اللون يشبه الهيكل العظمي آتياً صوبه. كان مظهره مخيفاً حقاً. ما كان سبب رعبه مقتصراً على معرفته أن ما يراه في المرآة هو صورته. اقترب من الزجاج أكثر من ذي قبل. بدا وجه ذلك المخلوق ناتئاً إلى الأمام بسبب انحنائه. كان وجه سجين بائس له جبهة عريضة ممتدة حتى فروة الرأس الصلعاء، وأنف معقوف، وعظما وجنتيه يبدوان كأنهما مكسورَان... ومن فوقهما عينان يقظتان ضاريتان. كان خداه متشققين، وفمه غائر إلى الداخل. من المؤكد أن ذلك وجهه هو، لكنه أحس أنه تغيّر أكثر مما أصابه التغير من الداخل. لا بد أن تكون المشاعر التي يُظهرها هذا الوجه مختلفة عن المشاعر التي يحسّها فعلاً. كان قد أصيب بصلَعٍ شديد. وظنّ، للوهلة الأولى، أنه صار رماديّ اللون أيضاً؛ لكن جمجمته وحدها هي التي صارت رمادية. فباستثناء كفَّيه ودائرة وجهه، كان جسده رمادياً كله بفعل أوساخ قديمة مترسِّخة. ومن تحت الأوساخ، هنا وهناك، بدت قروح الجروح؛ وعند كاحله، كانت قرحة الدوالي كتلة ملتهبة عليها طبقات من الجلد المتقشِّر عنها. لكن الأمر المرعب فعلاً كان نحول جسده. كان قفصه الصدري ضيقاً مثل قفص صدريٍّ في هيكل عظميّ. وقد انكمشت ساقاه حتى صارت ركبتاه أكثر ثخانة من فخذيه. فهم الآن ما قصده أوبراين برؤية المشهد الجانبي. كان تقوّس العمود الفقري مريعاً. وكان الكتفان النحيلتان مندفعتين إلى الأمام بحيث يبدو الصدر مجوَّفاً. بدت الرقبة كأنها منحنية انحناء مضاعفاً تنوء تحت وزن الجمجمة. كان يمكنه أن يقول تخميناً إن هذا جسد رجل في الستين... رجل يعاني مرضاً خبيثاً!

قال أوبراين: «لقد كنت تفكر في أن وجهي... وجه عضو الحزب الداخلي... يبدو عجوزاً بالياً. فما رأيك في وجهك أنت؟».

أمسك بكتف ونستون وفتله حتى صار مواجهاً له.

قال: «انظر إلى حالتك الآن! انظر إلى هذه القذارة المتراكمة على جسدك كله. انظر إلى الأوساخ بين أصابع قدميك. انظر إلى تلك القرحة النازّة المقرفة على ساقك. هل تعلم أنك تفوح برائحة مقرفة كرائحة الماعز؟ لعلك ما عدت تلاحظها. انظر إلى نحولك. هل ترى؟ أستطيع إحاطة زندك بين إبهامي وسبابتي. وأستطيع أن أكسر رقبتك مثل جزرة. أوتعلم أنك فقدت خمسةً وعشرين كيلوغراماً من وزنك منذ أن وقعت في أيدينا؟ بل إن شعرك نفسه يتساقط خُصَلاً. انظر!». مد يده إلى رأس ونستون فانتزع خصلة شعر... «افتح فمك. تسع، عشر، أحدى عشرة سناً باقية. كم سناً كانت لديك عندما أتيت إلى هنا؟ ثم إن الأسنان القليلة الباقية لديك آخذة بالتساقط من رأسك. انظر!»

أمسك إحدى الأسنان الأمامية الباقية بين إبهامه وسبّابته القويين. سَرَت وخزات ألم في فك ونستون. كان أوبراين قد انتزع السن السائبة من جذورها. وألقاها عبر الغرفة.

قال: «أنت آخذ بالتعفن. أنت آخذ بالتفكّك. فما أنت؟ كيس من القذارة! والآن، استدر وانظر إلى المرآة من جديد. هل ترى هذا الشيء الواقف قبالتك؟ هذا هو الإنسان الأخير. إن كنت بشرياً، فهذه هي البشرية! ارتدِ ثيابك الآن».

راح ونستون يرتدي ثيابه بحركات متيبّسة بطيئة. ما كان قد لاحظ حتى الآن مقدار ما أصابه من هزال وضعف. لم تتحرّك في ذهنه إلا فكرة واحدة: لا بد أنه أمضى في هذه المكان فترة أطول مما كان يتخيّل. لكنَّ شعوراً مفاجئاً بالحزن على جسده المهدَّم اجتاحه اجتياحاً مفاجئاً بينما راح يعيد تثبيت خِرَقه البالية على جسمه. وقبل أن يدرك ما يفعله، انهار على الكرسي الصغير إلى جانب السرير وانفجر باكياً. كان مدركاً قباحته وهَوانه... حزمة عظام في ملابس داخلية قذرة... جالسة تنتحب تحت ضوء ساطع أبيض: لكنه لم يكن قادراً على منع نفسه من

البكاء. وضع أوبراين يده على كتفه بحركة تكاد تكون لطيفة.

قال: «لن يدوم هذا إلى الأبد. تستطيع أن تهرب منه عندما تريد. كل شيء معتمد عليك أنت».

قال ونستون ناشجاً: «أنت فعلت هذا! أنت أوصلتني إلى هذه الحال!»

«لا يا ونستون! أنت من فعلت هذا بنفسك. هذا ما ارتضيته لنفسك عندما وقفت في وجه الحزب. كان هذا كله متضمِّنًا في الفعل الأول. لن يصيبك شيء لم تكن تتوقّعه منذ البداية».

توقف لحظة ثم تابع يقول:

«لقد ضربناك يا ونستون. وحطّمناك! وقد رأيت كيف هو جسدك الآن. إن عقلك في الحالة نفسها. ولا أظن أنك ما زلت محتفظاً بكثير من كبريائك. لقد تعرّضتَ للرفس والجَلد والإهانة. لقد صرختَ ألماً، وتدحرجت على الأرض متخبطاً في دمك وقيئك. لقد بكيت طالباً الرحمة، وخنت كل امرئ وكل شيء. هل تستطيع التفكير في أي صنف من الذلّ لم يصبك حتى الآن؟».

كان بكاء ونستون قد توقف رغم أن الدموع ما زالت تنزّ من عينيه. رفع رأسه ناظراً إلى أوبراين.

قال: «لم أخن جوليا».

نظر أوبراين إليه نظرة تفكير وقال: «لا، لا! هذا صحيح تماماً. أنت لم تخن جوليا».

غمر قلب ونستون من جديد ذلك الاحترام الغريب تجاه أوبراين... الاحترام الذي بدا له أن لا شيء يستطيع تدميره. قال في نفسه: كم هو ذكي، كم هو ذكي! لم يفشل أوبراين ولو مرة واحدة في فهم ما يُقال له. لو كان أي شخص آخر محله لأجاب سريعاً قائلاً إن ونستون قد خان جوليا بالفعل. وذلك لأنه لم يبق شيء لم يتمكنوا من اعتصاره منه تحت التعذيب! لقد أخبرهم كل شيء يعرفه عنها، وعن عاداتها، وشخصيتها، وحياتها السابقة. اعترف لهم بأكثر التفاصيل هامشية، وبكل

شيء حدث في لقاءاتهما. اعترف بكل ما قاله لها وبكل ما قالته له، وبوجباتهما الآتية من السوق السوداء، وبزِناهما، وبتآمرهما الغامض ضد الحزب... كل شيء! لكنه لم يخنها... بالمعنى الذي قصده بهذه الكلمة. لم يكفّ عن حبها. لقد ظلت مشاعره نحوها على حالها. وقد فهم أوبراين ما قصده من غير حاجة إلى شرح.

قال: «قل لي... متى سوف يطلقون النار علي؟»

قال أوبراين: «قد يمر وقت طويل. أنت حالة صعبة. لكن، لا تتخلّ عن الأمل. الجميع يشفى، عاجلاً أو آجلاً. وسوف نطلق النار عليك في آخر المطاف».

4

صار ونستون أحسن حالاً بكثير. كان يزداد وزناً وقوّة كل يوم... إن جاز الكلام عن الأيام!

ظل الضوء الأبيض وصوت الطنين على حالها؛ لكن الزنزانة كانت أكثر راحة بقليل من الزنزانات الأخرى التي مكث فيها. كانت لديه وسادة وفراش على السرير الخشبي. ولديه كرسيّ يجلس عليه أيضاً. وقد سمحوا له بالاستحمام، وتركوه يغسل نفسه مرات كثيرة في الحوض المعدني. بل أعطوه أيضاً ماء ساخناً للاغتسال. وأعطوه ملابس داخلية جديدة، وأوفرولاً نظيفاً. ووضعوا مَرْهَماً مهدئاً على قرحة الدوالي في ساقه. انتزعوا ما بقي من أسنانه ووضعوا مكانها طقم أسنان جديدة.

لا بد أن شهوراً، أو أسابيع، قد انقضت. ولعل حساب مرور الزمن قد صار ممكناً الآن، إلا أنه ما كان يشعر بأدنى رغبة في ذلك. لكنهم كانوا يطعمونه على ما بدا أنه فترات منتظمة. كان يحصل على ثلاث وجبات كل أربع وعشرين ساعة، بحسب تقديره. وكان يتساءل على نحو غير واضح أحياناً ما إذا كان يحصل على هذه الوجبات في الليل أو في النهار. كان الطعام جيداً إلى حد مفاجئ. وكان اللحم موجوداً في كل وجبة من الوجبات الثلاث. بل إنهم أعطوه علبة سجائر ذات مرة! وما كان لديه أعواد ثقاب. لكن الحارس الذي لم يكن يتكلم أبداً... الحارس الذي يجلب له الطعام... كان يشعل له السيجارة. أحس بالغثيان عندما دخَّن أول مرة. لكنه ثابر على التدخين واستطاع إدامة علبة السجائر زمناً طويلاً فقد كان يدخِّن نصف سيجارة بعد كل وجبة. أعطوه لوحاً أبيض مع عقب قلم رصاص مربوطاً إلى زاويته. لم يستخدم هذا اللوح في البداية فقد كان في حالة سبات تام حتى عند استيقاظه. وكان يستلقي غالباً في الفترة الممتدة بين الوجبة والوجبة التالية من غير حركة تقريباً، نائماً أحياناً، مستيقظاً أحياناً، لكنه غارق في أحلام يقظة غامضة كان صعباً عليه كثيراً أن يفتح عينيه خلالها. لقد اعتاد منذ زمن بعيد أن ينام تحت الضوء

القوي المسلط على وجهه. وبدا أن ذلك لا أهمية له بل إنه يجعل أحلام المرء أكثر انسجاماً. كان يحلم كثيراً. وكانت أحلامه سعيدة دائماً. كان يرى نفسه في «الريف الذهبي»، أو جالساً بين خرائب ضخمة مجيدة يغمرها ضياء الشمس ومعه أمّه وجوليا وأوبراين... ما كانوا يفعلون شيئاً... يجلسون في الشمس فحسب ويتكلمون في أمور عادية. وكانت أفكاره خلال يقظته تدور، في أكثرها، حول هذه الأحلام أيضاً. بدا أنه قد فقد القدرة على بذل أي مجهود عقلي الآن بعد أن زال عنه الألم الذي كان يشكّل حافزاً يدفعه إلى التفكير. لم يكن ضَجِراً! ولم تكن لديه رغبة في الكلام أو في التسلية. كان مجرد بقائه وحيداً، وعدم تعرضه للضرب أو الاستجواب، ونيله كفايته من الطعام، وكونه نظيفاً، شيئاً مرضياً له على نحو تام.

وعلى نحو متدرِّج، صار يُمضي وقتاً أقل في النوم، لكنه لم يكن يشعر بأي دافع للنهوض من السرير. كان كل ما يهمه هو أن يستلقي هادئاً وأن يشعر بالقوة تتجمع في جسده. كان يجسّ نفسه بأصابعه، هنا وهناك، محاولاً التثبت من أن عضلاته تكتسب امتلاء واستدارة، وأن جلده يصبح مشدوداً، وأن هذا ليس أمراً يتوهّمه. وأخيراً، تأكد من غير أي شك من أن جسده يغدو أكثر سمنة وأن فخذيه صارا الآن أثخن من ركبتيه. ثم بدأ يمارس بعض التمرينات الرياضية المنتظمة، متردداً أول الأمر. وبعد فترة قصيرة، صار قادراً على السير ثلاثة كيلومترات ذاهباً وإياباً في زنزانته؛ وصارت كتفاه المنحنيتين أكثر استقامة. حاول القيام بتمرينات أكثر صعوبة فأحسّ بالصدمة والمذلّة عندما وجد نفسه عاجزاً عن أشياء كثيرة ما كان قادراً على فعلها. لم يكن قادراً إلا على المشي! لم يستطع حمل كرسيّه بذراعين ممدودتين إلى الأمام. ولم يستطع الوقوف على ساق واحدة من غير أن يقع. جلس القرفصاء على عقبَيْ قدميه فأحسّ ألماً شديداً في فخذَيْه وربلتَيْ ساقيه إلى حد كاد يجعله غير قادرٍ على الوقوف. انبطح على بطنه وحاول رفع ثقل جسده على كفّيْه. كان هذا مستحيلاً! لم يستطع رفع نفسه سنتيمتراً واحداً! لكنه استطاع تحقيق ذلك الإنجاز بعد أيام معدودة... أو بعد عدد من الوجبات. ثم جاء وقت استطاع فيه تنفيذ ذلك التمرين ست مرات متتالية. راح ينشأ لديه زَهْوٌ بجسده؛ وصار يفكر

من وقت لآخر في أن وجهه كان يعود إلى طبيعته أيضاً. ولم يكن يتذكّر ذلك الوجه المتغضّن المتهدّل الذي رآه في المرآة إلا عندما يضع يده على جمجمته الصلعاء.

صار عقله أكثر نشاطاً. وكان يجلس على سريره الخشب مستنداً بظهره إلى الجدار واضعاً اللوح على ركبتيه. لقد انكبّ من جديد على مهمة إعادة تثقيف نفسه.

كان من المسلَّم به أنه قد استسلم! والحقيقة، مثلما صار يرى الآن، هي أنه كان جاهزاً للاستسلام قبل زمن طويل من اتخاذه ذلك القرار. فمنذ أن صار في وزارة الحب... بل، نعم...، بل حتى خلال تلك الدقائق عندما وقف عاجزاً، مع جوليا، حين كان الصوت المعدني الآتي من الشاشة يملي عليهما ما يفعلانه... كان قد استوعب طيش وعبثية محاولة الوقوف في وجه الحزب. صار يعرف الآن أن شرطة الفكر كانت تراقبه طيلة سبع سنوات مثلما يراقب المرء حشرة تحت عدسة مكبرة. لم يغفلوا عن فعل من أفعاله، ولا عن كلمة قالها؛ ولم يعجزوا عن استنتاج ما مرّ في ذهنه من أفكار. بل حرصوا أيضاً على إعادة تلك الذرّة البيضاء من الغبار التي وضعها على غلاف دفتر مذكراته. لقد أسمعوه تسجيلات بصوته، وجعلوه يرى صوره. كان بعضها صوراً له مع جوليا، نعم... حتى ذلك! لم يكن قادراً على النضال ضد الحزب بعد ذلك. ثم إن الحزب كان محقّاً! لا بد أن يكون الأمر هكذا، فكيف يمكن لعقل جمعيّ خالد أن يكون مخطئاً؟ وبأي مقياس خارجي يمكن للمرء أن يتحقق من أحكامه؟ إن سلامة العقل مسألة إحصائية. ويقتصر الأمر كله على تعلم كيفية التفكير مثلما يفكرون. فقط!

أحس بالقلم غريباً ثخيناً بين أصابعه. راح يدوِّن الأفكار التي تتوارد إلى رأسه. كتب أولاً بحروف كبيرة خرقاء:

الحرية هي العبودية

ثم، ومن غير توقف تقريباً، كتب تحتها:

اثنان واثنان يساوي خمسة

لكن لحظة من التردّد أتت بعد ذلك. بدا عقله غير قادر على التركيز... كأنه

أجفل من شيء ما. أدرك أنه يعرف ما يأتي بعد ذلك. لكنه عجز عن تذكّره في تلك اللحظة. وعندما تذكرَه، كان ذلك بمناقشة منطقية واعية لما يجب أن يكون ذلك الشيء. لم يأت من تلقاء نفسه! كتب ونستون:

الله هو السلطة

لقد قَبِل كل شيء! الماضي قابل للتغيير. والماضي لم يخضع لتغيير أبداً. أوقيانيا في حرب مع أوراسيا. لقد كانت أوقيانيا في حرب مع أوراسيا على الدوام. وكان جونز وآرنسون ورازرفورد مذنبين بالجرائم التي حُكم عليهم بسببها. وهو لم يَر أبداً تلك الصورة التي تبرّئهم. لم توجد تلك الصورة قط؛ هو الذي اخترعها! تذكر أنه يتذكر أشياء تخالف ذلك؛ لكن تلك الأشياء كانت ذكريات زائفة، نتاجاً لخداع الذات! كم كان هذا كله سهلاً! استسلِم فقط، وسيأتي كل شيء بعد ذلك من تلقاء ذاته. كان الأمر يشبه السباحة عكس تيار يجرف المرء إلى الخلف مهما حاول التقدم. ثم يقرر ذلك السابح فجأة أن يستدير فيسير مع التيار بدلاً من مواجهته. ما تغيّر شيء إلا موقف المرء نفسه: كان ما هو مقرَّر سلفاً يحدث على أي حال! صار لا يكاد يعرف السبب الذي حمله على التمرد أصلاً. كان كل شيء سهلاً، إلا!

إن أي شيء يمكن أن يكون صحيحاً. ما يُدعى قوانين الطبيعة يمكن أن يكون كلاماً فارغاً! قانون الجاذبية كلام فارغ أيضاً! لقد قال له أوبراين: «لو أردت، لاستطعت أن أجعل أرض الغرفة هذه تطفو مثل فقاعة صابون». فكر ونستون في الأمر... «إذا فكر أوبراين في أن يجعل أرض الغرفة تطفو، وإذا فكرت أنا على نحو متزامن في أنني أراه يفعل ذلك، فإن الأمر يحدث فعلاً». وعلى نحو مفاجئ، مثلما يظهر جزء من حطام سفينة غارقة فيشقّ سطح الماء، انبجست فكرة في رأسه: «الأمر لا يحدث حقاً! إننا نتخيله. هذه هلوسة». دفع الفكرة تحت السطح على الفور. كانت المغالطة واضحة! فهي تفترض أن ثمة شيئاً، في مكانٍ ما، خارج ذات المرء، هو العالم «الحقيقي» حيث تحدث أشياء «حقيقية». لكن، كيف يمكن أن يوجد هذا العالم؟ وما المعرفة الموجودة لدينا عن أي شيء إلا تلك الأمور التي تأتي

عبر أذهاننا نحن؟ إن ما يحدث يحدث في الذهن. وكل ما يحدث في الأذهان كلها، هو ما يحدث حقاً.

لم يجد صعوبة في التخلص من تلك المغالَطة. وما كان معرضاً أبداً لخطر الوقوع فيها. لكنه أدرك أيضاً أن تلك الفكرة لم يكن ينبغي أن تأتي إلى ذهنه. على العقل أن ينشئ بقعة عمياء كلما ظهرت له فكرة خطيرة. ويجب أن تكون تلك العملية تلقائية، غريزية! إنها «وقفجريمة»، هكذا يدعونها في اللغة الجديدة.

عكف على تدريب نفسه على وقفجريمة. وراح يطرح مقولات على نفسه... «يقول الحزب إن الأرض مسطحة»، و«يقول الحزب إن الجليد أثقل من الماء»... وبدأ يدرِّب نفسه على عدم رؤية الحجج التي تخالف هذه المقولات، أو على عدم فهمها. لم يكن الأمر سهلاً! إنه يقتضي قدرة كبيرة على المحاججة والارتجال. ثم إن المشكلات الحسابية الناشئة، مثلاً، عن عبارة مثل «اثنان واثنان يساوي خمسة» تتجاوز قدراته الذهنية. إن الأمر في حاجة أيضاً إلى قَدْر من المرونة الرياضية في العقل... قدرة على الاستخدام الدقيق للمنطق في لحظة ما، ثم الغفلة عن أكثر الأغلاط المنطقية فظاظة في اللحظة التي تليها. كان الغباء ضرورياً مثله مثل الذكاء؛ واكتسابه صعب مثله أيضاً.

طيلة ذلك الوقت، كان جزء من عقله يتساءل عن مدى قرب لحظة إطلاق النار عليه. كان أوبراين قد قال له: «كل شيء معتمد عليك أنت». لكنه كان يعرف أن ما من فعل واعٍ يستطيع القيام به لتقريب تلك اللحظة. قد تأتي بعد عشر دقائق من الآن، أو بعد عشر سنوات! وقد يُبقونه سنوات في الحبس الانفرادي، كما قد يرسلونه إلى معسكر العمل أيضاً. وقد يطلقون سراحه فترة من الزمن مثلما يفعلون أحياناً. ومن الممكن تماماً أن تتكرّر من جديد، قبل إطلاق النار عليه، مأساة اعتقاله واستجوابه كلّها. كان الأمر اليقيني الوحيد هو أن الموت لا يأتي في لحظة متوقَّعة أبداً. كان التقليد يقضي، التقليد الذي لا يتحدث عنه أحد... التقليد الذي يعرفه المرء على نحو ما، رغم أنه لم يسمع شيئاً عنه أبداً... هو أنهم يطلقون النار على المرء

من الخلف... في مؤخرة الرأس دائماً، ومن غير إنذار، عندما يكون المرء ماشياً في الممر من زنزانة إلى أخرى.

ذات يوم... لكن «ذات يوم» ليس بالتعبير الصحيح لأن الأمر يمكن أن يكون قد حدث في منتصف الليل: ذات مرّة... مرّ به حلم غريب هانئ. كان سائراً في الممر، منتظراً الرصاصة. كان يعرف أنها ستأتي بعد لحظة. كان كل شيء قد استقر، ورُتِّب وسُوّي ولم يبق شك، ولا مناقشات، ولا ألم، ولا خوف. كان جسده قوياً معافى. وكان المشي سهلاً عليه... سار مسروراً لخفة حركته، شاعراً كأنه سائر في ضياء الشمس. لم يكن سائراً في تلك الممرات البيض الضيقة في وزارة الحب... كان في ممر شديد الاتساع يغمره ضياء الشمس، ممر يبلغ عرضه كيلومتراً... كان سائراً فيه كأنه في نشوة المخدرات. كان في الريف الذهبي سائراً على ذلك الدرب الذي رسمته الخُطى عبر مرج قضمته الأرانب. كان يحس بالعشب الربيعي القصير تحت قدميه، وبأشعة الشمس اللطيفة على وجهه. وعند نهاية الحقل كانت أشجار الدردار... تتحرّك حركة واهنة... وفي مكان ما خلفها، كان جدول فيه أسماء مستلقية في برك خضر تحت أغصان الصفصاف.

أجفل فجأة وقد جاءته صدمة ذعر. تفصّد العرق على امتداد عموده الفقري. سمع نفسه يصيح بصوت مرتفع:

«جوليا! جوليا! جوليا، يا حبيبتي! جوليا!».

مرت لحظة طغت عليه خلالها هلوسة جعلته يراها موجودة. لم تكن تبدو موجودة معه فحسب، بل في داخله! كأنها دخلت في نسيج جلده. أحبها في تلك اللحظة أكثر بكثير مما أحبها في أي وقت مضى... عندما كانا طليقين معاً. كان يعرف أيضاً أنها لا تزال حية في مكان ما، وأنها في حاجة إلى عون.

استلقى على سريره محاولاً جمع شتات نفسه. ماذا فعل؟ كم سنة أضاف إلى مدة حبسه نتيجة لحظة الضعف هذه؟

سوف يسمع بعد لحظة واحدة وقع الأحذية في الخارج. إنهم لا يستطيعون ترك هذه الفورة من غير عقاب. سوف يعرفون الآن، إن لم يكونوا عارفين من قبل، أنه

يخرق الاتفاق الذي أبرمه معهم. لقد صار يطيع الحزب، لكنه لا يزال يكرهه. كان في سالف الأيام يخفي ذهناً هرطوقياً تحت مظهر الالتزام والخضوع. وأما الآن فقد تراجع خطوة إلى الخلف: استسلم في عقله، لكنه ظل على أمل المحافظة على قلبه غير منتهَك في داخله. كان يعرف أنه مخطئ، لكنه أراد أن يكون مخطئاً. سوف يفهمون ذلك ـ سوف يفهمه أوبراين! لقد اعترف بذلك كله عبر صيحته الحمقاء تلك.

عليه أن يبدأ الأمر من جديد. وقد يستغرق ذلك سنوات! مسح بيده على وجهه محاولاً جعل نفسه يألَف الشكل الجديد. كانت في وجنتيه تجاعيد عميقة. أحس بأن عظمي وجنتيه صارا نائتين حادين، وأما أنفه فصار مسطحاً. ثم إنه قد صارت لديه مجموعة أسنان جديدة كاملة بعد آخر مرة رأى نفسه في المرآة. ليس سهلاً أن يخفي المرء ما في قلبه عندما لا يعرف كيف هو شكل وجهه. لكن السيطرة على تعابير الوجه ليست كافية وحدها على أي حال! أدرك الآن، للمرة الأولى، أنه إذا أراد الاحتفاظ بسر فعليه أن يخفيه عن نفسه أيضاً. يجب أن تعرف دائماً أنه موجود هناك، لكن عليك ألا تسمح له بالظهور في ساحة وعيك على أي صورة يمكن إعطاؤها اسماً، إلى أن تكون هنالك حاجة إلى ذلك. ومن الآن فصاعداً، ليس مطلوباً منه أن يفكر على نحوٍ صحيح فحسب، بل عليه أن يشعر على نحو صحيح وأن يحلم على نحو صحيح! وعليه أن يحتفظ، طيلة الوقت، بكرهه حبيساً داخله كأنه كرة من مادة هي جزء منه لكنها غير متصلة ببقيته... كأنها كيس أو جيب مستقل.

سوف يقرّرون إطلاق النار عليه ذات يوم. وليس للمرء أن يستطيع معرفة موعد حدوث ذلك. لكن تخمين الأمر قبل ثوانٍ قليلة يجب أن يكون ممكناً. إنهم يطلقون النار من الخلف دائماً، أثناء السير في الممر. عشر ثوان ستكون كافية. وخلال ذلك الزمن، يمكن للكلمة الخبيثة أن تظهر. وعندها، على نحو مفاجئ، ومن غير قول أي كلمة، ومن غير أي تغيّر في الخطوة، ومن غير تغيّر في أي خط من خطوط وجهه... فجأة... سوف يسقط التمويه وتظهر المفاجأة! عندها سوف تنطلق شحنة كرهه. وسوف يملأه الكره مثل لهيب هادر جبار. وسوف يطلقون النار في اللحظة عينها تقريباً! عندها، سوف تنطلق الرصاصة، وسوف تكون متأخرة جداً، أو مبكرة جداً. سوف يفتتون دماغه نتفاً قبل أن يتمكنوا من

استدراك الأمر. وسوف تظل الفكرة الهرطوقية المتمرّدة من غير عقاب، ومن غير توبة، خارج متناولهم إلى الأبد. وبذلك سوف يحفرون ثغرة في كمالهم هم. أن يموت المرء كارهاً إياهم... تلك هي الحرية!

أغمض عينيه. كان هذا أكثر صعوبة من تقبّل أي انضباط عقلي. كان أمراً متعلقاً بالحَطّ من شأن نفسه، بتشويه نفسه. عليه أن يغطس في أقذر القذارات. وما الذي كان أكثر الأشياء قرفاً ورعباً؟ لقد فكر في الأخ الأكبر. بدا ذلك الوجه الضخم (كان يعتقد دائماً أن عرضه يبلغ متراً لأنه كان يراه على هذا النحو في الملصقات) بشاربه الأسود الكثيف وعينيه اللتين تلاحقانك كيفما ذهبت، كأنه يعوم في دماغه من تلقاء نفسه. ما هي مشاعره الحقيقية تجاه الأخ الأكبر؟

سمع صوت أحذية ثقيلة في الممر. انفتح الباب الفولاذي محدِثاً صرياً قوياً. دخل أوبراين الزنزانة. ومن خلف ظهر الضابط ذي الوجه الشمعي والحارسَين ذوي الملابس السود.

قال أوبراين: «انهض. تعال إلى هنا».

وقف ونستون قبالته. أمسك أوبراين بكتفيه بيديه القويتين ونظر إليه عن كثب.

قال: «أنت تعتزم خداعي. هذه حماقة. قف منتصباً. وانظر في وجهي».

توقف لحظة ثم تابع يقول بنبرة أكثر لطفاً:

«أنت تتحسّن. لم يعد فيك إلا خلل بسيط جداً من الناحية العقلية. لكنك فشلت في تحقيق تقدم من الناحية العاطفية. قل لي يا ونستون... وتذكّر، من غير كذب: تعرف أنني قادر على اكتشاف الكذب دائماً... قل لي، ما هي مشاعرك الحقيقية تجاه الأخ الأكبر؟».

«أكرهه».

«أنت تكرهه! جيد. إذاً، فقد حان وقت قيامك بالخطوة الأخيرة. عليك أن تحب الأخ الأكبر. ليس كافياً أن تطيعه: عليك أن تحبه».

ترك كتفيّ ونستون دافعاً إياه دفعة خفيفة صوب الحارسين.

قال: «الغرفة 101».

5

خلال كل مرحلة من مراحل حبسه، كان ونستون عارفاً، أو بدا له أنه كان عارفاً، مكان وجوده في ذلك المبنى عديم النوافذ. لعل ثمة تغيرات طفيفة في الضغط الجوي! كانت الزنزانات التي ضربه الحراس فيها تحت مستوى الأرض. وكانت الغرفة التي استجوبه أوبراين فيها مرتفعة، قريبة من سطح المبنى. أما هذا المكان، فكان تحت الأرض أمتاراً كثيرة، أعمق ما يمكن الوصول إليه.

كانت الزنزانة أكبر من معظم الزنزانات التي مرّ عليها. لكنه لم يلاحظ ما يحيط به تقريباً. كان كل ما لاحظه هو وجود طاولتين صغيرتين أمامه مباشرة. وكانت كل واحدة منهما مغطاة بقماش أخضر. كانت إحداهما على مسافة متر أو مترين منه، أما الأخرى فكانت أبعد منها... قرب الباب. كان جالساً مقيَّداً إلى الكرسي على نحو شديد جعله غير قادر على أي حركة، بل لم يكن قادراً حتى على تحريك رأسه. وكانت حِجْنية من نوع ما ممسكة برأسه من الخلف مجبرة إياه على النظر أمامه مباشرة.

كان وحيداً لحظة من الزمن، ثم انفتح الباب ودخل أوبراين.

قال أوبراين: «سألتني ذات مرة: ماذا في الغرفة 101. وقلت لك إنك تعرف الإجابة! الجميع يعرف الإجابة. الشيء الذي في الغرفة 101 هو أسوأ شيء في العالم».

انفتح الباب من جديد. دخل حارس حاملاً شيئاً مصنوعاً من الأسلاك، صندوقاً أو سَلّة من نوع ما! وضع الحارس السلة على الطاولة البعيدة. وبسبب مكان وقوف أوبراين، كان ونستون غير قادر على تبيّن طبيعة هذا الشيء.

قال أوبراين: «إن أسوأ شيء في العالم مختلف من شخص إلى آخر. قد يكون الدفن على قيد الحياة، أو الموت في النار، أو الموت غرقاً، أو خنقاً، أو خمسين طريقة أخرى للموت. وثمة حالات يكون فيها ذلك الشيء شيئاً ثانوياً، بل ليس حتى قاتلاً».

كان أوبراين قد تحرّك جانباً بعض الشيء بحيث صار ونستون أكثر قدرة على رؤية الشيء الذي على الطاولة. كان قفصاً متطاولاً من الأسلاك له مقبض في أعلاه من أجل حمله. وكان مثبتاً على مقدمة القفص شيء يشبه قناع المبارزة، لكن تقعّر هذا القناع كان إلى جهة الخارج. ورغم أن المسافة كانت ثلاثة أمتار أو أربعة إلا أنه استطاع رؤية أن القفص كان مقسوماً على نحوٍ طولي إلى حجرتين اثنتين. وكان في كل من هاتين الحجرتين كائن ما. كانا جرذين!

قال أوبراين: «في حالتك أنت، فإن أسوأ شيء في العالم هو الجرذان».

كانت قد سَرَت في جسد ونستون رعشة منذرة، خوف لم يكن متأكداً من سببه، عندما لمح القفص أول مرة. لكن معنى ذلك الشيء الذي يشبه القناع عند مقدمة القفص صار مفهوماً على نحوٍ مفاجئ في هذه اللحظة. أحس أن أمعاءَه قد استحالت ماءً.

صاح بصوت مرتفع متكسّر: «أنت لا تستطيع فعل ذلك. لا تستطيع، لا تستطيع! هذا مستحيل».

قال أوبراين: «هل تتذكّر لحظة الذعر التي كانت تصيبك في أحلامك؟ كان ثمة جدار من الظلمة يقف منتصباً أمامك، وكان صوت يهدر مزمجراً في أذنيك. كان ثمة شيء مخيف إلى الناحية الأخرى من الجدار. وكنت تعرف أنك تعرف ما هو هذا الشيء، لكنك لم تكن تجرؤ على إخراج تلك المعرفة إلى العلن. كانت الجرذان على الناحية الأخرى من الجدار».

قال ونستون مجاهداً من أجل السيطرة على صوته: «أوبراين! أنت تعرف أن هذا ليس ضرورياً. فما الذي تريده مني؟». لم يُجِر أوبراين إجابة مباشرة. وعندما تكلم، جاء كلامه على طريقة المعلّم التي يستخدمها أحياناً. راح ينظر إلى البعيد مفكراً... كأنه يخاطب حشداً موجوداً في مكان ما خلف ونستون.

قال: «لا يكون الألم كافياً على الدوام في حد ذاته. ثمة حالات يستطيع فيها البشري احتمال الألم، حتى إلى نقطة الموت. لكن ثمة شيء، لدى كل شخص، لا سبيل إلى احتماله... شيء لا يمكن التفكير فيه. لا علاقة للشجاعة والجبن بهذا

الأمر. فليس من الجبن في شيء أن تمسك حبلاً عندما تسقط من مكان مرتفع. وإذا طفا المرء إلى السطح خارجاً من لجّة المياه، فليس من الجبن في شيء أن يملأ رئتيه بالهواء. إنها مجرد غريزة لا سبيل إلى إبطالها. الأمر هو نفسه بالنسبة لك حين يتعلّق الأمر بالجرذان. فهي شيء لا يمكن احتماله. إنها ذلك النوع من الضغط الذي لا تستطيع احتماله حتى إذا رغبت في ذلك. وسوف تفعل ما يُطلب منك».

«لكن ما هو ذلك الشيء. ما هو؟ كيف أستطيع أن أفعل شيئاً إن كنت لا أدري ما هو؟».

حمل أوبراين القفص ووضعه على الطاولة القريبة. وضعه على القماش الأخضر بِحِرص. صار ونستون قادراً على سماع خرير دمه في أذنيه. أحس أنه جالس في وحدة مطلقة. كان في وسط سهب خاوٍ عظيم، صحراء مسطّحة غارقة في ضياء الشمس، صحراء كانت الأصوات تأتيه فيها من مسافات نائية. لكن قفص الجرذان لم يكن يبعد عنه أكثر من مترين اثنين. كانا جرذين هائلين. وكانا في تلك السن التي يصبح عندها خطم الجرذ ضارياً رهيباً ويتحوّل لونه إلى البنّي بدلاً من الرمادي.

قال أوبراين... لا يزال مخاطباً جمهوره غير المرئي: «الجرذ حيوان لاحم مع أنه من القوارض. أنت تعرف هذا. ولا بد أنك سمعت عن الأشياء التي تحدث في الأحياء الفقيرة من هذه المدينة. ففي بعض الشوارع، لا تجرؤ امرأة على ترك صغيرها وحيداً في البيت، ولو لمدّة خمس دقائق. فمن المؤكد أن الجرذان سوف تهاجمه. وهي تلتهمه حتى العظام خلال وقت قصير. إنها تهاجم أيضاً الأشخاص المرضى أو المحتضرين. وهي تُظهِرُ ذكاء مدهشاً في قدرتها على معرفة متى يكون الإنسان عاجزاً عن الدفاع عن نفسه».

صدرت زعقات طويلة حادّة من القفص. أحس ونستون أنها آتية من مكان بعيد. كان الجرذان يتقاتلان ويحاول كل منهما الوصول إلى الآخر عبر الحاجز المشبّك. سمع أيضاً زفرة يأس عميقة. وبدت له تلك الزفرة آتية من مكان خارج جسده أيضاً.

حمل أوبراين القفص. وبينما كان يرفعه، ضغط على شيء فيه. صدر صوت طقطقة حاد. بذل ونستون جهداً محموماً لتخليص نفسه من الكرسي. كان هذا من غير أمل، فكل جزء فيه، حتى رأسه، كان مثبتاً على نحو لا يسمح بأي حركة. قرّب أوبراين القفص منه. صار على مسافة أقل من متر من وجه ونستون.

قال أوبراين: «لقد ضغطت على العتلة الأولى! وأنت تفهم تركيبة هذا القفص. سوف يستقر القناع فوق وجهك فلا يترك منفذاً. وسوف ينفتح باب القفص عندما أضغط على العتلة الثانية. وسوف تنطلق هذه الضواري الصغيرة الجائعة خارجة منه مثلما تنطلق رصاصة. هل رأيت جرذاً يقفز في الهواء من قبل؟ سوف يقفزان إلى وجهك ويحفران فيه. تفضل الجرذان أن تهاجم العينين أولاً. لكنها تثقب الوجنتين في أحيان أخرى لكي تلتهم اللسان».

صار القفص أكثر قرباً. إنه يقترب أكثر فأكثر. سمع ونستون سلسلة صرخات حادة أحس أنها تحدث في الهواء فوق رأسه. لكنه كان يكافح ذعره كفاحاً عنيفاً. يجب أن يفكر، أن يفكر... حتى في جزء الثانية الباقي. التفكير هو أمله الوحيد. التقط منخراه فجأة رائحة الحيوانين العفنة الكريهة. وأحس بنوبة غثيان شديدة في داخله... كاد يفقد الوعي. صار كل شيء أسود اللون. وصار، في لحظة، حيواناً زاعقاً مجنوناً. لكنه خرج من تلك الظلمة قابضاً على فكرة. ثمة طريقة واحدة وحيدة لإنقاذ نفسه. عليه أن يضع شخصاً آخر محله... جسد شخص آخر محله... بينه وبين هذين الجرذين.

غدت طارة القناع الآن كبيرة إلى حد جعلها تحجب أي شيء آخر عن بصره. وصار الباب المشبّك على مسافة شبرين من وجهه. أدرك الجرذان ما سوف يحدث الآن. كان أحدهما يقفز صاعداً هابطاً. أما الآخر، الذي كان جرذ مجارير عجوزاً قذراً، فقد وقف واضعاً كفيه الوردتين على القضبان وراح يتشمّم الهواء بحركة عنيفة. صار ونستون قادراً على رؤية شعرات شاربه وأسنانه الصفر. استولى عليه الذعر الأسود من جديد. صار أعمى، عاجزاً، فاقد العقل والقدرة على التفكير.

قال أوبراين بصوته التعليمي المعهود: «كان هذا عقاباً شائعاً في الإمبراطورية الصينية».

كان القناع يقترب من وجهه. مسّ السلك المعدني وجنته. وعند ذلك... لا، ما كان هذا راحة، بل مجرد أمل، مجرد شذرة ضئيلة من أمل. لعله كان متأخراً، متأخراً جداً! لكنه أدرك فجأة أن في العالم كله شخصًا واحدًا يستطيع أن يحوّل هذه العقوبة إليه... جسد واحد يمكن أن ينتصب بيه وبين هذين الجرذين. راح يصرخ صراخاً محموماً، أعلى ثم أعلى:

«افْعلوا هذا بجوليا! افْعلوا هذا بجوليا! ليس بي أنا! بجوليا! لست أهتم بما تفعلونه بها. مزِّقوا وجهها... انزعوا لحمها عن عظامها. ليس أنا! جوليا! ليس أنا!». كان يسقط إلى الخلف، في أعماق سحيقة، بعيداً عن الجرذين! لا يزال مربوطاً إلى الكرسي، لكنه كان قد سقط عَبَرَ الأرض، عَبَرَ جدران المبنى، عَبَرَ الكرة الأرضية، عَبَرَ المحيطات، عَبَرَ الغلاف الجوي، فوصل إلى الفضاء الخارجي، إلى الفجوات بين النجوم... بعيداً دائماً، بعيداً عن الجرذين، بعيداً. كان على مسافة سنين ضوئية؛ لكن أوبراين كان لا يزال إلى جانبه. ولا يزال السلك المعدني البارد ملامِساً وجنته. لكنه سمع، عبر الظلمة التي اكتنفته، صوت طقطقة معدنية آخر، وفهم أن باب القفص قد أغلق ولم ينفتح!

6

كان مقهى شجرة الكستناء شبه فارغ. وكان شعاع من أشعّة الشمس يتسرّب عبر النافذة فيسقط على الطاولات المغبرة. كانت الساعة الثالثة بعد الظهر، ساعة الوحدة! وكانت موسيقى رخيصة تنبعث من الشاشات.

كان ونستون جالساً في زاويته المعتادة محدّقاً في كأس فارغة. وكان من حين لآخر يلقي نظرة على الوجه الكبير الناظر إليه من الجدار المقابل. تقول الكتابة تحت الوجه: الأخ الأكبر يراقبك. ومن غير أن يطلب أحد ذلك، كان النادل يأتي فيملأ الكأس بجن النصر ثم يُسقط فيها بضع قطرات من زجاجة أخرى لها مصبّ يخترق سدادتها. كانت نقاطاً من السكرين المنكّه بالقرنفل: تخصّص المقهى!

كان ونستون مصغياً إلى الشاشة. كانت تبث الموسيقى فقط في هذه اللحظة. لكنْ ثمة احتمالٌ لأن تذاع في أي لحظة نشرة خاصة صادرة عن وزارة السِّلم. كانت الأنباء القادمة من أفريقيا مقلقة جداً. ولم ينفكّ القلق بشأنها يهاجم ونستون طيلة النهار. كان الجيش الأوراسي (أوقيانيا في حرب مع أوراسيا: لقد كانت أوقيانيا دائماً في حالة حرب مع أوراسيا) يتحرّك جنوباً بسرعة مرعبة. لم تحدد نشرة الظهيرة أي منطقة بعينها. لكن من الممكن جداً أن يكون ميدان المعركة قد بلغ مصب نهر الكونغو. إن مدينتي برازافيل وليوبولدفيل في خطر. ليس على المرء أن ينظر إلى الخريطة حتى يعرف معنى هذا. لا يتعلّق الأمر بخسارة أفريقيا وحدها: للمرة الأولى خلال الحرب كلها، صارت أراضي أوقيانيا نفسها معرَّضة للخطر!

اجتاحته عاطفة عنيفة، ليست ذعراً على وجه التحديد بل كانت نوعاً من إثارة غير محدَّدة... ثم خَبَت من جديد. كفَّ عن التفكير في الحرب. ففي هذه الأيام، لم يكن قادراً على تركيز ذهنه ضمن موضوع واحد أكثر من لحظات قليلة في المرة الواحدة. رفع كأسه فتجرَّعها دفعة واحدة. ومثلما يحدث كل مرة، جعله الجن يرتعد... بل يكاد يتقيّأ أيضاً. كانت تلك المادة رهيبة! وأما القرنفل والسكّرين،

المقرفان هما أيضاً بطريقتهما اللزجة الخاصة، لم يقدرا على إخفاء الرائحة الزيتية البشعة. والأسوأ من هذا كله هو أن رائحة الجن، رغم ملازمتها له ليل نهار، كانت مختلطة اختلاطاً وثيقاً في ذهنه برائحة الـ...

لم يذكرهما بالاسم أبداً، حتى في ذهنه! بل إنه لم يكن ليتخيل شكلهما أيضاً.. قدر لم يكن ذلك ممكناً. كانا شيئاً مدرَكاً نصف إدراك بالنسبة له، وهما يحومان قريباً من وجهه... كأن رائحة علقت بمنخريه. صعد الجن في جوفه فتجشأ عبر شفتين قرمزيّتَين. كان قد سَمنَ بعد إطلاق سراحه واستعاد لونه القديم، بل كان ذلك أكثر من استعادة! لقد غلُظت ملامحه، واكتسب جلد وجنتيه وأنفه لوناً أحمر خشناً؛ بل إن لون فروة رأسه الصلعاء قد صار وردياً داكناً أيضاً. جاء نادل، من دون أن يطلبه، فجلب رقعة الشطرنج والعدد الأخير من صحيفة التايمز مفتوحاً على صفحة مسألة الشطرنج. وعندما رأى كأس ونستون فارغة جلب زجاجة الجن فملأها. لا حاجة إلى إصدار الأوامر، فهم يعرفون عاداته. كانت رقعة الشطرنج في انتظاره دائماً. وكانت طاولته في الزاوية محجوزة له دائماً. كانت الطاولة له وحده دائماً، حتى عندما يمتلئ المكان. وذلك لأن أحداً لم يكن يريد أن يُرى جالساً في مكان شديد القرب منه. ولم يكن ليعبأ أبداً بإحصاء الكؤوس التي يشربها. كانوا يقدّمون إليه، على فترات غير منتظمة، قصاصة ورق قذرة يقولون إنها فاتورة. لكنه كان يشعر دائماً بأنهم يتهاونون معه في السعر. على أن الأمر ما كان بذي أهمية لو كان عكس ذلك! لديه فائض من المال هذه الأيام. بل إن لديه أيضاً وظيفة شكلية أعلى أجراً من وظيفته القديمة.

توقفت الموسيقى الصادرة عن الشاشة فحل محلها صوت بشري. رفع ونستون رأسه وراح يصغي. لكن ذلك لم يكن نشرة أخبار عن الجبهة. كان مجرد إعلان وجيز صادر عن وزارة الوفرة. الظاهر أن إنتاج شرائط أربطة الأحذية في الربع الماضي من السنة قد تجاوز ما كان مقرراً في الخطة الثلاثية العاشرة بنسبة 78٪!

راح يمعن النظر في مسألة الشطرنج ويرتّب الأحجار على اللوحة. كانت نهاية خداعة قائمة على حركة فرسين: «يلعب الأبيض فيميت الملك الأسود في نقلتين».

رفع ونستون رأسه ناظراً إلى صورة الأخ الأكبر. ينتصر الأبيض دائماً... راح يفكر على نحو باطني غائم. إن الأمر مرتَّب هكذا دائماً، من غير استثناء! وما من مسألة شطرنج، منذ أن بدأ العالم، تنتهي بفوز الأسود! ألا يرمز هذا إلى الانتصار الأبدي الحتمي للخير على الشر؟ حدّق الوجه الضخم فيه مفعماً بسلطة هادئة. إن الأبيض رابح دائماً!

توقف الصوت الآتي من الشاشة لحظة ثم أضاف بنبرة مختلفة أكثر جدية: «لقد تم إبلاغكم بأن تنتظروا إعلاناً مهماً عند الثالثة والربع. عند الثالثة والربع! إنها أنباء في غاية الأهمية. احرصوا على عدم تفويتها. الثالثة والربع». عادت الموسيقى السخيفة من جديد.

وثب قلب ونستون. إنها أنباء من الجبهة. أنبأته غريزته أن أخباراً سيئة ستأتي. كانت فكرة هزيمة ساحقة في أفريقيا تخطر في باله ثم تختفي طيلة النهار مع دفقات صغيرة من الإثارة. أحس بأنه يرى فعلياً الجيش الأوراسي ينداح عبر الحدود التي لم تُخترق من قبل فيتّجه جنوباً صوب رأس أفريقيا مثل طابور من النمال. لماذا لا يكون تطويقهم على نحو ما أمراً ممكناً؟ تخيّل شكل ساحل أفريقيا الغربي على نحوٍ حي في ذهنه. التقط الحصان الأبيض فحرّكها على رقعة الشطرنج. إن ثمة نقطة صحيحة موجودة! وحتى عندما رأى الجحافل السود مندفعة جنوباً، كان يرى قوة أخرى تجمّعت على نحوٍ سرّي غامض فانبثقت فجأة في مؤخرة ذلك الجيش وقطعت اتصالاته البحرية والبرية. أحس بأنه قادر على جعل تلك القوة موجودة بقوة الإرادة. لكن التصرّف السريع كان ضرورياً. فإذا تمكنوا من السيطرة على أفريقيا كلها، وإذا كانت لديهم قواعد جوّية وغوّاصات في أقصى جنوب أفريقيا، فسوف يقطعون أوقيانيا إلى قسمين. وقد يعني هذا أي شيء: الهزيمة، والانهيار، وإعادة تقسيم العالم، وانهيار الحزب! استنشق نفساً عميقاً. كان هذا خليطاً عجيباً من المشاعر... لكنه لم يكن خليطاً على وجه التحديد، بل طبقات متعاقبة من المشاعر على نحو يجعل المرء غير قادر على تحديد الطبقة الأكثر عمقاً التي تصارع في داخله.

مرّت النوبة! أعاد االحصان الأبيض إلى مكانه، لكنه لم يكن يستطيع الانكباب

على دراسة جدية لمسألة الشطرنج في تلك اللحظة. راحت أفكاره تحوم من جديد. ومن غير وعي منه، راحت إصبعه ترسم على غبار الطاولة: 2 + 2 =

«لا يستطيعون الوصول إلى داخلك»، هكذا كانت جوليا قد قالت ذات مرة. لكنهم يستطيعون الوصول إلى داخلك! وقال أوبراين: «ما يحدث لك هنا شيء دائم». كان هذا كلاماً صحيحاً. ثمة أشياء، أفعالك أنت، لا تستطيع الشفاء منها أبداً! لقد قُتل شيء في صدرك: احترق، قتل كَيّاً.

لقد رآها؛ بل تحدث معها أيضاً. لم يكن في هذا أي خطر! لقد عرف، كما لو أن ذلك بفعل الغريزة، أنهم لن يهتموا تقريباً بأفعاله الآن. وقد كان قادراً على ترتيب لقاء ثانٍ بها لو كان أي منهما مهتماً بذلك! والواقع أنهما قد التقيا مصادفة. كان ذلك في الحديقة، في يوم قارس البرد من شهر آذار. كانت الأرض أشبه بالحديد، وبدا العشب ميتاً؛ ولم يكن المرء ليرى برعماً واحداً في أي مكان إلا بعض نبتات الزعفران التي شقّت طريقها صاعدة إلى الأعلى فمزّقتها الريح. كان ماضياً مسرعاً بيدين متجمّدتَين وعينين دامعتَين عندما رآها على مسافة عشرة أمتار منه. فاجأه على الفور أنها قد تغيّرت على نحوٍ غير مريح. كادا يمر أحدهما بالآخر من غير إشارة... ثم استدار فتبعها، لكن من غير حماسة كبيرة. كان يعرف أن ما من خطر في ذلك، وأن أحداً لن يهتم به. لم تتكلّم. سارت على نحو منحرف عبر العشب كأنها تحاول التملّص منه. ثم بدا له أنها قبلت وجوده إلى جانبها. صارا الآن وسط أجمة من شجيرات مهلهلة عديمة الأوراق... أجمة لم تكن مفيدة لا للاختفاء عن الأعين ولا للاحتماء من الريح. توقفا. كان البرد لئيماً. وكانت الريح تصفِّر من حول الأغصان الصغيرة وتعبث بنباتات الزعفران المتناثرة وسخة المظهر. لف ذراعه على خصرها.

ما من شاشة هنا! لكن لا بد من وجود مايكروفونات خبيئة... ثم إن رؤيتهما ممكنة هنا أيضاً! لكن هذا ما كان مهماً... لا شيء مهمّا! يستطيعان أن يستلقيا على الأرض... وأن يفعلا ذلك لو أرادا. تجمّد لحمه ذعراً عندما خطرت له هذه الفكرة. لم تبدِ جوليا أي استجابة، مهما تكن، إزاء ذراعه التي احتضنتها. بل لم تحاول حتى تحرير نفسها منها. أدرك الآن ما تغيّر فيها. كان وجهها أكثر شحوباً. وكانت ندبة

طويلة ظاهرة عبر جبينها وصدغها رغم أن الشعر كان يخفي جزءاً منها. لكن ذلك لم يكن هو التغيّر الذي أحسه. كان خصرها قد صار أكثر ثخانة؛ وتيبّس أيضاً على نحو مفاجئ. تذكّر كيف شارك مرة في سحب جثة من تحت الأنقاض بعد انفجار قذيفة صاروخية. وتذكّر كيف أصابته الدهشة لا بفعل وزن الجثة الذي لا يُصدَّق فحسب، بل بفعل تصلّبها وصعوبة التعامل معها إذ بدت أشبه بالحجر منها بلحم آدمي. أحس بأن جسد جوليا قد صار شبيهاً بذلك! وخطر له أن نسيج جلدها قد صار مختلفاً تماماً عما كان عليه ذات مرة.

لم يحاول تقبيلها؛ ولم يتكلّما. وعندما سارا عائدين عبر العشب، نظرت إليه نظرة مباشرة للمرة الأولى. كانت تلك التفاتة لحظية مِلْؤها المقت والازدراء. لم يعرف ونستون إن كان مقتها نتيجة الماضي أو نتيجة وجهه المنتفخ والدموع التي استمر تدفّقها من عينيه. جلسا على كرسيين حديديين، جنباً إلى جنب، لكن من غير قرب شديد بينهما. رأى أنها موشكة على الكلام. لكنها حرّكت حذاءها الفظ بضعة سنتيمترات فسحقت عسلوجاً على الأرض بحركة متعمَّدة. لاحظ ونستون أن قدميها تبدوان أعرض من ذي قبل.

قالت بصراحة مباشرة: «لقد خنتك».

قال: «لقد خنتكِ».

قذفته بنظرة مقت شديدة.

قالت: «إنهم يهددون أحياناً بشيء، بشيء لا تستطيع مواجهته... ولا تستطيع حتى أن تفكّر فيه. وعند ذلك تقول، «لا تفعلوا هذا بي، افعلوه بأحد غيري، افعلوه بفلان أو فلان». ولعلّك تتظاهر بعد ذلك بأن الأمر كان مجرّد خدعة قلتها لتجعلهم يكفوا عن ذلك لكنك لم تقصده حقاً. لكن هذا غير صحيح! عندما يحدث ذلك، فأنت تقصده. وأنت تعتقد أن ما من طريقة أخرى لإنقاذ نفسك، وتكون مستعداً تماماً لإنقاذ نفسك بتلك الطريقة. وتريد حقاً أن يحدث ذلك للشخص الآخر. وأنت لا تعبأ إطلاقاً بما يعانيه الآخر. إنك لا تهتم إلا بنفسك».

قال مردداً صدى كلماتها: «إنك لا تهتم إلا بنفسك».

«وبعد ذلك، لا تستطيع أن يكون لديك الشعور نفسه تجاه الشخص الآخر أبداً».

«لا! لا يكون لديك الشعور نفسه».

بدا أن ما من شيء آخر يمكن أن يقولاه. ألصقت الريح أوفروليهما الرَقيقين على جسديهما. وصار شبه محرج لهما أن يظلا جالسَين صامتَين... ثم إن البرد كان أشد من أن يسمح للمرء بالبقاء ساكناً. قالت شيئاً عن أنها تريد اللحاق بقطارها، ثم وقفت لتنصرف.

قال: «يجب أن أذهب أيضاً».

قالت: «نعم! يجب أن نلتقي ثانيةً».

تبعها مسافة صغيرة، متردداً، متأخّراً عنها نصف خطوة. لم يتحدّثا ثانية. لم تحاول فعلاً أن تجعله ينصرف عنها، لكنها مشت بتلك السرعة التي كأنها تريد أن تحول بها بينه وبين السير بمحاذاتها. كان قد قرّر مرافقتها حتى محطة القطار؛ لكن عملية اللحاق بها هذه بدت له على نحو مفاجئ عديمة المعنى، غير محتملة. غمرته رغبة، لا في الابتعاد عن جوليا تحديداً بل في العودة إلى مقهى شجرة الكستناء... المقهى الذي لم يبدُ له شديد الجاذبية في أي وقت مثلما بدا في تلك اللحظة. تصوّر بحنين طاولته في الزاوية، والجريدة، ورقعة الشطرنج، والجن الدافق. وسوف يكون المكان دافئاً فوق ذلك أيضاً! وفي اللحظة التالية، ليس بمحض الصدفة تماماً، سمح بأن تفصل بينهما مجموعة صغيرة من الأشخاص. ثم قام بمحاولة فاترة للّحاق بها، ثم أبطأ سيره، ثم استدار وانطلق في الاتجاه المعاكس. نظر خلفه بعد أن اجتاز خمسين متراً. لم يكن الشارع مزدحماً، لكنه لم يستطع تمييزها! يمكن أن تكون أي شخص من عشرة أشخاص رآهم في الشارع. ولعل جسدها الذي امتلأ وتيبّس لم يعد ممكناً تمييزه من الخلف.

لقد قالت له: «عندما يحدث ذلك، فإنك تعنيه». وقد عناه فعلاً. لم يقله لفظاً فحسب، بل تمنّاه! لقد تمنّى تقديمها هي، لا هو، إلى تلك...

تغيّر شيء في الموسيقى المنبعثة من الشاشة. صارت فيها نغمة متكسرة ساخرة، نغمة صفراء. وعند ذلك... لعل هذا لم يحدث فعلاً! لعله كان مجرد ذكرى اتخذت هيئة صوت... راح صوت يغني:

«تحت شجرة الكستناء الوارفة

بعتك وبعتني».

انبجست الدموع من عينيه. لاحظ نادل عابر أن كأسه فارغة فعاد بزجاجة الجن.

رفع كأسه وتشممها. كانت تلك المادة تغدو أكثر سوءاً، وليس أقل، مع كل جرعة. لكنها كانت قد صارت العنصر الذي يسبح فيه. كانت حياته، وموته، وبعثه. كان الجن هو ما يُغرقه في لُجّة السبات كل ليلة؛ وكان الجن هو ما يوقظه في الصباح التالي. وكلما استيقظ، نادراً ما كان يستيقظ قبل الحادية عشرة، عندما يستيقظ بعينين ملتصقتين وفم مشتعل وظهر شبه مكسور، كان من المستحيل عليه حتى أن يجلس في سريره لولا الزجاجة والفنجان الموجودَيْن إلى جانب السرير طيلة الليل. كان يجلس خلال ساعات النهار بوجه لامع، والزجاجة في متناوله، مصغياً إلى الشاشة. وكان شيئاً دائم الوجود في مقهى شجرة الكستناء من الثالثة بعد الظهر حتى ساعة إغلاقه. لم يعد أحد مهتماً بأفعاله! لم تعد صفّارة توقظه، ولا شاشة توبّخه. وكان يذهب أحياناً، لعلها مرتان في الأسبوع، إلى مكتب مغبر منسي في وزارة الحقيقة فيقوم بقدر يسير من العمل، أو بما كان يُدعى عملاً! كان قد عُيّن في لجنة فرعية منبثقة عن لجنة فرعية منبثقة عن واحدة من لجان لا حصر لها تهتم بالصعوبات الثانوية الناشئة خلال عملية تأليف الطبعة الحادية عشرة من قاموس اللغة الجديدة. كانوا منكبّين على إعداد شيء يُدعى باسم التقرير المرحلي؛ لكنه لم يتوصّل أبداً إلى تحديد واضح لموضوع هذا التقرير! لقد كان شيئاً على صلة بما إذا كان ينبغي وضع الفواصل داخل الأقواس، أو خارجها. كان في اللجنة أربعة أشخاص غيره، وكلهم أشخاص يشبهونه. كانت تمرّ عليهم أيام يجتمعون فيها ثم ينفرط اجتماعهم سريعاً إذ يعترف أحدهم للآخر صراحة بأن ما من شيء يمكن أن

يفعلوه حقاً. لكن، كانت تمر عليهم أيام أخرى ينكبّون فيها على عملهم على نحو شبه حماسي، ويقومون باستعراض ضخم يظهِرون فيه كيف يقومون بإدخال بعض التفاصيل الدقيقة وصوغ مذكرة طويلة لم يكن مقدَّراً لها أن تنتهي أبداً... وعندما يشتدّ النقاش حول ما كان يفترض أنهم يتناقشون فيه، وتظهر لديهم صعوبات، وتدور بينهم مساومات دقيقة على التعريفات، وعلى استطرادات كبيرة لا علاقة لها بالموضوع، ويتبادلون تهديدات حتى باللجوء إلى جهات عليا. ثم تخبو الحياة فيهم على نحو مفاجئ فيجلسون حول الطاولة ينظر أحدهم إلى الآخر بعينين مطفَأتَيْن مثل أشباح تضمحلّ عند بزوغ الفجر.

صمتت الشاشة لحظة فرفع ونستون رأسه. نشرة الأخبار! لكن لا، إنهم يغيّرون الموسيقى فحسب. كانت خريطة أفريقيا مرتسمة خلف جفنيه. وكانت حركة الجيوش مخططاً في رأسه: سهم أسود يشق طريقه شاقولياً صوب الجنوب، وخط أبيض ينطلق أفقياً صوب الشرق فيقطع السهم الأول عند ذيله. نظر إلى الوجه المنيع على الملصق كأنه يلتمس منه اطمئناناً. هل يعقل أن السهم الثاني لم يكن حتى موجوداً؟

اتّقد اهتمامه من جديد. تناول جرعة أخرى من الجن والتقط الحصان الأبيض وقام بنقلة متردّدة. شاه! لكن من الواضح أنها ليست النقلة الصحيحة، لأن...!

جاءت ذكرى إلى ذهنه من غير استدعاء. رأى غرفة تنيرها شمعة وفيها سرير بلحاف أبيض. رأى نفسه، صبياً في التاسعة أو العاشرة، جالساً على الأرض هازّاً علبة النرد، ضاحكاً متحمّساً. كانت أمه جالسة قبالته، ضاحكة أيضاً.

لا بد أن هذا حدث قبل شهر من اختفائها. كانت تلك لحظة مُصالَحة، لحظة يُنسى فيها الجوع المُمضّ في بطنه فيستيقظ حبه القديم لها استيقاظاً موقتاً. تذكر ذلك اليوم جيداً. كان يوماً ماطراً غارقاً في الماء. وكان الماء يجري على إطارات الشبابيك. وكان النور في الداخل خافتاً إلى حد يجعل القراءة غير ممكنة. صار ضجر الطفلين في الغرفة المظلمة المزدحمة غير محتمل. ناح ونستون وعوى، وطالب بالطعام، من غير طائل. وراح يجوس الغرفة جاذباً كل شيء من مكانه، رافساً القواطع الخشب

إلى أن راح الجيران يدقّون على الجدران، في حين كانت أخته الصغيرة تبكي بكاء متقطعاً. وفي النهاية، قالت أمه: «كن عاقلاً الآن. وسوف أشتري لك لعبة. لعبة جميلة... سوف تحبها». ثم خرجت تحت المطر إلى متجر صغير يبيع كل شيء... لا يزال يفتح أبوابه من حين لآخر في منطقة قريبة. عادت أمه حاملة علبة من الورق المقوّى فيها لعبة «السلّم والأفعى». يستطيع الآن أن يتذكّر رائحة الورق المقوّى الرطب. كانت لعبة بائسة الصنعة. كانت الرقعة مشققة، وكان النرد الخشب الصغير مقطوعاً على نحو سيئ جعله لا يكاد يستقر على أحد جوانبه. ألقى ونستون على ذلك الشيء نظرة عابسة من غير اهتمام. لكن أمه أشعلت شمعة ثم جلسا على الأرض ليلعبا معاً. وسرعان ما دبّت فيه إثارة شديدة وراح يصرخ ويضحك كلما واتاه الحظ فارتقى السلالم ثم هوى منزلقاً نازلاً على الأفاعي حتى يكاد يصل إلى نقطة البداية. لعبا ثماني جولات، وربح كل منهما أربعاً منها. وأما أخته الصغيرة، أصغر كثيراً من أن تفهم موضوع اللعبة، فقد جلست منتصبة مستندة إلى الوسادة، ضاحكة على ضحكهما. كانوا سعداء معاً جميعاً طيلة بعد الظهر، مثلما كانوا في طفولته الأولى.

دفع الصورة بعيداً عن ذهنه. لقد كانت ذاكرة زائفة! إن الذكريات الزائفة تزعجه من حين لآخر. ليس لها أهمية طالما أدرك حقيقتها. ثمة أشياء حدثت، وأخرى لم تحدث. استدار صوب رقعة الشطرنج فالتقط الحصان الأبيض من جديد. وفي اللحظة عينها تقريباً، سقط الحصان من يده على الرقعة مقرقعًا. أجفل كما لو أن دبّوساً وَخَزَه.

كان صوت بوقٍ حادٌ قد اخترق الهواء. إنها النشرة! النصر! كان صوت البوق قبل الأخبار إشارة تعني النصر دائماً. دبّ نشاط كهربائي في المقهى كله. حتى النُّدُل وقفوا في أماكنهم وشنّفوا آذانهم.

لقد أطلق صوت البوق قدراً هائلاً من الضجيج. وسرعان ما راح صوت مهتاج يلقي بالكلام من الشاشة؛ لكنه لم يكد يبدأ الكلام حتى غرق في موجة من التهليل والهتاف آتية من الخارج. كانت الأخبار قد سرت عبر الشوارع سريان

السحر. استطاع ونستون أن يسمع مما تقوله الشاشة ما يكفي لأن يدرك أن الأمر قد حدث كلّه حقاً، مثلما توقّعه: جيش ضخم محمول بحراً تجمّع سرّاً فسدّد ضربة مفاجئة إلى مؤخرة العدو... قطع السهم الأبيض ذيل السهم الأسود! شقّت نتف من عبارات الانتصار طريقها في هذه الضوضاء:

«مناورة استراتيجية هائلة... تنسيق ممتاز... هزيمة كاملة... نصف مليون أسير... انهيار تام... سيطرة على أفريقيا كلها... صارت الحرب على مسافة قابلة للقياس من النصر النهائي... أعظم نصر في تاريخ البشرية... النصر، النصر، النصر!».

تحرّكت قدما ونستون تحت الطاولة حركات عصبية متشنجة. لم يتحرّك من مكانه، لكن عقله كان يجري، يجري سريعاً، كان مع الحشود في الخارج، هاتفاً حتى الصّمَم! نظر من جديد إلى صورة الأخ الأكبر. الطَّوْد الذي علا فوق العالم كله! الصخرة التي تحطمت عليها الجحافل الآسيوية إذ رمت بنفسها عليها عبثاً. لقد كان يفكر قبل عشر دقائق فقط... نعم، قبل عشر دقائق فقط... كان لا يزال لديه قدر من الشك في قلبه فتساءل عما إذا كانت الأنباء القادمة من الجبهة ستكون أنباء نصر أو هزيمة. لقد هلك الآن ما هو أكثر من الجيش الأوراسي! تغيّر فيه الكثير منذ يومه الأول في وزارة الحب؛ لكن التغيّر الشافي النهائي، الذي لا غنى عنه، لم يحدث أبداً إلا في هذه اللحظة.

كان الصوت الآتي من الشاشة مسترسلاً في الكلام عن الأسرى والغنائم والمذابح، لكن الصّياح في الخارج خفّ قليلاً. وبدأ ندل المقهى يعودون إلى عملهم. اقترب واحد منهم حاملاً زجاجة الجن. كان ونستون غارقاً في حلم هانئ فلم يلقِ اهتماماً لكأسه التي امتلأت. لم يكن الآن جارياً ولا هاتفاً! كان قد عاد إلى وزارة الحب وقد غُفِر كل شيء، وعادت روحه بيضاء مثل الثلج. كان واقفاً في قفص الاتهام في محاكمة علنية، معترفاً بكل شيء، ومورِّطاً كل إنسان. كان ماشياً في الممر ذي البلاط الأبيض شاعراً أنه يمشي في ضياء الشمس، وإلى جانبه حارسٌ مسلّح. وكانت الرصاصة التي انتظرها طويلاً تخترق دماغه.

رفع رأسه فحدّق في الوجه الضخم. لقد احتاج أربعين عاماً حتى يفهم الابتسامة الخبيثة تحت الشارب الأسود. يا لسوء الفهم الفظّ الذي لا مبرّر له! يا للعناد، ويا للاغتراب المقصود عن ذلك الصدر المُحب! جرت على جانبَيْ أنفه دمعتان تفوحان بنكهة الجن. لكنه الآن بخير، كل شيء بخير، وقد انتهى الصراع! لقد انتصر على نفسه الآن.

إنه يحبّ الأخ الأكبر!

جورج أورويل

1984

تعتبر رواية 1984 إحدى كلاسيكيات الأدب في العالم، ولا تكاد تخلو لغة من أكثر من ترجمة لها، فقد قدّمت هذه الرواية صورة المجتمع الشمولي الذي يحكمه الحزب الواحد بطريقة مبدعة، على مستوى الأدب كما على مستوى الفكر.

الأخ الأكبر، دقيقتي الكراهية، أسبوع الكراهية، شرطة الفكر، التفكير المزدوج، رابطة الجواسيس، شعارات الحزب الثلاثة: الحرب هي السلم- الحريّة هي العبودية- الجهل هو القوّة... تلك هي مفردات هذا المجتمع الذي يُحكم بالقهر والتعذيب وتزوير الوقائع والتاريخ، ما يحوّل المجتمع الى قطيع يسوقه إلى الأعمال الشاقّة والحياة البائسة، والحروب والسجون، مجموعة من أعضاء الحزب الذين بدورهم يخضعون لرقابة تحصي عليهم أنفاسهم وتحوّلهم، باسم الدفاع عن الوطن وعن الحزب القائد، الى أشخاص يخضعون لتراتبية قائمة على الخوف. فحتى الأهل يخافون من أولادهم الذين تحوّلهم التربية التي يشرف عليها الحزب، إلى جواسيس. وأعضاء الحزب يتصرّفون بكل خضوع بعد أن عرفوا مصير كل متمرّد.

لكن في داخل آلة القمع الرهيبة هذه، تستمر التمرّدات. إنها التمرّدات التي تميّز الروح الانسانية التي ترى في الحريّة أسمى قِيَم الانسان. وترى أن الحب أجمل وأعظم من الكراهية، وأن فرادة الانسان هي ما يطلق فيه الابداع.

رواية تُقرأ مرة تلو مرّة لإبداعها الأدبي، وتصويرها القويّ لبشاعة المجتمع الذي يفتقد للحريّة.

ISBN 978-9938-886-55-9



